

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة السابعة عشر / العددان / ٥٥ - ٥٦ / آذار - حزيران / ١٩٩٦

للطلاب	للمؤسسات	للافراد	الاشتراكات
(١٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(٢٠٠) ل.س.	في القطر العربي السوري
	(٤٠) دولار امريكي	(٢٠) دولار امريكي	في الاقطار العربية
	(٦٠) دولار امريكي	(٣٠) دولار امريكي	في البلاد الاجنبية

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق.
المكاتيب: جامعة دمشق - هاتف / ٢١٢٤٤٦١ /

تصدرها وتشرف على تحريرها
لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول

أ.د. عبد الغني ماء البارد
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير

أ. محمد محفل

مدير التحرير

أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والإشراف:

د. عبد الغني ماء البارد	د. حامد خليل	د. سهيل زكار
د. عادل العوا	د. خيرية قاسمية	د. عيد مرعي
د. نور الدين حاطوم	د. طيب تيزيني	د. فيصل عبد الله
د. شاكر الفحام	د. سلطان محيسن	د. علي احمد
د. محمد خير فارس	أ. محمد محفل	د. ابراهيم زعرور
		أ. عبد الكريم علي
تصميم الغلاف د. بشينة ابو الفضل		

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص، وايضاح مآله الغموض، وتصحيح مآشوه وكشف الزيغ ان وقع، وكل مايمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترحا ورأي يساعد في مسيرتها، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

- أ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.
 - ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل.
 - ج - ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.
 - د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.
- وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة. ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ- في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى):

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين () ان كان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحت خط، عدد المجلدات أو الاجزاء، اسم المحقق ان وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب - في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملا، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملا، اسم المحرر او المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ج- في المجلات:

اسم الباحث كاملا، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحت خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.
ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

د - في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كاملا، عنوان المخطوط كاملا، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الاشارة الى وجهها (أ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ()، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة *. وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادر خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

- * ملاحظات عن الكتابة المسارية في إبلا ص ٧
د. عيد مرعي
- * دور مملكة كندة السياسي ص ١٧
في شمال الجزيرة العربية
(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)
د. محمود فرعون
- * الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة ص ٣٣
قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها
د. شكران خربوطلي
- * من تاريخ اللغة العربية ص ٥١
أدوات الكتابة والوراقة
د. مسعود بوبو
- * المظاهر السياسية والحضارية ص ٦٣
للدولة الرستمية في المغرب
د. صالح محمد فياض أبو دياك
- * التنظيم الإداري لديوان العرض (الجند) ص ١٠٦
في عهد الدولة الفزنوية
د. أحمد محمد الجوارنة
- * أثر تجارة المحاصيل الزراعية ص ١٤٢
على نشوء الطرق التجارية
في فور الأردن (درب القفول)
د. جمعة محمود كريم
- * الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر ص ١٧٨
العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي
د. أحمد برقايوي
- * قراءة في كتاب ص ٢٠٧
د. محمد محفل

ملاحظات عن الكتابة
المسمارية في إبلا

ملاحظات عن الكتابة المسمارية في إبلا

● د. عيد مرعي
قسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة دمشق

أدت الحفريات الأثرية الإيطالية في تل مردوخ، الواقع على بعد ٥٥ كم جنوب شرقي حلب ما بين عامي ١٩٧٤ — ١٩٧٦، إلى الكشف عن أرشيف ملكي ضخيم يتألف من أكثر من ستة عشر ألف رقيم وكسرة طينية، تؤرخ بالنصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، حيث قامت في شمال سورية آنذاك مملكة مزدهرة قوية هي مملكة إبلا Ebla، التي تعد أقدم مملكة عامرة عرفت في سورية. وبذلك تغيرت النظرة السابقة إلى سورية القديمة في الألف الثالث قبل الميلاد، القائلة أنها منطقة نزاع دائم بين ملوك بلاد الرافدين وفراعنة مصر القديمة؛ فقد تبين نتيجة دراسة الأرشيف الملكي أن إبلا كانت مملكة قوية، تمتد حدودها من الفرات في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب، ومن جبال طوروس في الشمال حتى سهول حمص في الجنوب. وقد تمتعت بقوة عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مكنتها من مد نفوذها إلى بعض المناطق المجاورة ومن إقامة علاقات سياسية واقتصادية متينة مع العديد من مدن بلاد الرافدين وممالكها. يضاف إلى ذلك أن إبلا كانت مركزاً حضارياً متقدماً له إنجازاته الحضارية المتميزة. فقد عرف الإبلويون أول قاموس لغوي في التاريخ، دونوا فيه الكلمة السومرية أولاً وتحتها معناها في اللغة الإبلوية. وأحياناً كانت تذكر تهجئة الكلمة السومرية (١). وقد ارتبط هذا المركز الحضاري المتقدم بعلاقات ثقافية وثيقة مع مناطق جنوبي بلاد الرافدين، حيث كانت تقوم هناك في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد حضارتان هما: الحضارة السومرية في بلاد سومر، والحضارة الكيشية (نسبة إلى مدينة كيش، حالياً: تل الأحيمر) في المنطقة الممتدة بين كيش وماري وماجاورهما.

وتجلت تلك العلاقات ما بين إبلا وكيش في قيام اتصالات ثقافية قوية، نجد أبرز مثال عنها زيارة أستاذ الرياضيات من كيش إلى إبلا (٢). أما العلاقات ما بين إبلا وبلاد سومر فتظهر بأوضح صورها في تبني الإبلويين نظام الكتابة المسمارية لتدوين وثائقهم وسجلاتهم.

من المعروف أن الكتابة المسماة ظهرت أول مظهرت في بلاد سومر ، في أقصى جنوب بلاد الرافدين، في أواخر الألف الرابع وبداية الألف الثالث قبل الميلاد. ويعزى ذلك الاختراع الهام في تاريخ البشرية إلى السومريين. وقد مرت الكتابة المسماة بمراحل تطور متعددة قبل أن تصل إلى الشكل المقطعي المعروف، وهذه المراحل هي (٣):

١- المرحلة التصويرية PICTOGRAPHY:

وهي أقدم مراحل الكتابة على الإطلاق، وفيها كان يتم التعبير عن الأشياء المراد التعبير عنها برسم صورها أو أجزاء منها. فصورة المحراث تعني محراثاً، وصورة السمكة تعني سمكة، وصورة السنبلة تعني شعيراً، ورأس الثور يعني ثوراً، ورأس الإنسان يعني إنساناً.

وتمثل أقدم شواهد هذه المرحلة في النصوص المكتشفة في أوروك - الطبقة - الرابعة ب Uruk IV B، والبالغ عددها أكثر من ألف لوح يرقى تاريخها إلى نحو ٣٣٠٠ ق.م. وهي في معظمها نصوص اقتصادية وإدارية قصيرة تتعلق بحساب واردة المعابد (٤)، لأن المعبد في سومر كان في تلك الفترة مركزاً للنشاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي بالإضافة إلى الديني. ومن شواهد هذه المرحلة في سورية لوحان صغيران من الطين غير المشوي اكتشفا في تل براك عام ١٩٨٤ (٥)، وبضعة ألواح في حوبة كبيرة (٦).

٢- المرحلة الرمزية IDIOGRAM/LOGOGRAM:

وقد تطورت الصورة فيها إلى رموز أو اشارات مسماة لاتعبر فقط عن المعاني الأصلية للصورة الأصلية المرسومة بل أيضاً عن أفكار ومعان لها علاقة بالمعنى الأصلي للشيء المرسوم. فالرمز الدال على الشمس لم يعد يعني الشمس فقط بل الضوء والنهار واليوم والحرارة، أي كل المعاني المرتبطة بالمعنى الأول. وللتعبير عن معانٍ جديدة صارت تدمج إشارتان أو أكثر للحصول على معنى جديد مثل:

فم + خبز = يأكل KA + NINDA = KU
رجل + كبير = ملك LU + GAL = LUGAL

٣- المرحلة المقطعية أو الصوتية PHONETICS

وفيها أخذ كل رمز صوتاً معيناً يتناسب واللغة المستخدمة بغض النظر عن مدلوله الصوري. وكان كل رمز يحمل عدة معان، ويمكن أن يؤلف كلمة أو جزءاً من كلمة بإضافته إلى رمز أو رموز أخرى. وقد عرفت هذه المرحلة من مجموعة نصوص اكتشفت في أور، ويرقى تاريخها إلى نحو ٢٨٠٠ ق.م.

لم ينحصر استخدام الكتابة المسهارية في بلاد الرافدين، بل شاع وانتشر في مختلف بقاع الشرق القديم بدءاً من الألف الثالث وحتى الألف الأول قبل الميلاد. ودونت بها لغات متعددة كالسومرية والإبلوية والأكدية والعيلامية والحثية والهورية والأورارتية. وقد استخدم سكان إيبلا في شمال سورية هذا النظام الكتابي في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، لكتابة لغتهم وتدوين وثائقهم بطريقة تشبه الطريقة المستخدمة في مدن جنوب بلاد الرافدين.

فنصوص إيبلا تظهر تشابهاً كبيراً من حيث الكتابة مع النصوص المكتشفة في موقعي (شوروباك القديمة) وأبو صلابيخ في جنوب بلاد الرافدين، وهما موقعان سومريان تظهر في نصوصهما المكتشفة تأثيرات كيشية واضحة. وقد دونت بالخط المسهاري بثلاثة أساليب هي (٧):

١- نصوص كتبت بإشارات مقطعية فقط، ويلاحظ ذلك بشكل أساسي في بعض التعاويذ والنصوص الدينية كما في النص التالي (٨):

du11 - ga	قرار
en	الملك
gis-ba-tuku	سمع
dKu-ra	الإله كورا
wa	و
(d) UTU	إله الشمس
gis-ba-tuku	سمع
wa	و
gis-ba-tuka	سمع
DA-DA	الإله هدد
WA	و
gis-ba-tuka	سمع
dingir-dingir	(كل) الآلهة

٢- نصوص كتبت بشكل رئيسي بإشارات مقطعية مع بعض الرموز (اللوغوغرامات واللغوغرام، LOGOGRAM إشارة مسهارية تمثل كلمة واحدة) مثل الرسائل والنصوص التاريخية والمعاهدات والنماذج المختلفة من المؤلفات الأدبية، ونورد فيما يلي كمثال على ذلك رسالة إركب دامو Irkab-Damu ملك إبلا إلى زيزي Zizi ملك خمازي، وهي منطقة تقع إلى الشرق من بلاد الرافدين، والمتعلقة بإقامة حلف بين المملكتين (٩).

الوجه الأمامي:

I	1)	en-ma	هكذا
	2)	i-bu-bu	إبو بو
	3)	agrig	ناظر
	4)	é	قصر
	5)	en	الملك
	6)	li-na	إلى
	7)	sukkal-dug-<si-mà>	الرسول (اسمع)
	8)	an-ta	أنت
	9)	ses	أخذ(ي)
	10)	u	و
II	1)	an-na	أنا
	2)	ses	أخذ(وك)
	3)	Iu-ses	(لك) رجل أخ
	4)	mi-nu-ma	ما
	5)	al-du l l-ga	ترغب
	6)	si	ويخرج
	7)	Ka	من فمك
	8)	an-NA	أنا
	9)	in-na-sum	أعطي
	10)	u	و
III	1)	an-TA	أنت

IV	2)	al-du11-ga	الرغبة
	3)	si	الخارجة (من فمي)
	4)	i-na sum	تعطي (تلي)
	5)	BAR-AN-SA6	جنوداً جيدين
	6)	hi-mu-tum	أرسل إلي، فأنا أصلي:
	7)	an-tà	أنت
	8)	ses	أخ (سي)
	9)	u	و
	10)	an-na	أنا
	11)	ses	أخ (وك)
	12)	10gis ÉS	عشر قطع أثاث خشبي
V	1)	2gis asud- gis ÉS	حليتان
	2)	i-bu-bu6	(أنا) إيوير
	3)	in-na-sum	أعطيتهم
	4)	sukkal-du8	إلى الرسول
	5)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	6)	EN	ملك
	7)	eb-laki	إيلا
	8)	ses	أخو
	9)	zi-zi	زيزي
	10)	en	ملك
	1)	en	خمازي
	2)	HA-MA-ZI-IM ^{Ki}	زيزي
VI	3)	zi-zi	ملك
	4)	en	
	5)	ha-ma-zi-imki	خمازي
	6)	ses	أخو
	7)	ir-kab-da-mu	إركب دامو
	8)	en	ملك
	1)	eb-laki	إيلا
	2)	u	و
	3)	en-ma	هكذا
	4)	ti-ra-il	تيرا—إل
	5)	dub-sar	الكاتب
	6)	(i)k-tub	كتب
I	7)	li-na	وإلى
	8)	sukkal-du8	رسول
	9)	(zizi)	زيزي
	1	i-na-sum	الوجه الخلفي: أعطي (الرسالة)

٣- نصوص كتبت بشكل رئيس بعلامات رمزية (لوغو غرامات) ووشيت بإشارات مقطعية مثل النصوص الإدارية. وقد استخدم اللوغو غرام بشكل رئيس للتعبير عن أعداد ومقاييس وبضائع مختلفة وتسميات خاصة بالممارسات الإدارية (دخول بضائع وخروجها واستلامها.. إلخ)

علماً أن معظم نصوص إبلا إدارية تتعلق بإدارة القصر الملكي. أما الاشارات المقطعية فقد استخدمت للتعبير عن أسماء أعلام وضباط وظروف وأدوات جر وبعض الأعداد (مئة، ألف، عشرة آلاف) وأسماء بضائع ليس لها مقابل لوغو غرامي في اللغة السومرية.

وقد قاد هذا الاستخدام المكثف للوغو غرامات في نصوص إبلا بعض الباحثين إلى الافتراض أن معظم نصوص إبلا كتبت باللغة السومرية وليس باللغة المحلية المعروفة حالياً بالإبلوية (١٠).

غير أن الدراسات اللاحقة والدقيقة لأرشيف إبلا، وبخاصة تلك التي قام بها عالم الدراسات الآشورية المعروف Gelb، أظهرت أن القسم الأعظم من نصوص إبلا كتبت باللغة الإبلوية وليس السومرية. ويقتصر ماكتب بالسومرية على المؤلفات الأدبية والنصوص المدرسية المستوردة من الخارج (١١).

من الجدير بالذكر أن الأساليب الثلاثة المذكورة لاستخدام الخط المساري في إبلا كانت معروفة في المصادر الرافدية العائدة إلى الألف الثالث قبل الميلاد. ويشبه توزيع اللوغو غرامات والمقاطع في نصوص إبلا الإدارية أو مطابق لمثله في النصوص الإدارية الرافدية من العصرين ما قبل الشاروكيني (٢٧٠٠-٢٣٥٠ ق.م) والشاروكيني (٢٣٥٠-٢٢٨٤ ق.م).

غير أن كتاب إبلا استخدموا هذه الأساليب لكتابة لغة إبلا ونصوصها بشكل مختلف تماماً عن استخدامها لكتابة أية لهجة أكادية أو لغة أخرى، وينطبق هذا الشكل بشكل خاص على المعاهدات والنصوص التاريخية التي أثارت قراءتها وترجمتها كثيراً من المشاكل والصعوبات.

ففي الرسالة من إركب دامو ملك إبلا إلى زيزي Zizi ملك خمازي، نقرأ مايلي:
أنت شيش وأنا شيش ومعناها الحرفي: أنت أخ وأنا أخ، غير أن ترجمة بيتيناتو، أنت أخ(سي) وأنا أخ(وك): صحيحة فهذا هو المعنى المقصود.
وتكتب كلمة أخ الواردة في هذه العبارة الأكادية القديمة:
«أخي وأخوك»، (أو ربما شيشي أو شيشخي، وشيشكا) (١٢).

هناك أيضاً صفة أخرى للكتابة المسارية التي استخدمت في إبلا لم تعرف خارجها في الفترات التاريخية الأولى وهي ربط الشكل السومري للفعل مع ضمير ملكية إبلوي كما في المثالين التاليين (١٣):

I.NA.SUM-kum: هو أعطى لك.

I.NA. SUM-sum: هو أعطى له.

فالفعل السومري إناسوم: أعطى اتصل به ضمير الملكية المتصل للمخاطب المفرد المذكور في حالة الجر في المثال الأول، وضمير الملكية المتصل للغائب المفرد المذكور في حالة الجر أيضاً في المثال الثاني.

نخلص مما سبق إلى القول أن سكان إبلا استخدموا الكتابة المسهارية بشكل يتناسب مع خصائص لغتهم وصفاتهم، كما هي الحال حالياً في استخدام الحروف العربية لكتابة اللغة الفارسية بشكل يلائم تلك اللغة، واستخدام الحروف اللاتينية لكتابة العديد من اللغات الأوروبية الحديثة بشكل يتناسب مع قواعد تلك اللغات وصفاتها.

الهوامش:

★ ألقى هذا البحث في الندوة الإقليمية الأولى عن الكتابات في بلاد الشام حتى ظهور الاسلام التي نظمتها جامعة اليرموك بالاردن ما بين ٢٥—٢٧ / ٤ / ١٩٩٤ .

١— Pettinato, G., the Archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City, New York 1981, P.235 ff

٢— Ibid., P.239.

٣— حول نشوء الكتابة المسهارية وتطورها أنظر: مرعي، عيد، الكتابة والتعليم في بلاد الرافدين، دراسات تاريخية ٤١—٤٢، ١٩٩٢، ص ٧ وما يليها.

٤— أنظر حول نصوص أوروك:

Falkenstein, A., Archaische Texte aus Uruk (Ausgrabungen der deutschen Forschungsgemeinschaft in Uruk-Warka, Band 2), Berlin 1936.

٥— Finkel, I. L., Inscription from tell Brak 1984, in: Iraq 47(1985), P.187.

٦— Strommenger, E., Habuba kabira, eine Stadt vor 5000 Jahren, Mainz am Rhein 1980, S.63 ff.

٧— Gelb, I. J. Ebla and the Kish Civilization, in: L. Cani (ed.) La lingua di EBLA NAPOLI, 1981, P.11 ff.

٨— Pettinato, G., The archives of Ebla, an empire inscribed in clay, Garden City, New York 1981, P.246 ff.

٩— ترجم بيتيناتو هذه الرسالة في كتابه:

The archives of Ebla, P. 97-98p Ebla Nuovi orizzonti della Storia, Milano, 1986; P. 397. 398.

Pettinato , G., Gli archivi Reali di Tell Mardikh-Ebla: Reflessioni—١٠
e prspettive, in: Rivista Biblica Italiana 25(1977), p. 238; Biggs, R, D ..
the Ebla Tablets, an Interim prespective, in Biblical archaeologist 43
(1980), P. 83.

-Gelb, op. cit., P.11,13ff;—١١

ibid, P. 17.—١٢

ibid, P. 18.—١٣

دور مملكة كندة السياسي
في شمال الجزيرة العربية
(في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

دور مملكة كندة السياسي في شمال الجزيرة العربية (في القرنين الخامس والسادس الميلاديين)

د. محمود فرعون
كلية الآداب - جامعة دمشق

شغلت قبائل كندة دوراً هاماً في تاريخ الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين بوصفها، دولة ذات شأن لها مصالحها الخاصة، سواء داخل الجزيرة أو على الحدود مع بيزنطة وفارس في الشمال. وأظهرت الاكتشافات التي تمت في وسط الجزيرة وجنوبها، المكانة الخاصة لعاصمة كندة القديمة ودورها على طريق التجارة بين جنوب الجزيرة والشمال الشرقي، وحظيت الكتابات والنقوش الجنوبية التي اكتشفت في قرية «الفاو» بأهمية بالغة، فقد أفادتنا في التعريف على إسم عاصمة دولة «كندة» وأن اسمها «قرية» ووصفتها بأنها «ذات كهل» نسبة لمعبودها. وعن طريقها تعرفنا أيضاً لأول مرة في التاريخ العربي على عاصمة هذه الدولة التي لم تشر الكتب القديمة إليها من قريب أو بعيد. كما لم تشر إلى معبودها الرسمي بشكل قاطع، وقد حدد العلماء الذين درسوا هذه الكتابات أنها تعود إلى ما بين القرنين الأول والخامس بعد الميلاد. (١)

فالحديث عن كندة على حدود بيزنطة وفارس يعد محاولة لرسم صورة عن التاريخ السياسي العام لهذه الدولة، وتظهر الأبحاث التي نشرت منذ عدة سنوات، عن نتائج آثار «قرية الفاو» صورة من صور الحضارة العربية قبل الإسلام (٢).

فمملكة كندة: هي مجموعة من القبائل تعود في أصلها إلى الجنوب العربي، حسب رأي الهمداني (٣)، وياقوت (٤)، وابن خلدون (٥)، ولكن هذه المصادر لم تحدد بالضبط موطن تلك القبائل ومتى هاجرت إلى غمر ذي كندة الذي يقع في الطرف الجنوبي الغربي من نجد على مسافة يومين من مكة (٦).

وقد ورد ذكر كندة في النقوش السبئية أكثر من مرة (٧)، وقراءة هذه النقوش ألقت الضوء على تاريخ هذه القبائل، وأيدت ماورد في المصادر العربية بأن كندة مجموعة قبائل جنوبية انتقل قسم منها نحو الشمال باتجاه نجد، وتحركها نحو الشمال، إنما كان جزءاً من عملية انتقال للقبائل العربية باتجاه وسط الجزيرة نتيجة للإضطرابات التي كان مسرحها

الجنوب العربي (٨)، وربما كان انتقال كندة الى المناطق التي شغلتها قبائل معد في نجد استمراراً لعملية انسياح عام للقبائل العربية، من الجنوب العربي إلى وسط وشمال الجزيرة العربية، امتدت لعدة قرون، ودور هذه القبائل في الجنوب غامض، فالمصادر لا تشير الى أي اتصال بين كندة والدول المجاورة قبل هجرتها الى غمر ذي كندة، سوى رواية اليعقوبي عن الحرب الطاحنة بين كندة وحضر موت (٩).

وخلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين قامت على الحدود الشمالية لجنوب الجزيرة العربية عدد من الممالك البدوية، أكبر هذه الممالك مملكة كندة القديمة بمركزها في مدينة «قرية» ذات كهل، والتي أكتشفت منذ زمن غير بعيد في وادي الدواسر على الطريق بين نجران واليامة (١٠). ويبدو أنه لم يكن لكندة أي وزن سياسي كبير في هذه الفترة يؤهلها للاتصال بالدول الكبرى كدولة الفرس والروم، أو بسبب سيطرة ملوك سبأ وحمير عليها لوقوع عاصمتها على الطريق التجاري الذي يربط بين جنوبي الجزيرة العربية والشمال، وشمالها الشرقي حيث كانت القوافل تبدأ من ممالك الجنوب باتجاه نجران ومنها «قرية» الفاو وبعدها باتجاه اليامة والخليج، وشمالاً إلى وادي الرافدين وبلاد الشام، فهي بذلك تعتبر مركزاً تجارياً، واقتصادياً هاماً في وسط الجزيرة العربية (١١). ولذلك تعرضت للغزو من قبل ممالك الجنوب أكثر من مرة، وتشير النقوش الجنوبية (Ja. ١٢) ان كندة وعاصمتها تعرضتا لهجوم من قبل جيوش شعرم أوتر، ملك سبأ (635) وذي ريدان، في القرن الأول ق.م، وكذلك نص النقش (Ja. 660) (١٣) الذي يعود إلى بداية القرن الرابع للميلاد يشير إلى أن كندة ومذحجا، كانتا ضمن القبائل القوية في جيش شمير عرش ملك سبأ وذي ريدان وحضر موت ويمنة. كما نجد كندة في نقش (١٤) الذي يعود إلى فترة الملك أبي كرب أسعد الكامل الذي عاش في أواخر (Ry.509) القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي. ويظهر هذا النقش ان كندة كانت من ضمن قوات حمير التي غزت وسط وشمال الجزيرة العربية.

وتؤيد هذه النقوش مايرد في المصادر العربية عن العلاقة بين حمير وكندة (١٥) ويفترض بتروفسكي (Piotrovsky) أن في زمن أبي كرب أسعد كانت البداية لتأسيس كندة الجديدة (١٦) التي فرضت سيطرتها على قبائل معد وربيعة ونزار وأصبحت كقوة في وسط الجزيرة العربية بحسب حسابها في زمن أسرة حجر الملقب بأكل المرار (١٧).

ويبدو أن نفوذ الحيرة على وسط الجزيرة العربية وشمالها قد تقلص مع ظهور كندة من الجنوب العربي «حمير» كقوة في وسط الجزيرة، ووصلت الى أوج سلطتها وتوسعها في ظل الملك الحارث بن عمرو (١٨) الذي يعد أشهر ملوك كندة وفي زمنه ارتفع شأنها ووصلت إلى ذروة عظمتها وقوتها، فامتدت سلطتها لتشمل وسط وشمال وشرق الجزيرة حتى شمل قبائل البادية ما بين سورية والعراق، مما أدى إلى الاصطدام مع بيزنطة ويذكر

ثيوفانس أن الملك الكندي الحارث بن عمرو، بعث بحملة عسكرية كبيرة بقيادة ولديه «حجر وجبل» عام (٤٧٩م) لمهاجمة الحدود الجنوبية لبلاد الشام، التابعة للإمبراطورية البيزنطية، ثم اتبعها بحملة ثانية بعد أربع سنوات قادها ابنه «معد يكر» ونجحت الحملة وتمكن الأمير الكندي من تخريب مناطق واسعة من بلاد الشام (١٩). ويصف ثيوفانس (Theophanes) حملة معد يكر بأنه «انقض كالريح على هذه المواضع وابتعد بسرعة بالغنائم، حتى أن «القائد» رومانوس تعقبهم ولم يستطع اللحاق بهم» (٢٠).

فطموحات الحارث بن عمرو أثارت خوف الدول المجاورة ودفعتها إلى التقرب من كندة آملة قيام نوع من التحالف معها لتحقيق مصالحها وأهدافها السياسية. وقد حاولت بيزنطة كسب كندة إلى جانبها أو على الأقل لتفادي تخرشها بالحدود الجنوبية للإمبراطورية، أو للاستفادة من كندة، في التخرش بالحدود الغربية للساسانيين وإضعاف نفوذ الحيرة وبالفعل تم عقد صلح بين الحارث بن عمرو والإمبراطور البيزنطي انستاسيوس عام (٥٠٢م).

لكن بنود الاتفاق لم يذكرها ثيوفانس (Theophanes) المفروض أنها اتفقا على إنهاء النزاع بينهما والتحالف ضد فارس وحلفائهم المناذرة (٢١).

ويؤيد هذه الروايات مايرد عند المؤرخ يوشع العمودي، عن الحوادث في الحيرة في بداية القرن السادس الميلادي، بأن ملك الحيرة النعمان، اشترك مع الشاه الفارسي، قياداً في المعارك التي وقعت بين الفرس والروم.

ففي عام ٥٠٢ م تقدم النعمان، بقواته من الجنوب إلى منطقة حران فنهب وسبى وخرب حتى حدود أدياسا «الرها»، وفي عام ٥٠٣ شارك النعمان، في الهجوم على شمال سورية، فأصيب في إحدى المعارك على الخابور ومات على أثرها (٢٢).

وقبل موت النعمان تلقت الحيرة ضربة شديدة، فقد زحف عرب الروم من بني ثعلبة على حيرة النعمان فعثروا على قافلة، وأبل حملة كانت متجهة إليها، فانقضوا عليها وقتلوا جميع من كانوا هناك واقتادوا الإبل (٢٣) وبني ثعلبة الذين قاموا بالهجوم على الحيرة، هم بطن من بطون قبيلة بكر بن وائل التي ينتسب إليها الحارث بن عمرو الكندي من جهة أمه (٢٤) ويفهم من وصف يوشع العمودي المعاصر للأحداث أن بني ثعلبة قد اضطلغوا منذ عام ٥٠٣ م بمهمة حراسة الحدود البيزنطية وأن غارتهم على الحيرة كانت بمثابة ضربة مضادة رداً على غارات اللخمين. وكان الصلح الذي تم عقده في عهد الإمبراطور انستاسيوس مع الحارث الكندي عام ٥٠٢ م هو الذي يسر لقبيلة ثعلبة الخاضعة له الاغارة على الحيرة عام (٥٠٣م) (٢٥). وتحدث المصادر العربية عن الوضع الخاص الذي شغله في تلك الأعوام الحارث الكندي بالعراق وبالمناطق المتاخمة بوضعه منافساً للمنذر اللخمي، ويظهر أن الحارث استطاع أن يسطر سلطانه على الجزء الأعظم من بلاد اللخمين في أثناء أعوام الاضطراب ما بين عام ٥٠٣ و٥٠٦ أثناء فترة الحرب بين بيزنطة وفارس (٢٦).

أما عن تقدم كندة نحو الحيرة واتصالها بالفرس فقضية يكتنفها الغموض، فالمصادر العربية تذكر عدة روايات تناقض بعضها بعضاً، فمنها، ما يذكر أن ملك الفرس قباد، طرد المنذر، من مملكته وأحل الحارث محله (٢٧). ومنها ما زعمت أن المنذر استرضى الحارث، بعد أن رأى عجزه وعدم مساعدة الفرس له فتقرب إليه وتزوج ابنته هند (٢٨). وهناك رواية تذكر أن الحارث بن عمرو، قتل ملك الحيرة النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن الشقيقة وأن المنذر ابنه فر ونجا بنفسه. وأن الحارث تملك بالقوة ما كان يملكه اللخميون، وأن قباد داراه واسترضاه لما وجد فيه من القوة والبأس (٢٩). ويبدو أن الحارث الكندي، كان يتوق إلى اللقاء مع الفرس. بعد أن أفهم بيزنطة أنه ليس بالقوة الصغيرة في المنطقة العربية، وليس بالامكان السيطرة عليه بسهولة، وربما كانت رغبته في التعامل مع الفرس والملك الفارسي محصلة ظروف دولية كانت تخيم على شبه الجزيرة العربية وافقت مصالح كل من الملك الكندي الذي كان يسعى للسيطرة على الحيرة، ورغبة الملك الفارسي قباد بالتحالف مع مملكة بيزنطة وفارس عام ٥٠٦ (٣٠). وبسبب موقف الحيرة من الحركة المزدكية، (٣١) التي تبناها قباد (٣٢)، أضف إلى ذلك رغبة الحارث الكندي في التحالف مع الفرس، ربما جاءت نتيجة تحرك قبيلتي بكر وتغلب باتجاه الشمال، تاركتين مناطقيهما القديمة في اليمامة ونجد، لتستقرا في العراق على مقربة من الحدود الفارسية، وأن هاتين القبيلتين كانتا تشكلان عماد قوته العسكرية وبدونها كان لا يستطيع فرض شيء من رغباته السياسية (٣٣)، لذا وجب عليه أن يتلاءم مع الوضع المستجد ويقبل بالتقارب مع الملك الفارسي، أما ما يتعلق بالجانب الفارسي وملكه قباد، فقد رأت هذه الدولة لدى عاملها في الحيرة في تلك الاثناء المنذر بن ماء السماء انحرافاً عن ولائه التقليدي للفرس وميلاً نحو بيزنطة (٣٤).

وقد أيد قيام التقارب بين المنذر اللخمي وبيزنطة المفاوضات التي جرت بين الجانبين اثر الحملات العسكرية التي قام بها المنذر بن ماء السماء ضد ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وآسية الصغرى، وأسفرت فيما بعد إلى عقد صلح وتحالف مع المنذر من خلال وفد أرسل للمفاوضة عام ٥٢٤ (٣٥). فالتقارب بين المنذر وبيزنطة لم يرض بالطبع الملك الفارسي قباد وسياسته، ولذلك سارعت الدولة الفارسية الى اتخاذ اجراء سريع ضد المنذر وأنزلت به العقوبة المناسبة بطرده من الحيرة، وتولية الملك الكندي الحارث بن عمرو مكانه واتخذته حليفاً لها. بينما يرى روزشتين Rothstein أن ضعف الدولة الفارسية بسبب الاضطرابات المزدكية هي التي أتاحت للحارث بن عمرو الكندي أن يطرد المنذر من عرش الحيرة ويغتصب الملك (٣٦). ويظهر أن الظروف الدولية قد ساعدت في قيام التحالف بين كندة وفارس في هذه الفترة، لأن فارس كانت ترى في تحالفها مع كندة تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية وطرق تجارتها المارة في الجزيرة

العربية بالإضافة إلى تأمين حدودها الجنوبية من هجمات القبائل العربية، لأن كنده من بني الجون (٣٧) هي المسيطرة على شرق الجزيرة ويمكن الافتراض أن التقارب مع كنده كان موجهاً ضد بيزنطة التي كانت تحت حليفاتها الحبشة على غزو اليمن لحرمان الفرس من مد نفوذهم إلى هناك (٣٨).

ولا تذكر المصادر العربية مكاناً ثابتاً للحارث بعد اغتصابه ملك اللخمين، فاليقوي (٣٩) يذكر أنه استقر في الحيرة، بينما يرى ابن الأثير (٤٠)، أنه أقام في الأنبار، ويورد حمزة الأصفهاني، (٤١) أن الحارث كان بمعزل عن الحيرة التي كانت دار المملكة، ولم يعرف له مستقر، إنما كان سيارة في أرض العرب.

هذا وتربط المصادر العربية مدة حكم الحارث للحيرة بفترة ظهور المزدكية في إيران وقبول الحارث الدخول فيها (٤٢). ويفترض أوليندر، أن حكمه كان قصير الأمد، ما بين ٥٢٥ و ٥٢٨ م أي حتى نهاية سلطة قباد، وتولية أنوشروان ونكبة المزدكية نهاية ٥٢٨ أو بداية ٥٢٩ م (٤٣).

وباعتلاء كسرى أنوشروان، قيادة العرش تغيرت السياسة الفارسية بشكل جذري تجاه كنده (٤٤)، وبمجرد تسلمه السلطة أصدر أمراً بإعادة المنذر بن ماء السماء إلى عرش الحيرة، وطرد الملك الكندي الحارث بن عمرو منها (٤٥). عندئذ لم يكن أمام الحارث إلا التقرب من خصوم الفرس البيزنطيين (٤٦). ويعود المنذر بن ماء السماء ثانية إلى عرش الحيرة، بدأت صفحة جديدة من الصراعات العسكرية بين مملكة الحيرة بقيادة المنذر وملوك كنده، ويذكر ابن الأثير أن أنوشروان طلب الحارث بن عمرو، «فبلغه ذلك وهو بالأنبار فخرج هارباً في صحابته وماله وولده، فر بالثوية فتبعه المنذر بالخيال من تغلب وإياد وبهراء، فلحق بأرض كلب ونجا وانتهبوا ماله وهجأته وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفساً من بني آكل المرار فقدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بجفصر الاملاك (٤٧).

ويروي Malala وثيوفانس theophannes أن ديوميدس، القائد الروماني في فلسطين تحارب مع رئيس يدعى الحارث وأجبره على التراجع اتجاه «الهند»، ويقصد بذلك جنوب الجزيرة العربية، حيث كان يطلق عليها المؤلفون البيزنطيون «الهند» فلما بلغ ذلك المنذر رئيس الأعراب التابعين للفرس، هاجمه وقتله واستولى على ماله وأهل بيته (٤٨). ويبدو أن المنذر بن ماء السماء لم يقف عند حد مطاردة الحارث بن عمرو الكندي، أو قتله في شمال الجزيرة العربية (٤٩). بل تابع الصراع مع ابنائه من بعده الذين بقوا متمسكين بملكهم والدهم في حياته، على بعض القبائل العربية وصبروا على قتال المنذر الذي حاول تشتيت أمرهم بالخديعة والمكر، تارة وبالقناتل مرة أخرى (٥٠). وهكذا انهارت كنده بانتهاء الحارث بن عمرو وابنائهم من بعده، بفعل الصراعات والتراعات بينها

وفشلت محاولة الامير الكندي امرىء القيس بن حجر (٥١). الذي بذل جهداً كبيراً للثأر لأبيه وإعادة سلطان كندة تحت قيادته، لأنها اصطدمت بسياسة كسرى أنوشروان المناوئة لكندة وملوكها، كونه عهد إلى المنذر بن ماء السماء بأمر العرب، بالاضافة إلى حقد ملك الحيرة المنذر الذي أراد بدوره إخماد شعلة كندة والقضاء عليها بكل الوسائل المتاحة، لذلك نجده بمجرد التجاء قبيلة بني أسد إليه طالبة الحماية والنجدة ضد امرىء القيس الكندي يعلن لها حمايته، ويعد العدة مع القبائل العربية الموالية له، بالاضافة الى جيش الاساورة الذي أرسله أنوشروان إليه، لسحق الاماني والرغبات التي حلم بها الامير الكندي، وحول هذا الجانب من ملاحقة الدولة الفارسية وعاملها على الحيرة لكندة وملوكها يذكر اين خلدون في كتابه العبر:

«ان امرأ القيس بعد أن انقضت عنه قبيلتا بكر وتغلب التجأ الى معشر الخير بن ذي جدن» أحد ملوك حمير، حيث أمده بخسمائة فارس، وجنود آخرين لمقاتلة بني أسد فلما علمت أسد بهذه الحملة التجأت إلى ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء، الذي وجه في طلبه الفرسان من قبائل اياذ وبهراء وتنوخ. وأمه أنوشروان بجيش من الاساورة، فسرهم في طلبه ففرقت حمير ومن كان معه امام تفوق جيش العدو هذا، فنجا من المنذر في عصبته من بني آكل المرار ومعه شيء من ماله وأدرعته كان قد ورثها عن آبائه» (٥٢). ونجد في المصادر العربية (٥٣) الكثير من الروايات التي تناقض بعضها بعضاً حول مغامرات امرىء القيس وما قيل فيها من الشعر، ومحاولته الثأر لأبيه وإعادة مجد كندة كما كان، وما تخض عنها من معارك، يظهر من خلالها فشله الذي دفعه إلى السفر إلى القسطنطينية، لطلب المساعدة من القيصر، مستغلاً كونه مناوئاً لملك الحيرة المنذر، وتنتهى مغامرته بالموت قرب أنقرة (٥٤).

هكذا كانت العلاقة بين ملوك كندة من بني آكل المرار وبيزنطة، ودولة الفرس، وعمالهم المناذرة (٥٥)، علاقة غزو ونزاع ثم تحالف وصراع، انهارت بعدها مملكة كندة، وانسحب من بقي منها باتجاه حضر موت ثانية. بينما استمر حكم كندة من بني الجون لليامة وماحولها إلى فترة متأخرة نسبياً (٥٦)، انتهت بتعرض كندة إلى يومين من أشهر أيام العرب في الجاهلية (٥٧). قاتل فيها الكنديون في اليامة بكل مألديهم من قوة هما يوم جبلة (٥٨)، ويوم ذي نجب (٥٩). وفي هاتين الوقعتين كانت الضربة القاضية لكندة وما لها من أثر سياسي في شرق ووسط الجزيرة العربية، وغادر أرض اليامة والبحرين على اثرها قسم كبير من الكنديين الى حضر موت (٦٠) ويعتبر أوليندر عودة آخر فلول الكنديين الى ديارهم السابقة بعد ما أصابها من مصائب في نجد واليامة بأنها مرتبطة

بالتطلعات التوسعية الفارسية نحو جنوب الجزيرة العربية، ورغبة كندة أن تلعب دوراً جديداً كحليفة للفرس في منازلها الأولى (٦١). لكن لم نجد في المصادر ما يؤيد وجهة نظر أوليندر هذه، لأن الفرس في زمن أنوشروان اعتمدوا على اللخمين في فرض سيطرتهم وسياستهم على القبائل العربية، وقد ذكر الطبري أن أنوشروان «ملك المنذر بن النعمان على العرب وأكرمه» (٦٢) وفي رواية أخرى يورد الطبري أن كسرى ملك المنذر بن النعمان على مابين عمان والبحرين واليامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب. (٦٣) والمنذر هذا هو الذي تتحدث عنه المصادر البيزنطية بأسهاب وبأنه ألقى الرعب والفرع في الأراضي البيزنطية لمدة خمسين عاماً (٦٤).

وفي عهد المنذر الثالث بلغت دولة اللخمين أقصى درجات الازدهار والقوة، حتى ان الامبراطور جوستنيان حاول استمالة والتأثير عليه بالاموال والهدايا لكي يكف عن مهاجمة الحدود البيزنطية. لذلك يصعب قبول وجهة نظر أوليندر. وقد أدى توسع اللخمين في وسط الجزيرة بعد القضاء على كندة إلى الاصطدام بمصالح حمير، ولذلك نجد أبرهة الحبشي حاكم اليمن وحليف بيزنطة يحاول إعادة مد نفوذ حمير على وسط الجزيرة بعد انهيار كندة، ويحتمل أنه قام أكثر من مرة بمحاولات غزو وسط الجزيرة العربية لارهاب سكانها المتحالفين مع ايران ولايقاف تحرك اللخمين نحو الجنوب (٦٥)، ويرد في نقش (Ry. 506) لعام ٥٤٧م أن أبرهة حارب قبيلة معد في حلبان على الطريق المؤدي إلى اليامة في وسط الجزيرة العربية وهزمها، واضطر عمرو بن المنذر الثالث الذي كان عاملاً لللخمين على معد تقديم رهائن لابرهة أثناء مفاوضات الصلح (٦٦). ويذكر بريكوبيوس ذلك، ويتحدث عن حملة واحدة لابرهة، ثم قفل عائداً على الفور (٦٧). لذلك يفترض أن حملة أبرهة على المناطق الواقعة تحت نفوذ اللخمين حلفاء الفرس، كانت تهدف إلى الضغط على فارس واضعاف موقف حلفائها، ثم إعادة السيطرة على الطريق التجاري الواصل الى الحجاز، من أجل حماية مصالح حمير الاقتصادية. وربما كانت محاولة لاهياء مملكة كندة أو اقامة مملكة بدوية موالية على غرارها، أو أن الحملة كانت نتيجة للصراع بين بيزنطة وفارس وحلفائها للسيطرة على الجزيرة العربية لما لها من أهمية استراتيجية في التجارة العالمية، في تلك الفترة (٦٨).

وكما يظهر فان حملة ابرهة لم تحقق أهدافها، وانتهى آخر أمل لاهياء مملكة كندة أو اقامة مملكة على نمطها، تلك المملكة التي تعددت ولاءاتها ولم يكن لها مبدأ سياسي في حياتها منذ ان بدأت تشارك في الاحداث السياسية للجزيرة العربية، فسعت لفرض وجودها كدولة مستقلة معتمدة على قوة اتحادها القبلي وعلى تأييد حمير، فخاصمت

المنادرة في الحيرة وحالفت الفرس، واصطدمت مع البيزنطيين حيناً، وحالفتهم أحياناً ضد فارس، ثم انقلبت على نفسها، حيث دب الخلاف بين أبنائها فانحلت عراها ولم تعمر هذه المملكة طويلاً، وهكذا انتهت أولى المحاولات لتوحيد العرب في قلب الجزيرة العربية تحت سلطة سياسية واحدة.

الحواشي

- (١) — عبد الرحمن الطيب الانصاري، «قرية الفاو» صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض ١٩٨٢، ص ٣١.
- (٢) — المرجع السابق.
- عبد الرحمن الطيب الانصاري، «أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها»، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، مطبوعات جامعة الرياض ١٩٨٣، ص ٣—١١.
- عبد الرحمن الطيب الانصاري، «كتابات عن الفاو»، مجلة كلية الاداب، جامعة الرياض العدد الثالث ١٩٧٤، ص ٢٧—٧٠.
- (٣) — الهمداني، يذكر (وبلد كندة مرتفع كانه سراة وتصب أوديته في حضرموت) ص ١٦٨ وفي مكان آخر (بلدة كندة من أرض حضرموت) ص ١٦٦.
- الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الاكوع، ط ٣، صنعاء ١٩٨٣.
- (٤) — ياقوت الحموي يذكر (ان كندة هو مخلاف باليمن).
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط ليزج ١٨٦٩، ج ٤، ص ٣٠٩.
- (٥) — ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، بيروت ١٩٥٦ م، ج ٢، ص ٢٥٧.
- (٦) — جوناثان أوليندر، ملوك كندة من بني آكل المرار، ترجمة وتحقيق د. عبد الجبار المطلبي ط. جامعة بغداد ١٩٧٣، ص ٦٦.
- (٧) — Jamme A. Sabaean Inscriptions from Mahram Bilgis. Baltimore, 1962. PP. 136...137.
- (٨) — جوناثان أوليندر، ملوك كندة، ص ٦٥.
- (٩) — اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط ليدن ١٨٦٩ ج ١، ص ٢٤٦.
- (١٠) محمد عبد القادر بافقيه، في العربية السعيدة، صنعاء ١٩٨٧، ص ٢٦—٢٧.
- (١١) — عبد الرحمن طيب الانصاري، قرية الفاو.....، ص ١٦.

Jamme, A. Sabaean Inscriptions from Mahram —(١٢)
Bilgis(Marib) Baltimore, 1962, P. 136 .

Jamme, A. oP . cit., 164-165. —(١٣)

Jamme, A. oP. cit., P. 394 —(١٤)

انظر أيضا ترجمة نقش RY 509 عند ميخائيل بتروفسكي M.Piotrovsky النص
الروسي ص ١٧٥ ، أما الترجمة العربية م. بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، تعريب محمد
الشعبي، بيروت ١٩٨٧، ص ٣٢٥ .

(١٥) — الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ط ليدن ١٨٧٩ — ١٨٩٠ مج (١—٣)،
ج ١ ص ٨٨٠—٨٨١ .

حمزة الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الارض والانباء، ط الأوربية ص ١٤٠

الانيوري، كتاب الاخبار الطوال، ط بريل ١٨٨٨ ، ص ٥٤—٥٥

ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ٠٠٠، ج ٢ ص ٢٧٦ .

(١٦) — بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، ص ٧٣ .

(١٧) — قيل: سمي حجر أكل المزارع لكثرة كان به، وقيل قصص أخرى، حول ذلك
انظر:

جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، مط المجمع العلمي العراقي، بغداد
١٩٥٤ وما بعد. ج ٣ ص ٢١٩ .

(١٨) — يفترض صاحب ملوك كندة أن حكم الحارث الكندي يبدأ تقريباً من عام
٤٩٠ م

جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١٠٠

حول نسب الحارث انظر:

ابن حزم الاندلسي، جمهرة انساب العرب، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف
بمصر، ١٩٤٨ ، ص ٤٠١

(١٩) — جونار أوليندر ، ملوك كندة، ص ٨٩٣

(٢٠) — انظر: نينا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران، ترجمة صلاح

الدين عثمان هاشم الكويت ١٩٨٥ ، ص ١٦٩

(٢١) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ٩٣

Pigulevlevskia N, Mecopotamia na rubeje V i VI—(٢٢)
VV.

Siriskia, Khronika Jeshu Stilita kak Istoricheskii
istochnik, M, L,. 1940, str. 153, No, 57

(ترجمة روسية لحوليات يوشع العمودي ، القسم ٥٧، ص ١٥٣)

- (٢٣) — المصدر السابق ، القسم ٥٧ ، ص ١٥٣
- (٢٤) — هناك خلاف بين الباحثين حول انتهاء ثعلبة الى كندة أم الى الغساسنة. روتشتين يعدّ ثعلبة من قبائل كندة، وأوليندر يؤيده أيضاً بينما نولدكه و عرفان شهيد يرون بأنهم ينتمون إلى الغساسنة ، وجواد علي يشك في صلتهم بكندة. انظر
Rothstein C. Die Dynastie der Lahmiden in al- Hira. B.,
1899 . C. 91
- نولدكه ، أمراء غسان، ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣ ص ٤
جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام ، بغداد ١٩٥٤ ، ج ٣ ، ص ٢٢٧
جونار أوليندر، ملوك كندة ، ص ٩٤
- (٢٥) — نينا بيغوليفسكيا، العرب على حدود بيزنطة وايران، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت، ١٩٨٥ ، ص ١٧٠
- (٢٦) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١٠٧ ، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، بيروت، ١٩٧٩ ، ج ٤ . ص ٧١
- (٢٧) — ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، ليدن، ١٨٦٧ ، ج ١ ص ٣١٤
- (٢٨) — المفصل بن محمد الضبي، الفضليات، شرح ابن اليباري، تحقيق لايل ، بيروت ١٩٢١ ، ص ٤٢٧
- (٢٩) — الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١ ص ٨٨١—٨٨٢ ، أبو علي مسكويه الرازي تجارب الامم، تحقيق د. ابو القاسم امامي، طهران ١٩٨٧ م، ج ١ ، ص ٩١
يذكر أبو علي مسكويه «وملك الحارث بن عمرو الكندي ماكان يملك النعمان ، فبعث قباذ بن فيروز ملك فارس الى الحارث بن عمرو الكندي أنه: « قد كان بيننا وبين الملك الذي كان قبلك عهد وأنا أحب لقاءك» ، ج ١ ، ص ٩١
- (٣٠) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١١٤
- (٣١) — المزدكية: تنسب إلى مزدك : مصلح اجتماعي، هاجم نظام التملك الشخصي ودعا إلى اعادة توزيع الثروة بالتساوي بين الناس ومنح المرأة حقوقها، لكن اراء مزدك اتخذت طابعا مشاعيا أثناء التطبيق، فاعتبرها المؤرخون حركة زندقة . انظر:
آرثر كرستنسن، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزام بيروت، ١٩٨٢ ، ص ٣٤٣ وما بعدها.
- برهان الدين دلو، مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٠١
- المطهر بن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، ط مصورة لدار صادر عن ط باريز ١٩٠٣ ، ج ٣ ، ص ١٦٧
- البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية، ط مصورة لدار صادر عن ط ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢٠٩

(٣٢) — يذكر ابن الاثير ان الملك قباذ «قد اتبع مزدك على دينه ومادعاه إليه وأطاعه في كل ما يأمره به من الزندقة وغيرها مما ذكرنا أيام قباذ وكان المنذر بن ماء السماء يومئذ عاملاً على الحيرة ونواحيها فدعاه قباذ إلى ذلك فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندي فأجابه فسدد له ملكه وطرده المنذر عن ملكه».

ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣١٤

(٣٣) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١١٤

(٣٤) — محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعملهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢١-٢٢، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٨ .

(٣٥) — نبيه العاقل، تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي، دمشق ١٩٨٥، ص ١٧٥

يوسف رزق الله غنيمه، الحيرة: المدينة والمملكة العربية، بغداد، ١٩٦٣، ص ١٦٧
(٣٦) — Rothstein C. die dynastie der Lahmiden in al-hira B. 1899. C. 87 .

(٣٧) — الجون: لقب معاوية الكندي، وقد سمي بذلك لشدة سواده انظر:
أبو الفرج الأصفهاني، كاب الاغانى، ط مصورة عن دار الكتب المصرية، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ج ١١، ص ١٣٣
(٣٨) — لطفي عبد الوهاب يحى، العرب في العصور القديمة، بيروت ١٩٧٩، ص ٤٣٩ .

(٣٩) — اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ط ليدن ١٨٦٩، ج ١، ص ٢٤٧

(٤٠) — ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٧٥ .

(٤١) — حمزة الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانباء، ط الاوربية، Lip-sia Mdcccxliv ١٨٤٤، ص ١٠٨

(٤٢) — ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣١٤ .

(٤٣) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ج ١، ص ١١٤ .

لكن د. خالد العسلي يقول: «من الصعب قبول الروايات العربية التي تقول ان كندة حلت محل المناذرة في الفترة التي أيد فيها قباذ المزدكية» دون أن يعلل رفضه لقبول الروايات العربية؟

انظر: د. خالد العسلي، «العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية»

المجلة التاريخية، العدد الثاني، بغداد ١٩٧٢، ص ١٨٧

(٤٤) — انظر خطبة كسرى انوشروان عند الطبري، ج ١ ص ٨٩٧ وما بعدها.
كذلك يذكر الثعالبي أن كسرى قال: يوما لجلسائه (تمنيت على الله ثلاثا، الملك وقد أتانيه وتمليك هذا الفتى على العرب وقد ملكته وبقيت واحدة فقالوا: ماهي أيها الملك قال: قتل الزنادقة

الثعالبي، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم، ط باريس ١٩٠٠، ص ٦٠٤

(٤٥) — ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣١٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٨٩٩ — ٩٠٠. حمزة الاصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء، ص ٢٤٠، أبو علي مسكويه، تجارب الامم، ج ١، ص ٩٧.

(٤٦) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ١١٥

(٤٧) — ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ط دار صادر المصورة عن ط ليدن ١٩٠٢، ص ٤٤ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣١٥. وقد خلد شاعر كندة امرؤ القيس هذه الواقعة وفيهم يقول:

ملوك من بني حجر من عمرو

يساقون العشية يقتلوننا

فلو في يوم معركة اصيبوا

ولكن في ديار بني مرينا

ولم تغسل جماجمهم بغسل

ولكن في الدماء مرمينا

تظل الطير عاكفة عليهم

وتتزع الحواجب والعيونا

أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى، ج ٩، ص ٨٠

(٤٨) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ٩٥

(٤٩) — حول موت الحارث بن عمرو الكندي روايات عديدة ومختلفة في المصادر

العربية

أنظر: حمزة الاصفهاني، تاريخ سني ملوك الارض والانبياء، ص ١٤١ المفضل بن محمد الضبي، المفضليات، ص ٤٢٩

أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى، ج ٩، ص ٨١

ويعلق جواد علي حول هذه الروايات فيقول: «لا تخلو هذه الروايات المتعلقة بموت الحارث ونهايته من مؤثرات العواطف القبلية... فكلب تدعي أنها هي التي قتلتها، وكندة تنكر ذلك مدعية أنه مات كما يموت سائر الناس، وأهل الحيرة يقولون أنهم هم الذين قتلوه». جواد علي، تاريخ العرب القديم، ج ٣، ص ٢٤٢

(٥٠) — انظر قصة الحرب بين أولاد الحارث شرحبيل وسلمة في معركة الكلاب

الاولى. عند اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٧ — ٢٤٨

المفضل بن محمد الضبي، المفضليات ص ٤٣٠ — ٤٣١

(٥١) — امرؤ القيس بن حجر ولد عام ٥٠٠م تقريباً، يعد من أشهر شعراء العرب

قبل الاسلام، وتسمح لنا أشعاره بتتبع سيرة حياته، وكثير من القصائد تلقي الضوء على محاولاته التي قام بها من أجل استعادة مجد كندة، والثأر لمقتل والده، انظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٣٧ وما بعدها. أبو الفرج الاصفهاني، الاغانى، ج ٩، ص ٧٧ وما بعدها.

(٥٢) — ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦م ج ٢، ص ٢٧٥

ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١ ، ص ٣٧٩
(٥٣) — حول هذه الروايات انظر:

اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٤٩ ومابعدھا، ابن خلدون ، كتاب العبر ج ٢، ص ٢٧٤ — ٤٧٥ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٤٣ — ٤٤. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٣٨١

(٥٤) — اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥١ (يفترض فيليب حتي أن موت امرئ القيس كان عام ٥٤٠ م تقريباً). فيليب حتي، تاريخ العرب ترجمة محمد مبروك نافع، ط ٣، القاهرة ١٩٥٢، ج ١ ص ١٠٢ ويؤيد د. عمر فروخ ذلك، لكنه يرفض الرواية التي تقول: ان امرأ القيس مات مسموماً بحلة أرسلها له الامبراطور البيزنطي، ويمكن ان يكون قد مات بالجذري لما مر بأنقرة في زمن الشتاء القارس، نحو ٥٤٠ م. د. عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ط ٢، بيروت ١٩٨٤، ص ٩٤

(٥٥) — أنظر مقال محسن يونس، كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعملهم ملوك الحيرة، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢١ — ٢٢، دمشق، دمشق ١٩٨٦، ص ١٩٥ — ٢٠٢
(٥٦) — يفترض د. خالد العسلي أن حكم كندة لمنطقة اليمامة استمر حتى عام ٥٧٠. خالد العسلي، العلاقات السياسية بين المناذرة والجزيرة العربية،..... ص ١٨٨

(٥٧) — يقول د. نبيه عاقل: يبدو ان نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين في الجزيرة العربية كانت فترة اتسمت بالصراع الدموي بين القبائل بسبب عوامل عديدة قد يكون من بينها شح الارض بالقوت والماء والكأ، فلا يجدون إلا الغارة على جيرانهم وسيلة للقيام بأودهم وأود أولادهم، وأدى ذلك إلى كثرة الحروب، وماتستتبعه هذه الحروب من ثارات، ومايترتب على الثارات من معارك جديدة، هذا فضلاً عن التنافس على السيادة والزعامة والجاه الذي جر الى الكثير من الحروب وأريقت في سبيله الدماء الغزيرة».

د. نبيه عاقل، الوفود والسفارات في الجاهلية وعصر الرسول (ص)، مجلة دراسات تاريخية، ١٩٩١، العدد ٣٩ — ٤٠، ص ٩

— أيام العرب: هي أيام المعارك التي وقعت بين القبائل البدوية في الجاهلية والتي كانت أسبابها في أغلب الأحيان اقتصادية.

أنظر: عمر فروخ، تاريخ الجاهلية، ص ٧٧ ومابعدھا. فيليب حتي، تاريخ العرب، ج ١، ص ١٠٥ ويذكر صاحب الاغانى أن أعظم أيام العرب ثلاثة، يوم كلاب، ويوم شعب جبلة، ويوم ذي قار. الاصفهاني، الاغانى، ج ١١، ص ١٣١ ومابعدھا.

- (٥٨) — الاصفهاني، الاغانى، ج ١١، ص ١٣٣ — ١٤٨. ابن الاثير الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٣٥ — ٤٣٦.
- (٥٩) — نقائض جرير والفرزدق، ط بريل — ليدن، ١٩٠٥، ص ١٠٧٩. ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٤٥.
- (٦٠) — الهمداني، ضفة جزيرة العرب، ص ١٧١.
- (٦١) — جونار أوليندر، ملوك كندة، ص ٢٠٧.
- (٦٢) — الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ١، ص ٨٩٩.
- (٦٣) — المصدر السابق، ص ٩٥٨.
- (٦٤) — نينايفغوليفسكي، العرب على حدود بيزنطة وايران، ص ١٣٢.
- (٦٥) — م. بتروفسكي، اليمن قبل الاسلام، ص ٧٩.
- (٦٦) — انظر ترجمة النقش عند بتروفسكي، المرجع السابق، ص ٣٢٧، جواد علي، المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ٣، ص ٤٩٥.
- (٦٧) — بروكوبيوس القيصري، تاريخ حروب الرومان ضد الفرس، ترجمة يو. دستونيس، سانتبترسبورغ، ١٨٧٦، ١، ١٩، ص ٨١.
- ترجمة روسية لتاريخ بروكوبيوس.
- (٦٨) — د. نعيم فرح، تاريخ بيزنطة، دمشق ١٩٨٥، ص ١٥٩.

الحياة الاقتصادية في المدينة
المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة قبل الهجرة وأثر الهجرة عليها

● د. شكران خربوطلي
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة دمشق

عناصر الموضوع

مقدمة
البيئة الطبيعية للمدينة
اقتصاد المدينة
الزراعة
الثروة الحيوانية
الصناعة والحرف
التجارة
الأسواق
الخاتمة

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع، هي الدعامة الأساسية في وجوده واستمرار بقائه وارتقائه، وقد فسرت هذه الدعامة على أنها الفعاليات الزراعية والصناعية والتجارية فيه، وترتبط الفعالية الرعوية وتربية المواشي بتلك الفعاليات في بعض الأحيان. ولعلنا نجد ارتباط الاقتصاد بالزمان والمكان، فالإنتاج الإقتصادي رهين البيئة بكل تفاصيلها، لذا فرضت على الأوائل من بني البشر التكيف غير المحدود مع المكان الذي عاشوا فيه، فاتبعوا نمطاً خاصاً من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يتواءم من واقعهم، ثم عملوا بدأب ونشاط لاستثمار امكانيات التربة. لذا وقبل الحديث عن الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة لابد من التعرف على بيئتها الطبيعية.

تقع المدينة المنورة إلى الشمال من مكة المكرمة، وكانت مدينة صغيرة تعادل نصف مكة، (١) وتبعد عن الجار وهو ميناؤها على البحر الأحمر يوم وليلة، (٢) ويبدو أنه مثل دوراً هاماً بالنسبة لها، خاصة وأن جزيرة صغيرة يقال لها قراف، وقعت على مقربة منه، وكانت ملتقى التجار القادمين من سواحل أفريقية والمحيط الهندي، (٣) وكانت التجارة مزدهرة في ميناء الجار، بحيث لم يكن بالحجاز بعد مكة أكثر مالأً وتجارة منه. (٤) وأرض المدينة بركانية بين حرتين، وقد اشتهرت بالخصب والنماء، يحدها جبل أحد من الشمال (٥) وجبل عير من الجنوب الغربي، وهو عبارة عن جبلين أحمرين متقاربين بطن العقيق، أحدهما عير الوارد والآخر عير الصادر، (٦) وإلى الشرق منها بقيع الفرقد، وإلى الجنوب قرية قباء وكانت على بعد ميلين منها مماليي القبلة، وهي شبيهة بالقرية، وكان الفرع من المدينة على أربعة أيام في جنوبها. (٧)

يوجد في المدينة وديان كثيرة، (٨) أخصبها وادي العقيق وهو « يشق من قبل الطائف، ثم يمر بالمدينة، ثم يلقي في أضخم البحر، (٩) وهو عقيقان، العقيق الأكبر والعقيق الأصغر، وبه آبار لاتزال آثار بعضها بادية ظاهرة، ولكنها مطمورة كثر رومه، وبئر عروة بن الزبير، (١٠) وقد عرف وادي العقيق بعيونه ومزارع نخيله. (١١)

ومن أودية المدينة، وادي بطحان، ووادي رانون، الذي يبدأ من جبل عير قبلي المدينة، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان، ووادي مذيئب، في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، وعليه كانت منازل بني النضير، ويقع إلى الشمال الشرقي وادي قناة، ووادي مهزور، وهو موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة، ويأتي من الحرة الشرقية المعروفة

باسم حرة واقم، (١٢) على أنه في الحقيقة حرّات المدينة ثلاث هن: حرة واقم في الشرق، وهي أشهرها وأخصبها، وحرة الوبرة في الغرب. وحرة قباء في الجنوب، ثم أنه بالقرب من المدينة ثلاث حرّات أخريات هن: شوران، وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة، (١٣) وحرة ليلي، وكانت لبني مره بن عوف بن ذبيان يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة، وحرة النار بالقرب من حرة ليلي. (١٤)

ومناخ المدينة حار صيفاً، بارد شتاءً، يؤيد ذلك قوله (ص) «من صبر على لاوائها وشدتها كنت له شهيداً—أو شفيحاً—يوم القيامة»، (١٥) وتسقط أمطارها في أوقات قصيرة، وقد تحدث سيولاً في كثير من الأحيان، لأنها تهطل بعنف، لذا فإن ظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة كانت من الظواهر المألوفة، فالرسول (ص) حين قدم إليها «وهي أوبأ أرض الله» أصاب أصحابه منها بلاء وسقم فدعا (ص): (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشدّ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مدنا وصححها لنا وأنقل حماها إلى الجحفة) (١٦).

وعلى العموم، إذا قيس مناخ المدينة بمناخ مكة فيمكن القول أنه معتدل، فضلاً عن أن تربتها خصبة، وقد أتاح—مع توفر المياه—جعل الحالة الاقتصادية في المدينة متنوعة الجوانب. وكان سكانها في أواخر القرن السادس للميلاد عبارة عن تجمع قبلي كبير يعرف ببني قيلة ضم قبيلتين هما الأوس والخزرج (١٧) إلى جانب عشائر من يهود بني قريظة وبني النضير، وبني قينقاع.

وطالما توفرت في المدينة مقومات: التربة والمياه من الآبار والأودية، (١٨) فمن الطبيعي أن يعمل السكان بالزراعة وفق نظام خاص، فقد ذكر أنهم كانوا يقسمون المياه بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى تسقي نخيله فتصل إلى جذوعه بارتفاع الكعبين، ثم يرسلها إلى من أرضه أسفل فيسقي، (١٩) وقد قضى رسول الله (ص) في سيل مهزور ومذنيب «أن يحبس الماء حتى يبلغ الكعبين، ثم يرسل الأعلى على الأسفل» (٢٠) وفي الأوقات التي تشح فيها الوديان أو تجف، وفي الأماكن التي كان الماء لا يصل إليها، كان الناس يستخدمون مياه الآبار في ارواء مزروعاتهم، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله: «نخيل المدينة وزرعها تسقي من الآبار عليها العبيد» (٢١).

واستخرجت المياه من الآبار بالدلاء، وكان الزراع يستخدمون الحيوان في متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لري البساتين والحقول، وقد كان لحيحة بن الجلاح تسع وتسعون بعيراً كلها ينضح عليها. (٢٢)

كان جل أهل المدينة يعملون بالزراعة كل على قدر حاله، لكن أوسع الأراضي وأخصبها، وأكثرها غلة كانت بأيدي اليهود، ووجهاء الأوس والخزرج حيث «ان الخبر اليهودي مخريق كان غنياً كثير الأموال من النخيل»، (٢٣) وقيل «كان مخريق أحد بني النضير حبراً غنياً له سبع حوائط وبساتين». (٢٤)

لقد عمل اليهود بالزراعة، وكانت زراعتهم تأتي عليهم بهال طيب، جعل بعضهم من الأثرياء، وقد استفيد من «شراح الحرة» وفي سقي المزارع، وكانت تستمد ماءها من الحرة.

وأفقد التركيب السكاني غير المتجانس يشرب المبادرة، وأعاق تبوأها دوراً أكثر أهمية في الحجاز، فانطوت بصورة شبه دائمة على صراعات داخلية ضارية قضت على جزء من طاقاتها، فكثيراً ما قامت الحروب بين الأوس والخزرج بتشجيع من اليهود من أجل الرئاسة والزعامة، والعصبية القبلية، والثأر، والاعتداء على الممتلكات الخاصة، فأثر ذلك على الزراعة وأفسح المجال واسعاً أمام اليهود لاستغلال امكانيات المدينة لصالحهم. وهذا يفسر لنا مقدار الجهد الذي تحمله عرب المدينة حين نزل عليهم المهاجرون من أهل مكة، وأقاموا معهم في ضيافتهم، وكيف وجد الرسول (ص) حلاً لتلك الأزمة بإيجاد نظام المؤاخاة، والدليل على ذلك أنه لم تتحسن الأوضاع إلا بعد اجلاء بعض العشائر اليهودية عن المدينة واستقرار أمر المهاجرين، فأموال بني النضير مثلاً كانت خالصة لرسول الله (ص) فكان يزرع تحت النخيل في أرضهم، فيدخل من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، والباقي كان يجعله في الكراع والسلاح، وقد قسمها (ص) على المهاجرين دون الأنصار إلا أنه أعطى سهل بن حنيف، وأبادجانة سهاك بن خرشة الساعدي، وغيرهما. (٢٥)

لقد قسم رسول الله (ص) أرض بني قريظة بين المسلمين على السهام (٢٦) «وأعلم في ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال، وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم: للفارس سهمان، وللفارسه سهم، وللراجل من ليس له فارس سهم، وكانت الخيل يوم بني قريظة ستاً وثلاثين فرساً....» (٢٧)

وقد انتعشت الزراعة بالمدينة بعد الهجرة والقضاء على المنازعات الداخلية فيها، حتى أنها استوعبت عدداً كبيراً من المهاجرين إليها والوافدين عليها من قبائل العرب. وكان النخيل أهم المزروعات وعليها اعتمد أهلها بالدرجة الأولى (٢٨) يأكلون ويتاعون ويبيعون منه ويدفعون الأجور ويسددون الديون (٢٩) ففي صحيح البخاري باب كامل عن البيوع وأغلب الحديث به عن النخل. (٣٠)

وبما أن معظم المزارع كان يملكها يهود المدينة، فقد أثرى الكثيرون من زراعته والمتاجرة به، واعتمد معظم السكان عليه، فكان جل طعامهم منه وبه كانوا يتعاملون لذا أصبح تمر المدينة من أجود الأنواع، فالصيحاني منه لم يوجد مثله في بلد من البلدان. (٣١) ويتمر يشرب ضرب المثل، وقد أشار امرؤ القيس بشعره إلى نخل يشرب بقوله:
علون بأنطاكية فسوق عقمه

كجرمة نخل أو كجنة يشرب (٣٢)

وكان عندهم العجوة ونخيل اللون. (٣٣)

واهتم المدنيون بالنخيل لفوائده الجمّة، حيث كانوا يستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم، وحوامل معترضة لسقوفهم، ويستعملون جريدها في سقوف منازلهم ويرضخون النوى بالمراضخ حتى تتكسر، فيكون علفاً للابل، ويعملون من خواصها المكاتل والقفف. (٣٤)

والجدير بالذكر أن الشعير والتمر كانا طعام الناس، وقد عدّ الشعير المصدر الثاني لثروة المدينة الزراعية، فأثناء الحديث عن الخندق ورد: «عملنا مع رسول الله (ص) في الخندق فكانت عندي شوية غير جد سميّة قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله (ص) قال: فأمرت امرأتى فطحنّت لنا شيئاً من شعير، فصنعت منه خبزاً ودُبِحت تلك الشاة». (٣٥)

وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين، زرعوا التين، والسيفر جل، والخبوخ، (٣٦) والسلق والبصل والثوم (٣٧) وكان من مزروعاتهم الهامة حب اللبان، فكان يحمل إلى سائر البلدان. (٣٨)

ومن عاداتهم أنهم كانوا يأخذون ورق السلق فيجعلون فيه حبات من الشعير ويطحونه فيكون طعاماً لذيذاً. (٣٩)

أضف إلى ذلك أنهم أحاطوا الحدائق بأسوار مرتفعة قدر الامكان لحماية ومنع الانسان والحيوان من دخولها سميت بالأطم. (٤٠)

ولعلمهم كانوا يكرّون الأرض لأجل قصير، أو لأجل طويل، فاذا كروا الأرض لأجل طويل غرسوا الشجر على نصيب معلوم من الثمر، لأنه لم يكن هناك معاملة بالدنانير والدراهم، قال رافع بن حديج «كنا أكثر أهل المدينة مزدرعاً، كنا نكري الأرض بالناحية منها مسمى لسيد الأرض قال: فما يصاب ذلك وتسلم الأرض ومما يصاب الأرض ويسلم ذلك فنهينا، وأما الذهب والورق فلم يكن يومئذ (٤١)

وكانوا يتعاملون على الشطر مما تغله الأرض فلما جاء المهاجرون زارعوا الانصار حتى ماكان في المدينة بيت هجرة الا وزرع على الشطر أو على التين، أو على أوسق من تمر أو بر أو غير ذلك.

ولم يكن: «بالمدينة أهل بيت هجرة إلا ويزارعون على الثلث والرابع...» (٤٢) وقد عامل النبي (ص) أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع، وكري بعضهم أرضه بطريقة المؤاجرة أو المغارسة أو المزارعة بالربع أو الثلث أو نصف الناتج، أو أقل من ذلك أو أكثر فنهى الرسول (ص) عن ذلك بقوله: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فإن أبى فليمسك أرضه» (٤٣)

وذلك لأن المؤاجرة والمغارسة والمزارعة شكل من أشكال الاستغلال بالمدينة ومنطقتها تؤدي إلى منازعات وخصومات بين صاحب الأرض والمستأجر أو العامل فيها. إضافة إلى ذلك أنهم باعوا ثمار نخيلهم وأعنابهم بطريقة المزبنة والمحاولة فنهى رسول الله (ص) عن ذلك (٤٤).

ولهذا نجد اقبال المهاجرين على الزراعة، فحفروا الآبار وجنوا منها ثمرات طيباً وفي هذا دليل أنه كان من بين المهاجرين قوم يحسنون الزراعة فضلاً عن أن جلهم كانوا يريدون عملاً يعتاشون منه، وبحسب العادة المتبعة حاقلوا أصحاب الأرض، على زرع أرضهم في مقابل نصيب معلوم، كانوا يتفقون عليه، وقد نجح بعضهم في استغلال الأرض وكسبوا منها، غير أن قسماً منهم اختصم مع الملاك بسبب توزيع الحاصل أو الماء، فكان رسول الله (ص) يتدخل بنفسه في حسم الخلافات التي كانت تنشأ بين الملاك ومن يعمل عندهم، ولعله بسبب هذه الخلافات تم الغاء إيجار الأرض بقوله: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها، فإن لم يفعل فليمسك أرضه» (٤٥)

وبهذا أوجد الرسول (ص) حلاً للمشكلة الاقتصادية التي واجهته بعد الهجرة، والتي نبعت من واقع أصحاب المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة، وغادروها دون أمل بالعودة واسترداد ما يملكون، إضافة إلى أنه أوجد نظام المؤاخاة، أفادت هذه المؤاخاة من الناحية الاقتصادية بدليل إن عملية الميراث التي قامت على المؤاخاة توقفت بعد النصر في بدر وما أفاء الله عليهم من غنائم وأموال سدت عوز المحتاجين منهم، فلم يعد له ما يسوغه. (٤٦)

وكانت الثروة الحيوانية ركن آخر من أركان الحياة الاقتصادية حيث امتلك أهل يثرب ثروة من الابل كانوا يرعونها مما تنبت المدينة من أشجار وشجيرات رعوية. (٤٧) فعندما رأى رسول الله (ص) ابلا في السوق وأعجبه سمنها، قال: «أين كانت ترعى هذه؟ فقالوا: بحرة شوران فقال: «بارك الله في شوران» (٤٨) وقد ذكر حسان بن ثابت الانصاري الابل في شعره قائلاً:

بيثرب قد شيدوا في النخيل

حصوننا ودجن فيها النعم (٤٩)

وقد اتخذت الابل مقياساً للثروة والمال، فكانوا يقدرون بها أثمان السلع، والأشياء ويتعاملون بها في تجارتهم، وفي أسواقهم وبها تم تقدير الديات والفدية والمهور، فأول قتيل وداه رسول الله بمئة ناقة، (٥٠) فقد كان لرسول الله (ص) لقاح في الغابة. (٥١) وكان عدد ابل المسلمين يوم بدر سبعين بعيراً (٥٢) وهذا العدد قليل إذا قيس بعدد المسلمين، لذا كانوا يتعاقبون الابل الاثنى والثلاثة والأربعة، (٥٣) وبعد بدر كثر عدد ابل المسلمين من الغنائم ومن التناج، فمثلاً كانت النعم في غزوة قرارة الكدر خمسمائة بعير (٥٤) وغنم المسلمون في غزوة حنين من الابل «أربعة وعشرين ألف بعير، وكانت الغنم لا يدري عددها، قالوا: أربعين ألفاً وأقل وأكثر» (٥٥) ومما يدل دلالة واضحة ازدياد عدد الابل في المدينة بعد أمد من هجرة الرسول إليها امداد عثمان بن عفان جيش تبوك بثلاثمائة بعير. (٥٦)

ووجدت الخيول في المدينة، ولكنها كانت قليلة العدد (٥٧) وهي ان وجدت كانت بحوزة أهل اليسر والغنى، وبالمقارنة مع عددها بعد الهجرة نجد أنها زادت شيئاً فشيئاً، وذلك تبعاً لحاجة المسلمين إليها في حروبهم نظراً لسهولة الخيل وخفتها ومرونتها في القتال وفي الكر والفر، فهي سلاح لنجاح الغزو، وإلحاق الأذى بالعدو، فكثير جلب الخيل من البادية للبيع وقد كانت لها سوق خاصة بالمدينة «كانت بنو سليم يجلبون إليها الخيل...» (٥٨) وفي القرآن الكريم ذكرت الخيل في آيات متعددة على أنها مصدر من مصادر الثروة والزينة وبهجة الحياة الدنيا يهرب المسلمون بها أعداءهم. (٥٩) وعندما كثر عدد الخيول في المدينة جعل لها الرسول (ص) موضعاً خاصاً للرعي فحمى النقيع أحماه لخيول المسلمين وركابهم» (٦٠)

أضف إلى ذلك أن الرسول (ص) ابتاع بسبانيا بني قريظة خيلاً وسلاحاً من نجد، (٦٠) فكثرت أعداد الخيول في المدينة حتى بلغ عددها في جيش المدينة عند فتح مكة ما يقارب الألفي فرس، (٦٢) وبلغ ما استطاع أن يمد رجل واحد من المسلمين «هو الصحابي عثمان بن عفان» (٦٣) جيش تبوك، بثلاث مائة يملكه ذلك الجيش الذي بلغ عشرة آلاف فرس (٦٤) الأمر الذي يبرهن على نمو عدد الخيول وكثرتها في المدينة بعد الهجرة.

وعدت الأغنام المادة الرئيسة لتأمين الناس باللحوم والصوف، ومن الواضح أن أهل المدينة قد عملوا بتربيتها، وكانت تربي في منطقة اسمها الغابة، ففي غزوة ذي قرد جاء: قالت بنو حارثة من الانصار «يا رسول الله ههنا مسارح ابلنا ومرعى غنمنا ومخرج نسائنا يعنون موضع الغابة، فقال رسول الله (ص): من قطع شجرة فليغرس مكانه ودية، فغرس الغابة» (٦٥)

وفي غزوة بدر الأولى أغار كرز بن الفهري على سرح المدينة «أي على الابل والمواشي» (٦٦) وبمعرض الحديث عن أسر عمرو بن أبي سفيان وإطلاقه جاء «فينا هو محبوس بالمدينة عند رسول الله (ص) اذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني معاوية معتمراً ومعه مريه له، وكان شيخاً مسلماً في غنم له بالنقيع» (٦٨)

وعاشت الأغنام في حمى الربذة، فقد «كان يرعى فيه أهل المدينة» (٦٩) على هذا حوت المدينة الأغنام، وكانت تربي في الغابة والنقيع والربذة، وقد أمدت السكان باللحم والصوف واللبن.

ولقد كانوا يتهادون الشياه، فالرسول (ص) عندما نزل الأبواء أهدى ابياء بن رخصة جزراً ومائة شاة.... ولقد ضحى رسول الله (ص) بالمدينة، وخرج بالناس الى المصلى، وذبح بيده شاتين وقيل شاة. (٦٩)

لم تكن الثروة الحيوانية نامية في المدينة قبل الاسلام فكما أسلفنا القول، كثيراً ما كانت تتعرض للغزو السلب والنهب من قبل القبائل المتنازعة، خاصة الأوس والخزرج، وبالمقابل لم نسمع عن سلب أو نهب بين القبائل المتعددة بعد الاسلام، لكن ما أوردته المصادر هو أنه عقب كل غزوة كانت هناك غنائم توزع على المقاتلين، من المسلمين، فتحسنت أحوالهم، وأصبح لهم ثروة بعد أن هجروا ديارهم وأقبلوا على المدينة صفر اليدين.

ومما يذكر أن رسول الله (ص) لما فتح خيبر، وصارت الأموال بين يديه لم يكن عنده من العمال ما يكفيه عمل الأرض، فدفعها إلى اليهود يعملون بها على نصف ما خرج منها... (٧٠)

وقامت في المدينة بعض الصناعات التي تعتمد على الانتاج الزراعي مثل صناعة الخمر من التمر، وكان معظمها في منطقة الحصون الخيرية، (٧١) واعتمد أكثرها على خليط من البسر والتمر، وبعضها على خليط من الزبيب والتمر، أو الرطب واليسر، (٧٢) وكانت تحفظ هذه الخمور في جرار، أطلق عليها اسم الحتمة، والمزفت، والدباء، والنقير. (٧٣) وقامت أيضاً على سعف النخل صناعة المكاتل والقفف، والنجارة من شجر الطرفاء، والاثل، وهو شجر كان يكثر في غابة يثرب. (٧٤)

واحتكر اليهود العمل في الحرف المالية، والصناعية، مستغلين من ناحية الطبيعة الاجتماعية لأهل المدينة من الأوس والخزرج، ومن ناحية أخرى لصلاتهم الطيبة مع قبيلة سليم، التي كانت تمتلك المصادر المعدنية كالذهب والفضة، (٧٥) والحديد، (٧٦) فعملوا بها، وربحوا ربحاً طيباً كما وربحوا من انتاجهم الادوات والمعدات والآلات الزراعية، وعملوا أيضاً بصناعة الدباغة وآلات الزراعة، وأدوات الصيد هذا وان عمل غيرهم من أهل المدينة بالحدادة (٧٧)، فقد كانت هذه الحرفة شبه حكر عليهم.

ففي غزوة خيبر، خرج اليهود «بمساحيهم ومكاتلهم» (٧٨) وفي غزوة الخندق استعار المسلمون من بني قريظة آلات كثيرة من مساحي وكرازين، ومكاتل يحفرن بها الخندق» (٧٩)

ولقد غنم الرسول (ص) كل مالدي بني النضير من سلاح، الحلقة والدروع (٨٠) وذلك بعدما حاصرهم طويلاً حتى نزلوا على الجلاء، على أن لهم ما أفلت من الابل من الأمتعة والأموال الا الحلقة» (٨١)

كما غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع عن المدينة كثيراً من الدروع والسيوف والقيسي، في أطمهم أيضاً آلة للصاغة (٨٢)، ففي قرية زهرة وحدها، وهي أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والساقلة، ثلثائة صائغ. (٨٣)

وكان في المدينة سوق لبني قينقاع اختص بالصياغة احتوى على الكثير من الحلي والمجوهرات، (٨٤) اعتادت النساء من أهل المدينة على غشيانه يشترين ما يلزمهن، وقدم إليه الناس من حواضر الحجاز، وأهل البادية لشراء ما تطلبه نساؤهم وفتياتهم من مصاغ. ومن الطبيعي ألا تشذ المدينة عن حياة الحواضر الأخرى، خاصة وأن موقع يثرب على طريق القوافل كان يؤهلها للإسهام بالضرورة في نطاق الدائرة الحيوية من تجارة الشام المهمة، وفي ضوء ذلك أسهمت المدينة فيها بنصيب، سواء في المواد المنتجة محلياً، أم المستورد منها عبر ميناء الجار.

وفي الوقت الذي احترف فيه السكان الزراعة، وذلك لخصوبة الأرض وتوفر الامكانيات المطلوبة، فمن غير المستبعد ألا يكونوا قد ضربوا بسهم وافر في النشاط التجاري في الحجاز، وفي الرحلات التجارية الخارجية ومهما يكن من حال، احترف اليهود التجارة إلى جانب الصناعة، وتحدثت المصادر عن رجل يهودي اسمه اذينة، كان بارعاً في التجارة، أغضب حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف فألب عليه فتianاً من قريش، تخلصوا من منافسته بقتله. (٨٥)

ومن المؤكد أن قوافل مكة كانت تمر بالمدينة في رحلاتها التجارية (٨٦) وأن أهلها كانوا يتعاملون مع هذه القوافل المكية، ولقد وصفت خيبر، وسوقهم الشهير «نطاة خيبر» بأنها واحدة من أهم مراكز التجارة، واشتهرت أسواقها الموسمية، ليس في بلاد الحجاز فحسب بل في جزيرة العرب أجمع (٨٧)

فقد صنفها ابن حبيب ضمن أسواق العرب المشهورة، كات مبايعتهم فيها (٨٨)، وكانت مقر اليهود في الحجاز قبل الاسلام (٨٩)، وقد أعدها اليهود لتكون واحدة من أهم المحطات التجارية للقوافل التي كانت تجوب شبه الجزيرة العربية من سوق إلى سوق (٩٠)، وكان لليهود علاقات تجارية واسعة خارج منطقة خيبر، وأسهموا بدور هام في التجارة الخارجية لشبه الجزيرة، وكانت التجارة الدولية من الأعمال التي برعوا فيها وكان التاجر اليهودي الجوال معروفاً في كل بلدة ومدينة ومعروفاً في كل سوق (٩١).

وكانت التجارة الداخلية نشيطة في يثرب، وسلف أن ذكرنا أنه كان بها عدة أسواق كسوق بني قينقاع لبيع الحلي، ثم سوق أخرى بزبالة وكان بالصفاصف بالعصبة سوق، وسوق قام في موضع زقاق ابن حيين، كان يقال له مزاحم (٩٢). وسوق قرب البقيع عرفت ببقيع الخيل وسوق الطحاء (٩٣)، ولانعدام الامن والرقابة المنظمة «كان الراكب يتزل بسوق المدينة فيضع رحله ثم يطوف بالسوق، ورحله بعينه يبصره ولا يغيب عنه شيء» (٩٤)

ويبدو أيضاً أنه لم تكن هناك رقابة مفروضة على البيع والشراء وتنظيم التعامل في هذه الأسواق فالغش والمخادعة وسوى ذلك كانت من الأمور المعتادة، فقد كانوا يبلون الحنطة والشعير ليكثر كيلها أو يخفون الرديء داخل الطيب، ذكر عن النبي (ص) أنه «مر برجل يبيع طعاماً، فسأله كيف تبيع؟ فأخبره فأوحى إليه أن أدخل يدك فيه، فأدخل يده فإذا هو مبلول، فقال رسول الله (ص) «ليس منا من غش» (٩٥)

كما كانوا يرفعون الأسعار، ويحتكرون البضائع، فعندما مر الرسول (ص) برجل يبيع طعاماً بسعر أعلى من سعر السوق... قال «ابشروا فان الجالب الى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله، وان المحتكر كالملحد في كتاب الله» (٩٦)

وكانوا يتصرفون في مزروعاتهم ببيعها قبل أن يبدو صلاحها كما سلف ذكره. وتعامل أهل المدينة بالربا: ممارسة العرب واليهود على السواء، فقد ذكرت الروايات أن أوصيحة ابن الجلاح أحد زعماء الاوس، كان يتعامل بالربا مع قومه من الاوس، كاد ان يحيط بأموالهم (٩٧). وقد نزل القرآن ينذر باليهود ويلومهم لأخذهم الربا، وقد نهوا عنه، وعن أكلهم أموال الناس بالباطل (٩٨).

وعلى الرغم من وجود هذه التجارة في ثرب، إلا أنها لم تستطع منافسة مكة بوجه عام في الفترة التي سبقت الهجرة، وقد تبدل الوضع بعد هجرة النبي إليها، فنقل المهاجرون خبرتهم الى المدينة، فأبو بكر وعثمان كانا بزازين، وعمر كان تاجراً في الجاهلية (٩٩). وبعد الهجرة أخذوا يتاجرون من المدينة مع بلاد الشام، وإذا نظرنا إلى غزوات الرسول (ص) كغزوة دومة الجندل وتبوك وغيرها وجدنا أنها كانت من بعض الجوانب لحماية الطرق التجارية أو لاحتكارها لصالح المدنيين (١٠٠)، وقد عد انتصار المسلمين في بدر حلقة أولى في الحصار الاقتصادي لمكة، هدد قوافل قريش، وشيئاً فشيئاً تبوأَت المدينة مركز مكة التي تطوقت في حصار اقتصادي هدد مصالحها الحيوية، ولم يكن الأمر مجرد حصار تجاري ضد الفئات القرشية الميسورة، ولكنه انعكس على مختلف فئاتها الاجتماعية سواء في ارتزاقها اليومي. أو في تموينها بالمواد الغذائية الأساسية، فقد كان هذا الطريق الجزء الأهم منها لاسيما الحبوب التي كانت تأتيها من بلاد الشام، وأخذ الأنصار والمهاجرين يتاجرون معاً في الأسواق، وظهرت النتائج الكبرى لهذه التجارة بعد فتح مكة، ودخول القبائل في الاسلام.

المصادر والمراجع:

- ١— ابن الاثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري؛ اسد الغابة في تمييز الصحابة. منشورات المكتبة الاسلامية.
- ٢— الاصبهاني، (أبي الفرج علي بن الحسين)
الاغاني، مصور عن طبعة دار الكتب
- ٣— الافغاني، (سعيد)
أسواق العرب في الجاهلية والاسلام— دار الفكر ط ٣
- ٤— امرؤ القيس،
ديوان امرؤ القيس. دار صادر—بيروت
- ٥— الانصاري، (عبد القاوس)
آثار المدينة المنورة— مطبعة الترقى دمشق ١٩٣٥ م.
- ٦— البخاري، (أبي عبد الله محمد بن اسماعيل).
صحيح البخاري. مطبعة الهندي ج ٢—ج ٣
- ٧— البلاذري، (أحمد بن يحيى بن جابر)
أنساب الأشراف— تحقيق محمد حميد الله — دار المعارف مصر.
- ٨— البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان— دار الكتب العلمية— بيروت ١٩٧٨ .
- ٩— ابن حبيب، (ابي جعفر محمد)
المحبر، مكتبة المثنى—بغداد ١٩٤٢
- ١٠— حسان بن ثابت
ديوان حسان
- ١١— الحموي، (ياقوت)
معجم البلدان — دار احياء التراث العربي— بيروت ١٩٧٩
- ١٢— ابن حوقل، (ابي القاسم النصيبي)
صورة الأرض. مكتبة الحياة— بيروت ١٩٧٩
- ١٣— ابن خرداذبة، (ابي القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والممالك — دار المدينة. مطبعة بريل ١٨٨٩ م
- ١٤— دائرة المعارف الاسلامية، أصدرها بالعربية أحمد الشتاوي و ابراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس — مراجعة. محمد مهدي علام.
- ١٥— سالم، (عبد العزيز).
تاريخ العرب في عصر الجاهلية— دار النهضة العربية ١٩٧١ م

- ١٦—سلام، (شافعي محمود سلام)
النشاط التجاري في خير— منشأة المعارف— الاسكندرية
- ١٧—السمهودي، (نور الدين علي بن أحمد)
وفاء الوفا— دار احياء التراث العربي ط ٤ ١٩٨٤ م
- ١٨—السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن)
تاريخ الخلفاء— تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم— دار الفكر العربي مصر.
- ١٩—شريف، (أحمد ابراهيم)
مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول— القاهرة ١٩٦٧
- ٢٠—عادل وخماش، (نبه ونجدة)
تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى— دار الكتاب— دمشق ط ٣
- ٢١—علي، (جواد)
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٦ .
- ٢٢—الكتاب المقدس
القرآن الكريم
- ٢٣—لوبون (غوستاف)
حضارة العرب— ترجمة عادل زعيتر— مطبعة الحلبي ١٩٦٩ م
- ٢٤—ابن منظور، (ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)
لسان العرب— دار صادر— بيروت.
- ٢٥—المقرئزي، (تقي الدين أحمد بن علي عبد القادر)
امتناع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع— تحقيق محمد شاكر
— مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر— القاهرة ١٩٤١ .
- ٢٦—الواقدي، (محمد بن عمر)
المغازي النبوية— تحقق مارسدن جونز— مؤسسة الاعلمي للمطبوعات— بيروت
- ٢٧—ابن هشام، (ابو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري؛ السيرة النبوية—
تحقيق مصطفى السقا وغيره— دار احياء التراث— بيروت.
- ٢٨—الهمداني، (ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب)
صفة جزيرة العرب— تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي— دار اليمامة— الرياض.
- ٢٩—اليعقوبي، (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
تاريخ اليعقوبي— دار صادر— بيروت.

الحواشي:

- ١— ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٢— ياقوت، معجم البلدان مادة جار.
- ٣— ياقوت معجم البلدان مادة جار.
- ٤— ابن حوقل، صورة الارض ص ٣٩
- ٥— ياقوت، معجم البلدان مادة أحد، ومادة مدينة يثرب.
- ٦— ياقوت، معجم البلدان مادة غير.
- ٧— ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٨— السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ وما بعدها.
- ٩— سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٦٨ .
- ١٠— ياقوت، معجم البلدان مادة بئر.
- ١١— ياقوت، معجم البلدان مادة عقيق.
- ١٢— السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧١ وما بعدها، الانصاري، آثار المدينة ص ١٤٠—١٥١—١٥٥. سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٣٨٧ .
- ١٣— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.
- ١٤— ياقوت، معجم البلدان مادة حرة.
- ١٥— سمهودي، وفاء الوفا ١ / ٣٩ .
- ١٦— البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٦٦٧ .
والجُحفة، كانت قرية كبيرة ذات منبر على طريق المدينة من مكة على أربع مراحل، وهي ميقات أهل مصر والشام ان لم يمروا على المدينة فان مروا بالمدينة فيمقاتهم ذو الحليفة، وكان اسمها مهيعة، وانما الجحفة لان السيل اجتحفها وحمل أهلها في بعض الاعوام وهي الآن خواب. ياقوت، معجم البلدان مادة الجحفة.
- ١٧— ابن منظور، لسان العرب مادة قيل، سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية— ص ٣٩٢ .
- ١٨— السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٤٢ وما بعد.
- ١٩— البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨٣٣، البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤
- السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٧٩ .
- ٢٠— البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤ .
- ٢١— ياقوت، معجم البلدان مادة يثرب.
- ٢٢— الاصبهاني، الاغانى ١٥ / ٤٨ — الافغاني، اسواق ص ٦٢ .
- ٢٣— ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٦ .

- ٢٤—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣١، السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ .
- ٢٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٠١ — ٢٠٢ قارن البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٣
- ٢٦—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٥ .
- ٢٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ .
- ٢٨—اليقوي، البلدان ص ٣١٣، ياقوت معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٢٩—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ٩٩٠ وما بعد، شريف، مكة والمدينة ٣٥٧ .
- ٣٠—البخاري، صحيح البخاري ٣ / ٨١٧ وما بعد.
- ٣١—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٣٢—ديوان امرؤ القيس ص ٦٥، ابن منظور، لسان العرب مادة جرم.
- ٣٣—الواقدي، المغازي ١ / ٣٧٢ .
- ٣٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٥٧ .
- ٣٥—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٢٩ .
- ٣٦—سمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٢٣٨ وينظر ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب .
- ٣٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ١٤٤ .
- ٣٨—ياقوت، معجم البلدان مادة مدينة يثرب.
- ٣٩—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٧ .
- ٤٠—ياقوت، معجم البلدان مادة الاطم والاطم والاجم بمعنى واحد والجمع أطام وأجام وهي الحصون، وأكثر ما يسمى بهذا الاسم حصون المدينة.
- ٤١—البخاري/ صحيح البخاري ٢ / ٨١٩ .
- ٤٢—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٠ .
- ٤٣—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
- ٤٤—البخاري، صحيح ٢ / ٧٦٣، الافغاني أسواق ٥٠—٥١ .
- المزانية، وهي بيع الثمر بالتمر، وبيع الزبيب بالكرم، وبيع العرايا وهي اشتراء الثمر بالتمر في رؤوس النخل.
- المحاولة، بيع الحنطة في سنبها بحنطة صافية.
- ٤٥—البخاري، صحيح البخاري ٢ / ٨٢٥ .
- ٤٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ١٥٠ وما بعد، ٢ / ٢٥٧ وما بعد.
- ٤٧—المقرئزي، امتاع الاسماع ١ / ٢٤٧ .
- ٤٨—السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٤٧ .

- ٤٩—ديوان حسان بن ثابت ٢٢٢ .
- ٥٠—ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٥٨ .
- ٥١—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٩٤ ، واللقاح «الابل الحوامل ذوات الالبان» .
- ٥٢—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
- ٥٣—ابن هشام السيرة النبوية ٢ / ٢٦٤ .
- ٥٤—الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٨٣ .
- ٥٥—الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ٩٤٣ .
- ٥٦—السيوطي، تاريخ الخلفاء ١٦٧ .
- ٥٧—ابن هشام، السيرة النبوية. كانت خيول المسلمين يوم بدر فرسين بينما كانت خيول أهل مكة مائة فرس .
- ٥٨—السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
- ٥٩—سورة آل عمران آية ١٤ ، الانفال، ٦١ ، سورة النحل، ٨ ، سورة الحشر، ٦ ، سورة الاسراء، ٦٤ .
- ٦٠—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٨٥ .
- ٦١—ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٢٥٦ ، الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٢٣ .
- ٦٢—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٨٠٠ .
- ٦٣—الواقدي ، مغازي الواقدي ٣ / ٩٩١ .
- ٦٤—الواقدي، مغازي الواقدي ٣ / ١٠٠٢ .
- ٦٥—البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٣ .
- ٦٦—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٢٥١ .
- ٦٧—ابن هشام، السيرة النبوية ٢ / ٣٠٥ .
- ٦٨—السمهودي، وفاء الوفا ٣ / ١٠٥٩٢ .
- ٦٩—الواقدي، مغازي الواقدي ٢ / ٥٧٧ ، ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٢٢ .
- ٧٠—البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٩ .
- ٧١—سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٧ .
- ٧٢—جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٧ / ٥٤٠ .
- ٧٣—ابن منظور، لسان العرب مادة حنتم ومادة زفت ومادة دبي ومادة نقر .
- ٧٤—شريف، مكة والمدينة ص ٣٧٦ ، سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ٤٠٥ .
- ٧٥—الهمداني، الصفة ص ٢٩٩ ، دائرة المعارف الاسلامية ١٢ / ١٤٤ .
- ٧٦—ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .

- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٣١ .
٧٧— ابن الاثير، أسد الغابة ١ / ٣٨—٣٩ .
٧٨— ابن هشام، السيرة النبوية ٣ / ٣٤٣ .
٧٩— الواقدي، مغازي ٢ / ٤٤٥ . والمساحي جمع مسحاة وهي المجرفة من الحديد،
وكرازين جمع كرزون وهو الفأس . وكاتل جمع مكتل وهو الزنبيل الكبير . الواقدي ،
مغازي الواقدي ٢ / ٤٤٥ حاشية .
٨٠— البلاذري، فتوح البلدان ٣١ .
٨١— الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ٣٧٣ .
٨٢— الواقدي مغازي الواقدي ١ / ١٧٩ .
٨٣— السمهودي، وفاء الوفا ٤ / ١٢٣٠ .
٨٤— الواقدي، مغازي الواقدي ١ / ١٧٦ .
٨٥— البلاذري، أنساب الاشراف ١ / ٧٣ .
٨٦— ابن هشام، السيرة ٢ / ٢٥٧ .
٨٧— الافغاني، اسواق ٣٥٦ .
٨٨— ابن حبيب، المحبر ١٦٩ .
٨٩— لوبون، حضارة العرب ١٠٧ .
٩٠— الافغاني، أسواق ٣٥٦ .
٩١— سلام، النشاط التجاري في خيبر ص ٢٢ .
٩٢— سمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٧ .
٩٣— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٤ .
٩٤— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٩ .
٩٥— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٦ .
٩٦— السمهودي، وفاء الوفا ٢ / ٧٥٧ .
٩٧— الاصبهاني، الاغانى ١٥ / ٤٨ .
٩٨— سورة النساء، ١٦٠—١٦١ .
٩٩— الافغاني، أسواق ص ٣١ .
١٠٠— عاقل وخماش، تاريخ الدولة العربية الاسلامية الاولى ص ٦٣—٧١ .
١٠١— البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٨ . قارن السمهودي ، وفاء الوفا ٢ / ٧٤٨ .

من تاريخ اللغة العربية
أدوات الكتابة والوراقة

من تاريخ اللغة العربية(*)

● د. مسعود بوبو

أدوات الكتابة والوراقة

سبقت الإشارة إلى أن أدوات الكتابة والتدوين كانت بدائية وفق حاجات العرب إليها في ذلك الزمن المبكر، كالحجارة بأنواعها والعظام والأقتاب والعسيب والجلود والمهارق والطوامير.. ثم القرطاس والورق. وإذا أردنا الحديث عن الكتابة والوراقة بمفهومها الواسع، فلا بدّ من الحديث عن الورق بشيء من التفصيل، بصفته الأداة الرئيسة في هذا الميدان. والورق اختراع قديم، يعود تاريخه إلى ما قبل الميلاد، ومن المرجح أن الصينيين عرفوا صناعة الورق منذ عام ١٠٥ م، ومن الصين انتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند التي فتحها العرب سنة ٨٧ هـ. والمشهور عملياً أن معركة العرب بقيادة زياد بن صالِح مع الترك وحلفائهم الصينيين، عام ١٣٤ هـ، على ضفاف نهر طراز، جاءت بأسرى صينيين إلى سمرقند، كان فيهم من يعرف صناعة الكاغد الذي كان أحسن وأنعم من القراطيس البردية المصنوعة من ورق البردي، والتي عرفها المصريون منذ أقدم العصور، وعنهم عرفها الفينيقيون وأوصلوها إلى العرب، انطلاقاً من ثغرهم المعروف ببيلوس (قرب بيروت في لبنان). واشتق اليونان من اسم هذا الثغر كلمتي «ببليون BIBLION» بمعنى الكتاب عامة، ومنها الانكليزية BIBLIOTHECA والفرنسية BIBLIO-THEQUE، وتعني الكلمة في مختلف اللغات الأوربية: خزانة كتب، دار كتب، مكتبة عامة... BIBLIOGRAPHY ببليوغرافية، بمعنى الفهرسة، وعرافة الكتب. ومن الواضح والمتفق عليه، أن تسميتي «الكاغد» و«القراطيس» غير عربيتين، فالكاغد كلمة فارسية في معجم «لسان العرب» وغيره، والقراطيس: جمع «قرطاس» يونانية الأصل بلفظ «خارتس». وعندما عرف العرب هذين النوعين من أدوات الكتابة استخدموا التسميتين بتغيير صوتي يسير، أي بتعريب نطقيهما، ثم أصطلحوا على تسميتهما أو ترجمتهما بالورق، على التشبيه بورق النبات، ولم يكن العرب قد عرفوا ورق الكتابة،

★ نشرت الحلقة الأولى من هذه الدراسات في العدد ٣٣/ ٣٤ (١٩٨٩)، والثانية في العدد ٣٧/ ٣٨ (١٩٩٠)، والثالثة في العدد ٤٧/ ٤٨ (١٩٩٣)، والرابعة في العددين ٤٩/ ٥٠ (١٩٩٤)، والخامسة في العددين ٥٠/ ٥١ (١٩٩٥).

ومن الثابت تاريخياً أن العرب عرفوا القراطيس قبل الكاغد، يقول كلود كاهن: «...ومنذ العصر البيزنطي انفردت مصانع في مصر خاصة بإنتاج ورق البردي، أو بإنتاج الأقمشة الفاخرة التي عرفت باسم «الطراز» في العالم العربي وإيران. ولم تتوقف هذه الصناعات، بل ظلت قائمة في ظل الحكم العربي في مصر» (١)

والذي يعنينا هنا هو أن الروم البيزنطيين كانوا يستوردون القراطيس من مصر (٢)، ولأن أرض الشام كانت امتداداً لامبراطوريتهم، فمن المحتمل أن العرب كانوا قد عرفوا القرطاس بطريق الشام، ومن الشواهد القديمة على ذلك قول طرفة بن العبد يصف ناقتة:

وخذ كقرطاس الشامي ومشقراً

كسبت الياني قـدْه لم يجرد (٣)
وطرفة من الشعراء الجاهليين، أي أن العرب كانوا قد عرفوا القرطاس منذ العصر الجاهلي. ولكن، من المؤكد أن العرب—بعد الفتوحات الإسلامية—هم الذين كانوا يصدرون القراطيس والطوامير (٤) إلى بلاد الروم. فقد جاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة:

«كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض العرب، وتأتي من قبلهم الدنانير، وكان عبد الملك (ابن مروان بن الحكم ت ٨٦هـ) أول من كتب (قُلْ هو الله أحد) وذكر النبي صلى الله عليه وسلم في الطوامير، فكتب إليه ملك الروم: إنكم أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم نكرهه، فأنه عنه وإلا أتاكم في دنائيرنا من ذكره ماتكرهون. فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع شيئاً من ذكر الله قد كان أمر به، أو يأتيه في الدنانير من ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم مايكره. فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال: ياأباهاشم! إحدى بنات طبق (أي داهية معضلة)، وأخبره الخبر. فقال: ليفرح روعك (ليذهب فزعك)، حرم دنائيرهم واضرب للناس سككاً ولا تعفهم (يعني الروم) ممايكرهون. فقال عبد الملك: فرجتها عني فرج الله عنك» (٥).

وأما الكاغد الصيني الذي كان يصنع من الكتان والقنب، فقد كان العرب يستوردونه من سمرقند بطريق بلاد فارس. ومن الفرس عرف العرب المهارق، وكانت من قماش يسقى بالصمغ ثم يصقل بالخرز ويستخدم في الكتابة عليه (٦).

خلاصة القول: إن مصر والصين كانتا أشهر مصادر إنتاج الورق في العالم القديم، وإن العرب كانوا مستوردين له قبل الاسلام وفي بدايته من إحدى الجهتين أو منهما جميعاً، ثم ازدهرت صناعة الورق في ديارهم فصارت متجراً لهم، وسبباً من أسباب تقدم الحركة العلمية وتنشيطها.

ففي عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ) انتقلت صناعة الورق إلى بغداد خاصة بعد أن أمر لأن لا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق» (٧).

ويقال إن الفضل بن يحيى البرمكي أنشأ هذه الصناعة في الجودة ووفرة الإنتاج، ونالها على أيدي المسلمين التغيير الذي كان يعتبر حادثاً في تاريخ العالم، فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي وكان من الأنواع التي اتخذوها:

١- السليمان، نسبة إلى سليمان بن راشد الذي كان على خراج خراسان لهارون الرشيد.

٢- الجعفري، نسبة إلى جعفر البرمكي.

٣- الطلحي، نسبة إلى طلحة بن طاهر ثاني الأمراء الطاهريين.

٤- الطاهري، نسبة إلى طاهر الثاني.

٥- النوحى، نسبة إلى نوح الساماني. (٨)

أي إن صناعة الورق في العصر العباسي صارت بيد الحكومة المركزية التي اتسعت بهذه الصناعة، فأنشأت مصانع في دمشق وطبرية وحلب وطرابلس من بلاد الشام. وإبان الحروب الصليبية، تعلم أسيران فرنسيان في دمشق سر صناعة الورق، وعندما عادا إلى أوروبا نشر هذا السر، وعمت بعد ذلك صناعته في فرنسا وأوروبا. كما كان لصناعة الورق في صقلية والأندلس أكبر الأثر في نقل هذه الصناعة إلى إيطاليا وبقية الغرب. (٩) ويذكر الإدريسي أنه كان يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد مالا يوجد له نظير بمعمور الأرض، وأنه يعم المشارق والمغارب (١٠). وقد مدح المؤرخون الروم والمسلمون الورق الدمشقي الذي صار يصدر منها ومن طرابلس على البحر المتوسط إلى مصر، وكانت أوروبا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق العربي كما يدل الورق الدمشقي: (كارتا دا مسكنا CHARTA DAMASCENA)، وكذا عرف عندها ورق الطير الذي كان رقيقاً تكتب فيه البطائق وتعلق في أجنحة حمام الزاجل. وصنع الورق في حلب، ولشهرته سمي حي فيها باسم «حي الوراق»، وما زالت هذه التسمية معروفة إلى اليوم.

وما من شك في أن الإقبال على اقتناء الكتب ونمو الاهتمام العلمي، وشيوع المكتبات قد عزز صناعة الورق ورواج الاتجار به، ودفع الحكام إلى زراعة القنب لدعم صناعته وتوفيره حتى صار في متناول المحتاج بسعر زهيد، يرجح هذا ما ذكره ابن سعد في الطبقات (١٦/٦) من أن علي بن أبي طالب قام بخطب في أهل الكوفة فقال: من يشتري علماً بدرهم؟ فاشترى الحارث الأعور صحفاً بدرهم، ثم جاء بها علياً رضي الله عنه فكتب له علماً كثيراً.

ويذكر الجهشيارى أن الخليفة أبا جعفر المنصور، باني مدينة بغداد، وقف على كثرة القراطيس في خزائنه، فدعا بصالح صاحب المصلى فقال له: إني أمرت بإخراج حاصل القراطيس من خزائنا فوجدته شيئاً كثيراً جداً، فتول بيعه، وإن لم تُعط بكل طومار إلا دانقاً، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه.

قال صالح، وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم (١١) ولقد كان حرياً بتجارة الورق أن تزدهر تمشياً مع اتساع التدوين والتصنيف وإقبال الناس المتزايد على الاشتغال بالكتابة والاهتمام بالكتب وبالتحصيل العلمي عن هذا الطريق الجديد، ومن هنا حرص الحكام على توفير الورق، خدمة للعلم والدين، وتوجيهاً للناس إلى مافيه صلاحهم وخيرهم وخدمة لغتهم. وفي هذا الصدد يذكر قول الألمانية زيغريد هونكه:

«فأصبحت الكتب هي مطلب كل من يستطيع تحمل نفقات الحصول عليها، وأقبل الناس في البلدان العربية على اقتنائها بلهفة متزايدة لم يعرف لها التاريخ من قبل مثيلاً» (١٢).

ومع تنامي هذا الاتجاه الصناعي — التجاري — العلمي فرز التطور التاريخي للعرب ظاهرة جديدة في حياتهم ومجتمعاتهم هي حرفة الوراقة. واصطلح القوم على أن الوراقة تعني حرفة صناعة الورق، ونسخ الكتب، والاتجار بها، وهي عند ابن خلدون: «الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور المكتبية والدواوين» (١٣).

وقد فرز هذا التطور فئة جديدة في المجتمع عرفت باسم «الوراقين»، واشتغل بحرفة الوراقة عدد من أعلام الحفاظ والنحاة والمؤرخين والقضاة والعلماء والأدباء، وفي طليعة هؤلاء الجاحظ (عمر بن بحر بن محبوب، ت ٢٥٥ هـ) وابن النديم (أو النديم ٤٣٨ هـ)، وياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) وغيرهم.. ولقب بعض هؤلاء بالقراطيس والكراريس، واشترك معهم في هذه الحرفة المشتغلون بصناعة الأحبار والأقلام وأدوات الكتابة والخطاطة والتجليد، كما جذبت هذه الحرفة التجار وأصحاب رؤوس الأموال ونظرأهم ممن اتخذوها وسيلة للرزق وكسب العيش والشهرة.

وكان للوراقة أسواق مشهورة في سائر أنحاء الدولة الإسلامية، «ففي سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثر من مئة متجر (مثلاً) كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي يجتمعون. هنا يفتش الفيلسوف والشاعر والفلكي عما صدر حديثاً من الكتب، وهنا ينقب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهناك يتنافسون جميعاً ويتبادلون المعرفة أو تُقرأ عليه برمتهم مقتطفات مما كتب» (١٤).

وأثر هذه الأسواق في تاريخ اللغة العربية يظهر جلياً في الانتقال من الأسواق الشعرية ومنابر الخطابة ومنتديات القوم ومجالسهم التي كانت أدواتها الأولى المادة الشعرية والمنافرات والإصلاح، وطابعها الكلامي الإلقائي — إلى أسواق الوراقة التي حفلت بالعلوم المتنوعة، والمعارف المتشعبة، والتي دونت في الأوراق والكتب بلغة علمية رصينة متأنية..

وصار للوراقة محترفون مهرة مستقل بعضهم، أو تخصص بفن بعينه في هذا الميدان، كالجغرافي المقدسي، من جغرافيي القرن الرابع الهجري، الذي برع في فن التجليد على الطريقة الشامية، وكان في رحلاته يجلد الكتب، وعندما زار اليمن ونزل في عدن كانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف. (١٥) وازدهر فن التجليد بالجلود حتى أخذته البندقية عن العرب ونشرته في أوربة.

وارتبطت بالوراقة مهنة «الخطاطة»، واشتهر خطاطون، وصار يذيل الكتاب باسم الخطاط للرفع من قيمته. كما رافق الوراقة «التذهيب» والزخرفة، وخاصة للفاتحة أو الديباجة، من كلمة ديباج بالفارسية، ثم أخذ الأوربيون كذلك هذا الفن. وظهر مع الوراقة «الدالون» الذين كانت مهمتهم البحث عن الكتب النادرة وشراءها وبيعها، فكانوا يجوبون المدن ويزورون كل تاجر للبحث عن النادر منها وللإطلاع على آخر ما أنتجه الفكر العربي تأليفاً وترجمة. فكانوا بذلك همزة الوصل بين تجار الكتب في العالم العربي (١٦).

وهكذا امتلأت حوايت بيع الكتب وأسواقها بالنساخين والخطاطين، وغدت الوراقة مصدر رزق لطائفة كبيرة من الناس. وألحق بالمساجد مكتبات عامة لطلاب العلم، وصار أصحاب الاختصاص يلتمسون الكتب كل وفق اختصاصه. وفي هذه الدائرة عرف ابن النديم العام صاحب «الفهرست» ندماءه وخلأته، ومن هنا استقى مادة كتابه وعنوانات أقسامه كتاب وفصوله، وكان هو نفسه عالماً فذاً له شهرته، كما كان، كأغلبية زملائه من تجار الكتب، قد تلقى تربية علمية واسعة، فسمع محاضرات الأعلام من فلاسفة عصره، وزار منازلهم وتعرف بالأوساط العلمية التي انتشرت على شكل جماعات ومدارس في أنحاء العربية.. ولم يكن هذا الرجل المثقف تلك الثقافة العالية إلا نموذجاً للكثير من زملائه ناشري العلم والمعرفة في تلك العصور. (١٧) وهو الذي خبر خفايا حرفة الوراقة وأسرار أصحابها وما كان يدفعهم إلى الاشتغال بها، أو يؤرقهم جراءها، وفي هذا الصدد يقول:

«وكان العالم إذا لم يكن فقيهاً صاحب منصب، ولم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب، كما حكى عن أبي زكريا يحيى بن عدي (ت ٣٦٤هـ) وكان من أكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري.. وذكر عنه أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبري، وأنه كان يكتب في اليوم واللييلة مئة ورقة» (١٨).

وتتحدث زيفريد هونكه عن عالم الوراقه وعن الكتب التي «نسخت باليد وبذل فيها كاتبوها مجهوداً مضميناً دام أشهراً طويلة، بل وأحياناً بضع سنوات.. وكم رزم من الأوراق، وليترات من الخبر صنعت من السناج والصمغ العربي استهلكتها الأيدي الدائبة على الكتابة في كل عام. وكم من جلود أمدتهم بها صغار الغزلان والماعز قد استنفدت في هذا الغرض. وهكذا أصبحت تجارة الكتب تماماً كالصيدلة، هدية قدمتها العرب للبشرية. والواقع أن تاجر الكتب لم يعرف كوسيط لنقل الثقافة، ومتاجر الكتب كمراكز للثقافة في المدينة قبل أن يفعل العرب ذلك» (١٩).

إلى جانب العلماء والتجار والنساخ اشتغل القضاة بالوراقة، كأبي سعيد السيرافي القاضي الذي كان يأكل من كسب يده، ولا يخرج من بيته إلى الحكم إلا بعد نسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم (٢٠). وكان الأعراب الرواة يأتون الحواضر لعرض ألسنتهم أو بضاعتهم اللغوية ولا سيما الغريب، وبعضهم يعلم الصبيان أو يورق في الحضر كأبي مالك عمر بن كركرة (٢١).

ويستخلص مما قيد عن الوراقه في كتب التراث أن دورها كان شبيهاً بدور المطابع في هذا العصر من حيث إخراج الكتب للناس، كما كانت في الوقت نفسه بمنزلة المراكز الثقافية يشع منها نور العلم والمعرفة، ومصدراً للرزق ضئيل المورد، ومن هنا ذمت أحياناً، وحلم بعضهم بالخلاص منها كأنها رمز لبؤس العلماء، يستوي في ذلك الفلاسفة والشعراء الذين قال عليهم أبو الحسن بن الفرات (ت ٣١٢هـ):

«ولعل الواحد منهم يخل على نفسه بدائق ودونه يصرف ذلك في ثمن ورق وحرير، وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم، وأطلق لهم من خزانته عشرين ألف درهم» (٢٢).

وكان القاضي أبو المطرف (ت ٤٠٢هـ) قاضي الجماعة بقرطبة، وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه ليشتريه منه وبالع في ثمنه، وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة، وإذا سأل أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه، وقابله ودفعه إلى المستعير. (٢٣)

ويستخلص من هذا الخبر أن «النساخة» صارت وظيفة، وأن المهتمين بجمع الكتب كهذا القاضي كانوا يجندون فريق عمل من الوراقين الذين اتسعت مهامهم فشملت «مقابلة» المنسوخ على الأصل إلى جانب عملية الانتساخ.. ويبدو أن بعضه أمضى سحابة عمره في الوراقه حتى أوشك أن يحال على المعاش، أو التقاعد، ومن هنا جاء السأم والشكوى من هذه الحرفة، من ذلك ماروي من أنه كان بنيسابور وراق يسمى أبا حاتم، ورّق بها خمسين سنة، وهو القائل:

إن الوراق حرفة مذمومة
محرومة عيشي بها زمناً
إن عشت عشت وليس لي أكل

أو متّ متّ وليس لي كف
ويروي ياقوت الحموي، أحد الوراقين المؤرخين الثقات خبر أحدهم فيقول:
«وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة (ت ٤٣٩هـ) يعول والدته وزوجة وبتاً
من الوراق، وفي سنة واحدة كتب صحيح مسلم سبع مرات، وهو يقول: فلما كان ليلة
من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي ابن الخاضبة، فأحضرت،
ف قيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفائي ووضعت
إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه!. استرحت والله من النسخ» (٢٤).

وقد تعدى مفهوم الوراق هذه الدائرة التجارية والحرفية حين تحولت إلى ملتقى
للعلماء ومحفل لنشاطهم المتنوع في بيع الكتب وتبادلها واكترائها.. مما ساعد على رواج
المؤلفات، وازدهار التأليف، وكثرة المخطوطات. وهذا كله أفضى إلى هواية اقتناء الكتب
وإحداث المكتبات والخزائن.

ولا تعني الوراق وتلك الكثرة في الكتب والمكتبات أن العربية أصبحت تُحصل عن
هذا الطريق حصراً، أو أن الناس اتجهوا كلية إلى الكتب في التحصيل، بل كانت هنالك
حلقات للدرس والتدريس في المساجد، وكانت هنالك القراءة على الشيوخ في مختلف
ضروب العلم من تفسير وحديث ولغة وشعر وأخبار، وكانت طريقتها أن يختار
الشيخ «قارئاً» عرف بالضبط والحفظ ليقرأ والحاضرون يستمعون، أو يتابعون في
نسخهم، والشيخ يصحح الأغلاط، ويضبط النص، ويوثقه، ويشرح ما غمض منه
ووجوه احتمالاته، دلالة وتراكيب، ويكتب الحاضرون ما يضيفه الشيخ من زيادات،
وما يجيب به عن الأسئلة، إما من كتاب بين يديه أو من حفظه.
ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ياقوت الحموي نقلاً عن أبي الحسن العباس ثعلب
(ت ٢٩١هـ)، قال:

«شاهدت ابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ) وكان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان، كلٌّ يسأله أو
يقرأ عليه، ويجيب من غير كتاب. قال: ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً
قط» (٢٥)

وتعليل الإقبال على حلقات الدرس والقراءة على الشيوخ مرده إلى استمرار التأثير بالرواية الشفهية عن الثقات من العلماء من جهة، وعدم الثقة بالصحف والوراقين من جهة أخرى، وتعليل ذلك احتمال عدم فهم الناسخ لبعض الألفاظ أو العبارات أو المسائل والموضوعات، أو لأن المكتوب قد يكون منطوياً على خطأ لا يحسن الناسخ اكتشافه وتوجيهه فيأخذه على علته، ومن هنا نشأ الخوف أو الحذر من التصحيف والتحريف.

ويعرف السيوطي التصحيف فيقول: «أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته في صحيفة ولو لم يكن سمعه من الرجال، فيغيره عن الصواب» (٢٦).

ويقرب من ذلك التحريف، وهو إبدال حرف بحرف لتشابههما في الرسم. ومن هنا قال أبو منصور الأزهري، صاحب معجم الصحاح: «والصحفي إذا كان رأس ماله صحفاً يقرأها فإنه يصحّف كثيراً، وذلك أنه يخبر عن كتب لم يسمعها، ودفاتر لا يدري أصحح ما كتب فيها أم لا، وإن أكثر ما قرأنا من الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح، ولم يتول بصحيحها إلا أهل المعرفة السقيمة لا يعتمدونها إلا جاهل» (٢٧).

وقال الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ): «التصحيف أن يُقرأ الشيء على خلاف ما أراد كاتبه أو على خلاف ما اصطلحوا عليه» (٢٨).

والتحريف: تغيير اللفظ دون المعنى (٢٩). وفي «الكليات» لأبي البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤هـ): التصحيف: تغيير اللفظ والمعنى، والتحريف: تغيير اللفظ دون المعنى. (٣٠).

ومع ما استدعته الوراقة من تطور في تحصيل العلم، ومن إنفاق ومشكلات ومصطلحات، ومع كل هذا التحفظ والحذر، فإن الزمن والعرب قد انتقلا باللغة العربية من مرحلة الشفهية الصوتية إلى المرحلة الصورية الكتابية، وصار العرب يعكفون على تحصيل لغتهم من الصحف والكتب والمخطوطات ويحفظونها في تضاعيف المصنّفات والخزائن، بعد ما كانت تؤخذ بالسماع والتلقي والرواية، وتحفظ في الذواكر والصدور.

الحواشي والإحالات:

- ١— انظر: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية: ٣٥، كلود كاهن. ترجمة د. بدر الدين القاسم. دار الحقيقة—بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ وانظر أيضاً: ص ١٣٧ منه.
- ٢— انظر: فتوح البلدان للبلاذري: ٢٤١، عني بمراجعته: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية—بيروت ١٩٨٣.
- ٣— المشفر للناقة كالشفة للإنسان وكالجحفة للفرس. والسَّبْت (بكسر السين) جلود البقر المدبوغة. بشجر القَرَط، ومن هذه الجلود كانت تصنع النعال السَّبْتِيَّة أو نعال السبت، وكان ينتعلها عليه القوم.
- والقد: النعل لم تجرد من الشعر، لذا تكون ألين للمحتذي.
- ٤— الطوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة كما في لسان العرب (طمر)، وهو دخيل بمعنى الصحيفة الملفوفة، وفي التركية طومار معناه دفتر (كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية للقس طوبيا العنيسي ط / ٤٨) عني بنشره وتحقيقه الشيخ توما البستاني—مكتبة العرب بالفحالة. ط ٢ سنة ١٩٣٢. وقيد صاحب لسان العرب: وقيل: (هو دخيل، ثم قال: وأراه عربياً محضاً لأن سبويه قد اعتد به في الأبنية فقال: هو ملحق بفسطاط). والاعتداد به في الأبنية يكون في الشيوخ والاطراد، وليس بناء «فوعال» كذلك. والإلحاق يقتضي أن يكون بوزن أو أصل عربي صحيح، وفسطاط ليست بعربية. وانظر «المعرب من الكلام الأعجمي» للجواليقي: ١٧٣. بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، مطبعة دار الكتب ط ثانية، القاهرة ١٩٦٩. والكلمة في الفارسية (ان) فقالوا: طوماردان.
- ويبدو أنها دخلت اليونانية بحكم الجوار فتوهم د. التونجي يونانيتها انظر (معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية). نشر دار الأدهم. دمشق ١٩٨٨.
- ٥— عيون الأخبار: ٢١٩—٢٢٠، أعدته للطبع ونشرته وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٧، وفي فتوح البلدان: ٢٤١ مع بعض اختلاف في الرواية. وانظر: كلود كاهن (مرجع سابق): ٣٥.
- ٦— كوركيس عواد، مجلة مجمع دمشق، مجلد ٢٣ ص ٤١٨، بحث بعنوان: الورق أو الكاغد، صناعته في العصور الإسلامية.
- ٧— عواد، الموضع السابق، الصفحات: ٤١٨، ٤٢٦، ٤٢٧.
- ٨— الموسوعة الميسرة. وانظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ / ٣٦٦ لأدم متر، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريذة. ط ٥، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

- ٩—كور كيس عواد: ٤١٨ (مرجع سابق).
- ١٠—الحضارة العربية ٢ / ٣٦٧ حاشية المترجم عن الإدريسي، (طبعة دوزي، ص ١٩٢).
- ١١—الوزراء والكتاب: ٨٨—٨٩ دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت—لبنان ١٩٨٨.
- ١٢—زيغريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب» ص ٣٨٥، نقله عن الألمانية فاروق بيضون—كمال دسوقي، ط، ١٩٦٤. منشورات المكتب التجاري—بيروت.
- ١٣—مقدمة ابن خلدون ٢٦٢ بتحقيق. علي عبد الواحد وافي. القاهرة ١٩٥٧—١٩٦٠.
- ١٤—زيغريد هونكه: ٣٩٠.
- ١٥—الحضارة الإسلامية: ٢ / ٣٣٣ (نقلا عن المقدسي في: أحسن التقاسيم).
- ١٦—زيغريد هونكه: ٣٩١.
- ١٧—السابق نفسه: ٣٩٠—٣٩١.
- ١٨—الفهرست لابن النديم ٢٦٤، والحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢—٣٤٣.
- ١٩—زيغريد هونكه: ٣٩٠.
- ٢٠—البلغة في تاريخ أئمة اللغة لمجد الدين الفيروز آبادي: ٦١، تحقيق محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٢.
- ٢١—الأعراب الرواة: ٢١٨ للدكتور عبد الحميد الشلقاني. دار المعارف بمصر ١٩٧٧.
- ٢٢—الحضارة الإسلامية ١ / ٣٤٢.
- ٢٣—نفسه ١ / ٣٢٦—٣٢٧.
- ٢٤—إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ٦ / ٣٣٧، نشر مرجليوث، ليدن ١٩٠٧—١٩٢٦.
- ٢٥—معجم الأدباء: ١٨ / ١٩٠—١٩١ دار احياء التراث العربي. بيروت.
- ٢٦—المزهر في علوم اللغة: ٢ / ٣٥٣ بعناية: جاد المولى، البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. ط. عيسى الباني الحلبي وشركاه.
- ٢٧—تهذيب اللغة ١ / ٣٣. حققه وقدم له عبد السلام محمد.
- ٢٨—كتاب «التعريفات»: ٦١، مكتبة لبنان—بيروت ١٩٧٨.
- ٢٩—السابق نفسه: ٥٥.
- ٣٠—الكلديات لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي: ٢ / ٧٢، قابله علي نسخة خطية ووضع فهارسه د. عدنان درويش—محمد المصري. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥.

المظاهر السياسية والحضارية
الطولة الرستمية في المغرب
(١٤٤ — ٢٩٦ هـ = ٧٦١ — ٩٠٩ م)

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب

١٤٤ — ٢٩٦ هـ = ٧٦١ — ٩٠٩ م

اعداد

الدكتور / صالح محمد فياض أبو دياك
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
بقسم التاريخ — كلية الآداب
جامعة اليرموك
اربـد — الأردن

المظاهر السياسية والحضارية للدولة الرستمية في المغرب (١٤٤-٢٩٦هـ = ٧٦١-٩٠٩م)

الواقع أن ظروف المغرب كانت مؤاتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة ١٢١هـ = ٧٣٩م، بعد تفاقم المشاكل في البلاد من النواحي السياسية والاقتصادية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي كان رغم حسن ارادته وخبرته في تسيير الأمور إلا أن هذه الصفات لم تغن شيئاً أمام النزاع القبلي العربي، الأمر الذي أدى إلى تداعي نفوذ الخلافة الأموية في هذه البلاد خاصة بعد موت الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م، ولعل أبرز الأحداث دلالة على ضعف هبة الخلافة بالمغرب، تغلب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الفهري على أفريقية سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م. وارغام حنظلة بن صفوان على مغادرتها وقبول الخليفة مروان بن محمد مضطراً بشرعية ولايته سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م (١).

وكان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم بتكوين دولة لهم بسبب ضعفهم في التنظيم السياسي، وقيامهم بالثورات المستمرة ضد بني أمية دون تنظيم مسبق، جعلهم يستفيدون من أخطائهم السابقة ويلجأون إلى التنظيم والسرية في الدعوة لتكوين الدولة. ونجحت دعوتهم بتكوين الدولة الرستمية التي تبنت آراء المذهب الإباضي الذي انفرد عن غيره من المذاهب الإسلامية بأن الخلافة ليست في قریش، ولا في قبيل من قبائل العرب، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، وأن الجميع فيها سواء، وأن العمل بأوامر الدين كجزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده بل الاخلاص للعقيدة، من هنا تناسبت هذه الآراء مع طبيعة المغاربة ومطالبهم، خاصة الشرط القائم على الجنس، فقد أقبل المغاربة على الأخذ بها أكثر من غيرها، وقام دعاة الإباضية في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم، حتى عمت الدعوة سائر البلاد المغربية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة. واحتاج المذهب إلى رجال يقومون بتعريف المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده. ولم يستطع دعاة المذهب الأول كعكرمة مولى ابن عباس، وسلمة بن سعيد، وابن مفيطر أن يقوموا بهذا الدور، فاختار المغاربة بعض الرجال منهم وأوفدهم في بعثة علمية إلى البصرة للدراسة والتعليم والتعمق في أصول المذهب وفروعه، واستمرت مهمتهم خمس سنين عادوا بعدها إلى المغرب، وسموا بـ (حملة العلم) (٢)، ثم قاموا بتدريس ماتعلموه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى، وفي تلك الحلقات تلقى أتباع المذهب عل الأصول والفروع، والسير، والتوحيد، والشريعة، وآراء الفرق الإسلامية الأخرى، إلى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (٣)، فكانت حلقاتهم بمثابة مدارس للعلوم العقلية والعقلية ومراكز للتعريب ونشر الحضارة العربية الإسلامية.

ولم تنقطع الصلة الثقافية بين أباضية المشرق—عمان والبصرة—وأباضية المغرب، فكانت كتب فقهاء المذهب في المشرق وتصانيفهم ترد إلى المغرب بشكل دائم (٤). كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم إلى المغرب للتدريس والافتاء (٥)، والاطلاع على أحوال الأباضية، وقد أشار أبو زكريا إلى ذلك، بقوله «...وبلغنا أن رجلاً من أصحابنا (٦) من أهل المشرق، أقبل من عمان يريد زيارة أهل الدعوة...» (٧). إلى جانب إرسال البعثات العلمية من أهل المذهب إلى المشرق للأخذ عن أعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز (٨).

ولاشك أن ذلك الاتصال الثقافي بالمشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب، وساعد على اظهار كثير من أعلام المغرب في العلوم الدينية والدينية مثل: الشيخ المهدي النفوسي الذي برع في علم الكلام، وابن يانس الذي برع في علم التفسير، والشيخان الفقيهان أبو الحسن الأبدلاني، وعبد العزيز بن الأوز (٩) اللذان برعا في علم الفقه وغيرهم الكثير ممن أثروا بتأليفهم ومصنفاتهم الحياة الثقافية في بلاد المغرب، الأمر الذي ساعد على انتشار المذهب ورسوخه في العديد من المناطق المغربية، مثل: الجزائر ووهران، وجبال الأوراس، وجنوب باغاية، والنصف الجنوبي من أفريقية—تونس، ومنطقة طرابلس الممتدة من خليج سرت الواقع على البحر المتوسط إلى الصحراء الكبرى باستثناء مدينة طرابلس وساحل البحر اللتان كانتا تابعتان للأغالبية من قبل، ونظراً لقربهما من مناطقهم، كانتانقطتي تماس بينهما. وبقي هذا المذهب في هذه المناطق إلى نهاية القرن الخامس للهجرة.

يقول البكري بهذا الخصوص: «وجبل أوراس وهو مسير سبعة أيام وفيه قلاع كثيرة تسكنها قبائل هواره ومكناسة وهم أباضية» (١٠). وإلى اليوم مازالت فئات منهم في ميزات—جنوب الجزائر—وفي جربة بتونس، وفي ليبيا.

ولما تكونت دولتهم المسماة بالدولة الرستمية (١١)، تبنت المذهب الأباضي، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها، وأصبحت حدودها السياسية بين إمارة الأغالبية شرقاً والأدارسة غرباً، وامتدت جنوباً لتشمل ورقلة ووادي ريغ والجريد، وجبال دمر إلى طرابلس. وجبل نفوسة، وأصبحت على مقربة من الحدود المصرية.

ولقب حكامها بالأئمة إلى جانب لقب أمير المؤمنين (١٢)، وكما ذكرنا كان نظام اختيار الحكام قائم على مبدأ الشورى، بدليل أن الإمام عبد الرحمن بن رستم عندما أدركته الوفاة، قام بتعيين سبعة رجال من أهل الشورى—ممن عرفوا بالتقوى والورع—لاختيار امام منهم، وهم: ابنه عبد الوهاب، ومسعود الأندلسي، وأبو قدامة، ويزيد بن فندين اليفرنى، وعمران بن مسعود الأندلسي، وأبو الموفق سعدوس ابن عطية، وشكر بن صالح الكتامي، ومصعب بن سرحان، ويجعل ابنه ممن يقع عليهم الاختيار، أحدث احتجاجاً من قبل مسعود الأندلسي، ويزيد بن فندين، وخاصة الأخير الذي رأى في هذا الأسلوب تغليب فكرة التعيين بالوراثة على فكرة التعيين بالانتخاب (١٣).

ولك ينال الإمام التأييد لابنه من فقهاء وزعماء الأباضية (١٤) في المشرق أرسل وفداً إليهم يستفتيهم بما حصل، فجاء الافتاء لما فعل، ولكن ابن فندين لم يقنع، فلجأ الإمام إلى محاصرته والتقليل من شأنه، فعهد إلى الاصحار مع أحد شيوخ لواته الكبار وتزوج بابنة أمير هواره أحد بطونها فانحازت لواته له (١٥).

ونال البيعة الخاصة من أهل الحل والعقد، وتبعها البيعة العامة من أبناء الرعية وبهذا نال الامامة حسب الأسلوب المتبع في الدول الاسلامية ونودي به إماماً للدولة (١٦) سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م.

وجرت العادة أن يكون للإمام مجلس يتكون من العلماء والعقلاء المنتقين المخلصين، والذين لهم دراية بالأمور وهم يعدون له ظهيراً، ويقوم الخطباء بترديد البيعة للملأ على المنابر قصد اشهارها، فالخطيب أبو الربيع كان يعلن دائماً عن بيعة الإمام عبد الوهاب من على منبر المسجد في الأيام الأولى من توليته بقوله: (الإمام عبد الوهاب أماننا، وثقتنا، وإمام المسلمين أجمعين، فأنا براء ممن خالفه وأنكر عليه شيئاً غير حق) (١٧).

ويعلن الإمام عند توليته عن منهجه السياسي، ويوجه كتاباً للأمة يتضمن النصيح والارشاد، واتباع أوامر الله، من هؤلاء؛ الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي وجه لعماله كتاباً ليقرأوه على المنابر للرعية بعد أن بدأها بالبسملة والصلاة على النبي قال: من أفلح بن عبد الوهاب إلى من بلغه كتابنا هذا من المسلمين. أما بعد، فالحمد لله في الأمة المكرمة التي جعلها أمة وسطاً... إلى أن يقول: «وعليكم بتقوى الله واتباع آثار سلفكم، فقد سنوا لكم الهدى، وأوضحوا لكم طريق الحق وحملوكم على المنهاج، ففي أتباعهم النجاة وفي خلافهم الهلكة؛ وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة كفر...» إلى أن يقول: «إن الله قد أوجب عليكم أن تقوموا لله بالعدل في عباده وبلاده ولا تأخذكم في الله لومة لائم... فاتقوا الله حق تقاته وتواصوا بالبر والتقوى ومروا بالمعروف المفترض عليكم وانهاؤا عن المنكر الذي قد نهيتكم... فعليكم معشر المسلمين باتباع الآثار والعمل بما عمل به أسلافكم المتقدمون قبلكم، فقد سنوا لكم الهدى، ففي أتباعهم كل رشد، وفي مخالفتهم كل غي... وقد بالغت إليكم في النصيحة، وشرحت لكم الموعظة ورضيت لكم بما رضيت به لنفسي، ونهيتكم عما نهى عنه نفسي نصيحة لله واجتهاداً في طلب رضائه، والله أسأل أن يوفقنا وإياكم لطاعته والقيام بحقه برحمته إنه قدير، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته». والكتاب طويل، اقتصرت على فقرات منه لعدم اتساعه في هذا المجال (١٨).

كما يصدر الإمام بعد توليته السلطة قراراته المسماة بالبربرية (البيورلدي)، ومن ضمنها ارسال الوفود الدبلوماسية إلى الأمراء والملوك الذين تربطهم به علاقات مودة، فقد أرسل الإمام أبو بكر بن أفلح بن الإمام عبد الوهاب، وفداً إلى ملك مملكة صوصو إحدى الممالك السودانية، برئاسة محمد بن عرفة أحد أعيان مدينة تيهرت، ومعه هدية منه إلى الملك، وكان حسن الهيئة والخلقة، فأعجب به، وعبر عن إعجابه بلهجته قائلاً: «أنت حسن الوجه، حسن الهيئة والأفعال» (١٩).

ونهبوا كغيرهم من حكام المسلمين على تدريب ولاية العهد، فقد عين الامام عبد الوهاب حفيده (ميمون) على بيت المال، وأوكل إليه الجبايات رغبة منه في تولي الامامة من بعده، لكن رغبته لم تتحقق، أما الامام أبو اليقظان فقد قام هو الآخر بتدريب ولده المكنى بأبي حاتم على أمور الدولة، وعهد إليه مناصب متعددة، مما لفت نظر العامة إليه الذين حملوه على الأعناق يوم العيد ذاهبين به إلى المسجد ليصلي بالناس صلاة العيد لتأخر والده عنها، ولما علم والده بالخبر، قال لأمه واسمها غزال: «أحذري يا غزال فقد أصبح ابنك اليوم سلطاناً» (٢٠). ولعل اسمها كان تشبهاً بغزالة أم شبيب بن يزيد الشيباني التي كانت من أبرز نساء المذهب في المشرق (٢١).

وبالمناسبة فقد شاركت المرأة الأباضية الرجل في فنون السياسة والحرب، وأسهمت في التنظيم والدعوة، وبرزت في ميدان المعرفة، أمثال العجوز (وقاية) المعروفة بزهداها وسعة علمها وحسن آرائها، فقد استشارها الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في الولاية المعروضة عليه من الإمام عبد الرحمن على جبل نفوسة (٢٢) فشجعتته على قبولها (٢٣).

وتعددت العناصر المكونة للمجتمع الأباضي، الأمر الذي دعاهم إلى اتخاذ سياسة التوازن بينها خوفاً من الفتنة، ولكن عندما يشعرون بالخوف على أنفسهم أو مصالحهم يقومون بضرب العناصر بعضها ببعض، إلا أن الغالب على تصرفاتهم، حل المشاكل بالطرق السلمية، وعدم التعرض إلى سفك الدماء.

فقد عقد الامام عبد الوهاب مع الوالي المتمرد خلف بن السمع بن أبي الخطاب عبد الأعلى اتفاقاً تم بموجبه اقتسام ولاية نفوسة بينه وبين واليه أبو عبيده عبد الحميد الجناوي، كما أننا نلمس من تصرفات الأئمة الأول الغيرة على الدين وتطبيق أحكام الشريعة في إماراتهم.

ونلمس أيضاً تطوراً في مظاهر البلاط الرستمي، عما كان عليه الحال من الزهد والتقشف أيام الأمير عبد الرحمن بن رستم أول الأئمة الرستميين الذي لم يحو بيته—يومذاك—إلا على حصير فوقه جلد ووسادة ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في فناء داره، بينما الأئمة الذين جاءوا من بعده، كانت حياتهم شبيهة بحياة حكام المشرق، وهذه شأن كل الدول. فقد امتلكوا الضياع والمنازل والحصون التي أقاموها بنواحي (تسلونت) خارج تيهرت، واقتنوا الجوارى والغلمان والعبيد والحشم، وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن (تماليت) خارج المدينة (٢٤)، لئلا يتعرضوا إلى النقد والتشهير من السكان المزدحمين في المدينة.

وأصبحوا يخرجون في مواكب خاصة يحيط بهم فرسان أعدوا لهذا الغرض، حاملين الأعلام الذين كان من أبرزها علم كبير يسمى (البند) (٢٥) ولم يشر المؤرخون إلى لون الأعلام ولا إلى شعاراتها، ويظن أنها بيضاء، لأن اللون الأبيض محبب لدى المسلمين عامة

والمغاربة والأندلسيين خاصة، إضافة إلى رغبتهم في مخالفة شعار العباسيين الممثل بالسواد، ويبدو أن هذه الأعلام كتب عليها آيات قرآنية تتماشى مع فحوى المذهب، وقد عثر في وادي ميزاب بجنوب الجزائر على رايات قديمة محفوظة في المساجد بيضاء اللون مكتوب عليها آيات قرآنية قريبة الشبه بالرايات الرستمية.

وكان لهم مواكب للخروج وللصيد في أوقات فراغهم، وبلغ تأثيرهم بحكام المشرق أن لبسوا الثياب المزركشة والحلي القشبية ووضعوا على رؤوسهم ما يسمى بـ(الطرطور)(٢٦).

واتخذ الامام أبو اليقظان سرادقاً على طريقة خلفاء بغداد تأثراً بهم بسبب عيشه مدة طويلة في حاضرتهم—بغداد— أثناء اعتقاله. أما عن الولائم والحفلات، فقد أقاموا الأسمة—الجفان— لأطعام الفقراء أيام الأعياد والمناسبات الهامة. فكانت تقام الحفلات التي يحضرها وفود من كافة أنحاء الدولة، وكان عمال الإمام ورؤساء القبائل والعشائر يتزكون في (دار الضيافة) ثم ينصرفون إلى أعمالهم ومضاربهم بعد أن يأخذوا نصيبهم من الأرزاق والهدايا والألطف التي توزع عليهم في هذه المناسبات(٢٧).

وارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات مع جيرانها اتسمت بالمد والجزر والود والبغض حسبما تمليه الظروف وخاصة السياسية منها على المنطقة كلها، ونظراً لقرب حدودها من دولة الأغالبة، والاختلاف في المذاهب الدينية وفي الولاء السياسي، كان من البدهة أن تحدث بينهم المشاحنات(٢٨)، والواقع أن الأغالبة لم يشكلوا خطراً مباشراً على حاضرة الرستميين(تيهت) لبعدها عن إفريقية مسافة قدرت مسيرة شهر على ظهور الإبل(٢٩)؛ وإنما يعود إلى مراكز استقرار رعايا الدولة الرستمية في الجبال، وقسم منهم امتن حياة الترحال والتنقل من مكان لآخر حسب الظروف الطبيعية(٣٠)، وقد حدث أول احتكاك له بين الأغالبة والرستميين زمن الأمير إبراهيم بن الأغلب الذي كان معاصراً للإمام عبد الوهاب بن رستم الأباضي الذي تولى الإمامة ٢٦٨هـ / ٨٨١م، وسبب هذا الاحتكاك أن، بربر هواره الأباضية، ما فتئوا يثيرون القلاقل ضد بني الأغلب قصد انفصالهم عنهم والانضمام إلى دولة مذهبهم—الدولة الرستمية—ومن الواضح أن الإمام عبد الوهاب بن رستم هب لنجدتهم مستعيناً ببربر نفوسة القاطنين بالجبل المسمى باسمهم، رغم أن المصادر الأباضية تنكر ذلك، مشيراً إلى أن قدومه إليهم كان بغرض الحج وأن أهل الجبل قد أشاروا عليه بالبقاء تحسباً من مكائد العباسيين واعتقاله فيما لو علموا بوجوده في أرض الحجاز(٣١)، ويبدو أن بقاءه ساعده في الاضطلاع على أحوال بربر هواره وما يلاقونه من متاعب من جيرانهم الأغالبة، فقام بضمهم إلى دولته وتعهد بالمدافعة عنهم، وعين عليهم والياً منهم اسمه مدراراً، بعد أن كانت هذه القبائل تعيش نظاماً اجتماعياً خاصاً بها يديره مجلس مكون من مشايخ قبائلهم راضين بالانعزال خوفاً من ضربات الأغالبة لقربهم منهم(٣٢).

ويبدو أن طابع العلاقات بين الدولة الرستمية، ودولة الأغالبة الممثلة للدولة العباسية في افريقية كان واضحاً، ففي عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب الذي خلف والده بعد وفاته سنة ٢٠٨هـ / ٨٢٣م اندلعت الفتن في عهده، وكان من أبرزها ثورة الشائر نفاث الذي لم يرض عن تولية الإمام، فلجأ الامام أفلح إلى تضيق الخناق عليه مما اضطره للذهاب إلى المشرق ونزل لاجئاً سياسياً عند الخليفة العباسي ببغداد، واستخدمه الخليفة وسيلة ضغط على الدولة الرستمية، كما قام الخليفة الواثق بالله باعتقال محمد بن الإمام أفلح المكنى بأبي اليقظان أثناء تأديته فريضة الحج. كل هذا يدل على ماكانت تقوم به من تضيق الخناق على الدولة الرستمية.

وعمد الأغالبة إلى إثارة الفتن الداخلية للدولة الرستمية، ويرى صاحب الازهار (٣٣)، أن شخصاً يدعى خلف الخادم مولى بنى الأغلب—استطاع عن طريق بذل الأموال— إثارة الفتن بين سكان تيهرت، فانقسموا إلى معسكرين، الامام وأنصاره من العجم والنفوسيين في جانب، والجند العرب في جانب آخر، ويبدو أن الجو الاجتماعي كان مهيباً لضرب العناصر بعضها ببعض، إذ سرعان ما نجح في مهمته وقام العرب والجند باحراق درب النفوسيين معبرين عن سخطهم للبربر، وبالرغم من جهود الإمام أبي بكر في رأب الصدع، وقضائه على الحزب المناويء—العرب— في عدة مواقع، لكن الخلافات والفتن لم تهدأ واستمرت سبعة أعوام حتى عهد الإمام أبو اليقظان (٣٤). وبادل الرستميون الأغالبة الكيد بالكيد، فقد ثار بربر الأباضية في طرابلس سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م بتحريض من الإمام أبو اليقظان محمد، وفي هذا يشير ابن خلدون في كتابه (العبر) (٣٥) أن الأباضية في طرابلس ثاروا على عاملها أيام الأمير ابراهيم بن الأغلب (٢٤٢—٢٤٩هـ = ٨٥٦—٨٦٣م) وهزموا عاملها، فجهز الأمير ابراهيم جيشاً بقيادة أخيه زيادة الله وتمكن من اخماد ثورتهم. لكن رغم هذه العداوة فقد توحدوا في جبهة قتالية واحدة لدرء خطر صاحب مصر العباس بن منصور بن طولون سنة ٢٥٦هـ / ٩٠٨م، لاجئاً بالأغالبة ولكن لانقاذ أخوانهم الأباضية التابعين لإلياس بن منصور النفوسي، الذي بطش ابن طولون بهم وهتك حجبهم (٣٦) بعد أن قضى على الأغالبة بمقتل عاملهم على طرابلس، ويروي ابن عذاري، أن الياس هذا استغاث بالبربر القاطنين بطرابلس أو الضاربين حولها، ويبدو أن هؤلاء كانوا من أتباع المذهب ومحسوبيين على الدولة الرستمية.

أضف إلى ذلك أن ابن طولون قد أرسل قبل رحيله من برقة إلى زعيم جبل نفوسة يدعو إلى الطاعة، ويتوعده إن لم يجبه إلى طلبه. لذلك تلاقت رغبة الطرفين في درء الخطر الطولوني، ودليل ذلك أن الأمير الأغلبي كان يقاتل ابن طولون لوحده قبل أن يصل الأخير إلى طرابلس، وهذا ما يفصح عنه ابن الداية بقوله: (فلما كان اليوم التالي وصلت جيوش نفوسة وعدتها اثني عشر ألفاً من الأباضية) (٣٧).

ويبدو أن هذا الاتفاق كان مؤقتاً، بدليل أنه بعد مرور ستة أعوام على ذلك الحادث قام الأغالبة بالاعتداء على جبل نفوسة أيام الإمام أبي حاتم يوسف بن محمد الذي خلف والده أبو اليقظان سنة ٣٨١هـ / ٨٩٤م. وقتلوا عدداً من رجاله، ولعل الأغالبة وضعوا في اعتبارهم بأن يكونوا على بوابة مصر، وأن يسيطروا سلطانهم على تلك البقاع حتى لا يفكر الطولونيين في الاعتداء مرة أخرى، وربما استأنسوا من أنفسهم القوة فقاموا بمعركتهم الشهيرة مع الرستميين عند موضع يقال له (مانو)، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم، ولم تقم لهم قائمة بعد أن انهارت قبيلة نفوسة التي كانت تشكل درعها (٣٨) الواقى وبسبب الخلفية الفكرية الأباضية؛ التي تصر على الزامية مناصرة الرعية لامامها (٣٩)، نتج عن ذلك عدم الاهتمام في الجيش، إلى جانب ما يراه العلماء والفقهاء منهم، من أن وجود الجيش النظامي في الدولة يرأسه أعلى سلطة فيها يؤدي إلى فرض السلطة الفردية، وبذلك يتحول نظام الحكم من نظام دستوري جماعي إلى نظام فردي مستبد، لعل هذا كان سبباً في ضعف القوى العسكرية (٤٠) عندهم، إلى جانب مانع عن انكسارهم في المعركة من إشاعة الفوضى، الأمر الذي أدى إلى ضعف بنيتها السياسية والعسكرية، مما أسرع في زوالها فيما بعد.

أما علاقاتهم مع الدول الأخرى، فلم تكن بمثل ما كانت عليه مع دولة الأغالبة من التشابك والتعقيد، فكانت علاقاتهم مع بني واسول المداريين بسجلماسة، تقوم على الصداقة لوجود كثير من نقاط الالتقاء بين المذهبين الصفري والأباضي إلى جانب الزواج السياسي، فقد تزوج مدراراً بن اليسع الصغرى من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤١)، وكان لهذه العلاقة أثرها الواضح في تيسير السبل التجارية للأباضيين الذاهبين إلى السودان.

أما علاقاتهم مع الأدارسة فقد اتسمت بالمرونة ما بين الحرب والسلم (٤٢). ولكنها لم تأخذ المدى التي اتخذته مع الأغالبة، لاسيما وأن فرقة الواصلية—الذي كان يعد عبد الحميد الأروبي زعيمها—كانت تمارس حياتها في المجتمع التاهرتي مثل غيرها من الفرق الإسلامية الأخرى.

وارتبطت الدولة الرستمية بمصر ارتباطاً وثيقاً عن طريق التجارة إلى جانب وجود عدد من علمائها، أبرزهم: شعيب المصري الذي شارك بفتنة ابن فندين. أما علاقاتهم مع الأمويين في الأندلس، فكانت تربطها العداوة المشتركة للدولة العباسية، ولكن التقارب فيما بينها لم يصل إلى درجة التحالف الفعلي ضد أعدائها، وإنما أقصى ما وصل إليه تبادل السفارات والهدايا، فضلاً عن الصلات التجارية والاقتصادية (٤٤)، حيث كانت تتردد السفن بين وهران والمرية حاملة العلماء والمسافرين إلى جانب البضائع التجارية، وكثرت وفود الأندلسيين إلى الحاضرة تيهرت (٤٥)، وكان

من أبرزهم عمران بن مروان الأندلسي، ومسعود الأندلسي، اللذان رشحهما عبد الرحمن بن رستم في جملة من اختارهم للإمامة من بعده، إضافة إلى حادثة ابن حفصون التي دلت على وجود الأندلسيين في تيهرت، وعلى تعاطف الأئمة الرستميين مع بني أمية بالأندلس إلى جانب ما قام به ابن رستم سنة ٢٠٧هـ - ٨٢٢م بزيارة ودية إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أكرم وفادته.

وبالجملة توطدت العلاقات بين الطرفين في عهدي الأميرين عبد الرحمن الأموي وعهد أبي اليقطان الرستمي الذي كان يعد من الأئمة الأواخر في الدولة الرستمية الأمر الذي جعله يعرض الكثير من أمواله على الخليفة الناصر لأخذ رأيه فيها (٤٦).

وفي إطار الولاية للدولة: تفنن الأئمة في اختيار الولاة فلجأوا إلى سبر غورهم لمعرفة مدى رغبتهم بالولاية وزهدهم بها، فقد قام الإمام عبد الوهاب بسبر غور الوالي مدمان الهرطلي بأن أرسل له كتابين، تضمن الأول العزل، ويتضمن الثاني التثبيت، فلما عرض عليه الكتاب الأول وافق على ما جاء به، عندها سلم له كتاب التثبيت على الولاية بعد بيان حسن نيته (٤٧)، إلا أن بعضهم رفضها وطلب اعفائه منها، فوافقه الإمام على طلبه، فقد طلب والي جبل نفوسة أفلح بن العباس، من الإمام عبد الوهاب بن رستم اعفائه من ولايته فوافقه على ذلك وعين بدلاً منه أبو منصور النفوسي التندميري (٤٨).

ومن ولاته في الجهات الشرقية من دولته، سلام بن عمرو اللواتي، واليه على سرت وماحولها، وسلمة بن قفطان الزراغي واليه على قابس ونواحيها، ووكيل بن دراج النفوسي من بني يخلف على قفصة وماحولها، وأبو يونس وسيم النفوسي التمزيني واليه على القنطرة وحاضرتها تيجي، وأبو عبيدة الجناوني، وأيوب بن العباس، والسمح بن أبي الخطاب، وأبو منصور النفوسي التندميري محل هؤلاء ولاته على جبل نفوسة والعلامة مدراراً واليه على جبل دمر.

أما الولاية الثلاثة، بيران اليزميرتني المزاتي، وجارون القمري الزناتي صهر الامام، ونهدي بن عاصم الزناتي فلم نعرف ولاياتهم.

أما ولاته في منطقة الأوراس، وشمال تيهرت وغربها وشرقها، وفي تبلمت، والأغواط، وجبال راشد (جبال عمور) الآن، ورجلان وتيقورت، فلم تكشف لنا المصادر عن الولاة الذين عينوا في هذه الولايات، ولعل هذا راجع لضياح عدد من الكتب التي كانت في مكتبة المعصومة مما جعلتنا نفتقر إلى هذه المعلومات (٤٩).

ويبدو أن الأئمة الرستميين مالوا إلى تعيين ولاة جدد عند توليهم الإمامة، فالإمام أفلح ابن عبد الوهاب قام بتغيير ولاة أبيه ولم نعرف السبب، ولكن طالما أن الوالي يمثل الإمام في ولايته، فربما لم يرض عن البعض منهم أو اقتضت الظروف تغييرهم، فقد عين سعد بن أبي يونس على قنطرة، وميال ابن يوسف على قبيلة نفازة، وأبو العباس بن

أيوب على جبل نفوسة بدلاً من أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي، ثم استبدله في أواخر أيامه بأبي ذر إبان بن وسيم النفوسي المشهور بالفتيا، والذي لم يمارسها إلا بعد أن رخص له شيخه أبو خليل بالافتاء بقوله: (افت يا ابن للناس بالرخص، فإن لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك) (٥٠).

وهذا دليل على الاهتمام بصفات الوالي الذي كان يجمع إلى جانب معرفته في الإدارة، العلم والورع ليتسنى له حل قضايا الناس ومشاكلهم، فهو في ولايته بمثابة الإمام في الدولة فالإمام أفلح وجه كتاباً إلى واليه ميال بن يوسف، يطالبه فيه بالتحلي بالصفات التي كان يتحلى بها السراة من الأباضية السابقون له، الذين كانوا يقضون على الفتن وهي في مهدها، وعلى البدع قبل انتشارها، خوفاً من بلبلة الفكر وتشيت صفوف الأئمة قصد الحفاظ على وحدتها (٥١).

وجعل ولاته يراقبون بعضهم بعضاً، بارسال التقارير إليه، عما يقوم به بعضهم من أعمال الشغب والفتن في ولاياتهم، فقد أرسلوا له كتاباً بحق الوالي ابن فندين، يصفون فيه مايفعله وأعوانه من أعمال الشغب والفتن، وقد أشار إلى ذلك النفوسي في كتابه الأزهار بقوله: (...فكثرة الكتابات في حقه إلى الإمام من عماله وغيرهم ممن اتّمنهم توخصهم بمكانته وأخباره بأحوال الولاية والعمال والرعية في الجهات...) مما دعا الامام أفلح إلى أن يرسل له كتاباً يتوعده فيه ويتبرأ منه، والكتاب يخلو من البسملة والصلاة على النبي لأنه كتاب تهديد ووعد ومما جاء فيه: (...ثم قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك فإن كنت كما كتب إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ومقصي من جماعتنا لأننا ماكتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا وزعم أن عمالنا أساقفة وأنهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم فهو محقوق بالبراءة ومقصي من جماعة المسلمين. فإن تكن أنت منهم الذي ابيحت لنا البراءة منك. وأحللت بنفسك ما لا بدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك. وإن لم تكن كذلك فإظهار الانتفاء من ذلك وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحقها وتستوجبها) (٥٢).

وقد يكرم الإمام أحد ولاته بتميزه عن غيره بأن يسند إليه في منصبه شخصاً يقوم بمساعدته، ويشاركه الرأي في العضلات التي تواجهه يسمونه عندهم بـ(المزوار) المتفقة بالأمور الشرعية وغيرها، من هؤلاء الولاة؛ الوالي السمع بن الخطاب الذي ميزه الإمام عن غيره بهذا المنصب، وجعل معه مزواراً (٥٣).

ونهج الإمام عبد الرحمن ومن تلاه من الأئمة، منهج الاختيار للقضاة، فكان يعين في هذا المنصب ممن اتصفوا بالورع وسعة المعرفة والتقيد بالأحكام الشرعية، مع الاهتمام برغبة الشراة (٥٤) من أبناء المناطق المراد تعيين قضاة فيها، لتسهيل مهمتهم والتعاون معهم في تطبيق الأحكام. فقد حدث أن اختار الشراة أيام الامام أفلح (محكم الهواري)

الساکن بجبل أوراس لیكون قاضياً علیهم وأبلغوه باختیارهم، فرد علیهم قائلاً: «هو رجل نشأ فی البادية لا یعرف لذي القدر، قدره، ولالذي الشرف شرفه، وإن كان لیس منكم أحد حب أن یظلم ولا یظلم، ولكن تحبون أي یجری فیکم الحقوق علی وجهها بلا نقص لا عراضکم وامتهان لأنفسکم». وهذا یدل بوضوح علی رغبته التي تتفق مع رغبة الخلیفة عمر بن الخطاب فی تعیین القضاة من البیئات التي نشأوا فیها، ولكن اصرار الشراة فی تعیینه دون سواه، جعله یوافق علی ذلك، فكتب وكتب معه الشراة إلى (محکم الهواری) کتاباً تضمن تکلیفه بالقضاء جاء فیهِ: «بعد البسملة، أما بعد فإنه قد نزل بالمسلمین أمراً لا غنی بهم عن حضورک، وهم منتظرون لقدمک ولا یسعی فیما بینک وبین الله عن اللقوق بهم والاجتماع معهم، لیجمع رأیک ورأیهم علی مافیهِ صلاح المسلمین». (٥٥)

ولما وصل الکتاب إلى (محکم)، حاول التهرب من التکلیف، وعبر عن ذلك بقوله: «إن الحق مر أمر من شرب الدواء إلا کرهاً، وأنتم مترفون أبناء نعم، وغیری أحب إلیکم منی، نصحتکم فاقبلوا نصیحتی» (٥٦). وفی قوله ما یطابق قول الإمام، لكن اصرار الشراة جعله یوافق، فأنزلوه دار القضاء، وعینوا له خادماً یقوم بخدمته.

وفعلاً صدق ظنهم فیهِ بدلیل أن شقیق الإمام أبا العباس وخصمه تحاکما عنده، بعد أن اعتذر الإمام أفلح عن البت فی الخصومة لمكانتها عنده، وحبها إلیهِ فحکم القاضی (محکم) لخصم شقیقه أبي العباس (٥٧)، مما ثار ثائرتة فاشتکاه لشقیقه الإمام، فقال له الإمام: «یا أبا العباس قد كنت أعلمتک بهذا من قبل، والصواب ما فعل والحق أولى أن یؤثر، ولو فعل غیر هذا لکان مدهناً» (٥٨).

وجرت العادة فی تعیین قاضی الحاضرة أن یؤخذ رأی مشایخ الأباضية وغیر الأباضية ممن هم فی الحاضرة، شریطة أن یكونوا من كبار القضاة بعلمهم وتقواهم وضبط أحكامهم، فكان قاضی الحاضرة أيام الإمام أفلح عمرو بن فتح الله النفوسی، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي الشیخ، الذي أعید إلى هذا المنصب أيام الإمام أبو بکر بن محمد (٥٩).

وعُرف عن قضاة الحاضرة إلى جانب علمهم ونزاهتهم نباهتهم وحسن ذکائهم، فالقاضي عمرو بن فتح الله النفوسی، عندما عرض علیه قضية متاع تخاصم فیهِ اثنان، قام علی الفور بحجز المتاع وسؤال کل منهما علی حده، ولما تبین له من استجوابها صاحب المتاع حکم له.

أما عن النزاهة، فقد کان أحد أولاد الإمام أفلح غیر محمود السيرة، وکان قاضی الحاضرة أبو عبد الله محمد، وفی أيامه وقع ابن الإمام بمشكلة أخلاقية باعتدائه علی فتاة تقدمت أمها بظلامتها للقاضي، فقام القاضي وأعوانه فی البحث عن الفتاة، ولكنهم عجزوا عن العثور علیها، عندها قدم استقالته لأنه أدرك عجزه عن القيام بمهمته. (٦٠)

وبالجملة كان القضاة في الجرائم التي تستوجب الحدود كالقتل والسرقة والزنا، وشرب الخمر، يمكنون المتهم من الدفاع عن نفسه، وبيان حجته، فإن ثبتت جريمته حكموا عليه بحكم الله، وينفذ الإمام في الحاضرة وولاياته في الولايات حكم القضاء دون التهاون فيه، بغية إقامة العدل ونشر الأمن في أرجاء الدولة (٦١).

أما عن مجلس المظالم، فقد تنوعت أغراضه، فإذا كان الغرض منه مناقشة أصحاب الفكر المغالين بأفكارهم، عقد لهم مجلس يضم ذوي الاختصاص، لمناقشتهم، والرد عليهم، ففي زمن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان يعقد كل يوم في المسجد الجامع مجلساً للبحث في قضية من القضايا، فيجلس على وسادة مصنوعة من الجلد، يقابله ذوو التخصص في المسألة المطروحة للبحث، ففي القضايا الفكرية، كان يقابله رجل من كبار قبيلة نفوسة واسمه عيسى بن فناس، ورجل من كبار قبيلة هواة يكنى بابن الصغير، امتاز عن عيسى بغزارة علمه، وعرف عيسى بكثرة ورعه عنه، وبين يدي الإمام وجوه الناس، كان أدناهم منزلة رجل من العرب واسمه محمود بن بكر، ورجل من العلماء البارزين اسمه عبد الله بن اللمطي الذي عرف بكثرة تأليفه وحسن مناظرته لعلماء المعتزلة وغيرهم من الفرق المغالية، يرد عليهم مبنياً غلوهم، فكان بعمله يعد المدافع عن المذهب (٦٢).

أما إذا كانت القضية سياسية، ضم المجلس رجال السياسة لمناقشتها وبيان مضارها من فوائدها، وإذا كانت إدارية، جمع لها الإداريين المحنكين، وإذا كانت حرية جمع لها قادة الحرب، وإذا كانت صناعية أو فلاحية جمع لها من أرباب الصناعة والفلاحة، إلى جانب ندمائه الذين يساعدونه في حل المشاكل وتطبيق الأحكام عليها، فهم بعملهم يعدون ظهيراً له (٦٣).

وقد تصله ظلمات من القرى النائية مكتوبة باللغة البربرية، فيقوم المترجم بترجمتها للغة العربية (٦٤) وإصدار الحكم فيها، وكان من أبرز المترجمين أبو سهل الفارسي الذي يعد من أبناء الطبقة السابعة، من علماء الأباضية.

أما الحواضر وشبه الحواضر فيبعث أهلها شكاياتهم في ولايات الدولة بصحبة عدد من رجال المجلس (٦٥)، فإذا قدمت إليه شكايات قام بالحال في عقد مجلس لها للبت فيها في نفس المكان.

أما الحسبة، فلم تكن مقصورة على موظفيها فحسب، بل شاركهم في مهامهم الشراة، وهم بمثابة أهل الحل والربط عند أهل الجماعة، وهم مجموعة من الرجال بلغ عددهم الأربعين أو يزيد قليلاً، وهؤلاء اشتروا آخرتهم بدنياههم بمعنى أنهم تخلوا عن الدنيا وعاهدوا الله على انكار المنكر والأمر بالمعروف بدون مبالاة أو خوف، ولو أدى بهم الأمر إلى القتال (٦٦)، فهم يمتحنون الأئمة والولاة ويسبرون غورهم ويعطون رأيهم فيهم من

خير أو شر، وحكمهم عند الرعية لا يناقش لثقتهم بهم وعلمهم بإخلاصهم لدين الله وتطبيق شرائعه، ويشاركهم في علمهم العلماء والفقهاء، فالعالم أبو عبيدة عبد الحميد الجناوي أبرز علماء جبل نفوسة أخبر الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عما فعلته خيله ودوابه من فساد في مزارع وأشجار أهل الجبل بسبب إهمال رعايته أثناء مروره من الجبل لتأدية فريضة الحج قائلاً له: «يا أمير المؤمنين قد أذيت الضعفاء والفقراء واليتامى بخيلك لإهمالك رعايتك فكفها عن المضرة والا حال بيننا وبينك هذا، يعني السيف» (٦٧). فأعجب الإمام بقوله وشكره على حرصه واهتمامه بأموال المسلمين وعينه فيما بعد والياً على الجبل.

وبالجملة فقد كان رجال الحسبة عندهم شأنهم كشأن غيرهم من دول الاسلام، يقومون باظهار المعروف عند زواله، وإزالة المنكر عند ظهوره، وتعددت اختصاصاتهم حتى شملت جميع مناحي حياة الأئمة، فكانوا يراقبون الحمالين الذين يحملون الدواب فوق ماتطيق، ويمنعون أصحاب الحرف من إقامة مصانعهم في المدينة حتى لا تضر سكانها، ويهبون لنجدة كل ملهوف، ويضربون على يد الظالم، لهذا كان الأئمة يختارون لها رجالاً ممن عرفوا بالصرامة والحزم والحرص على تطبيق أوامر الشريعة، وكان جهلهم من أهل نفوسة الجبل الذين نزلوا في الحاضرة تيهرت قادمين من الجبل، فلا عشائر له يحابونها، ولا أقرباء كثيرون ليغضوا الطرف عنهم عندما ينحرفون بأعمالهم عن أصول الشريعة (٦٨). وقد شاهدتهم ابن الصغير أيام الإمام أبو اليقظان، فلخص أعمالهم بقوله: «... ثم أمر أبو اليقظان قوماً من نفوسة يمشون في الأسواق، فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، قالوا: «إن رأوا قصاباً ينفخ في شاة ليوهم الناس بانتفاخ لحمها أنها سمينة عاقبوه، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها انزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها، وإن رأوا قدراً في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه» (٦٩).

ومن الجدير بالذكر أن بقايا هذا النظام مازال موجوداً في بلاد ميزاب جنوب الجزائر، يقوم رجاله بهذه المهمة بمحض اختيارهم دون أن يتقاضوا أجراً من خزانة البلدية، فيراقبون الباعة خوفاً من الغش أو الاحتكار، ويأمرون بنظافة الشوارع من الأقدار، وإصلاح الطرق من الحفر، وترميم المباني المتداعية، وحراسة المدن والقرى خوفاً من اللصوص، أو دخول العابثين إليها من الدخلاء، ومراقبة الحمالين الذين يحملون الدواب أكثر من طاقتها وغير ذلك من الأمور الأخرى (٧٠).

وسلك الإمام عبد الوهاب في تعيين رجال الشرطة نفس المسلك الذي سلكه في اختيار رجال القضاء، فعين لها رجالاً اتصفوا بالأمانة وحسن الإخلاص في العمل، وفي عهد الإمام أبو حاتم انتشر الفساد بين أفراد الرعية، فشاع السكر فيما بينهم، وكثر وجود دنان الخمر والخوابي في البيوت، واقتنوا الغلمان اخداناً، وانتشر السراق وقطاع الطرق،

فاستدعى الإمام وجهاء الحاضرة ومشائخهم وأخبرهم بما هو حاصل، وطلب منهم اختيار رئيس للشرطة، لكي يقوم بقطع دابر الفساد الذي انتشر بين الناس بسبب الحروب، وكثرت الفتن، فأشار قسم منهم باختيار شخص اسمه نكار كان قد قتل ابنه بين يدي الإمام، ورأوا من الواجب مواساته والتخفيف عما أصابه إلى جانب ما اتصف به من سداد الرأي، وقسم آخر أشار إلى إبراهيم بن مسكين الذي له صلابة في الحق، لاتأخذه لومة لائم، فعين الاثنين رؤساء للشرطة، (فقاما بكسر الخواي بكل دار مهما علت منزلة صاحبها، وضربا بالسوط، وسجنا كل مجرم وشردوا الغلمان الأفلات في رؤوس الجبال وبطون الأودية، وحملوا الناس على الجادة، فخاف المنافق، وأمن البريء، وشرد السراق وقطاع الطرق، وأمنت السبل، وسار الناس إلى بعضهم بعضاً، في أي وقت من الأوقات دون خوف أو وجل) (٧٢).

أما في طرابلس وجبل نفوسة وماتلاهما من المناطق، فلم يستطع الإمام أن ينشر الأمن فيهما مثلما كان بالحاضرة، وشغل الناس ببعضهم، ولم يقدرُوا على مساعدة الإمام أثناء حروبه مع الأغالبة (٧٣).

ولم تقتصر رئاسة الشرطة في الحاضرة على شخص يعين من أبناء الرعية، وإنما تجاوزتها إلى تعيين رئيس لها من أبناء الأسرة الحاكمة، ففي زمن الإمام أفلح، كان أخوه أبو اليقظان يقوم بتفقد الحراس ليلاً، فيعمل على ترتيبهم وتجهيز دوابهم، ويأمرهم بمراقبة الطرقات والضرب على أيدي المفسدين العابثين، فإن حصل شيء، يخبر أخاه في صباح اليوم التالي بما حدث (٧٤).

وكان التدريب على القتال مهنة واجبة على كل فرد منهم، حتى الصبية كانوا يدرّبونهم على الضرب بالقضبان بدلاً من السيوف اتقاء لشرها، حتى إذا مهرّوا في ضربها استخدموا الضرب بالسيوف، فكان مجتمعهم أشبه بشكّة عسكرية إلى حد ما (٧٥).

وولع الرستميون بتربية الخيل، وكان أمتع الألعاب لديهم لعب الفروسية والضرب بالسيف، وكان كل فرد منهم يظهر مهارته بها في كل مناسبة من المناسبات السارة والحريية، وكان من أبرز فرسانهم، بكر بن ييب، وبكر بن عبد الواحد، وأيوب بن العباس. وهناك حوادث كثيرة دلت على ولعهم بالخيل، والتسلي بركوبها في أوقات الراحة، ففي أيام الإمام أبي الخطاب، كان جنده يتسابقون على ظهور الخيل في أوقات فراغهم، وفي يوم من أيام السباق، شاهدوا مايفعله عاصم السدراتي من فضائح بنساء القيروان عند غزوه لها، فأسرعوا إلى أمامهم أبي الخطاب يخبرونه بمايفعله عاصم وجنده، فقام أبو الخطاب بتجريد حملة عسكرية لانقاذ القيروان وهو يقول: «اللهم بيتك، اللهم بيتك».

ومن الأدلة الأخرى الدالة على ولعهم بفنون الحرب، ماطلبه المعتزلة من فارسهم أيوب بن العباس بتعليم أبنائهم على أساليب القتال والضرب بالسيوف، وماكان من خديعتهم له ونجاته منهم (٧٧). وكانوا يصفون كل من يقدر على حمل السلاح ولايمتثقه بالنقص في الذكورية (٧٨).

ومن طرق القتال عندهم تشكيل الصفوف المتراصة وربط أرجلهم بعضها ببعض، وأخذ العهد على أنفسهم بعدم الفرار، وكانوا في قتالهم يدورون مع المعركة حيث دارت، وسمي هذا النوع من القتال عندهم بمعارك (الربد) (٧٩). وقد يستدرجون عدوهم لاقامة المعركة بالقرب من الجبال ليستعينوا بها في التغلب عليه لاسيما وإن معظمهم من سكان الجبال (٨٠). ومن عاداتهم في الحرب، عدم متابعة العدو أثناء فراره، وعدم الاجهاز على الجريح (٨١).

وشارك العلماء اخوانهم المقاتلين في ميدان القتال، واصطحب الجيش النساء بغرض التشجيع والقتال في المعركة إن لزم الأمر، والدليل على ذلك ماحدث في معركة (مانو) بالقرب من مدينة قنطرة المسماة اليوم بـ(تيجي) الواقعة على جبل نفوسة في القسم الشرقي من حدود الدولة، حيث قتل منهم أربعمئة عالم وأسر ثمانين. أما النساء اللواتي صحبن الجيش فقد أوكلن زواجهن لبعضهن بعضاً، فيما إذا وقع على احدهن سطو من جند بني الأغلب، تقوم موكلتها بزواجها، خوفاً من الفسق بها. (٨٢)

واستخدم الجيش طبولاً مصنوعة أطرها من الخشب أو النحاس ومغطاة بجلود الأبعرة التي تشبه بسمكها سمك الرق، يضربونها بعقال من وبر يسمع على بعد مسافة تقدر بالمشي على الأرجل ب أربع ساعات، ولهم في ضربه طرق معروفة لديهم يستدلون بها على الغرض المطلوب، فبمجرد سماع الواحد منهم صوته يعرف المراد منه؛ أما النفير أو وقف القتال في المعركة، أو إقامة الصلاة، فكان يضرب ضربات معينة تدل على دخول وقت الصلاة، فيتوقف الجيش عن السير، ويؤذن المؤذن للصلاة، فيصلي بهم الإمام ركعتي السفر، ثم يضرب الطبل ثانية بعد انتهاء الصلاة ايذاناً للرحيل (٨٣).

الحياة العلمية:

تمتع الأئمة الرستميون بثقافة عالية، فكان الإمام عبد الرحمن من جملة حملة العلم الخمسة التي قدمت إلى المغرب، وبفضل علمه لايفضل حسبه نال الإمامة (٨٤)، أما ابنه الإمام عبد الوهاب، فكان له من الخلوات العلمية الخاصة إلى جانب المجالس العلمية العامة، مما جعل طلبة العلم يتهافتون عليه للأخذ منه، مما علا من شأنه بين الناس وحفظ له مركزه كإمام للأباضية الرستمية (٨٥)، فإلى جانب ممارسته للتدريس، شجع الحركة العلمية في البلاد، وجلب إلى مكتبة المعصومة الكتب من المشرق في مختلف العلوم والفنون، كما شجع حركة التأليف، بتأليفه كتاباً سماه (نوازل نفوسه) وهو مجموعة من الفتاوى التي كان علماء نفوسه يستفتونه بها، ويلاحظ من أسلوب الكتاب الفصاحة وحسن التمكن وعمق المعرفة في الشريعة، وكان يرسل الوفود إلى المشرق لشراء الكتب، فقد أرسل وفداً إلى الصرة مقر المذهب وأعطاه ألف دينار، لكن الوفد اشترى بالمبلغ ورقاً وأخذوا ينسخون عليه ما وجدوه من الكتب. ولكون مايكتبون عليه رقاً بخط عريض وكبير على طريقة الأوائل في الكتابة لذا فإن قطع الرق ملأت ثمانين غرارة—كيساً—ويبدو أنها وصلت صيفاً مما دعا الإمام إلى القيام بدراستها قبل حلول الشتاء، لأنه كان يخلع ملابسه ولا يبق على جسمه سوى السروال ليزداد نشاطاً (٨٦).

أما ابنه أفلح فكانت ثقافته متنوعة، فإلى جانب فهمه لأصول العقيدة الإسلامية، كان بارعاً في الأدب والرياضيات، لكنه لم يتقن باباً من أبواب المعاملات وهو البيع والشراء الاتقان التام من وجهة نظرهم، لأنه أغفل مسألة من المسائل المختصة بالربا والبيع والشراء، أثناء مناقشة أبيه الإمام عبد الوهاب له، فمنعه من الذهاب بتجارة إلى بلاد السودان قائلاً له: «ارجع حتى تستعد لهذا الأمر وإلا أطعمتنا الحرام من حيث لاندري فرجع» (٨٧).

كما برع في قرض الشعر، من قصائده التي نظمها يحث فيها الطلبة الذين ينشدونها في المناسبات، حتى أصبحت من الأناشيد الوطنية عند أهل ميزاب، مطلعها:
العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يرك أشخاصاً روحاً وأبكاراً
أشدد إلى العلم رحلاً فوق راحلة وصل إلى العلم في الآفاق أسفاراً
واصبر علي دلج الأغساق معتسفاً مهامه الأرض أحزاناً وأقطاراً حتى تزور رجالاً في
رحالهم فضلاً فأكرم بأهل العلم زوارا ويستمر في قصيدته داعياً طلبة العلم إلى أعمال
عقولهم لفهم ما يحفظون ويرشداهم إلى التربية النفيسة والمران الذهني فيقول:
وأحسن الكشف عن علم تطالبه والزم دراسته سرا واجهارا ويطالب بحسن الانتقاء
في اختيار تعلم العلوم فيقول:

فاطلب من العلم ماتقتضي الفروض به
واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً واطلبه ماعشت في الدنيا
ومدتها لموقف العرض أن لا تورد النار واجعله لله ولا تجعله مفخرة ولا ترائي به بدوا
واحضاراً وهذين البيتين الأخيرين يدلان على انسجام نظرة الأئمة للعلوم مع هدف
الدين الحنيف.

أما أخت الإمام أفصح، فقد برعت في العلوم الشرعية واللغوية إلى جانب علم
التنجيم (٨٩)، وبرع الإمام يعقوب ابن أفصح بالعقائد السماوية الأخرى إلى جانب
العقيدة الإسلامية، فحفظ الانجيل والتوراة إلى جانب القرآن الكريم، وكان يستخدم
علمه بما يتناسب مع متطلبات حياته، فقد عرض عليه أهل مدينة «ورجلان» الإمامة
أثناء دخوله المدينة قاراً من الفاطميين، فقال لهم قولاً مشهوراً أصبح مضرب المثل: «وهل
يستتر الجمل بالغنم»، وهذا يدل على حسن تقديره للأمور (٩٠).

أما الإمام أبو اليقظان محمد فقد كان يدرس في حلقات ثلاث أنواع العلوم المختلفة.
وكانت مساجد حواضرهم عامرة بالعلماء، ومسجدهم الجامع بالعاصمة تهرت كان
مجمعاً لأهل العلم، تعقد به المناظرات بين الفرق، وكانت كل فرقة تود الاجتماع بالفرقة
المخالفة لها في المذهب لتطلع على ماعندها، وامتازت الفرق الإباضية عن غيرها بلطف
المناظرة (٩١).

وإلى جانب المناظرات العلمية، وفدت وفود طلابية من المغرب إلى عُمان لتلقي العلم
من العلماء العُمانيين، ويصف أبو سعيد الكدومي ذلك بقوله: «كان من العلامة ابن بركة في
بها (٩٢)، وكان ابن بركة غنياً اشتهر بغناه وكان غناه ظهيراً للعلم، ولذلك يقصده
الطلبة من عُمان وغيرها، حتى قيل: ان الطلبة المغاربة كانوا لا يفقدون من مقامه» (٩٣).

وعقدت حلقات الدرس التي يدرس فيها العلوم المختلفة، فيجد الطلبة فيها كل
ما يريدون من مختلف أنواع العلوم إلى جانب العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه
وأصول، بالإضافة إلى العلوم التطبيقية من فلك وطب وكيمياء، وصناعة أدوية
ورياضيات ولم يقتصر الأمر على الطلبة فحسب، بل تعداه إلى كل فرد من أفراد الأمة،
فعمدوا إلى تعليم العبيد والإماء، وبخصوص الإماء ذكر الشماخي، إن إماء نفوسة كن إذا
وردن إلى الغابة للاحتطاب يتذاكرن بمسائل كتب الإمام الفقيه (ماطوس) في الشريعة
الإسلامية (٩٤)، أما الحرائر فكن إلى حد ما أكثر معرفة بأسرار اللغة العربية والدراية في
العديد من الفنون، خاصة الفقهية منها، والتي تتماشى مع ما يتطلبه المذهب.

ويبدو أن رعاية الأئمة للعلوم جعل منها مطلباً جماهيرياً، وهذا ما أشارت إليه المصادر
الإباضية في بعض الحقب الزمنية، بأنك لا تجد قرية من القرى إلا وفيها من يفتي بها،
وربما كان في كثير من المساكن من تمتع أهلها بوجود علماء فيها، يقومون بتعليم ذويهم
وغيرهم من الناس، ويحلون لهم مشاكلهم سواء كان منها ما يتعلق بالشعائر الدينية أو
المعاملات.

أما الخطباء، فكان من أبرزهم ابن أبي ادريس، وأحمد التبة، وأبو العباس بن فتحون، وعثمان بن الصفار، وأحمد بن منصور، والذي قال عنهم المؤرخ ابن الصغير بأنهم جميعاً كانوا يستعملون خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، باستثناء خطبة التحكيم، لكن الخطيب أحمد بن منصور كان قد شذ عنهم، وخطب خطبة التحكيم الذي بدأها: «الحمد لله الذي نستعينه ونستغفره ونؤمن به ونستهديه ونستنصره ونبرأ من الحول والقول إلا إليه.. — إلى أن يقول — اللهم أرض وصل على الخليفين المباركين بعد نبيك أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك، وما أثراه من نبيك... إلى أن يختم الخطبة بقراءة سورة (الاخلاص) وبعد اتمامها ينزل عن المنبر (٩٦).

وتمتعت المدن الاباضية في الشمال بازدهار علمي بفضل وفرة العلماء بمختلف التخصصات من هذه المدن: تنس، والخضراء، وافكان، وبني واريغن، وستغانم، وقلعة هواره، ووهران، وتامزگران، وتاغرييت، والغزة، واوزكي ومعسكر، وشلف، والرها، وقصر الفلوس، وبيل، ومدينة جبل توجان، وجبل لازغ، حيث برز فيها عدد من العلماء، كان من أشهرهم يهود بن قريش التاهرتي، الذي كان متطلعاً في عدة لغات منها، البربرية والعربية والعبرانية والأرمنية والفارسية، مما أهله بأن يصبح مرجعاً يرجع إليه بما يسمى الآن بالبحث المقارن في اللغات، وانشاء أسس النحو التنظيري (المقارن) في الجنوب من الحاضرة تيهرت، وجد عدد من العلماء في مدينة تاجمون، وتاويلا، والأغواط، وورجلان، عروسة الصحراء، وأكبر حواضر المغرب وأغناها مالا وعلماً.

أما المدن الشرقية من مثل: توزر، ونقطة، وقابس، وجربة، كانت تزخر في العلماء، وكان من أبرزهم (محكم الهواري) وابنه هود، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله، وأبو اليقظان، وعبد الله اللمطي، ومحمد بن بكر، وزكريا بن بكر الغساني، وإبراهيم بن عبد الرحمن التنسي، وأبو سهل الفارسي، وأبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي، الذي أوصى ابنه فأحسن الوصية فقال: «لا يكن ندبك إلى الناس أوكد من ندبك لنفسك، ولا يكن غيرك أسبق إلى الخير منك، وكن للناس كالميزان، وكالسيل للأدران، وكالسماء للماء» (٩٩). وهناك مدن كانت حلقة وصل بين علماء المشرق وعلماء الاباضية في مختلف أرجاء الدولة لقربها من الحدود مما سهل على علمائها الرحيل للشرق والاختلاط بعلمائه منها: زواغة، ولبدة، وتاورغا، وسرت، وودان، وفزان، وزويلة، وغدامس.

أما جبل نفوسة، فقد ضم مئات القرى وعشرات المدن المزدهرة بالعلم والعلماء، كان من أبرزها كياو، وتادلوت، ويفرن، وكان من أبرزها علماء هذه المدن، عالم مدينة جادو، الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة شروس، والتي تعد العاصمة العلمية في الدولة الرستمية إلى جانب العاصمة السياسية تيهرت، أبو عبدة عبد الحميد الجناوني.

وكان لقرب الجبل (١٠٠) من المشرق وحصانته التي حتمه من اعتداء الدول المجاورة له لمدة طويلة من الزمن، واستقرار حملة العلم الخمسة فيه لا بأس بها، قبل انطلاقهم إلى مناطق المغرب الأخرى، كان له أثر في تكوين بذور علمية نضجت وأينعت فيما بعد، بفضل ما وجد فيه من علماء منهم، أبو عمران موسى بن زكريا، وأبو عمر الشيلي، وعبد الله بن مانوح، وأبو زكريا يحيى بن جرناز، وجابر بن سدرمام، وكباب بن مصلح، وأبو مجبر توزين، الذي قاموا بتأليف موسوعة اسلامية سميت بـ (ديوان الأشياخ) المكون من خمسة وعشرين جزءاً، ولا يزال قسم من هذه الأجزاء مخطوطاً بوادي ميزاب جنوب الجزائر (١٠١)، إلى جانب مؤلفات أخرى أهمها كتاب الايضاح (١٠٢)، للشيخ عامر النفوسي المكون من ثلاثة أجزاء، يبحث في الشريعة الاسلامية، وقناطير الخيرات، للشيخ اسماعيل الجيطالي المكون من ثلاثة أجزاء والشبيه بكتاب علوم الدين للغزالي الذي يتضمن كثيراً من المعلومات من الفلسفة الاسلامية، وعلم النفس، والأخلاق والدين، والأدب، وكتاب (الوضع) (١٠٣) لأبي زكريا الذي بحث في الشريعة الاسلامية أصولاً وفروعاً. وهناك العديد من المؤلفات الأخرى لكثير من العلماء، إلى جانب المؤلفات الشرعية وقدم الدعاة من المشرق، كل هذا ساهم مساهمة فعالة في احداث ثورة فكرية في المغرب كله أخصبها التنافس الفكري فيما بينهم وبين غيرهم من أتباع المذاهب والفرق الاسلامية الاخرى، ونتج عن هذا الاخصاب ملاحم فكرية مع السنة المالكية والمعتزلة والشيعة الفاطمية، فقد غلب مذهب مالك على افريقية وساد ماعدها من المذاهب الأخرى، إلا أن رجال المذهب من أباضية وصفيرية؛ فقد تسللوا إلى القيروان وإلى مسجدها الجامع، حيث أخذ فقهاء الاباضية في ممارسة نشاطهم في أفريقية إلى أن تولى القاضي سحنون بن الفرات منصب القضاء فيها، فحظر عليهم وبدد حلقاتهم وأخذ بملاحقتهم (١٠٤)، على خلاف الاباضية الذين رحبوا بفقهاء وعلماء المذاهب الاسلامية الأخرى، وأخذوا في مناظرتهم، ولم يتعرضوا لأحد إلا من اتصف بالغلو والمروق عن الدين، ولما كان المذهب الاباضي أقرب المذاهب لأهل السنة، فقد تحالف علماء السنة مع علماء الاباضية لمناوئة المذهب الشيعي، وظهر هذا الائتلاف واضحاً في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد.

أما المعتزلة والواصلية، فكانت مضاربهم بالمغربين الأوسط والأقصى، وبلغ عدد المقيمين منهم حول الحاضرة تيهرت ما يزيد على ثلاثين ألف من الواصلية، وعلى الرغم من مواقفهم السلبية من الدولة الرستمية فقد حظوا بتسامح ديني إلى أبعد الحدود، فكانت المناظرات فيما بينهم لا تنقطع، وكان قطب الاباضية عبد الله اللمطي له مواقف حميدة في جدال مع المعتزلة على نهر مينة خارج الحاضرة.

ويبدو أن المذهب الشيعي وجد طريقه إلى العاصمة تيهرت، ولكن اتباعه كانوا قلة رغم اسهاب المصادر الأباضية في الحديث عن المناظرات التي عقدت بين علمائهم وفقهاء الشيعة خاصة بعد سقوط الدولة سنة ٢٩٧ / ٩٠٩ م. وكان من أبرز المناظرين يومذاك نوح بن سعيد بن زنفيل الأباضي الذي ناظر أبا تميم المعز لدين الله الفاطمي، ويستدل من هذه المناظرة على حصافة الشيخ واحترام المعز للعلماء (١٠٥)، ومما لا شك فيه أن المحاورات والمساجلات بين علماء المذهب الأباضي وشيوخ وعلماء الفرق الإسلامية الأخرى، قد أثرت الحياة الثقافية في بلاد المغرب كله، وهذا ما عبر عنه النفوسي بقوله: «... وكثرت الآراء والأقوال وانتحل البحث في المذاهب، وعظم الجدل حول مسألة الإمامة، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها، ويدعي أنه أولى وأحق بها، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة» (١٠٦).

وكان لاجتهادات بعض المجتهدين أمثال فرج بن نصر المسمى (بنفاث) وتبني بعض الفقهاء أمثال يزيد بن فندين آراء الامامة المشروطة دور في تطوير الأساليب والمفاهيم الاباضية وسلك علماء المذهب مسلكاً حميداً في مساعدة الطلبة الفقراء، فكانوا ينفقون عليهم من خواص أموالهم، فقد بلغ عدد العلماء في بادية افريقية ممن ينفقون على الطلبة المحتاجين، اثنان وثلاثون عالماً، كان أبرزهم في الاتفاق والايثار أبو عبيد (وشق)، وأبو زكريا الذي أنفق جل ماله على طلبته في سنين المسغبة (١٠٧).

وحدث العلماء طلبتهم على التحصيل والدراسة، منهم أبو يحيى أحد علماء قابس الذي طلب من طلابه الصعود إلى مكتبة جبل دمر الموجود في مدينة تموسلت إحدى مدن الجبل، والذي قوى من عزيمتهم بقوله: «إن رجعتم إلى أهاليكم جاهلين ولم تدارسوا ما عزمتم عليه من الكتب فتكونوا علماء كتتم كمن ترك الاسلام عمداً» (١٠٨).

ونشط الأئمة ونشط معهم العلماء في ترجمة العلوم من اللغة الفارسية والرومية إلى اللغة العربية، مما أدى إلى تعلم اللغة العربية ليتسنى لكل من أراد الاطلاع على تراث اليونان والرومان والفرس وحكم الهند، فكان لابد له من معرفة اللغة العربية الفصحى، إلى جانب اتخاذها لغة رسمية في الدواوين لأنها لغة القرآن الكريم.

وعمل العلماء على نقلها إلى المناطق النائية عن طريق تدريس العلوم الشرعية، وشجع بعض المشايخ الناس على تعلمها، فقد قال الشيخ أبو زكريا النفوسي أحد مؤلفي ديوان الأشياخ بهذا الخصوص: «أن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من مسائل الفروع وتعلم مسألة من الفروع كعبادة ستين سنة، ومن حمل كتاباً إلى بلد لم يكن فيه فكأنها تصدق بألف حمل دقيقاً على أهل البلد» (١٠٩).

مما دفع طلاب العلم على مختلف مستوياتهم إلى الاعتكاف على دراستها وفهم نحوها ضبطاً لهم عند التحدث بها. لكن رغم ذلك فقد وجدت فجوات في مسيرة التعريب في

هذه الديار، ففي القرى الواقعة في المناطق النائية على رؤوس الجبال، كانت دروس الوعظ والارشاد تلقى باللغة البربرية قصد تعريف سكانها بالعقيدة الاسلامية ممن يجهلون اللغة العربية، إلى جانب تأليف المؤلفات التي كتبت بحروف عربية ذات مدلولات بربرية للاطلاع عليها عند الحاجة، كان من أبرزها كتاب (عقيدة التوحيد) (١١٠). الذ قام بترجمته للغة العربية الشيخ عمر بن جميع والذي يعد من أهم الكتب في علم الكلام.

ونتيجة لقلب الحرف العربي على الحرف البربري، فقد اندفع بعض البربر إلى الحنين للحروف البربرية في أيامنا هذه خاصة في بلاد ميزاب جنوب الجزائر إلى استخدام حرف الزين البربري في النقش، والطرز والنسيج وفي تزيين جبين المرأة والعروس به وهو على الشكل التالي ()، ويبدو مثلاً تغلب الحرف تغلبت الكلمة، فاللهجات البربرية المتداولة في أيامنا هذه في المغرب تأثرت بشكل كبير في اللغة العربية، ويمكننا القول بأنها عربية بشكلها ومضمونها إلى حد ما، فيكفيك كي تصبح الكلمة العربية بربرية أن تضيف إلى أولها أل التعريف وإلى آخرها تاء فتصبح بربرية، مثال ذلك الوردة الوردت، وفي جملة عمر اسكن في الدار يحولونها إلى أعمرغ تادرات (١١١).

وهنا لا بد من الحديث عن بعض الأدباء والشعراء الأباضيين، وكان من أبرزهم، بكر بن حماد التاهرتي الذي يعد من فحول الشعراء في المغرب في القرن الثالث للهجرة، والذي ولد في الحاضرة تيهرت سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م، ورحل إلى المشرق أيام شبابه والتقى بالشاعر دعلج، وعلي بن الجهم المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م. فأخذ عنهم وتأثر بهم، ورجع إلى المغرب الأوسط — الجزائر — بعد أن تم تحصيله، وأصبح من كبار شعراء الزهد في المغرب مثلما كان أبو العتاهية في المشرق (١١٢). من شعره في الزهد قوله:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال حروقتها.
فيا أسفى من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها وأبدي المنايا كل يوم وليلة
إذا فتقت لا يستطيع رتوقها ويصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها.
ومن شعره في رثاء ولده:

بكيـت على الأحبة إذ تـولـوا
ولو أني هلكـت بـكـوا عليـا
فـيـا نـسـلي بـقاؤك كـان ذـخـراً
وفـقـدك قـد كـوى الأكبـاد كـيـاً

ومن شعره في وصف برد مدينة تيهرت:
وما أحسن البرد وريعانه وأطرف الشمس بتاهرت.
ومنهم، أحمد بن الفتاح بن خزار، وسعد بن أشكل التاهرتي، والإمام أفلح بن عبد الوهاب، والأديب البليغ بن هرمة وغيرهم مما لا يتسع المجال لذكرهم وتتبع أشعارهم وأديهم.

هذا ما قام به الأئمة والعلماء ورجال الفكر من جهود طيبة على مستوى الدولة وعلى مستوى المغرب العربي من نشر للثقافة الاسلامية واللغة العربية والعمل الدؤوب على تعريب مراكز الفكر والحض على تعلم اللغة لفهم أسرار العقيدة، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا بجهود حسنة على المستوى الخارجي مما أدى إلى التلاقح الحضاري والانماء الفكري ما بين رسل الاباضية الممثلين بالتجار والعاملين على نشر الاسلام في الديار السودانية التي يتاجرون معها، فقد قام أبو الحسن بن علي بن يخلف التيمجاري النفوسي بجهود حسنة في نشر الاسلام في بلاد السودان سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وبفضل جهوده أسلم ملكها بعد أن كان وثنياً، كما قام عامل نفوسة القاضي عمرو بن فتح الله بارسال عدد من العلماء إلى بلاد زغاوة فمكثوا عندهم مدة طويلة حيث طاب لهم المقام، كما قام تجارهم بدور إيجابي كبير في نشره في المناطق السودانية الواقعة إلى الجنوب من الصحراء، وكان عملهم مكماً لعمل عقبة بن نافع، وعبد الرحمن بن حبيب، وعبيد الله بن الحبحاب الذين عملوا على نشر الاسلام بأطراف السودان فكان عمل التجار دفعاً جديداً له للمزيد من الانتشار في الداخل، حتى استطاعوا أن يوصلوا مبادئ الدين الحنيف إلى ما يسمى اليوم ببلاد غانة، وغينيا، وفولتا العليا، وليبيرية، والتشاد، وداهومى، وساحل العاج، وساحل الذهب (١١٣).

الحياة الاجتماعية:

تعددت اللهجات واللغات في المجتمع الرستمي بتعدد عناصر تكوينه فكان إلى جانب اللغة العربية الفصحى والعامية البدوية، اللغة الفارسية، والبربرية والحبشية، ويظهر هذا واضحاً في الكتاب الذي أرسله الامام عبد الوهاب، إلى المتمردين ضد والي جبل نفوسة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني باللغات التالية: العربية، والبربرية، والحبشية (١١٤)، لكن معظم المجتمع الرستمي من البربر سواء كانوا من قبائل مكناسة وزناتة البترية، أو من قبائل صنهاجه وزويلة ومسوفة وملتونة البرنسية، التي اتحدت مع بعضها وكونت جانب الأفارقة من السودان والعرب الذين لجأوا للدولة من المشرق أو من المغرب، وبقايا الروم والفرس واليهود كل هؤلاء كونوا الدولة الرستمية (١١٥).

فابريز الزناتيون كانت نسبتهم أكثر من البربر الكتاميين، فقبائل زناتة البترية من ماكسين، ورشفانة ومغراوة، وبنو راشد، وزقارة اتخذت من السهول الواقعة ما بين تلمسان وتيهرت مضارب لها، وقد عرف رجالها بركوب الخيل وكرم الضيافة إلى جانب تميزهم عن غيرهم بوجود العرافة بينهم ممن لديهم خبرة بالافتاء والكياسة وضرب الكف (١١٦).

أما سكان جبل نفوسة ودمر، فكان بعضهم يعيش على السلب والنهب، ويسمون بـ(رهانة) وهم جماعة يركبون النجب من الإبل المعروفة بالسرعة والمضي في السير، يغيرون بها على القبائل العربية المجاورة لهم، ويعودون بالغنائم إلى مواضع سكناتهم في جبل نفوسة (١١٧) ودمر، لكن البعض منهم وبالأخص من سكان السهول الواقعة ما بين تلمسان وتيهرت مارسوا حياة الزراعة مثل قبائل البرانس من صنهاجه إلى جانب رعاية الماشية. وأنشأوا العديد من القرى منها على سبيل المثال لالحصر، قرية الغدير التي مكث فيها الباحث عاماً كاملاً، وقرى عديدة أخرى أنشئ بعضها على قمم الجبال، وبعضها الآخر في السهول والبطاح، إلى جانب المدن مثل، مدينة أوربي (١١٨) المسماة بالبربرية أزقي الواقعة على بوابة الصحراء القربية من بلاد لمطة ومسوفة والبعيدة عن سجلهاسة بمسافة تقدر باثنتي عشرة مرحلة وأكسية أهلها من الصوف المسمى عندهم بـ(القداور) (١١٩).

ويبدو أن نمط العيش أثر في سلوكياتهم، وقلل من التعمق في فهمهم لأصول الشريعة، فبدو جبل نفوسة، اتخذوا من ربط المساجد أمكنة لربط خيولهم، ومخازن لخزن حبوبهم قصد التبرك بها لا الاساءة إليها (١٢٠).

أما بقايا الروم ممن كانوا على دين النصرانية، فقد أسلم بعضهم بحكم اختلاطهم مع المسلمين وحسن اسلامهم مثل، أبو منصور الياس والي جبل نفوسة وأحد شيوخ الدعوة الذي كان من أصل نصراني (١٢١).

أما اليهود، فقد شكلوا على الرغم من قلتهم ثقلًا اقتصادياً كبيراً، لكن قيمتهم الاجتماعية في المجتمع مفقودة خاصة في البوادي، فقد ورد في ترجمة الشيخ أبو ذر أبان بن وسيم النفوسي، أن شيوخ الجبل شكروه لأنه رخص للنساء في ثلاث مسائل أفتى فيها «الثالثة.. إذا عملت غزلاً قد صبغها اليهودي فسمته راين إن وضوءهن قد انتفض لمسه لأن اليهودي نجس، فقال هن أيما امرأة مست صباغ اليهودي فليس عليها إلا غسل يديها، وليس عليها إعادة وضوء» (١٢٢). لكن الفرس كانت لهم منزلة تختلف عن غيرهم، فالأئمة يرجعون بأرومتهم إلى العنصر الفارسي حسب ما روى بعض المؤرخين، لذا اعتمدوا على الفرس الموجودين في الدولة، وأطلقوا أياديهم في المجالين الاقتصادي والسياسي بمنح زعمائهم اسمى المناصب منهم، ابن وردة صاحب القيصرية المسماة باسمه، فقد كان له حرس خاص بحرس قيصرته إلى جانب تمتعه بمنصب رئيس الشرطة (١٢٣).

أما العرب الذين هربوا من حكم بني الأغلب أو من الاضطهاد المذهبي في المشرق أو المغرب، فقد عمل بعضهم في التجارة، وبعضهم الآخر كان منضو تحت لواء معين كالواصلية مثلاً، وهي إحدى فرق المعتزلة التي استقرت في المنطقة الواقعة في الشمال من تيهرت والامتدة من مستغانم إلى وهران، وفي المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة (تيلغمت)، وفي الصحراء وخاصة في مدينة العطفاء الواقعة إلى الجنوب من ميزاب، حيث توجد مقبرة المعتزلة الذي لزال أهلها إلى اليوم يحافظون عليها (١٢٤).

وبالجملة فقد تضافر أبناء المجتمع الرستمي في مساعدة بعضهم بعضاً بما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي، فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان أغنياء الناس يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص (١٢٥).

ويبدو أن اختلاط العناصر والأجناس المختلفة في المجتمع الرستمي ساعد بعضها بعضاً في تغيير بعض الأنماط المعيشية لبعض الفئات من المجتمع، فالبدو الأقل حضارة تأثروا بغيرهم من العناصر الأكثر تحضراً، فانتقلوا من بساطة العيش إلى الرفاهية، فبنوا القصور والأبنية الفخمة ذات القباب المرتفعة، والحمامات المتقنة، أما الفرس فقد اقتنوا الخيول، وزينوا القصور والبيوت بالستائر المزخرفة، وتنوعت الألبسة، وتعددت الأزياء عندهم وعند غيرهم من الأجناس، وفي هذا يقول ابن الصغير: «... وليس أحد ينزل بها— تيهرت — من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يرى من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم، وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين...» (١٢٦).

ومثلما نجم عن هذا الاختلاط من حسنات نجم عنه سيئات، فقد تفشت الرذيلة وكثر الفسق وشرب الخمر، وكثر اللصوص وقطاع الطرق مما أثار حفيظة الفقهاء، فثاروا على المناكر وحرصوا الأئمة على زوالها وإن بقي آثارها، لكن رغم ذلك فإن الطابع الديني الذي اصطبغ به المجتمع الاباضي كان السمة البارزة فيها، فهناك الحج الجماعي الذي كان يقوم به أهل جبل نفوسة مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم، حتى ولد له في ركب من ركائب الحجيج ثلاثمائة مولود ذكراً، فمبالك بعدد لم يولد له ذكر، ومن لم يولد له أصلاً، ومن ليس معهم نساء (١٢٧).

ويصف الإدريسي، نزعة التدين عندهم، مبيناً أن رجالهم ونساءهم يتطهرون كل يوم عند كل صباح، ويتوضئون لكل صلاة، وثياب الجنب لا يقربها الطاهر وثياب الطاهر لا يقربها الجنب، وهم مضيافون يطعمون الطعام لعابر السبيل، ويقدمونه للفقراء والمساكين، أمناء على أموال غيرهم، محافظين على أعراضهم كمحافظتهم على أعراض حرمهم عادلين في أحكامهم (١٢٨).

الحياة الاقتصادية:

توجهت أنظار الأئمة الرستمية منذ البداية إلى الاهتمام بالزراعة بصفتها المقوم الأساسي للاقتصاد، وتجلى هذا الاهتمام بحسن الاختيار لموقع الحاضرة تيهرت المحاطة بالجبال وبكثرة العيون الطبيعية الموجودة فيها، وخلوها من المستنقعات، ووجود نهرى مينة وتاتش اللذان يصبان في وادي شلف، ولا سيما وأن نهر مينة كان يؤدي إلى جانب الخدمات الزراعية، خدمات صناعية بإقامة الإرخاء عليه بسبب جريانه الدائم (١٢٩).

وقد وفق الإمام عبد الرحمن بن رستم باختيار موقعها بعد أن ساوم أصحاب الأرض المقامة عليها في بيعها، لكنهم رفضوا ذلك ثم عادوا واتفقوا معه بأخذ قسط من غلاتها ومايباع في أسواقها كل عام وتم انشاء المدينة سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م، وقام الإمام برسم الموقع الذي اختط فيه مسكنه وأصبح يسمى بمعسكر الجامع ومن حوله دور الحكومة والأسواق وأحاطها بسور له أربعة أبواب، وخصص لكل سوق من أسواقها نوع خاص من البضاعة، فهناك سوق الأقمشة، وسوق النحاس، وسوق الأسلحة، وسوق الصناعة، وكان أهم هذه الأسواق سوق المعصومة الذي هو بمثابة السوق المركزي الآن.

أما عن الأبواب، فكان لكل باب من أبوابها غرض معين يؤديه، فباب المطاحن؛ مخصص لنقل الحبوب وطحنها، وباب الأندلس مخصص للتجار المسافرين للأندلس عن طريق البحر بواسطة مينائها المسمى بمرسى فروخ والذي يمتاز بحصانته مما ساعد على حمايته من الأعداء، وحماية السفن من الأنواء والذي يقابله في الأندلس موانئ شاطبه، وتدمير، ومرسية، وأقلة. وباب الصفا، مخصص للنزهة والرياضة البدنية وغيرها من وسائل الترفيه، وباب المنازل مخصص للفلاحين الذاهبين إلى حقولهم وبساتينهم والعائدين إلى منازلهم بمحاصيلهم، مما أدى إلى تنظيم الحياة فيها (١٣١).

وعني الرستميون بالاستفادة من المياه فشقوا القنوات، ووزعوا جميع أنواع المحاصيل في سهول الحاضرة إلى جانب غرس الأشجار وإقامة البساتين، وعرفت المدينة عند المؤرخين بـ (بلخ المغرب) (١٣٢)، إلى جانب سهول اسرسو في جنوب تيهرت، وسهول وادي شلف والسهول الساحلية، وكل هذه السهول زرعت بالحبوب وأشجار الفاكهة وخاصة السفرجل الذي بلغت شهرته الآفاق، إضافة إلى الواحات المقامة على مياه الأمطار والآبار (١٣٣).

أما الزراعة في جبل نفوسة، فقد اعتمدت على مياه الأمطار، لكن رعي الماشية كان الغالب على معيشة سكانه، وكان لدى الدولة مراعى واسعة وخاصة في المناطق المحيطة بالحاضرة، مما جعلها منتجعا للقبائل الرعوية القاطنة في شمال الصحراء، ووصفها ابن حوقل عند زيارته لها بقوله: «أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين» (١٣٤).

وتفنن الرستميون بالأساليب الزراعية، فكانوا يبنون الأسوار حول حدائقهم ويساتينهم خوفاً من العبث بها أو دخول الحيوانات إليها. وقد يستعيضون عنها بغرز أعمدة في الأرض توصل بجبال للغرض نفسه (١٣٥)، ويبدو أن الزراعة عند الاباضية قد أصيبت بنكسة مثلما أصيب غيرها من المرافق الاقتصادية الأخرى بعد زوال الدولة، بدليل ما أشار إليه الدرجيني في كتابه الطبقات، عن نظام غراسية الأرض في واحات الجريد بقوله: «ومما حدثني به أبي عنه — رحمهما الله — أن أهل قرى تفيوس كانوا يعمرون جنات غاباتهم بالمناصفة فيكون لهم النصف من ثمرتها وللسلطان النصف، وكان كل واحد يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان إليه» (١٣٦).

وإلى جانب الثروة الزراعية، كانت الدولة تعتمد اعتماداً خاصاً على التجارة، فكان التجار يحملون المتوجات الصوفية والقطنية وأواني الزجاج، والفخار والخزف ذا البريق المعدني، والملح إلى بلاد السودان لندرتهم عندهم، فيبيعونه بأثمان مرتفعة ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات، وكان أهل ورجلان أصحاب القوافل الذاهبة إلى السودان ثم حماة لها، ورحب الأئمة الرستميون وعملهم بتجار السودان، وفتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم، وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الأمان للتجار (١٣٧).

ونشطت حركة السفن بين موانئ مدن تنس، ومستغانم، ووهران، وموانئ الأندلس، فكانت تأتي بالبضائع الأندلسية وتأخذ بالمقابل منتجات البلاد الرستمية، من منسوجات صوفية وغيرها من السلع المجلوقة من بلاد السودان من جلود وعاج (١٣٨).

وحرص الأئمة على ازدهار التجارة بتأمين السبل لحماية الأرواح والأموال، فوضعوا لها الحراس، وأنشأوا الأربطة والمنازل وحفروا الآبار، وكان بعض أولادهم يرافقون القوافل لحمايتها، فقد عين الإمام أفلح ابنه أبا حاتم لحراسة القوافل الآتية من المشرق والمحملة بالبضائع والذهب خوفاً من الاعتداء عليها من قبل سفهاء زناتة الضاربين حول طرقها التجارية (١٣٩).

ومارس الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم التجارة وكان من كبار الأغنياء في الدولة، ودليل ذلك قوله: «لو لم أكن إلا أنا وابن جرنى وابن زلغين لا غنيانا بيت مال المسلمين مما علينا من الحقوق الشرعية» (١٤٠).

ولدينا من الروايات ما يؤكد اشتغال أفلح بن عبد الوهاب، وأبي اليقظان (١٤١) محمد بن أفلح، وأبي حاتم يوسف، بممارسة التجارة إلى جانب التجار من أبناء الرعية (١٤٢). وكانت قوافل الدولة تخرج من مدنها في المغربين الأوسط والأدنى إلى الأندلس بالشمال

وإلى مصر والقيروان في الشرق، ويعود الفضل في وصول القوافل البرية والبرستمية إلى مصر، إلى قبائل هواراة ونفوسة وغيرها من القبائل الأخرى الموجودة في طرابلس والتي كانت تجوب الصحراء ذاهبة آتية محملة بالسلع التجارية وخاصة قبيلة هواراة التي كانت تقطن في المناطق الشرقية من طرابلس، والتي كانت تتولى رعاية القوافل البرستمية الذاهبة إلى السودان، ويبدو أن استقرارها في الصحراء كان لهذا الغرض، فكانت لها محطات تجارية ومعاملات مع أبناء قومها من هواراة تيهرت والأوراس. وقد نوه الإدريسي بثراته بقوله: «... وهواراة أغنياء مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجبال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف، والعمائم، والمآزر، وصنوف من الزجاج، والأصداف، والأحجار الكريمة، وضروب من الأفوية، والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم من يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملاً كلها موقرة» (١٤٣).

وشاركهم في هذه المهنة الواصلية التي هي فرقة من فرق المعتزلة، وشاع بينهم الغنى واليسار، ورحب الأئمة وولاتهم بتجار السودان، ففتحوا لهم الأسواق وأحسنوا معاملتهم، وقدموا لهم التسهيلات التجارية، فأعفوا بضائعهم من الضرائب والرسوم. ويرجع لويسكي أن سبب إجابة سكان جبل نفوسة للغة الكانم يعود لوجود جماعات من أهل السودان فيه (١٤٤).

وبالجملة فقد اتسع نطاق التجارة بين مدن الدولة، والدول التي تتاجر معها. إما عن طريق تبديل السلع (المقايضة) أو عن طريق الشراء بالنقد، فكانت مدينة وارجلان تزخر بالتجار الذين يتاجرون مع بلاد غانة ونقاوة (هكارة) والذين لهم دراية باستخراج معدن التبر وضربه على شكل دنانير في دار السكة بالحاضرة (١٤٥).

وعرف المجتمع البرستمي بكده ونشاطه، وحسن تقواه والتزامه بتطبيق أوامر الشريعة، فكان الأغنياء من أبناء المجتمع يدفعون زكاتهم إلى بيت المال، وكان عمال النواحي وجباة المال يوزعون هذه الزكاة على فقراء الناحية التي يأخذونها من أغنيائهم، وينوه ابن الصغير في حسن التزامهم بدفع الزكاة وتوزيعها فيقول: «يخرج أهل الصدقات أواني الطعام، ويأتون أهل النعم فيقبضون الواجب لا يظلمون ولا يظلمون. فالطعام يدفع للفقراء، والشاة والبعر تباع، ويدفع منها عطاء العمال، وما بقي يوزع على الفقراء، فيخصون من في البلد ومن حولها، ويخصى ما في الأهرام من الطعام ويشترى من باقي الصدقة أكسية صوف، وجباب، وفراء، وزيت، ويدفع لأهل كل بيت بقدر ذلك. وما أن اجتمع من الجزية والخراج وما أشبه ذلك يقطع منه الإمام لنفسه وحشمه، وقضائه، وأهل شرطته، والقائمين بالأمور ما يكفيهم في سنتهم. وما فضل صرف في مصالح المسلمين» (١٤٦).

وشهدت الدولة ازدهاراً اقتصادياً كبيراً بسبب ما اتسمت به من سياسة التسامح مع أعدائها السياسيين والمذهبيين وترحيبها بالغرباء، الذين وفدوا عليها من كل مكان واستقروا فيها، وفي هذا يقول ابن الصغير: «وأنتهم الوفود الرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم» (١٤٧).

أما عن طوائف اليهود المسمون بـ (الردهانة) والذين كانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم — الجيتو — في العاصمة، فقد نالوا من التسامح وحرية العمل الشيء الكثير مما جعلهم يسيطرون على مناشط التجارة فيها.

هذا عن التجارة الخارجية، أما عن التجارة الداخلية، فقد وجد في المدن الاباضية ما يسمى اليوم بالمعارض التجارية المحلية، كان من أبرزها مدينة الخضراء الواقعة بالقرب من مدينة مليانة في الاقليم الغربي من الجمهورية الجزائرية، حيث يعقد فيها سوق محلي تعرض فيه مختلف أنواع السلع المجلوبة من القرى المحيطة بها، ومدينة أكر (١٤٨) المسماة بـ (كرات) الواقعة على نهر شلف القريبة من مدينة الأصنام والتي تمتاز بحصانتها فهي أشبه بقلعة حربية، حيث يعقد فيها سوق محلي كل يوم جمعة لعرض المنتجات الزراعية والمنسوجات المحلية، ومدينة مازونة الواقعة على البحر المتوسط، والتي تقع في الاقليم الغربي من الجزائر، يعقد فيها سوق محلي في يوم معلوم تعرض فيه منتجات الألبان والعسل، وهناك العديد من المدن التي تقوم بما قامت به المدن السالفة الذكر تعقد أسواق محلية فيها. ومن الملاحظ أن هذه العادة مازالت إلى يومنا هذا موجودة في أسواق مدن وقرى المغرب الكبير (١٥٠).

وبالجملة فإن الرخاء الاقتصادي انعكس على تقدم العمران في الدولة وخاصة في الحاضرة تيهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته للوفود القادمة من مدينة البصرة للمرة الثانية إلى الحاضرة تيهرت بقصد منح الإمام عبد الرحمن بن رستم كميات من الذهب يستعين بها في تدعيم الدولة الناشئة، فهاهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة ويشير إلى ذلك بقوله: «فأروا هيئتها قد تبدلت ولاح، عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سياء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى، وأزينت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة...» (١٥١).

ولكن يبدو أن هذا الازدهار قد أصيب بانتكاسة بسبب الحروب التي قامت بينهم وبين الفاطميين، وقضاء الفاطميين على الدولة، وفرض الضرائب الكثيرة على رعاتها، مما أدى إلى قيام الثورات ضدها التي لم تهدأ إلا عندما تخلى الفاطميون عن سياستهم التعسفية، وجنحوا إلى الاعتدال (١٥٢) فيها، إلا أن هذه الأحداث قد تركت طابعاً سلبياً على جميع الموافق الاقتصادية ومن ضمنها التجارة، فقد أشار الدرجيني إلى كيفية التعامل التجاري عند أهل جربة، بأن التبايع عندهم لم يعد بالذهب، لكن بعض الفئات من

المجتمع الاباضي وخاصة قبائل هوارة البربرية بقيت تمارس عملها التجاري بعد زوال الحكم الرستمي مع البلدان السودانية مما أدى إلى انتعاشها وتحسن أحوال المعيشة بين أفرادها، ومن الجدير بالذكر أن الاباضية مازالوا إلى الآن يعتمدون على التجارة ويقومون بممارستها بشكل واسع النطاق في بلاد ميزاب جنوب الجزائر وفي جزيرة جربة بتونس (١٥٣).

أما عن العمارة، فقد كان للازدهار الاقتصادي تأثير كبير على العمارة، حيث تطاول الناس في البناء، وقاموا بتشييد القصور والمباني الفخمة، مما دعا ابن الصغير إلى التنويه بالنهضة المعمارية أيام الإمام أفلح بقوله: «...شمخ ملكه، وابتنى القصور، واتخذ أبواباً من الحديد... إلى أن يقول فابتنى إبان وحموية القصرين المعروفين بأملاق، وابتنى عبد الواحد قصر، يعرف به اليوم» (١٥٤).

غير أنه لم يتبق من هذه المنشآت الكثيرة التي زخرت بها الحاضرة تيهرت شيء يذكر، فقد اضمحلت عقب سقوط الدولة في يد الفاطميين الذين اتخذوها ثغراً لهم أيام المهدي أبو حميد دواس اللهيصي، ثم جاء من بعده مصالة بن حبوس المكناسي، ولما تولى حميد بن يصلى قام بإعادة بناء القلعة والسور، وظلت مدينة تيهرت تنحدر نحو الهاوية بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تدور في ساحتها إلى أن انتهت بتوجيه الضربة القاضية عليها خلال القرن السابع للهجرة.

ويبدو أن الرستميين تأثروا بالتقاليد المعمارية السورية التي برزت بشكل واضح في بناء القصبة ذات الشكل المستطيل، والمتوج بنشز له طابع حربي، أما القصبة فكان يحيط بها من الجهة الشمالية والشرقية سور صغير، وفي داخلها فناء واسع يحوي القسم الأكبر من القصبة، ويلتصق بجدرانها من الداخل غرف تتفاوت في اتساعها (١٥٥).

وعثر رجال الآثار الفرنسيون أثناء تنقيباتهم الأثرية على مسجد بني في العاصمة تيهرت، تميز بوجود قباب بيضاوية الشكل تلتصق بعضها ببعض، أقيمت فوق بيت الصلاة ووجد في داخل المسجد ثلاثة صفوف من الدعائم الاسطوانية، كما وجد في أحد جدرانه طاقات حفر في داخلها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة، أحدها مزين بضلوع بارزة كالفصوص تشبه إلى حد كبير جوفات قصر بالعراق، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثر الفن الزخرفي عند الرستميين بالفن العراقي الفارسي، كما عثرت البعثة على بقايا دور في مدينة سدراته الواقعة في الاقليم الشرقي من الجزائر على الحدود التونسية، كانت مزينة بزخارف جصية رائعة تشبه زخارف مدينة سامراء في العراق، قوامها العناصر الهندسية التي تتألف من مربعات وجاقات مستديرة وفصوص، والعناصر النباتية التي تقوم على الفروع المموجة التي تتوزع فيما بينها التوريقات (١٥٦).

وبالجملة، فقد تأثر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية عراقية سواء كان في انشاء المدن وتخطيطها أو في انشاء المساجد والعمائر والقصور، بينما ظهر الأثر الأندلسي واضحاً في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تيهرت ابان الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة في العصر الرستمي الأخير (١٥٧).

الخاتمة

بذل الرستميون جهوداً طيبة في نشر الثقافة الاسلامية واللغة العربية في أرجاء المغرب عن طريق الحلقات التدريسية والمناظرة العلمية بين الفرق الاسلامية، كما اهتموا بالمرافق الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة قصد انعاش بلدهم وتحسين الأحوال المعيشية لأفراد مجتمعهم، وشارك الأئمة أفراد الرعية في الاتجار، وهذا الأمر لم يكن محبباً في الاسلام لقوله عليه السلام: «إذا اتجر الراعي هلكت الرعية».

والتزم الرستميون حكماً ورعية بتطبيق قوانين الشريعة الاسلامية في معاملاتهم التجارية، فكانوا إلى جانب ممارستهم للتجارة يقومون بنشر العقيدة الاسلامية في بلدان الممالك السودانية—وخاصة الوثنية منها—الذين يتاجرون معها.

ورحب الأئمة الرستميون بالوافدين على ديار الدولة من مختلف البقاع، ومنحوهم الأمان على أنفسهم في أجناسها ومذاهبها.

وتميز المجتمع الرستمي بالشجاعة والاقدام في الحروب، والاتقان في فنون القتال، لكنه لم يسخر طاقاته في الجهاد ضد الكفار.

ونعمت الدولة بالأمن صنو العدل إلى أن سيطرت شهوة الحكم على أحكام ودب فيهم الخلاف والنزاع إلى جانب الفتن والحروب مع الأغالبة، مما أدى إلى اضعاف البنية السياسية والعسكرية للدولة التي انعكست على جميع مرافق الحياة فيها.

ففي الوقت الذي تولى أبو اليقظان الحكم سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م، كان الأمير زيادة الله الثالث حاكماً على دولة بني الأغلب، وكانت ظروف الدولتين متشابهة تقريباً، فالإمام أبو اليقظان محمد قام بقتل أخيه أبي حاتم يوسف بن محمد من أجل الوصول إلى الحكم ضارباً صفحاً عن السخط الشديد الذي سببه هذا العمل، كما أقدم زيادة الله الثالث على

قتل المنافسين له في الامارة من أعمامه وقتل أخيه عبد الله الأحول، إضافة إلى الفتن التي قامت في بداية عهده، مما سهل الأمر على الدولة الفاطمية التي قامت باسقاطها في عام واحد (١٥٨) سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، وتسرب الضعف والانحلال إلى المجتمع الرستمي، فقل نشاط الدعاة الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، مما أدى إلى ظهور بعض العوائد الاجتماعية السيئة، فقد حدث أن أحد شيوخ المذهب عاد بعد غياب إلى منطقته، فوجد أهلها قد فسدوا وتغيرت أحوالهم، وليس بينهم ناه ينهاتهم عن غيهم، فحاول وعظهم قائلاً: «اني رأيت فيكم ثلاث خصال كلها غير مرضية ولاناه عنها: احداها أن نكاح السر فيكم فاش، فإذا مر أحد منكم برجل وامرأة مجتمعين في موضع التهمة اشماز قلبه فإن زجرهما على الاجتماع في موضع الريية قالوا إنا متناكحان فكادت أن تظهر فيكم الفاحشة بما ظهرت، والثانية ان أحدكم يطلق عبيده فلا يعولهم ولا يمولهم، ويكلفهم معاشهم فيطلقون في أموال الناس على غير رضا أصحاب المال ولا عن اذنهم فيكاد أحدكم أن يكون سارقاً وهو في محرابه جالساً، والثالثة أنكم أظهرتم فيما بينكم التحزب والتفرق، فطائفة منكم يقولون مسجدنا ومسجدكم، وطائفة منكم يقولون حضرتنا وحضرتمكم، ويهودينا ويهوديكم، فلم يجدوا جواباً في مجتمعهم ذلك لأنهم تواعدوا ليجابوه فلما أبطأوا استراهم فارتحل عنهم من يومه» (١٥٩). لكن هذه المناكر سرعان ما قضي عليها، بفضل جهود الشراة من العلماء والأعيان، الذين دأبوا منذ قيام الدولة وبعد زوالها إلى يومنا هذا في المحافظة على القيم الاسلامية وغرسها في نفوس أبناء المجتمع الاباضي، بتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة، في تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أصول الدين الذي يساعدهم على تقويم نفوسهم وحسن معاملتهم مع اخوانهم المسلمين.

نتائج البحث

- ١—توصل البحث إلى أن التعددية في الآراء كانت مطبقة في الدولة الرستمية.
- ٢—توصل البحث إلى عدم التمييز بين أبناء الأمة الإسلامية الواحدة، سواء كانوا من أصحاب المذهب أو من دونه مع المحافظة على حقوقهم.
- ٣—اشتراط بالامام العلم في الأمور الشرعية، والالتزام بها، والاعلان عن هذا الالتزام عند تولي الحكم.
- ٤—استخدم الأئمة سياسة التوازن بين العناصر المختلفة في الدولة، وإثارة الفتنة بينها إن لزم الأمر محافظة على عروشهم.
- ٥—على الرغم من حرصهم على تطبيق الأحكام الإسلامية، إلا أنهم مالوا إلى المباحج الدنيوية أحياناً، فكان لديهم مواكب ذات أغراض متعددة.
- ٦—تعاونوا مع أعدائهم التقليديين—الأمويين في الأندلس—ضد الأغالبة الممثلين للعباسيين.
- ٧—ازدهر الاقتصاد في عهدهم خاصة التجارة حيث برعوا فيها، ومازالوا إلى يومنا هذا يتقنون هذا الفن من فنون الحياة إلى جانب اتقانهم للصناعات التقليدية خاصة صناعة الزرابي، التي مازالت مدينة غرداية تتميز بصناعتها لها عن بقية المدن الأخرى في الجزائر.
- ٨—شهدت البلاد في عهدهم نهضة علمية مباركة خاصة في مجال اللغة والدين، وظهر التعاون الشعبي واضحاً في هذا الميدان في بناء المؤسسات العلمية ومساعدة أبنائها من الطلبة.
- ٩—حرص رجال الشرطة (المحتسبة) وأعيان الأمة في إزالة المنكر، بتشجيع من الحكام والعلماء الذين كانوا باستمرار يحثون الناس على هذا العمل.
- ١٠—العمل باستمرار على تدريب الأبناء على القتال، ووجود ميادين للسباق والطعان، ولكن المؤسسة العسكرية كانت مرتبطة بقواعد فقه المذهب أكثر مما هي مرتبطة بالواقع المتغير.
- ١١—مساعدة أبناء المجتمع لبعضهم البعض مما تقتضيه سنن الشريعة من التكافل الاجتماعي فإلى جانب الخدمات التي يقدمها بيت المال للمستضعفين من الناس، كان الأغنياء يقدمون قسطاً من أموالهم صدقة للفقراء والمساكين إلى جانب الزكوات التي يقدمونها بمواعيدها بكل أمانة واخلاص.

الهوامش

- (١) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ليبية، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانية مطابع دار العودة بيروت، د-ت، ص ٤٧-٥٦ .
- (٢) حملة العلم: أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري و عبد الرحمن ابن رستم الفارسي، عاصم السدراتي، اسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو داود القبلي. راجع، الدرجيني، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ت-ابراهيم طلاي، د-ت، ج١، ص ٢٠، الشماخي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد، كتاب السير، ت-أحمد بن سعود السيبي، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص ١١٣ .
- (٣) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب الاسلامي، ط-القاهرة، ١٩٧٦م، ص ١٢٨ .
- (٤) الشماخي، السير (سيرة علماء ومشايخ جبل نفوسة)، القاهرة، ط-حجرية، د-ت، ص ١٦٢ .
- (٥) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ط-القاهرة ١٩٦٦م، ص ٢١٨ .
- (٦) أصحابنا: يعني من الاباضية، وهي لفظة شائعة الاستعمال عند علماء الاباضية.
- (٧) أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سيرة الأئمة وأخبارهم، ت-اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية-الجزائر، سنة ١٩٣٩م، ص ١٢٥، ٨) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢١٨ .
- (٩) النفوسي، سليمان بن عبد الله الياروني، الازهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضية، ط-دار بوسلامة للنشر والتوزيع، تونس ١٩٨٦م، ج٢، ص ٧٠، ١٠ البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط-باريس ١٩١١م، ص ١٤٤ .
- (١١) يرى المسعودي أن الرستميين من الأشبان الذين اختلف في نسبهم فمنهم من يقول أنهم ملوك فارس الأولى، ومنهم من يذهب إلى أنهم من الأندلس اللذارقة-جميع لذريق-والمسعودي مع هذا الرأي. عن الرأي الأول، راجع، الدرجيني، الطبقات، ج١، ص ٢٠، وعن الثاني، راجع، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط-دار الأندلس-بيروت ط-٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١، ج١، ص ١٨٦ .
- (١٢) الملي محمد، الجزائر في مرآة التاريخ، ط-مكتبة البعث قسنطينة-الجزائر ط(١) ١٩٦٥م، ص ٦٠، ديوز محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ط(١) القاهرة ١٩٦٣م، ج٣، ص ٣٢٠ .

(١٣) النفوسي، الازهار، ص ٤٥١، ابن تاويت — محمد الطنجي، دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، مج ٥، سنة ١٩٥٧ م، ص ١١٣.

(١٤) كتب الإمام الربيع بن حبيب رئيس أهل الدعوة الاباضية يومئذ في عُمان، رداً على الكتاب المرسل مع الرسولين من الإمام عبد الرحمن بن رستم، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، يا اخواننا قد بلغنا — ما كان من قبلكم، وفهمنا من أمر الشرط في الإمامة، الا يقضي امراً دون جماعة معلومة، فالإمامة صحيحة، والشرط باطل، ... الخ» راجع، الشماخي، السير، ص ١٢١، ١٢٢.

(١٥) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ — ١٤٧، ص ١٣٣.

(١٦) نفس المرجع، ص ١٦٣، هويكنز، النظم الاسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تعريب أمين توفيق الطيبي، الدار البيضاء — ليبيا — تونس سنة ١٩٨٠، ص ٢٤٧.

(١٧) النفوسي، الازهار، ص ١٦٢.

(١٨) نفسه، ص ٢١٤ — ٢١٩، وعن البيورلدي، نفسه، ص ١٩٧.

(١٩) نفسه، ص ٢٢٣.

(٢٠) نفسه، ص ١١٤، ٢٦٤.

(٢١) الطبري محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك — ط — القاهرة ١٩٦٣ م، ج ٦، ص ٢٧٥.

(٢٢) نفوسة: بالفتح ثم الضم والسكون، وسين مهملة جبال في المغرب تقع غرب ليبيا، ينبت منها الشعير الذي يعد دقيقه من ألد الأطعمة، راجع، الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله البغدادي، معجم البلدان، ط — دار احياء التراث العربي — بيروت، ج ٥، ص ٢٩٦.

(٢٣) النفوسي، الازهار، ص ١٥٥.

(٢٤) نفسه، ص ٨٦. ابن الصغير المالكي، سيرة الأئمة الرستميين، ط — باريس، ١٩٧٠ م، ص ٥٢.

(٢٥) كان من حملته أيام الإمام أفلح العلامة شبيه الدجي، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٨١ — ٢٨٢.

(٢٦) النفوسي، الازهار، ص ١٩٨.

(٢٧) ابن الصغير، السيرة، ص ٢٦ — ٢٧.

- ٢٨) من الصعب رسم خريطة محددة للدولة الرستمية، فالمصادر التي بين أيدينا لاتساعدنا على تحديدها بدقة، وقد أشارت مصادر متعددة لحدودها، لكن تعوزها الدقة. راجع، الاصطخري، ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي، المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٤، البكري، المغرب، ص ١٤٤.
- ٢٩) ابن خردابه، عبد الله، المسالك والممالك، ط— ليدن— ١٨٧٢م، ص ٨٨.
- ٣٠) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ت— سعد زغلول— الاسكندرية سنة ٩٥٨، ص ١٧٩.
- ٣١) النفوسي، الازهار، ص ١٤٠.
- ٣٢) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٥٠٠.
- ٣٣) النفوسي، الازهار، ص ١٤٩.
- ٣٤) نفسه، ص ٢٣١—٢٣٤، ٢٣٧—٢٣٨.
- ٣٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر...، ط— بولاق، سنة ١٢٨٤م، ج٤، ص ٤٣١.
- ٣٦) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد، البيان المغرب في أخبار المغرب، ط— بيروت، ١٩٥٠م، ج١، ص ١٥٨.
- ٣٧) ابن الداية، المكافأة، القاهرة سنة ١٩١٤م، ص ٦١، النفوسي، الازهار، ص ٢٥٧—٢٥٨.
- ٣٨) الدر جيني أبو العباس أحمد، طبقات الاباضية، ج١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (١٢٥٦) ح ورقة (٤١).
- ٣٩) يقول علماء الاباضية: «من ترك معونة إمام العدل، فمزلته مع المسلمين خسيصة» راجع، الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله بن موسى، المصنف، نشر—وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١، ص ١٢٧.
- ٤٠) فاروق عمر، التاريخ الاسلامي وفكر القرن العشرين (دراسات نقدية في تفسير التاريخ) دار اقرأ، بيروت، ط (٢)، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م) ابن خلدون، العبر، دار العلم، بيروت، د—ت، ج٤، ص ١٣٠—١٣١.
- ٤٢) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٤٧٢.
- ٤٣) يستعمل مصطلح غرب افريقية مرادفاً لمصطلح البلاد السودانية، وذلك لأن الاسلام انتشر في هذه لفترة في حزام السافانا والساحل الصحراوي من غرب افريقية بالاضافة إلى الساحل ويشار إلى هذه المناطق في المصادر الاسلامية بالبلاد السودانية، عن التعريف، راجع، I.U.A. Musa (On THE NATURE of Islamization and Islamic reform movements in Bild assudan up to skoto Jihad Dirasat, The University of Jordan, 1979, No: 1. R 27. n. 1.

(٤٤) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد، المغرب في حلي المغرب، ط (٢) القاهرة ١٩٦٤م، ج ١، ص ٥٤٨، اليعقوبي، أحمد أبي يعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن، ١٩٨٢م، ص ٣٥٣.

(٤٥) ابن القوطية، محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم، تاريخ افتتاح الأندلس—القاهرة، د—ت، ص ٩١—٩٢، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، ص ٥٧١، ويشهد على وجود الطائفة الأندلسية تسمية أحد أبواب المدينة الأربعة باسم (باب الأندلس)، راجع، اليكري، المغرب، ص ٦٦، النفوسي، الأزهار، ص ٢٧.

(٤٦) إلى جانب أن التعاون بين الأمويين والرسّامين كان يرمي إلى خصومة الأغلبة، كذلك كان من أهدافه إضعاف الأدارسة، والحد من انتشار التشيع في الأندلس، راجع، عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٣، ص ٥٦٩، مكّي محمود علي، التشيع في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية—مدريد، سنة ١٩٥٤م، ص ١٦٤.

(٤٧) النفوسي، الأزهار، ص ١٦٤.

(٤٨) نفسه، ص ١٦٤.

(٤٩) ديوز، المغرب الكبير، ج ٣، ص ٥١٣—٥١٤.

(٥٠) النفوسي، الأزهار، ص ٢١٩—٢٢٠.

(٥١) نفسه، ص ٢٠٤ وما بعدها.

(٥٣) نفسه، ص ١٦٤.

(٥٤) هم الذين باعوا أنفسهم لله، وهذا ينطبق مع قوله تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...) سورة التوبة، آية ١١١.

(٥٥) النفوسي، الأزهار، ص ٢١٠ وما بعدها.

(٥٦) نفس المصدر والصفحة.

(٥٧) نفسه، ص ٢٥٢.

(٥٨) نفسه، ص ٢١٠.

(٥٩) نفسه، ص ٢٣٩—٢٤٧—٢٥٣.

(٦٠) نفسه، ص ٢٤٧.

(٦١) نفسه، ص ٣١٧.

(٦٣) ديوز، المغرب الكبير، ج ٣، ص ٣٢٦.

(٦٤) نفسه، ص ٤١٦—٤١٧.

(٦٥) يشترط أن يكون فيه ستة رجال فصاعد من أهل العلم بأصول الدين، والفقه، ومن أهل الورع والصلاح. راجع، الكرمي أبو سعيد محمد بن سعيد، الاستقامة، وزارة الثقافة والتراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص ١١٢.

- ٦٦) خليفات عوض محمد، النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في شمال افريقية في مرحلة الكتان، عمان، سنة ١٩٨٢م، ص ١١٢ .
- ٦٧) النفوسي، الازهار، ص ١٤٣ .
- ٦٨) نفسه، ٢٣٩، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦١ .
- ٦٩) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٤٢ .
- ٧٠) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦١—٣٦٢ .
- ٧١) النفوسي، الازهار، ص ٢٩٠—١٣٠ .
- ٧٢) نفسه، ص ٢٧٦ .
- ٧٣) نفس المرجع والصفحة .
- ٧٤) نفسه، ص ٢٢٥ .
- ٧٥) نفسه، ص ١٢٦ .
- ٧٦) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٢١٣، ٣٦٥ .
- ٧٧) النفوسي، الازهار، ص ١١٨ .
- ٧٨) كان من عادتهم حمل السلاح، ووضع السيوف على الأكتاف مثلما يفعل العرب الأولون، أو وضعها على الجنبات، راجع، النفوسي، الازهار، ص ١٢٥، وعن الذكورية راجع، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٦٥ .
- ٧٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٣٢ .
- ٨٠) نفسه، ص ٧٠ .
- ٨١) نفسه، ص ١٧٢ .
- ٨٢) نفسه، ص ٢٨٠ وما بعدها .
- ٨٣) نفسه، ص ٢٧٩ .
- ٨٤) اسماعيل محمود، الخوارج في المغرب، ص ٢٢٢ .
- ٨٥) نفس المرجع والصفحة .
- ٨٦) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٧٢ وما بعدها .
- ٨٧) عملاً بقول الخليفة عمر الذي قال: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في الحرام، راجع، النفوسي، ص ١٩٥ .
- ٨٨) النفوسي، الازهار، ص ١٠٩، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٤٧ .
- ٨٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤، أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة، وأخبارهم، تحقيق، اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية، الجزائر، سنة ١٩٧٩م، ص ٨٩ .
- ٩٠) النفوسي، الازهار، ص ٣٩٤ .
- ٩١) نفسه، ص ٢٨٧ .

- (٩٢) بهلا، إحدى مدن المنطقة الداخلية بسلطنة عُمان، تقع بالقرب من مدينة نزوى وإليها ينتسب ابن بركة، أبو محمد بن عبد الله السليمي البهلي، من علماء الإباضية المشهورين، أنشأ مدينة فيها، أشهر مؤلفاته كتاب الجامع، توفي في القرن الرابع الهجري، راجع، كتاب الجامع، ت- عيسى الباروني، طرابلس، ١٩٧٣، ج٢، ص ٢-١ من المقدمة، ووردت عند ياقوت في كتابه المعجم، ج٥، ص ٥٦٠، بأنها مدينة ساحلية.
- (٩٣) الكرّم أبو سعيد محمد بن محمد، الاستقامة، وزارة التراث القومي، سلطنة عمان، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ج١، ص ٥.
- (٩٤) الشماخي، السير، القاهرة، المطبعة البارونية، ١٣٢٠هـ ص ٥٤٥.
- (٩٥) نفس المرجع والصفحة.
- (٩٦) النفوسي، الازهار، ص ٢٨٧ وما بعدها.
- (٩٧) ديوز، المغرب الكبير، ج٣، الملي، محمد مبارك، الجزائر في مرآة التاريخ، ط- مكتبة البعث قسنطينة- الجزائر ط (١) سنة ١٩٦٥م، ص ٦٣.
- (٩٨) ديوز، المغرب، ج٣، ص ٣٨١.
- (٩٩) نفس المرجع، ص ٣٩٢.
- (١٠٠) عن علماء الجبل، ديوز، ج٣، ص ٣٨٦، وعن ديوان الأشياخ، راجع نفسه، ص ٣٨٨.
- (١٠١) من مؤلفات جبل نفوسة، موسوعة في الشريعة الإسلامية موسومة بـ(ديوان العزابة) ألفها عشرة من العلماء في عشرة أجزاء، وما زالت مخطوطة، في خزائن وادي ميزاب، جنوب الجزائر، عنها، راجع، ديوز، المغرب، ج٣، ص ٣٨٩.
- (١٠٢) عن كتاب الايضاح، راجع نفس المرجع والصفحة.
- (١٠٣) عن كتاب الوضع، راجع نفس المرجع، ص ٣٩٠.
- (١٠٤) المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، ج١، القاهرة، سنة ١٩٥١، ص ٤٠٩، الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تونس، سنة ١٣٢٠هـ ج٢، ص ١٩٢.
- (١٠٥) لما قبض على أبي نوح وجيء به إلى المعز مكبلاً بالأصفاد قال المعز: «إن القيود دخلت في رجلك بالعلم ولا تخرج إلا بالعلم». قال أبو نوح: «عسى الله أن يجعل ذلك كفارة لذنوبي، فغضب المعز». وقال: «أفنحن مسيئون فيك؟». قال أبو نوح: «قلت ليس في ذلك ما يدل على اسائك، ألا ترى أن الله يبتلي عباده، فيصبروا فيؤجروا، وليس في ذلك ما يثبت الاساءة لله، فزال غضبه فطلبته العفو»، فعفى... وقربه.

وفي إحدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبي نوح، سأل المعز: «ما الدليل أن لهذه الصنعة صانعاً؟ أجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية. فقال أبو نوح: «فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب». وتأدب أبو نوح وقال: «جوابك مفهوم من سؤالك، لأن الصنعة بنفسها دليل الصانع، ولا صنعة بغير صانع، فاعجب المعز بلباقته». راجع، الشماخي، ص ٣٥٢، اسماعيل محمود، الخوارج، ص ٣٣٤.

(١٠٦) النفوسي، الازهار، ص ١١٥.

(١٠٧) نفسه، ص ١٠٢ وما بعدها، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ٣٩٩.

(١٠٨) ديوز، المغرب، ...، ص ٤٠٣.

(١٠٩) الشماخي، السير، ط—البارونية، ص ٤٠٢.

(١١٠) ديوز، المغرب...، ج٣، ص ٤١٣.

(١١١) نفسه، ص ٤١٥.

(١١٢) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٦، الملي، الجزائر...، ص ٦٣—٦٤، بونار— رابع، المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١م، ص ١٢٠ وما بعدها.

(١١٣) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥١—٥٢، التقى الباحث أثناء إقامته في الجزائر مع أحد علماء الاباضية المعاصرين، فأكد له وجود جماعة منهم في غانة في أيامنا هذه، وأكد هذا القول المستشرق ماسكراي الذي تحدث إليه الشيخ عبد الله أحمد أحد مشائخ الاباضية وأكد له هذه الحقيقة، راجع،

Masqueray E: CHRONIQUES, Abou zakaria, Alger, 1978, p:279

(١١٤) النفوسي، الازهار، ص ١٥٣.

(١١٥) اليعقوبي: أحمد بن أبي اليعقوب بن واضح، البلدان، ط—ليدن، ١٩٨٢، ص ٣٥٩، محمود اسماعيل، الخوارج...، ص ٢١٣—٢١٨.

(١١٦) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المعروف بـ(نزهة المشتاق)، ط—ليدن، ١٩٦٨م، ص ٨٨.

(١١٧) نفسه، ص ١٢٣، وعن النجب، مازال أهل المغرب يسمون هذا النوع من الإبل بالمهري إلى يومنا هذا، مشاهدات الباحث، كذلك أورد هذه التسمية، النفوسي في كتابه الازهار، ص ١٠٩.

(١١٨) تسمى بالبربرية أزقي، وهناك اقليم في عمان يحمل نفس الاسم مع شيء من الحريف يسمى بـ(أزكي) يمتاز بكثرة الأفلاج، عن أزقي، راجع، النفوسي، الازهار، ص ٥٨، وعن أزكي راجع، ولكنسون، الأفلاج ووسائل الري في عمان، تعريب—محمد أمين عبد الله، وزارة التراث، سلطنة عمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص ١٢٠.

- (١١٩) النفوسي، الازهار، ص ٥٨ .
- (١٢٠) الجنحاني، حبيب، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي، دار الطليعة بيروت، ط(١). ١٩٨٠م، ص ١٠٨—٤١١٠٩ .
- (١٢٢) نفس المرجع والصفحة.
- (١٢٣) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ط—باريس ١٩١١م، ص ٦٨، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، العصر الاسلامي، القاهرة ١٩٦٦م، ج٢، ص ٥٧٦ وما بعدها .
- (١٢٤) ديوز، المغرب...، ج٣، ص ٤٨٠ .
- (١٢٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
- (١٢٦) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط—باريس، ١٩٠٧م، ص ١٢—١٣، النفوسي، الازهار، ص ٢٤٥ .
- (١٢٧) الجنحاني، حبيب، دراسات مغربية، ص ١٠٨—٠٩ .
- (١٢٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٢٨ .
- (١٢٩) نفسه ص ١٤٥، النفوسي، الازهار، ص ١٤ وما بعدها.
- (١٣٠) النفوسي، الازهار، ص ٣١، ديوز، المغرب الكبير، ج٣، ص ١٦٧ .
- (١٣١) نفس المرجع، ص ٢٧—٢٨، عن مرسى فروخ، راجع، البكري، المغرب...، ص ٨١، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٠٠ .
- (١٣٢) النفوسي، الازهار، ص ٧ .
- (١٣٣) اسماعيل محمود، الخوارج...، ص ٢١٠ .
- (١٣٤) ابن حوقل، ابو القاسم، المسالك والممالك، ط—لندن، ١٨٧٣م، ص ٨٦ .
- (١٣٥) النفوسي، الازهار، ص ٢٧٩ .
- (١٣٦) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
- (١٣٧) الادريسي، الشريف عبد الله، صفة أرض المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، ط—لندن، ١٩٦٨م، ص ٨—٩، ١١—١٢، ٣٥ .
- (١٣٨) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، نصوص من الآندلس من كتاب ترجيح الأخبار وتفريغ الآثار، والمسالك إلى جميع الممالك، مدريد سنة ١٩٦٥م، ص ١٩، عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٥٧٦ وما بعدها، أما بما يخص المنسوجات الصوفية، فما زالت النساء في غرداية ببلاد الميزاب يزاو لن هذه الصنعة إلى يومنا هذا، وتعد زراي غرداية من أجود الزراي في المغرب كله. مشاهدات الباحث.
- (١٣٩) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .

-
- (١٤٠) نفسه، ص ١٣٧ .
(١٤١) النفوسي، الازهار، ص ٢٦٤ .
(١٤٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ص ٥٠ .
(١٤٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٣٢ ، ديوز، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٣٤٨—٣٤٩ .

Lewickit: Etudes Ibadites Nord- Africaines Warszaw,
1955: p, 71 .

- (١٤٥) الادريسي، نزهة المشتاق ، ص ٨—٩ .
(١٤٦) أبو زكريا يحيى بن أبي بكر، كتاب الوضع في الفقه الاسلامي، ط — القاهرة
سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م، ج ١، ص ١٩٠ .
(١٤٧) ابن الصغير، سيرة الأئمة، بايس، ١٩٥٨ م، ص ٢٧ .
(١٤٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٨ م،
ص ٢٠٢ .

- (١٤٩) النفوسي، الازهار، ص ١٨ .
(١٥٠) نفسه، ص ٦١ .
(١٥١) مشاهدات الباحث .
(١٥٢) ابن الصغير، سيرة الأئمة، ط — باريس، سنة ١٩٥٨ م، ص ١٣ .
(١٥٣) الشماخي، السير، ط — حجرية، د — ت، القاهرة، ص ٣٢٠—٣٢٣ .
(١٥٤) الجنحاني، كتاب طبقات المشائخ، دراسات مغربية، ص ١٠٩ .
(١٥٥) النفوسي، الازهار، ص ١٨١ .
(١٥٦) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٥٧٩ وما بعدها .
(١٥٧) نفس المرجع والصفحة .

Marçais, G: La BERBE'RIE Musulmane du Moyen(١٥٨
AGE, Paris, 1954, p: 166 .

- (١٥٩) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ١٨٣ ، النفوسي، الازهار، ص ١٩١ .
(١٦٠) الجنحاني، دراسات مغربية، ص ١٠٨ .

التنظيم الإداري لديوان الخوض

(الجند)

في عهد الدولة الغزنوية

التنظيم الإداري لديوان العرض (الجند) في عهد الدولة الغزنوية

(٢٨٨هـ / ٩٩٨م - ٤٣٢هـ / ١٠٤٠م)

اعداد
د. احمد محمد الجوارنة
استاذ مساعد
جامعة اليرموك
قسم التاريخ

مقدمة

تحاول هذه الدراسة ان تكشف للقارىء الكريم عن طبيعة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض (الجند) في الدولة الغزنوية وذلك في عهد السلطانين محمود بن سبكتكين الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود الغزنوي ، كالبحث عن طبيعة ديوان العرض وتفاعلات القادة السياسيين كالسلاطين والوزراء وغيرهم مع هذا الديوان ومعرفة نظام السبهيالارية (قيادة الجيش الاقليمي) والكتخدا مراقب ومشرف القادة الاقليميين، ومعرفة نظام الجاسوسية والمعماة وما ترتب على ذلك من غرس الهبة والقوة للأسرة الغزنوية، كذلك دور الحجاب في الحملات العسكرية، والاطلاع على دور ديوان الجيش في الحفاظ على وحدة الدولة ومعرفة على المخاطر المحدقة بها.

ومن اهداف هذه الدراسة ان توضح ما لاسلحة الجيش الحربية من أهمية بالغة الأثر على تطور الدولة الغزنوية ونهضتها.

ديوان العرض (الجند):

يعتبر ديوان العرض من أكثر المؤسسات الادارية التي اخذت من سلاطين الدولة الغزنوية كل اهتمام وعناية، اذ جعلوا كل مقومات الدولة : المالية ، الادارية ، البشرية والسياسية في خدمة هذه المؤسسة، التي حققت نجاحاً كبيراً في ايصالهم لحكم المشرق من العالم الاسلامي ، وتجاوزوا كل العقبات والتحديات التي واجهتهم اثناء شروعاتهم بتأسيس الدولة الغزنوية على انقاض الدولة السامانية المنهارة ، وطبيعة الحكم لا يتعدى كونه ممارسة للسلوك العسكري الخالص الذي طغى على الجانب السياسي في طيلة العهد الغزنوي في حكمهم للمشرق الاسلامي ، والدولة الغزنوية لا تخالف بذلك معظم الدول الاسلامية الاخرى ، اذ كانت القوة العسكرية (الجيش) هي الوسيلة الوحيدة - على الاغلب - التي دفعت بهم الى السلطة والنفوذ ، ولا نشك بان القوة العسكرية كانت من الاهداف العليا لمعظم الدول الاسلامية ، والدولة الغزنوية واحدة منها ، وتؤكد الحملات العسكرية الواسعة النطاق ذلك والتي نهض سلاطين غزنة لها كمحمود ومسعود ، حيث تمكنت من اخضاع اقاليم آسية الوسطى وايران وافغانستان والهند ، والتي زادت على ثلاثين غزوة او معركة بقيادة السلاطين مباشرة، على الاغلب.

ويعزز هذه التوجهات العسكرية لدى الدولة الغزنوية ، ما احاط بها من ظروف سياسية وعسكرية ، اسفرت عن نشوب صراعات محتدمة في تلك المنطقة بين السلاجقة الاتراك من جهة ، وبين الدولة الغزنوية من جهة ثانية، اضيف الى ذلك ما يترصد بالدولة من مخاطر جراء السياسة الفاطمية التي سعت الى احتواء المشرق الاسلامي ، بما فيه دولة غزنة، لذلك خف السلاطين لتأسيس قوة عسكرية ضاربة في المشرق، لم تقف امام تلك العقبات والمخاطر فحسب ، بل وصلت الى مرحلة تجاوزت فيها كل المحاولات التي هددت سلامة وأمن واستقرار دولة آل سبكتكين وحققت انتصارات متلاحقة واحتوت كل المضاعفات التي ظهرت بوجهها.

واذ جعلت الدولة الغزنوية ديوان العرض محط اهتمام مستمر في الابقاء على هبة الدولة ونفوذها في المشرق، فان الدولة لم تتوان هنيهة عن مساندة المؤسسة العسكرية ودعمها بالاسلحة المتطورة والتجهيزات والمؤن ورفدها بالكفاءات العسكرية، فلم يكن الغزنويون اول من اطلق اسم ديوان العرض على ديوان الجند، فقد سبقتهم الى ذلك الدولة العباسية . فالخلافة العباسي المأمون (١) (١٩٨هـ - ٢١٨هـ / ٨١٣م - ٨٣٣م) ، اول مؤسس لديوان العرض بهذه الصفة ، ويرى شوقي أبو خليل ان الخليفة العباسي الرابع هارون الرشيد (٢) (١٧٠هـ - ١٩٣هـ / ٧٨٦م - ٨٠٩م) هو مؤسس هذا الديوان ، وهذا يشير الى ان الدولة العباسية قد سبقت الدولة الغزنوية في وضع ديوان العرض .

ولا يستبعد بان تكون الدولة السامانية، (٣) التي سبقت الغزنويين في حكم الشرق الاسلامي، قد تأثرت مباشرة بما تعاملت معه الدولة العباسية، في جعله من النظم العسكرية التي يدور رحي الحكم عليها، وبذلك تكون الدولتان العباسية والسامانية في اواسط آسية وايران، قد حددتا المعالم الاساسية لديوان العرض، وعليه تتضح امامنا حقيقة ان الدولة الغزنوية في إتخاذها لهذا الاسلوب العسكري، وجعله اساساً للحكم في الشرق، انها بتأثير مباشر من الدولتين العباسية، والسامانية (٤)، اللتين سبق لآل سبكتكين الخدمة العسكرية في صفوف قواتهما المسلحة.

ونظراً لأهمية العرض في تدريب الجيش وتنظيمه ورفع معنويات الجند، فان السلاطين في دولة غزنة كانوا يتولون الاشراف على عرض الجند بأنفسهم للتأكد من سلامة هذه المؤسسة ومدى قوتها واستعداداتها الحربية والقتالية، ففي معظم المعارك والغزوات التي خاضها الجيش الغزنوي في اواسط آسية والهند، أشرف السلطان محمود وولده السلطان مسعود بنفسيهما على استعراض الجيش وقيادته، ويظهر ذلك من قيادتهما لمعركة سومنات في الهند سنة ٤١٦ هـ / ١٠١٧ م (٥)، التي قادها السلطان محمود بنفسه، ومعركة دندانقان (٦) التي قادها السلطان مسعود الغزنوي ضد السلاجقة الاثراك سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م والتي هزم فيها الجيش الغزنوي. (٧) فنجد ان سلاطين غزنة اتخذوا من ديوان العرض هدفاً سامياً لتحقيق طموحاتهم واحلامهم السياسية التوسعية وهي كما اسلفنا، المؤسسة التي وقفت وراء نشأة الدولة وتأسيسها على حساب الضعف الذي طغى على ملوك الدولة السامانية، ووصول الغزنويين الى السلطة، تم بمساعدة ودعم القوات التي تهيأت لهم من تأليفهم للقبائل الافغانية والتركية الموالية، والتي ارتبطت مصالحها بهم، كما ان انتقال مركز النفوذ من بخارى الى غزنة ادى الى التوسع في بناء ديوان العرض.

اما علاقة السلاطين بديوان العرض، فكانت علاقة وثيقة جداً، الى الحد الذي جعل منهم قادة عامين للجيش، اذ تخضع هذه المؤسسة لاوامرهم وقراراتهم المباشرة، حريصين يقظين على متابعة الديوان ومراقبة التطور في مؤسساته، فاختراروا أن يتولى منصب ديوان العرض اكثر القيادات العسكرية كفاءة، وحرصهم على بقاء الدولة الغزنوية، واكثرهم طاعة واعمقهم ولاءً للأسرة الغزنوية الحاكمة، حتى ارتبط هذا الديوان بما يتخذه السلاطين من قرارات، سواء في تعيين رؤساء العرض، والمشرفين عليه او بترتيب دوائره المختلفة.

كذلك مارس وزراء الدولة الغزنوية دوراً بارزاً في الاشراف على ديوان العرض ومتابعة احتياجاته المالية والبشرية (الجند) والاسلحة والذخيرة والمؤن والمرتبات، اضافة الى ذلك، ان وزراء الدولة كانوا يحط مشورة السلطان في إتخاذ القرارات العسكرية وما

يتعلق بشؤون الحرب من وضع للخطط ورسم للاهداف ، ويشاركهم في ذلك العارض (قائد الجيش) وكبير الحجاب ، لدى البلاط السلطاني. (٨) وتشير بعض المصادر الى تطور هام في ديوان العرض ، ويتمثل ذلك في منح السلطان الوزراء سلطات مباشرة على هذه المؤسسة العسكرية ، فشارك الوزراء في الاشراف على ديوان العرض في كثير من الاحيان ، وابدوا اهتماماً واسعاً في الشخصيات المرشحة لتقلد هذا المنصب (قائد الجيش) ، بحيث لم يكن هذا الاختيار عشوائياً بل يخضع في الغالب لتمحيص ودراسة متعمقة ، فعندما تم اختيار أبي سهل الزوزني عارضاً للجيش الغزنوي ، أشار الوزير احمد حسن الميمندي على رجالات الدولة ليروا رأيهم فيه من خلال مواقفه المسبقة وأعماله وخدماته في الدولة بينما كان السلطان لا يمانع الوزراء في اختيارهم قادة الجيش لثقته المطلقة بهم (٩). ونجد ما تمتع به الوزير احمد حسن الميمندي من حرية مطلقة في اختيار عارض الجيش الغزنوي. فبوساطته تم تعيين أبي الفتح الرازي قائداً للجيش ، فهو الذي زين للسلطان محاسنه وكشف عن كفاءته واخلاصه ، وعمق ولائه ، فوافق السلطان واصدر مرسوماً بتعيينه عارضاً للجيش الغزنوي وألبسه خلعة رئيس ديوان العرض ، وتمنطق بالمنطقة ذات السبعمائة مثقال ، وأدى له اعيان الدولة ورؤساء الجند احسن فروض الطاعة وكان كما يقول البيهقي - رجلاً قديراً كفواً (١٠). ومما يدل على مكانة الوزراء في هذه الفترة ، عدم اقتصار اعمالهم على اختيار قادة الجيش ورؤساء العسكر فحسب ، بل شاركوا في اعداد الجيوش وتسييرها للفتوحات ، وأحياناً تقع عليهم مسؤولية قيادة الجيش مباشرة كما حصل للوزير احمد عبد الصمد ، الذي قاد جيشاً لفتح اصفهان بعد اعداد مالزم من الجند والعمال والاسلحة والفيلة والغلمان ، وذلك بأمر من السلطان محمود الغزنوي (١١).

كذلك شارك وزراء الدولة الغزنوية اعيان الدولة ومستشاريها في اعداد القوات المسلحة الاعداد اللائق بمكانتها ، لإرسالها الى مناطق التمرد التي سعت الى الخروج عن طاعة الدولة وسلطانها . ويطلعنا البيهقي على حرص الوزير احمد عبد الصمد في جعل الجيش الغزنوي في اعلى درجات الجاهزية القتالية المتواصلة ودفع مرتبات الجند نقداً ، ونجح الوزير من خلال هذه السياسة في إعادة الأمن والاستقرار لمدينة بلخ التي ثار اهلها بتحريض من التركمان على النظام الغزنوي الحاكم (١٢). ونلاحظ ايضا ان السلطان لم يكتف فقط باشراف الوزير على الجيش ، بل اضطر احياناً الى تقليده قيادة الجيوش في المعارك ، كما حصل للوزير احمد عبد الصمد الذي شن حملة عسكرية شاملة لقمع الثورة في اقليم طخارستان ، ومنحه السلطان سلطات واسعة وجعل امراء الجيش وقادته بما فيه العارض تحت إمرته في هذه الحملة ، وبذلك حقق انتصاراً كبيراً في حملته ، ونشر الامن في طخارستان ، وعملاً بالامر السلطاني ولى اقليم طخارستان الحاجب الكبير بلكاتكين (١٣).

لقد برزت مكانة ديوان العرض من خلال الرعاية الفائقة لمؤسسة الجيش، فنظمت مصالح الجند، وقام بالاشراف على مؤسسة الجيش الغزنوي، مما شكل عاملاً تطورونفوذ ونهضة للأسرة الغزنوية في الشرق، وهذه الأسرة كانت على الدوام سبباً من اسباب تحقيق الانتصارات وخلق عامل الاستقرار في منطقة مليئة بالثورات والتمردات، متبينة العروق والاجناس في اواسط آسيه (الجمهوريات الاسلامية المستقلة) وايران وافغانستان ثم جنوب آسية (الهند).

ومما تجدر العناية به، ان ديوان العرض أبدى اهتماماً متزايداً في تنظيم الجيش، فأضحى من المؤسسات التي احتوت على العديد من الدوائر والوظائف الادارية ذات الطابع العسكري الخالص، كعارض للجيش، والسبهسالار (القائد الاعلى للجيش الاقليمي) والكتخدا (المراقب الامني للجيش الاقليمي)، ويريد الجيش، ونظام المعمة والجاسوسية، هذه النظم وغيرها سيتناولها البحث إبانة وتوضيحاً.

العارض (صاحب ديوان الجند) :

العارض، قائد الجيش (رئيس ديوان الجند) علم من اعلام الدولة المتنفذة بل ومن اعظمها مكانة عند السلطان الغزنوي، اوكل اليه نفقات الجيش وارزاق الجند، وكان له الحل والعقد والاثبات والاسقاط (١٤). والحقيقة ان رئاسة ديوان الجند في الدولة الغزنوية لا تختلف من حيث الاهمية والمهام والاعمال والصلاحيات عنها في بقية الدولة الاسلامية الاخرى، فهي كبيرة الشبه بانظمة الدولة العباسية، ولا نشك بان الدولة الغزنوية تأثرت الى حد كبير باسلوب العباسيين والسامانيين العسكري والاداري، ولذلك نجدها تعتمد نفس الشروط والمواصفات في اختيار العارض (١٥).

والسلطان في الدولة الغزنوية كان القائد الاعلى للجيش، فتقع عليه مهمة الاشراف المباشر في ادارة هذه المؤسسة، واختيار من هو أهل لقيادة الجيش، واقدروهم واخلصهم لتحمل اعباء المسؤولية وتذكر هنا، ان السلاطين في هذه الدولة، قادوا الجيوش بانفسهم في معظم المعارك واطرها التي قامت بها الدولة الغزنوية في الشرق.

كان صاحب ديوان العرض من اكثر الشخصيات حظوة واهمية لدى البلاط السلطاني، وكان سلاطين غزنة يدركون خطورة هذه المسؤولية، فلذلك كان من يقع عليه تمثيل هذا المنصب الهام، الاتصاف بمواصفات فريدة لا يمكن توافرها إلا في النخبة من الرجال والقادة، فجعلوا العلم والمعرفة والكفاءة والقدرة التنظيمية والشجاعة والاقدام، علاوة على الانتهاء المتجذر والولاء المطلق الصريح للأسرة الحاكمة، من الشروط التي ينبغي ان تلازم شخصية من يتولى ديوان العرض، لان مصير الدولة معقودة بيده وبقاء هبة الملك وسيادة الأسرة الغزنوية مرتبط بوفائهم واخلاصهم ومن هنا، ندرك اهمية منصب ديوان العرض، خصوصاً عندما نطلع على المهام الكبيرة والمسؤوليات الكثيرة التي انيطت به :

- ١ - التدخل في حسم المعضلات وحل القضايا الخطرة ذات المساس المباشر على استقرار الدولة وأمنها (١٦).
 - ٢ - المشاركة في خوض المعارك الحاسمة والمصيرية ، وقيادة المعارك بنفسه في غيبة السلطان ، كما حدث مع العارض الرازي في حرب السلاحة في مرو (١٧).
 - ٣ - الاضطلاع بمهام ترشيح الامراء لولاية العهد ، كما فعل العارض ابو القاسم كثير عندما رشح الامير محمد بن محمود الغزنوي خليفة لايه على عرض الدولة الغزنوية (١٨).
 - ٤ - المشورة في تعيين حجاب الدولة ، لاسيما حجاب السلطان ، وإبداء الرأي في تعيين الوزراء ، ونشير هنا الى دور العارض الزوزني باعادة الوزير احمد حسن الميمندي لمنصب الوزارة (١٩).
 - ٥ - الاشراف على تسيير الجيوش نحو المناطق والثغور ، والاشراف على قيادات الاقاليم الاخرى (٢٠).
 - ٦ - إعتبار العارض المرجع الاول في كل شأن يتعلق بامر الدولة ، إذ امسك بناصرية الامور ، ونظم الجيش ورتب شؤونه الادارية وعمل على اثبات اسماء الجند واعطياتهم واختيار الكفاء والاقدر على القتال والحرب (٢١)، فكانت اكثر خلوات السلطان مع العارض ، لانه وحده كان يصرف الامور وينهي المعاملات ويقر المصادرات (٢٢).
 - ٧ - استقبال الرسل والوفود الاجنبية بصحبة السلطان ، لاسيما رسل الخلافة العباسية ، ورسول القادة والزعماء الاتراك في اواسط آسية ، والمشاركة في معظم الاحتفالات والمآتم التي كانت تقام للأعيان والاكابر في الدولة نيابة عن السلطان (٢٣).
 - ٨ - واحياناً يقوم بمهام واعمال صاحب ديوان الانشاء ، كما حصل مع العارض الزوزني عندما قام باعمال هذا الديوان بعد وفاة نصر بن مشكان على ان يبقى البيهقي (المؤرخ) نائباً عنه وخليفة له (٢٤).
- عظفاً على ماسبق، يتبين ان المهام والمسؤوليات التي مارسها عارض الدولة الغزنوية ، عكست مكانته واهميته كقائد للجيش ، وابرزته ايضاً كشخصية بالغة الخطورة في نجاح سياسة الدولة الداخلية والخارجية . لهذا حرص سلاطين غزنة ، على ان يكون العارض قديراً وخبيراً وشجاعاً إضافة الى ولائه المطلق للأسرة الحاكمة ، وندرك هنا ، معنى ان تحتفل اجهزة الدولة بقيادة ورؤساء ديوان العرض حيث احيطوا بهالة عظمية من الاحترام والتقدير وجعلتهم يمتازون على سائر الموظفين في الدولة ، ويكشف المؤرخ البيهقي الذي عاصر الدولة الغزنوية فترة طويلة من الزمن ، عن الاحتفالات الكبيرة التي كان يدعو اليها السلاطين بمناسبة تعيين وتنصيب العارض ، فيورد في هذا المضمون

« لما تم تعيين أبي سهل الزوزني لديوان العرض ، كان السلطان قد أشار عليه بالتقدم نحوه ، حيث قبل الزوزني الارض ثم انصرف ، فذهب به اثنان من الحجاب احدهما من داخل السراي (القصر) والآخر من خارجها الى خزانة الملابس ، حيث ألبسوه خلعة فاخرة للغاية اعدت له ليلاً ، من جملتها منطقة ذهبية بسبعمئة مثقال . ثم مثل امام السلطان وادى التحية والاحترام فقال له السلطان : «بورك لك» ، اذهب الى الوزير ولتعمل بمشورته في تنظيم امور الجند ، فانه من اهم الاعمال » ، فقال ابو سهل : « سمعاً وطاعة » ، وقبل الارض وذهب رأساً الى ديوان الخواجة (الوزير) ثم رجع الى داره ، فسارع اليه جميع الاكابر والاعيان والحشم والموالي وحملوا اليه مالا كثيراً» (٢٥).

لم تحتفل الدولة الغزنوية بابي سهل الزوزني كعارض للجيش فحسب ، بل جعلت الدولة ذلك عرفاً رسمياً ، فاحتفلت كذلك بابي القاسم كثير عارض الجند ايام السلطان محمود الغزنوي ، والعارض ابو الفتح الرازي . ويلاحظ ان الخلعة التي تمنح للعارض واحدة ، عبارة عن منطقة ذهبية بسبعمئة مثقال (٢٦) ، اضيف الى ذلك ان الدولة منحت العارض القاباً مختلفة ، فاحياناً كان ينعت بالوزير (٢٧) ، واحياناً اخرى بالخواجة (٢٨) ، وهي السائدة والشائعة ايام الغزنويين.

السبهسالارية : (قائد الجيش الاقليمي):

نلاحظ انه مع توسع الدولة الغزنوية وامتداد نفوذها في اواسط آسية والهند ، قد دفع بسلاطين غزنة الى وضع نظام عسكري متين ، للمحافظة على استقرار وأمن الاقاليم التابعة للدولة ، وضمان ابقاء تلك الاقاليم المترامية ، تدين بالولاء والطاعة . ولتحقيق هذا الهدف البعيد ، باشرت الدولة الغزنوية بتطبيق نظام السبهسالارية ، كقيادة عليا للجيش في الاقاليم والولايات التابعة لحاضرة الدولة في غزنة . ويبدو ان هذا الضرب من انظمة المؤسسة العسكرية لم يكن فريداً ، والدولة الغزنوية ليست اول الدول الاسلامية تطبيقاً وتنفيذاً لهذا النظام ، بل وقعت دولة آل سبكتكين تحت تأثير الدولة السامانية التي كان يخدمها الامير سبكتكين مؤسس الدولة الغزنوية . على ان قيادة الجيش الاقليمي كانت احياناً من مهام ولاية المناطق والاقاليم ، لكنها عند الغزنويين في الأغلب وظيفة عسكرية مستقلة تماماً عن سلطة ولاية الاقاليم ، فعين لها سلاطين غزنة قادة متخصصين في الشؤون الحربية ، يقومون على رعاية المؤسسة العسكرية والامنية وترتيب شؤون الجند.

ومن خلال قراءتنا لرواية المؤرخ الجوزجاني، نلاحظ ان الامير سبكتكين كان قد خدم سيهسالاراً في الجيش الساماني الى جانب مهمته كأمر، فقد اختاره الملك الساماني منصور الثاني (٩٩٧ - ٩٩٩) اميراً وسيهسالاراً على غزنة وما يتبعها من اراضين وذلك في العشرين من نيسان سنة ٩٧٧ م (٢٩)، وكذلك عين ولده الامير محمود قائداً للجيش الاقليمي على اقليم خراسان سنة ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م (٣٠). يوم كان في خدمة الدولة السامانية، التي اسندت اليه مهمة القضاء على أبي علي سيمجور الذي اظهر عصيانه وتمرده على الدولة السامانية، واشاع في نخشب (من اعمال خراسان) الفساد والظلم، ولتحقيق ذلك امره الملك الساماني سيهسالارية خراسان ومن يومها، لقب محمود بسيف الدولة (٣١).

ندرك من خلال الخدمة التي قدمها سبكتكين وولده محمود، سواء في اقليم غزنة ام في خراسان، أنها اكتسبتهم خبرات واسعة في معرفة النظم والمعارف العسكرية، وتعمقت لديهم طرق المعرفة الحربية والثقافة الامنية، هذه التجربة جاءت وليدة كفاح ونضال وشجاعة فائقة بدت ملامحها تظهر من خلال السياسة التي انتهجها محمود الغزنوي ميدانياً، في قضائه على الدولة السيمجورية التي حاولت جاهدة الخروج على السامانيين من خلال إثارة الكثير من الازمات أمامها وخلص الدولة السامانية من ذلك، وعلى يد الامير محمود، تحققت شهرته، واصبح ذا شأن عظيم في خراسان. وهنا يشير المؤرخ البيهقي الى ان حرص الامير محمود وتعلقه بمدينة غزنة (امارة والده) حثته وشجعته على ارسال كل صاحب خبرة او معرفة بصناعة او حرفة من نساء ورجال خراسان الى مدينة غزنة، فكان العالم الشهير ابو صالح التباني احد هؤلاء (٣٢).

تلك التجربة العسكرية والادارية التي اكتسبها الامير محمود ووالده من قبل، وذلك قبل تأسيس الدولة، شكلت بذلك عاملاً هاماً من عوامل نجاح الغزنويين في الاستيلاء على ارث السامانيين بكل سهولة ويسر، سيما اذا عرفنا حالة الضعف السياسي والاداري الذي كانت تعيشه الدولة السامانية في اواخر عهدها في حكم الشرق، ونفاذ ارادة آل سبكتكين في اقليم خراسان وغزنة، وهما من الاقاليم الهامة التي تبعت للسامانية في السابق، وتجدر الاشارة في هذا السياق، الى ان الدولة الغزنوية بعدما قضت على السامانية، عملت على تنظيم الاقاليم والسيطرة عليها من خلال المؤسسة الادارية المتمثلة بالولاة والمؤسسة العسكرية المتمثلة بالسيهسالار، فكانت الولايات والاقاليم كالهند، والعراق العجمي، والري وبلخ وطخارستان، وخراسان، وخوارزم، اضافة الى افغانستان (غزنة) مقر الحكم الغزنوي، قد ضببطت شؤونها ومواردها، وضمنت ولاءها وطاعتها من خلال تعيين قيادات عسكرية اقليمية او ما يعرف بالسيهسالار.

الهند :

نلاحظ في الاعوام (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) و (٣٩٢هـ - ١٠٠١م) و (٣٩٦هـ - ١٠٠٥م) و (٣٩٨هـ - ١٠٠٧م) (٣٣) وغيرها ان السلطان محمود الغزنوي قاد حملاته العسكرية الواسعة النطاق على الهند لضمها الى الحكم الغزنوي ، يدفعه الى ذلك بواعث كثيرة منها ، ضعف الكيان السياسي للهند ، والباعث الديني الذي اراد من خلاله محمود نشر الاسلام في الهند بعدما ضعف شأن العرب في اقليم السند والمثلتان وبواعث اقتصادية اذ كانت الهند تشكل مصدراً هاماً من مصادر الاثراء المادي لما تتمتع به من خبرات كثيرة . فتحولت الهند الى ولاية اسلامية للمرة الاولى . ولاهمية الهند الاقتصادية ، سارعت الدولة الغزنوية الى تنظيمها من خلال تعيين حكام اداريين وقادة عسكريين فيها ، فقامت اريارق الحاجب الغزنوي حاكماً وسيهسالاراً على الهند ، وكان هذا القائد من غلمان السلطان محمود ، اذ خدم في بلاطه سنوات ، حتى امرة محمود على جيش الهند ، وادى واجبه بقمع الثورات والقوى الهندية المناوئة ، الا انه استبد بالامور مما دفع بالسلطان الى ان يطلبه للمثول في بلاطه في غزنة ، لكن وفاة محمود الغزنوي منحت اريارق الحاجب فرصة الاستمرار بحكم الهند ، حتى جاء مسعود سلطاناً جديداً ، وقبض عليه سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وأودعه مكبلاً في قلعة غزنة . (٣٤) ويعلل البيهقي سبب غضب الدولة على حاكم الهند ، لأنه بدأ ينفذ عصياناً مسلحاً وسفك دماء بريئة من المسلمين وغيرهم ، وقام بقهر الناس وزرع في قلوب اتباعه الخوف والذعر ، وارهقهم بالضرائب وجمع الاموال الخاصة به . (٣٥) ثم وقع اختيار الدولة على القائد احمد نياالتيكين ليتولى امارة الهند وقيادة الجيش فيها ، حيث فوض السلطان جميع امور الهند لامره ، مما دفع بهذا القائد الى القيام بحملات عسكرية واسعة في ارجاء الهند قاصداً ، اعزاز جانب الدولة الغزنوية وترسيخ هيبتها في النفوس ، وكسب شهرة ومودة لدى سلاطين غزنة . فاخضع مدينة بنارس من ولاية الكنج ، وهي من المدن التي ظلت في منأى عن الفتوحات الاسلامية ، فأثرى الجند في هذه الغزوة ، اذ حصلوا فيها على اموال طائلة . (٣٦) وقد اثار هذا الانتصار والتفوق العسكري اللذان ابداهما احمد نياالتيكين نزعة نحو العصيان والتمرد على سلاطين غزنة ، (٣٧) مما أوغر صدر السلطان مسعود الغزنوي الى التخلص منه بشتى الطرق والوسائل ، واستمرت جهود الدولة باقصى درجاتها للقضاء عليه فقتل بعدما راهن على الاستقلال عن سلطة غزنة ، واحتفلت الدولة بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً ، حيث دقت الطبول ونفخت الابواق ووزعت الخلع والهدايا على الناس كافة فرحاً وابتهاجاً في التخلص من عدو هدد أمن الدولة وسيادتها على الهند (٣٨).

العراق العجمي والري:

كان السيهسالار تاش فراش ابرز القادة العسكريين الذين انيطت بهم مهمة الجيش الاقليمي في العراق العجمي وبلاد الري والجبل، واعتبر من الشخصيات المقربة للسلطان محمود الغزنوي (٣٩)، وهو السبب الذي اقنع السلطان مسعود بن محمود ليؤدي اعمال هذا المنصب، مضافاً الى ذلك الاعمال الكبيرة والناجحة في توطيد الامن والاستقرار في نواحي الري. ولقد خاطبه السلطان حينما وقع اختياره عليه لقيادة الجيش الاقليمي في الري والجبل: انك كلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا، امرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية، فقبل تاش فراش الارض وقال: ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من اقل العبيد فتفضل عليه مولاي بما يقتضيه جلاله، وسأبذل قصارى جهدي طالباً التوفيق من الله عز وجل (٤٠). واحتفاء بتوجه تاش فراش الى العراق العجمي، قرعت الطبول والكوسات ونفرت الابواق (٤١) والحق به اربعة الاف فارس استطاع بهم السيطرة على الري والجبل بعدما قضى على آمال ابن كاكو وجعله واتباعه من كل الاطراف يذعنون اليه ولسلطان الدولة، بالطاعة والولاء (٤٢). وظل منظماً لهذا الاقليم محافظاً على امنه وولائه حتى وفاته سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧

طخارستان وبلخ:

من الاقاليم التي استقطبت اهتمام سلاطين غزنة، ولا سيما قربها من قبائل التركمان والسلاجقة، الذين يوقدون الفتنة وينسجون المؤامرات بوجه الدولة الغزنوية سنين طويلة، لذلك فقد اسندت الدولة قيادة جيش هذه الاقاليم لأكثر قادة الدولة العسكريين كفاءة وشجاعة وخبرة، فكان اشهرهم علي داية الذي عينه الوزير احمد حسن الميمندي (٤٤). فألبس خلعة امارة الجيش سنة ٤٢٣هـ / ١٨٣١م (٤٥)، متقلداً ولاية وامارة الجيش بعد مقتل سيهسالار ترمز وطخارستان القائد بكتكين الذي شغل هذا المنصب ايام السلطان محمود الغزنوي، حيث كانت نيسابور وروستاق من اعماله ايضاً (٤٦). وقد ساهم علي داية في القضاء على السلاجقة في سرخس وعلى التركمان في ختلان، وكان سبباً في قمع تحركاتهم والسيطرة على بلادهم.

خراسان:

يعتبر هذا الاقليم من اكثر واهم الاقاليم التي خضعت للحكم الغزنوي من ناحية موقعه الجغرافي الاستراتيجي الهام وكثرة موارده الاقتصادية والزراعية ، إذ يقع بين ايران وافغانستان وتركمانستان، مما جعله يشكل اهمية بالغة ليصبح ثغراً ترتبط به سلامة الدولة الغزنوية وامنها الداخلي والاقليمي، وقد اعتبرت الدولة الغزنوية بسط النفوذ على هذا الاقليم يعني لها بداية السيادة المطلقة على الشرق، ولذلك فقد تولى السلطان محمود الغزنوي سيهسالارية اقليم خراسان سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م. قبل ان يعتلي عرش الدولة الغزنوية ، كذلك برزت قيادات عسكرية هامة لعبت دوراً كبيراً في اضعاف السيادة الاسلامية للدولة الغزنوية على الشرق، كالقائد العسكري «الغازي الحاجب» الذي اثبت مقدرته وبراعته في تنظيم جيش خراسان ، وعمل على نشر الامن والاستقرار في هذا الاقليم الذي غلب عليه طابع التمرد والعصيان ضد الدول التي تعاقبت على سيادته (٤٧)، فكانت تلك السياسة الناجحة التي ابداهها الحاجب الغازي مدعاة لبروز شخصيته وشهرتها ، مما جعله من القادة المقربين للسلطان محمود الغزنوي، الا ان وشاة القصر أوغروا صدر السلطان وتسببوا في القضاء عليه (٤٨).

خوارزم:

لا تقل همية اقليم خوارزم عن بقية الاقاليم الاخرى التي خضعت لسلطان الدولة الغزنوية ، ان لم يكن اكثرها اهمية، فهو ثغر الدولة الشمالي، وخطر الثغور التي خلقت صعباً وازمات حادة في وجه الدولة، فقد ذكر القلقشندي في انه يحيط بهذا الاقليم من الغرب بلاد الترك، وجنوباً خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك ايضاً (٤٩).

انتدب السلطان محمود الغزنوي الامير التركي التونتاش والياً على هذا الاقليم الى جانب منصب قيادة الجيش الاقليمي، وذلك بعد خضوع خوارزم للسيطرة الغزنوية (٥٠) وكان التونتاش على درجة عالية من الشجاعة والاقدام وله باع طويل في فنون الجيش والادارة ، مما جعل السلطان محمود يعتمد عليه اعتماداً كلياً في معظم غزواته العسكرية التي جردها على بلاد الهند واواسط آسية، فعينه اميراً للحجاب قبل ان يتولى اماره خوارزم وقيادة جيوشها ، ومن حينها لقبه السلطان بخوارزم شاه (٥١)، فكان لنجاح التونتاش في السيطرة على اقاليم عديدة في الشرق، واخلاصه المطلق وولائه الصريح للأسرة الغزنوية ولسلطانها محمود الغزنوي ، سبباً في ان يحتفظ به السلطان

مسعود والياً وقائداً عسكرياً على اقليم خوارزم. فقد امر مسعود الغزنوي بمنحه خلعة فاخرة جداً اعظم مما كان في عهد السلطان محمود (٥٢)، من خلال الحرص الكبير على المؤسسة العسكرية متمثلة بديوان العرض والسيهسالارية. الذي ابداه سلاطين غزنة ، تظهر اهمية هذه المناصب في نجاح معظم السياسات التوسعية للدولة واعتمادها بشكل جذري على كفاءة وبراعة من يقوم بهذه المهام، من هنا ندرك المرتكزات الاساسية التي جعلها سلاطين غزنة شروطاً في غاية الاهمية لاختيار من يمثلون القيادات العسكرية في الاقاليم. فإلى جانب قوة العلاقة ومتانتها التي ربطت السلطان بهم (٥٣)، فانهم كانوا ينظرون الى اكثرهم خدمة للدولة كالعمل في الجيش ومشاركة الحملات العسكرية في الاقاليم (٥٤)، فانهم ايضاً جعلوا الكفاءة والشجاعة والشهامة شروطاً ينبغي ان تتوفر في شخص السيهسالار . لأنه سيؤدي مهاماً كبيرة ينوب في معظمها عن السلطان ، كحماية الثغور ومحاربة الخارجين والعصاة، والحفاظ على موارد الدولة المالية المتمثلة في الخراج الذي كان عماد اقتصاد الدولة الغزنوية، اضافة الى ذلك تكليف بعضهم - كسيهسالار خراسان والعراق - بمراسم استقبال وتوديع رسل الخليفة العباسي القادر بالله ، كما حصل مع الحاجب الغازي سيهسالار خراسان سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م (٥٦).

كانت شخصية السيهسالار من الاهمية ما جعل (الدركاه) البلاط السلطاني يحتفي بها احتفاءً رسمياً، وجعل لذلك طقوساً ومراسم، خاصة بهم، وخلعاً مميزة اشتملت على: « منطقة ذهبية وقبعة ذات ركنين وسرج ذهبي بألف مثقال وعشرون غلاماً ومائة ألف درهم وستة افيال فحول وثلاثة اناثاً، وعشر بذلات خاصة وكوسات وراية » وجرت العادة عند سلاطين غزنة عقب الباس السيهسالار ، خلعة قيادة الجيش الأقليمي ، احضار القائد الى الدركاه (البلاط)، حيث يقابل السلطان، ويخاطبه بقوله:

« بورك لك ولنا، ان هذه الخلعة خلعة سيهسالارية (كذا) وانك تعلم ان لنا خداماً كثيرين...وانما وقع اختيارنا عليك لتشريفك بهذا المنصب الجليل لأنك خدمت في (بلاد كذا) وكنت قائداً، فكلما ازددت اخلاصاً في خدمتنا أمرنا لك بازدياد المنزلة والجاه والرعاية » بينما يقوم السيهسالار فوراً ويقبل الارض جرياً على عادة المراسيم المتبعة في الدولة ، ويقف مخاطباً السلطان.

« ما كان العبد مستحقاً هذه المرتبة وهذا الجاه، وقد كان من أقل العبيد، فتفضل علي مولاي بما يقتضيه جلاله ، وسأبذل قصارى جهدي طالباً التوفيق من الله عز وجل »، ثم تفرع الطبول عندما يسير السيهسالار الى الاقليم الذي يتولى قيادة الجيش فيه، وتندق الكوسات النحاسية وترتفع اصوات الابواق (٥٨).

الكتخدا:

كان الحرص الشديد على أمن الدولة الغزنوية واستقرار مؤسساتها العسكرية ، إضافة الى ما ينسج لها من مؤامرات ويخيطون من دسائس من قبل السلاجقة والتركمان ، عاملاً رئيسياً دفع بسلاطين غزنة الى وضع نظام عسكري غاية في الدقة والاحكام، يعرف هذا النظام « بالكتخدا» ، الذي يتولى مهام الاشراف الامني على قطاعات الجيش ومراقبة احوال الجند وازراقهم، كما وله الامر المطلق على قيادات الاقاليم العسكرية المتمثلة بالسيهسالار. فما من قائد عسكري لأي اقليم من اقاليم الدولة الا وألحق به كتخدا بصفته المسؤول عن تحركات القادة والجنود، اذ هي العين التي تبصر وتنفذ هذه المهام بامر رسمي من السلطان. وقد أوضح ذلك المؤرخ البيهقي الذي قال: ان الكتخدا كان يراقب (السيهسالار) وهو الموكل بالشؤون الخاصة لمن يلحق به من السيهسالارية ، ويكون صاحب الحل والعقد والخفض والرفع والامر والنهي» (٥٩) ولم يجد سلاطين غزنة بداً من اتخاذ هذا النظام اساساً من اساسيات الضبط الامني والعسكري لمؤسسات الجيش ، وادرك معظمهم ان الامور لن تستقيم في الاقاليم ما لم يمارس الكتخدا مهامه ويراقب الاوضاع عن كثب (٦٠)، وذلك بسبب حالة الاقاليم العامة التي ابدى الكثيرون من سكانها تمرداً وعصياناً على نظام الدولة الغزنوية القائم. ولولا حنكة هؤلاء السلاطين وبراعتهم القيادية لكانت عاملاً يقوض اركان الدولة ويحجم نفوذها على اكثر الاقاليم ، بالإضافة الى تمرد بعض الولاة ، والقادة العسكريين على سيادة الدولة، فاصبحت وظيفة الكتخدا ضرورة حتمية فرضتها طبيعة الظروف التي تمر بها الدولة الغزنوية ، وذلك للحفاظ ما امكن على وحدة الجيش الغزنوي، ولضمان ولاء الاقاليم والاطراف للأسرة الغزنوية ، لاسيما تلك الاقاليم التي شكلت اهمية سياسية واقتصادية كبرى، كاهند ، وخراسان ، وخوارزم، التي فيها كانت ولادة القوة الاقتصادية والعسكرية للدولة، حتى اصبح الكتخدا من اكثر الشخصيات اهمية لدى السلطان، ورمزاً من رموز الدولة الذي ارسى دعائم قوتها وانتشار هيبتها في الشرق. وكان سلاطين غزنة حريصين على اختيار الثقات والاكفاء وعلى العناصر القيادية البارزة لتنفيذ مثل هذا الدور الخطير ، حتى انهم لم يدعوا ابناءهم ، ولاة المناطق وحكام الاقاليم، من دون مراقبة. فقد ألحق السلطان مسعود الغزنوي الكتخدا ابو سهل الزرذوني سنة ٤٢٤ هـ / ٢٠٣٣ م للأمير سعيد بن مسعود، وامره السلطان ان يكون صاحب الحل والعقد والخفض والرفع والامر والنهي بيده، وأمر ولده الامثال والانصياح لنهج الكتخدا وارشاداته (٦١). وتقلد أبو سعيد سهل منصب كتخدا وصاحب ديوان العرض فترة للأمير نصر بن سبكتكين، شقيق السلطان محمود، وقد عهد السلطان محمود اليه بعد ان توفي الأمير نصر، بالقيام على

شؤون ضياع غزنة كلها، وقد كان هذا العمل من حيث اهميته يعدل عمل صاحب الديوان في غزنة. واستمر ابو سعيد في هذه الخدمة مدة طويلة، الى ان توفي السلطان محمود، فاسند اليه السلطان مسعود عمل صاحب ديوان العرض بالاضافة الى عمله في مباشرة الضياع السلطانية. وقد ظل خمسة عشر عاماً في مراقبة هذه الشؤون الى ان امر السلطان يوماً بمحاسبته محاسبة المستوفين فبلغت الاموال سبعة عشر الف الف درهم (٦٢). وعمن تقلد وظيفة الكتخدا، طاهر الكاتب، كتخدا الجند في الري، الحق بسيهسالارية تاش فراش سنة ٣٢٤ هـ / ١٠٣٣ م (٦٣)، وابو الفتح مسعود، كتخدا الامير مودود بن مسعود (٦٤)، وعبدوس، كتخدا العسكر في خوارزم عند التونتاش (٦٥)، وسعيد الصراف، كتخدا الحاجب الغازي قائد الجيش في هراة وبلغ (٦٦)، واحمد عبد الصمد، كتخدا علي داية سيهسالار طخارستان وبلغ (٦٧)، وابو الحسن الشيرازي، كتخدا الجيش في سيهسالارية احمد نياتكين في الهند (٦٨).

نجحت الدولة الغزنوية بتطبيق هذا النظام، فقد حرص معظم من تولوا هذا المنصب على حماية واستقرار البلاد، ومارسوا سلطات واسعة للوصول الى ذلك الهدف، الا ان خطورة واهمية هذا المنصب بالغتين دفعتا ببعض الكتخداه الى ممارسة شتى ضروب القمع والارهاب، فانعكس سلباً على مصالح الدولة. فمنهم من لجأ بتنفيذ تلك السياسة الطائشة ويثري ثراءً فاحشاً على حساب الجيش والدولة. ففي سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م، جاءت الكتب تترى من الري بان طاهر الكاتب، كتخدا الري ونواحيها قد انغمس في اللهو والشراب والمجون، وبلغ من تهتكه انه اخذ ينشر الورد في موسمه يوماً بشكل لم يعهد عن غيره من السلاطين. فقد كانت الدراهم والدنانير مبنوثة بين اوراق الورد وبلغ من السخف - كما يقول البيهقي - غايته حيث أمر باحضار اواني الشرب الذهبية والفضية وربطت بحبال من حرير وتمنطق بها كأنها منطقة، ووضع على رأسه تاجاً نسج من الياسمين والورد الجوري. حتى ان قائد الجيش اقتدى به في اللهو والطرب (٦٩). وقد خشي السلطان مسعود ان تفقد الدولة هيبتها في خراسان نتيجة هذه الاعمال الخرقاء، التي بدأت من تأثير الكتخدا طاهر الكاتب، مما دفع بالسلطان الى احضاره الى مدينة غزنة، حتى لا تبلغ اخباره الاعداء، ولو انها بلغتهم وعرفوا ان التخذ المشرف على الاعمال والاموال والتدبير يعيش على هذا النحو من الفساد لن تبقى هيبة للحكم (٧٠). وقام السلطان بعزله واستبدله بابي سهل الحمدوي، لانه صاحب كفاية وحنكة وذو شهامة وله تجربة في خدمة الدولة فقال السلطان مخاطباً ابا سهل:

« إنا قد عجمنا عودك في كل ما عهدنا به اليك فوجدناك شهماً وكفوؤاً واهلاً للاعتماد عليك، وان اعمال الري وما والاها من اهم الاعمال، ولا يتأتى من طاهر الكاتب القيام بها. وقص عليه احواله، ثم قال له: « إنا قد اخترناك بدلاً منه، فانصرف وتأهب للسير

وستأمر بما ينبغي»،... فقبل أبو سهل الأرض وقال: «قد كنت أود أن استمر بالخدمة في البلاط ولكن لا رأي للخدم وإنما الأمر لمولاي، فإن يأذن لي السلطان فإني اجلس للتشور مع الوزير أبي نصر واكتب شروط العهد، وأطلب كل ما ينبغي، فانه حسبما سمعت، قد تآزمت الأحوال هناك، وكتب أبو سهل الحمدوي شروط العهد كاملة في كل باب (وكان يجيد الكتاب) وعرض أبو نصر العهد، فاجاب السلطان بخطه قائلاً: «أولاً ينبغي أن يكون لأبي سهل هناك جاه عريض.

ثانياً: عليه أن يكون ذا مهابة وأبهة وذا تبصر تام».

ثم أمر السلطان بأن تعد له خلعة مما يعد للوزراء، اذ كان فيها المنطقة (الكمرة) والمهر عشرة غلمان من فرسان الترك ومائة الف درهم ومائة ثوب، وأمر بأن يخاطب بالشيخ العميد (٧١). وقد بلغت مظاهر الاحتفاء بالكتخدا حداً أظهرت لآعيان الدولة ووزرائها وكبار قادتها العسكريين عظمة الكتخدا ومدى حاجة السلطان لخدماته. ففي يوم الثلاثاء لست خلت من جمادى الثاني سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٣٣ م لبس أبو سهل الحمدوي الخلعة بعد الاستقبال، ودنا من السلطان وقبل الأرض وقدم له عقداً من الجوهر واجلسوه، فقال السلطان: «بورك فيك». واعطاه خاتماً عليه اسم السلطان، وقال: «هذا خاتم ملك العراق (العراق العجمي والري) وضعناه في يدك، فأنت خليفتنا في تلك الديار والأمر لك من بعد أمرنا في الجيش والرعية في كل ما يؤول لصالح البلاد والعباد، فسر في عملك بجنان ثابت، فقال أبو سهل:

«سمعاً وطاعة وسوف أبذل قصارى الجهد ملتصقاً من الله التوفيق للوفاء بهذه الثقة الغالية»، ثم قبل الأرض وانصرف إلى بيته حيث وافاه العظماء جميعاً وادوا حق قدره (٧٢)، ثم أمر السلطان بتعيين والده الأمير سعيد سيهسالاراً على الري والعراق العجمي ويكون الحمدوي كتخداه (٧٣).

الجاسوسية والمعماة:

تنبه سلاطين غزنة إلى ضرورة احتواء الدولة الغزنوية بأقاليمها الواسعة واهتماماتها الكثيرة في الشرق وتوثيق عرى الوحدة السياسية لتلك الأقاليم، التي خضعت لسلطانهم في أواسط آسية والهند، بوضع نظام أمني تمثل بنظام الجاسوسية والمعماة، الذي أشرف على تنظيمه ومتابعة نشاطاته المتشعبة السلطان والعارض. وهذا اكسب العاملين في هذا الجهاز الأمني أهمية فائقة. من خلال تحركاتها ونشاطاتها التي شملت كل الأقاليم، كالهند، وافغانستان، وخراسان، وخوارزم والعراق العجمي والري وبلاد ما وراء النهر، فتمكنت الدول من ضبط حالة الأمن، لآسيا في الثغور التي كانت تحترق من قبل الثوار

والتمردين ، كاقليم خراسان وخوارزم، في حين لم تكن الدولة الغزنوية لتنفرد في تطبيق هذا النظام، بل ساد ذلك زمن الخلفاء العباسيين، الذين جعلوا من نظام التجسس خير وسيلة لمعاقبة ومطاردة الخارجين على سيادة الدولة (٧٤)، مما تسبب في شيوع الرهبة والخوف في صفوف المواطنين وبناء هيبة الدولة المترهلة. ولا يستبعد ان تكون الدولة الغزنوية قد وقعت تحت تأثير النمط السياسي العباسي، وجعلته مؤسسة لتدعيم سلطانهم ونفوذهم في الشرق.

كان نظام الجاسوسية دقيقاً لدى الدولة الغزنوية ، وكان يرتبط بالبلاط السلطاني وديوان العرض برباط وثيق، فقد أوضح المؤرخ البيهقي في تاريخه الى اي حد كان نظام الجواسيس دقيقاً ايام السلطان مسعود الغزنوي، فيحدثنا ان السلطان مسعود حرص على بث رجاله وعيونه بين السواس الذين صحبوا رسول الخليفة العباسي، متنكرين لينهوا كل ما يروه ويشاهدوه، قل ذلك ام كثر الى الحضرة السلطانية، ويؤكد ان السلطان مسعود كان آية في مثل هذه الامور (٧٥).

من هنا، لاحظ وزير الدولة السلجوقية نظام الملك الطوسي (ت ٤٨٥ هـ)، قوة نظام الجاسوسية لدى الدولة الغزنوية وتطوره ، فحداه ذلك الى اسداء الارشاد والنصح للسلطين السلاجقة لينهجوا نهج الغزنوية في تطبيق نظام التجسس والمعماة، الذي افاد السلاجقة فائدة كبيرة ، ليصبح مؤسسة قوية، دعمت النظام وساهمت في سيطرته على الشرق، وأشار كذلك الى الاسلوب الذي تعاملت به الاسرة الغزنوية في توزيع الجواسيس نحو الاقاليم ، كأن يقوموا ببث العيون في كل الاطراف في زي التجار والسياح والمتصوفة وباتعي الادوية والدراويش (٧٧)، والاسكافية (٧٨)، وذلك لنقل كل ما يسمعون من اخبار الى السلطة، لتلافي أي طارئ جديد في حينه، فما اكثر - يقول الطوسي - ما كان الولاة والمستقطعون والعمال والامراء يضمرون للملك خلافاً وعصياناً ويتربصون به الدوائر سراً، لكن الجواسيس كانوا يكشفون ذلك ويخبرون الملك به، فيأخذ للأمر اهبتة ويدفعه إلى نحر المتربصين الماكرين . وتظهر لنا الروايات التاريخية التي اوردها المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود وولده مسعود وخدم في بلاطهم، ان سبب تكثيف الدولة الغزنوية لنشاط الجواسيس هي ظاهرة العداء التي قادها طغرل بك السلجوقي، الذي حاول سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م زعزعة استقرار الدولة من خلال اثاره الفتن والاضطرابات في وجه الاسرة الغزنوية ، فكان نظام الجاسوسية اداة خطيرة وبالغة الاهمية في الكشف عن نوايا السلاجقة ومعرفة اهدافهم ومخططاتهم وتحركاتهم. كذلك نجحت الدولة في معرفة القدرة القتالية للسلاجقة اضافة الى معرفة الممتلكات والمؤن وتعداد الجيش (٨٠). كذلك كانت الدولة الغزنوية تستغل جواسيس الاطراف والامراء لصالحها، فقد استطاع (ابو نصر مشكان) صاحب ديوان الانشاء، ان يوظف

جاسوساً، بغرا خان السلجوقي، لخدمة مصالح الدولة الغزنوية، إذ أمر الجاسوس السلجوقي بمهمة الى الهند في مدينة لاهور على ان يخفي نفسه بصناعة الاحذية وتصليحها، وكانت الدولة تمنحه اموالاً وامتعة كثيرة مقابل ذلك (٨١).

لم تكتف الدولة الغزنوية ببث ونشر العيون في الاطراف فحسب، بل اتخذت نموذجاً متطوراً في هذه المؤسسة، فغدت تتعامل مع عملائها وعملها بواسطة المعماة (الشفرة)؛ اذ كان لكل معماة رموز يصطلح عليها حتى لا تعرف الا لمن يهمهم الامر، فبرع بكتابة المعماة وتحليل رموزها الكتاب الذين تولوا او شغلوا منصب ديوان البريد، سواء في العاصمة غزنة او في الاقاليم الأخرى. كذلك كان (ابو نصر مشكان) آية في معرفة المعماة وفك رموزها. ويؤكد البيهقي انه قل من لهم مثل قدرته فيها (يقصد كتابة المعماة وحل رموزها). فقد كان اكفاً وأكتب اهل زمانه (٨٢). ويشير البيهقي ايضاً الى ان السلطان مسعود الغزنوي كانت له مقدرة على كتابة المعماة، (٨٣) ومن خلال قراءتنا لنصوص تاريخ البيهقي، فاننا ندرك ان أبا الفضل، صاحب التاريخ وتلميذ ابي نصر مشكان كان خبيراً بكتابة المعماة ورموزها، وكتابه رسالة معماة للوزير احمد عبد الصمد، والتي يشير فيها الى رغبة السلطان قضاء الشتاء في الهند والتي جاء فيها: « ان هذا السلطان قد ذهل من أمر لم يقع ولن يثني العنان حتى يبلغ لاهور، وقد بعث بالكتب سرّاً ليعدوا له العدة، ويبدوا انه لن يلبث في لاهور، هذا ولم يبق أحد الحرم في غزنة، وليس بها شيء من الخزائن، وقد أسقط في أيدي هؤلاء الاولياء والحشم المقيمين هنا، وهم جميعاً في حيرة من أمرهم، وكلهم معلق امره على الوزير، فالغوث الغوث ليتدارك سريعاً هذا التصرف الاخرق، وليكتب له بصراحة فانه على بضعة منازل منا، ويستطيع ان يوضح الرأي لعله يرجع عن تفكيره السقيم (٨٤) ».

وعلى الرغم من اهتمامات البيهقي وخبرته في كتابة المعماة، الا انه لم يبلغنا عن اشكال تلك الرموز بشكل صريح، بل اكتفى بنقل ترجماتها. وقد وردت تلك الترجمات كثيراً في مناسبات عديدة، نذكر منها نموذجاً آخر على سبيل الايضاح لا الحصر، فقد ذكر البيهقي ان « اميرك البيهقي » صاحب بريد الجيش في خوارزم بعث برسالة معماة الى السلطان يبلغه فيها عن حرب الدولة مع التركمان جاء فيها:

« ان خوارزم شاه عندما شاهد جيش السلطان استولى عليه الذعر لأنه حسبه من تعبئة القائد علي تكين، فأعد عدته واسترجع السفن من وسط جيحون، لكن كتخداة احمد عبد الصمد أزال ما في قلبه من الهلع وقوى عزيمته، ومع هذا كله فان خوارزم شاه يبدو مذهولاً، وقد ذهبت اليه مرات لأهدي روعه، ولعل العاقبة تكون خيراً، إذ ان المصير يبدو الآن مظلماً (٨٥) ».

وغالباً ما كانت ترسل المعماة بواسطة خشب مجوف، يغطوا به رسائل صغيرة، ثم يحكمون وضعها ويسدون الفراغ بنشارة الخشب ويلونوا قطعة الخشب بحيث يصعب تمييزها (٨٦).

بريد الجيش:

كانت حاجة الجيش الدائمة الى معرفة الاخبار عن العدو وعدد جيشه وتسليحه والطرق التي يسلكها والخطط التي يضعها، قد حدت بالغزنويين الى العناية بامور البريد. فازدادت اهمية البريد من الناحية الحربية، ونظم البريد العسكري تنظيماً دقيقاً حتى بلغ أقصى درجات رقيه وتطوره ايام السلطانين محمود الغزنوي وولده السلطان مسعود بن محمود. وقد ساهمت الظروف المحيطة بالدولة الغزنوية، لاسيما تلك التي ظهرت من جانب السلاجقة والتركمان في الاقاليم الشمالية، الى وضع بريد خاص بالجيش، لمواكبة التطورات وملاحقة العصاة ومتابعة تحركاتهم من منطقة الى أخرى.

وقد ارتبط بريد الجيش بالسلطان والوزير وعارض الجند وقائد الجيش الاقليمي، مما اضفى عليه اهمية كبيرة فاقت العديد من الدواوين والمراكز الادارية الاخرى. لذلك لم يكن سلاطين الدولة الغزنوية ولا وزراءهم وقادة جيشهم يختارون لهذه المهمة الا من كان ثقة، واسع الاطلاع، وله خبرات عديدة منها:-

١ - القدرة على توظيف الحيل والخديعة في كتابة الرسائل حتى لا تعرف اهدافها اذا وقعت بيد الاعداء.

٢ - الالمام التام بكتابة الرسائل والمعماة (الشفرة) ومعرفة رموزها وحلها.

٣ - معرفة الطرق والمنافذ لاسيما طرق الاعداء ومناطق تواجدهم وتحركاتهم.

٤ - ان يكون ماهراً في القتال حتى لا يكون عرضة للقتل او السلب بسهولة ويسر.

٥ - الذكاء والقوة (٨٧).

ومن خلال قراءتنا لتاريخ البيهقي، نجده قد حفل باسماء الشخصيات التي تولت هذا المنصب الهام، ونذكر هنا بعض ابرز الاسماء التي مارست مهام بريد الجيش في الدولة الغزنوية، وكان لها أبلغ الأثر في الحفاظ على احوال الاقاليم والجيوش واطلاع القيادات العليا المركزية في عاصمة الدولة غزنة في حينها، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أبو سهل الهمذاني، الذي عينه الوزير احمد عبد الصمد بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، إذ الحق بالجيش الذي قاده السيهسالار على دايه في حربه مع السلاجقة الاتراك (٨٨)، وأبو الحسن دلشاد، الذي حاز على ثقة السلطان والوزير والعارض، لما كان يتمتع به من قدرات ومواهب في معرفة الاخبار وتقصي الحقائق والحصول على المعلومات الاستخبارية الخفية؛ إذ انتدب سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م، ليتولى بريد الجيش في معركة أمل ضد السلاجقة الاتراك (٨٩)، وأبو سعيد الصراف صاحب بريد الجيش في معركة دندانقان في خراسان، والتي قادها كبير الحجاب سوباشي وتقلد في نفس الوقت ككتخدا السوباشي (٩٠)، وعين الفقيه أبا بكر المبشر، صاحب بريد الجيش بأمر من السلطان،

التحق بجيش الوزير احمد عبد الصمد الذي قاد حملة عسكرية نحو طخارستان وبلغ بسبب ما كان من ثورة نواحي ختلان، وأمر بأن يكتب للسلطان كل يوم بما يراه الوزير خيراً لصالح المملكة (٩١). وكذلك، اميرك البيهقي صاحب بريد الجيش، الذي قاده التونتاش في خوارزم، وكانوا قد اقاموا على طريق بلخ مراقباً للبريد لمنع تسرب الاخبار اليها (٩٢)، في حين جرت العادة أيام سلاطين الدولة الغزنوية ان يوضع البريد في كيس له حلقة وتختتم باختام كثيرة (٩٣).

الحجابه :

لم تشأ الدولة الغزنوية ان تتخذ من الحجابه وظيفة ادارية هامة مقتضية بذلك اثر الخلفاء العباسيين والامويين وغيرهم، واذا كانت الحجابه عند الامويين قد مورست لحماية الخلفاء من القتل وشر الناس، وكذلك الحال عند العباسيين (٩٤)، فإن نظام الحجابه لدى الاسرة الغزنوية تجاوز هذه المهام والاهداف، فشمّل وظائف عديدة، كان أبرزها اهتمام الحجاب بشأن الجيش والاهتمام بسلامة وأمن السلاطين. فلم تقتصر اعمال الحجاب على حماية السلاطين فحسب، بل اصبح هناك حجاب للوزراء وحجاب للولاة وقادة الجيش الاقليمي وحجاب القلاع (الكوتوال). واعتبرت الحجابه من الاعمال الهامة في البلاط السلطاني. فالحاجب موظف كبير يشبه كبير الامناء وقائد الحرس السلطاني في ايامنا هذه. والسبب وراء وضع الحجابه ضمن تنظيمات الجيش الادارية ذات العلاقة بديوان العرض، هو ممارسة حجاب الدولة الغزنوية قيادات الجيش في اكثر من موقع، الى جانب مراقبة الحرس والجند، واعدادهم في كثير من الأوقات للحملة العسكرية، وللاحتفالات الرسمية والخاصة، وقد ظهر في تاريخ الاسرة الغزنوية التي حكمت الشرق العديد من الأسماء اللامعة في الحراسة السلطانية وحماية الامراء والاعيان والوزراء والقادة (٩٥)، وكان لهم اكبر الاثر في تهيئة الظروف المناسبة للسلطان وغيره لممارسة اعمالهم بكل دقة وأمان.

والحاصل، ان الحجاب، الى جانب توفير الامن والحماية والرعاية للسلطان وعائلته وللأعيان، فانهم يقومون بمهام كثيرة جاءت على النحو التالي:

١ - الاشراف على مراسيم العيد وذلك باعداد الساحات الكبيرة على شكل دائرة واسعة تحشر فيها الحيوانات للصيد من كل مكان، ويأتي السلطان فيصطادها (٩٦).

٢ - شارك الحجاب في الحروب والمعارك التي كانت من سمات العهد الغزنوي البارزة، فقد شارك الحجاب التونتاش حاجب السلطان مسعود في حرب السلاجقة في مرو، وكان التونتاش قبل ذلك نقيب الفرسان لدى السلطان محمود الغزنوي، عندما كان مسعود حاكم الري، وكان الحجاب سوباشي يقود أهل السلاح والفرسان العرب وغيرهم (٩٧).

٣ - اضطلع بعض الحجاب كعلي قريب، بدور بارز في رسم سياسة الدولة الغزنوية، فقد كانت له يد في تعيين الامير محمد بن محمود الغزنوي سلطاناً على الدولة، على ان يتولى كبير الحجاب اعظم امناء الدولة وله تدبير شؤون الملك، ثم أمر باعتقال الامير محمد ودعا الى تولية الامير مسعود بدلاً منه، وتليت الخطبة باسم السلطان الجديد وأقيم حفل عظيم باشراف كبير الحجاب (٩٨).

٤ - الاشتراك في العروض العسكرية واعداد ما يلزم من الخيول والفيلة والجمال، فقد اعدّ كبير الحجاب بلكاتكين بأمر من السلطان مسعود الغزنوي، ألفاً وستمائة وسبعين فيلاً بين ذكر واثني، وذلك لاقامة عرض عسكري في مدينة كابل (٩٩).

٥ - شارك الحجاب في مواكب السلطان الرسمية، سواء أكانت بمناسبات الاحتفال بالاعیاد او بعزاء أو باستقبال رسل الخليفة العباسي، وكانوا يحضرون اجتماعات السلطان مع رسول الخليفة العباسي (١٠٠).

٦ - موقع استشارة السلطان في كثير من الاعمال والمهام الرسمية الهامة، فكثيراً ما كان يستشار الحاجب في تعيين الوزراء والولاة والعارض وقادة الجيوش (١٠١). كما ويمنحهم الخلع.

٧ - كان يتسلم الغنائم من القادة العسكريين، ويتسلم الهدايا والخلع والمناشير من رسل الخليفة العباسي (١٠٢).

٨ - الاشراف على طعام وشراب السلطان والأمراء (١٠٣).
إن اعتماد الدولة على الحجاب في المهام العسكرية، عكست مكانة وقدرة هؤلاء الحجاب في ممارسة نشاطات عسكرية خطيرة. فقد قاد - كما سبق واشرنا الى ذلك - كبير الحجاب سوباشي سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م الجيش الغزنوي ضد السلاجقة الاثراك على رأس عشرة آلاف فارس وخمسة الاف راجل الى خراسان، في موقعة دندانقان التي انهزم فيها الجيش الغزنوي سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م، وكانت من اخطر المعارك التي يخوضها الغزنويون، وتسببت باضعاف هيبتهم (١٠٤). كذلك كان الحاجب ارسلان جاذب، قائداً لجيش السلطان محمود، وكان والياً على طوس وخراسان (١٠٥)، وقد نجح في اجلاء التركمان عن خراسان (١٠٦). أما مظاهر التكريم والاحتفاء بهؤلاء الحجاب فكانت من سمات العصر الغزنوي البارزة، كشفت لنا عن اهمية هؤلاء داخل اجهزة الدولة بادارتها المختلفة، ومثال ذلك، فقد اعدت سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م خلعة فاخرة لكبير الحجاب بلكاتكين، كان من جملتها:

« الكوس والرايات العريضة والشارات والغلمان واكياس النقود والكساوي غير المخيطة، يرتدي خلعة سوداء وقلنسوة ذات الركنين ومنطقة من ذهب » (١٠٧)، ثم يذهب الى البلاط السلطاني ليؤدي فروض الطاعة والولاء تمشياً مع المراسيم المعهودة عند

الغزنويين، بعدها يعود الى داره حيث يقدم له الأكابر والأعيان هدايا كثيرة جداً (١٠٨)، ومنحت الدولة القاباً مختلفة للحجاب، فمنهم من نعت بالأمير، كما حصل مع كبير الحجاب علي قريب، أيام السلطان محمود الغزنوي (١٠٩)، أما الغالبية العظمى فقد منحوا لقب الخواجة - وهو من الألقاب البارزة السائدة أيام الغزنويين، إذ كانت تمنح أيضاً للوزراء وللعارض ولصاحب ديوان الانشاء (١١٠)، وكانت الشجاعة والذكاء وقوة الشخصية والاخلاص من اهم الصفات التي حرص سلاطين غزنة على توفرها بمن يتولى هذا المنصب الهام (١١١).

« أسلحة الجيش الغزنوي »

اولاً: الأسلحة الهجومية :

١ - سلاح الفرسان

حظي سلاح الفرسان برعاية مميزة لدى سلاطين الدولة الغزنوية، كما عملت الدولة على دعم هذا القطاع العسكري بامهر الفرسان واغوى الخيول، لخوض المعارك الكثيرة التي قادها سلاطين الدولة، حتى لنجد من خلال دراستنا لاوضاع الجيش الغزنوي، ان هذا السلاح كان ركيزة الجيش في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطان محمود وولده مسعود.

وإذا ما حاول الباحث معرفة تعداد هذا القطاع، فانه سيجد صعوبة كبيرة في تحديد عدد هذا السلاح، علماً بان المؤرخ البيهقي، الذي عاصر السلطان محمود ومسعود، لم يكشف النقاب عن حجم وتعداد سلاح الفرسان، ولا حتى غيره ممن أرخ للدولة الغزنوية، فانهم غالباً ما يظهرون عظمة الجيش الغزنوي وقدرته على مجابهة الاخطار، لاسيما براعة سلاح الفرسان. لذلك تجدر الاشارة هنا الى استعراض بعض الروايات التي حاولت اظهار جانب القوة للفرسان في هذه الدولة. فقد ذكر صاحب تاريخ نيسابور: ان الله يسر له - اي للسلطان محمود - من الاسباب والامور العسكرية والجنود والهيبة والحشمة في القلوب ما لم يره أحد (١١٢). ونلاحظ اهتمام المؤرخ الانجليزي الفنستون (Elphinstone) بسلاح الخيول والفرسان ليقرر في كتابه تاريخ الهند في العهد الاسلامي، ان الخيول العربية بلغت خمسة الاف حصان عربي في سلاح الفرسان في عهد السلطان محمود الغزنوي. (١١٣) وقاد العرب ايضاً اربعة الاف فارس سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م في المعركة التي خاضها السلطان مسعود الغزنوي في موقعة أمل. (١١٤) واعتبر الفنستون، بالاضافة الى المؤرخ الهندي محمد حبيب، ان الجيش النظامي في سلاح الفرسان، وذلك قبل وفاة السلطان محمود بست سنوات، بلغ اربعة وخمسين الف فارس من خيرة الفرسان، واضافا ان هذا القطاع لم يقف عند هذا العدد بل تضاعف في مناسبات عديدة (١١٥).

من جانب آخر، رأى المؤرخ مير (Meyer) انه في سنة ١٠١٨ م، زحف السلطان محمود الغزنوي من مدينة غزنة وبصحبه حوالي مائة الف فارس حاصر بهم قلعة ماثورا (Ma-thura) الهندية ، وبهم وببساتهم حطم معظم الاصنام والمعابد الهندوسية في تلك المدينة. (١١٦) ورغم مبالغته مير في هذا العدد الذي لم يوثق مصادره، الا ان ذلك يظهر المدى الكبير الذي اصبح به سلاح الفرسان.

تعددت واجبات الفرسان والخيالة في جيش الدولة الغزنوية ، وتمثل ذلك في حماية الجيش اثناء التنقل والمبيت ومراقبة الطرق والسيطرة على حركة المواصلات والهجوم والاغارة على العدو والمطاردة وملاحقة الاعداء ومحاربة الكهائن (١١٧) وهذا يعكس اهمية قطاعات الفرسان بالنسبة للدولة. فلقد كانت عامل حسم للكثير من المعارك التي قادها سلاطين الدولة الغزنوية.

٢- سلاح المشاة:

وهو من الاسلحة التي لم تقل اهمية عن سلاح الفرسان ، ويؤلف هذا القطاع قسماً كبيراً من الجيش. فالى جانب مساندتهم للفرسان ، فانه كان يقع عليهم مهمة الاصطدام المباشر مع جيش الاعداء . اما بنية سلاح المشاة، فكانت خليطة من اجناس متعددة ، وذلك بحكم تعدد البلدان والاقاليم التي آلت لحكم الدولة الغزنوية ، فكان منهم الاتراك والافغان والعرب والهنود والايروانيون والديالمة والاوزبك (١١٨).

ونستطيع من خلال دراستنا لابرز معارك الدولة الغزنوية في العهدين المذكورين، وهما معركة سومنات ٤١٦هـ / ١٠١٧م بقيادة السلطان محمود الغزنوي، ومعركة دندانقان ٤٣١هـ / ١٠٤٠م بقيادة السلطان مسعود الغزنوي ، نستطيع استخلاص عدة الدولة من سلاح المشاة على وجه تقريبي علماً بان الدولة لم تكن تمنح هذا السلاح نفس الاهتمام لسلاح الفرسان . فمعظم المؤرخين الذين تناولوا العهد الغزنوي بالبحث والدراسة، لم يظهروا حقيقة رقمية واضحة لقوات المشاة، كما كان حالهم ازاء سلاح الفرسان ، فاكتفوا بالاشارة الى عظمة الجيش من الفرسان والرجالة (١١٩). ولعل ما ذكره المؤرخون عن قلة المشاة عند الغزنويين انها كان يعبر عن استكثار السلطان محمود ومسعود للأتراك في الجيش والذين شكلوا بغالبيتهم قطاعات سلاح الفرسان ، وربما يكون العدد الذي ذكره المؤرخ الانجليزي الفنستون (Elphinstone) عن المشاة في الجيش الغزنوي والذي بلغ عشرين الف، لدليل على اهتمام الدولة الغزنوية الكبير في سلاح الفرسان.

٣- سلاح الفيلة:

استحدث هذا السلاح لدى الدولة الغزنوية بسبب الظروف التي اتاحت لهم غزو واجتياح الهند الشمالية والوسطى، واعتبرت هذه الدولة صاحبة السبق في هذا المضمار في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، فهي بذلك تكون قد حققت تطوراً هاماً من روافد الحضارة الاسلامية.

اعتمد سلاطين غزنة في بناء هذا السلاح على غنائم الحروب، سواء ما يتم عن طريق الغنائم او المصالحة. وقد خلص المؤرخ الهندي محمد حبيب الى ان المجموع الكلي للفيلة في جيش السلطان محمود تجاوز الألفين وخمسمائة فيل. (١٢٠) وذكر البيهقي، ان السلطان مسعود الغزنوي استعرض في مدينة كابل سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١ م الافيال فكانت الف وستمئة وسبعون فيلاً بين ذكر وانثى (١٢١).

اما مهام الفيلة، فمتعددة الاغراض، فكانت تحمل بالكوس النحاسية لتستعمل في ارض المعركة، وذلك لخلق هبة للجيش وارعاب الاعداء، ولارغام الفيلة على الحركة السريعة في ميادين القتال (١٢٢) ومن مهامها كذلك، حراسة موكب السلطان اثناء تحركاته سواء في العرض العسكري او اثناء القتال، واستخدمت لنقل المشاة والاسلحة والذخيرة (١٢٣).

٤- الجمالة:

حاز سلاح الجمالة على رعاية سلاطين الدولة، وارتقى ليصبح سلاحاً ضرورياً في عمليات الاسناد ونقل الاسلحة الثقيلة والاعلاف والغذاء ومستلزمات العسكر، ففي معركة السلطان محمود الغزنوي الشهيرة على بلاد الهند «سومانت» سنة ٤١٦هـ / ١٠١٤ م، اسند السلطان مهام نقل الميرة والاسلحة والذخائر للإبل، حيث بلغ مجموعها عشرين الف جمل (١٢٤). كما حرك السلطان مسعود في موقعة أمل ٤٢٦هـ / ١٠٣٤ م خمسمئة جمل تحمل الذخائر (١٢٥).

٥- غلمان السراي (القصر):

وهي من القطاعات الرئيسية التي انشأها سلاطين الدولة الغزنوية والتي لا تقل بدورها عن اهمية باقي الاسلحة، اذ كان غلمان البلاط السلطاني يشكلون فرقة ضاربة متمرسه على القتال ومدربة تدريباً خاصاً، وهي اشبه ما تكون بفرقة المغاوير الذين اتقنوا كافة الاساليب القتالية، فكانوا ينتدبون لحسم المواقف الصعبة واشدها خطورة. ففي العام ٤١١هـ / ١٠٢٠ م والذي حاصر فيه السلطان محمود بلاد الغور، وبعد استبسال قبائل الغور وصمودها بوجه الجيش الغزنوي، امر السلطان غلمان السراي ان يتقدموا الصفوف ويضربوا العدو بسهامهم حتى تمت الغلبة لهم على الغور (١٢٦).

٦ - الاسلحة:

حرصت الدولة الغزنوية على تسليح الجيش تسليحاً قوياً يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التوسعية في منطقة الشرق. فقاموا على توفير كافة انواع الاسلحة المتعارف عليها يومذاك، فكانت السيوف والرماح والسهام والمنجنيق والخناجر والدبابيس والسلام وحبال الاوهاق والكوس النحاسية والابواق والطبول والجواشن والدروع والسلام والاثقال والحجارة (١٢٧).

ثانياً: الاسلحة الدفاعية والوقائية:

١ - القلاع والحصون

فرضت طبيعة البلاد وانتشارها على الدولة الغزنوية ان تعتمد الى بناء القلاع والحصون لحماية الثغور، واعتبرت من التحصينات الوقائية والدفاعية الثابتة التي خضعت لسيطرة الدولة، كاهند وخراسان، وافغانستان، ونيسابور، وبلاد ما وراء النهر. (١٢٨) وتم استخدام هذه القلاع كمستودعات للأسلحة وآلات الحروب واصطبلات الخيول والحبال وحفظ المال والألبسة والمؤن والاعلاف (١٢٩).

٢ - الكمائن

مارست الدولة هذا السلوك الحربي في معظم المعارك التي وقعت في عهد السلطانين المذكورين (محمود ومسعود)، وكان اكثر تطبيقاً وشيوعاً في عهد السلطان محمود الغزنوي. وعلى سبيل المثال لا الحصر قام السلطان محمود بتطبيق مبدأ الكمين مع السيمجورين شمال افغانستان سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م، بعدما تعرض جيشه للابادة، فاجأ الاعداء بكمين على رأس قوات جديدة تمتعت بالراحة من الفرسان الشجعان المختارين، وانزلوا الضربات القاضية بقائد الاعداء والجأوه على الفرار (١٣٠).

٣ - التعبئة والمصاف

يمكننا تقسيم نظام التعبئة لدى الجيش الغزنوي على النحو التالي:
أ - الكر والفر، وغالباً ما استعمله سلاح الفرسان ب - نظام المصاف (الزحف). ج - نظام الخميس (التعبئة).

الخاتمة:

هذه الدراسة اعتنت بمعرفة البناء الاداري والتنظيمي لديوان العرض في الدولة الاسلامية الغزنوية التي حكمت: الهند وافغانستان وايران، وخوارزم وطخارستان وبلاد ما وراء النهر، أوضحت أهمية هذا الديوان من خلال الامور التالية:

١ - كان ديوان العرض في الدولة الغزنوية قطب الرحي الذي دارت حوله هيبة ونفوذ الدولة في الشرق، وشكل أساساً من أساسيات المحافظة على الاسرة الغزنوية مدة طويلة ومؤثرة في حكم المشرق الاسلامي.

٢ - نلاحظ اهتمام الدولة الواسع في توظيف امكانيات الدولة السياسية والاقتصادية والمالية للحفاظ على قوة المؤسسة العسكرية من خلال الدعم المطلق لديوان العرض، وبذلك تكون الدولة الغزنوية عسكرية من الطراز الاول.

٣ - كان تطبيق الدولة لنظام عسكري خاص في فتح الاقاليم والذي عُرف بالسيهسالار، اكبر الاثر في ضبط الاقاليم جميعها وربطها بحكومة مركزية قوية في عاصمة الدولة، مدينة غزنة.

٤ - حالت الدولة بين القادة العسكريين والولاة في الاقاليم وبين الخروج والتمرّد على سيادة الدولة الغزنوية، من خلال الحاق مراقب أمني عام لهؤلاء المسؤولين الذي منع اكثر القادة من عصيان الدولة، وتمثل ذلك بوظيفة (الكتخدا)

٥ - تطور نظام الجاسوسية والمعماة التي بلغت في الدولة الغزنوية مرحلة فاقت بدقتها وتنظيمها الكثير من الدول الاسلامية المعاصرة والتي ساعدت الاسرة الغزنوية في السيطرة المطلقة على اواسط آسية والهند. اضيف الى ذلك براعة الدولة في تطبيق نظام المعماة (الشفرة)، الذي كان له بالغ الاثر على مراقبة الاحداث ومتابعة التطورات والعمل بسرعة على معالجتها.

٦ - الحاق ديوان بريد للجيش بمعظم الاقاليم والمعارك التي خاضها الجيش، مما ميز العهد الغزنوي عن بقية العهود الاسلامية باستثناء الدولة العباسية. اذ عمل هذا الديوان على ايصال المعلومات الى السلطان واطلاعه اولاً باول عن احوال الاقليم والجيش وسير المعركة واحوال الاعداء واستعداداتهم.

٧ - يظهر ان نظام الجندية لدى الغزنويين قد تأثر كثيراً بنظم الدولة العباسية والدولة السامانية.

٨ - كشفت لنا عن حرص شديد لدى سلاطين الدولة الغزنوية على امتلاك قطاعات حربية غاية في الاهمية والتطور، كالفرسان والمشاة والفيلة والجمالة وغلّمان السراي، ساهمت جميعها في دعم مسيرة الدولة.

٩ - كما تعاملت بمؤسساتها الحربية مع المتطور من السلاح في عصرهم.
١٠ - واخيراً، كانت طبيعة البناء الاداري لديوان العرض، والعناية والرعاية الفائقتين التي اولاهها سلاطين غزنة لهذا الديوان، عظيم الاثر في تحقيق كل الانتصارات العسكرية التي خاضها الجيش الغزنوي في الشرق وسبباً في انتشار نفوذهم.

«الهوامش»

١ - السلومي، عبد العزيز عبد الله. ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون، مكة المكرمة (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)، ص ٢٢٠.

٢ - شوقي ابو خليل، هارون الرشيد امير الخلفاء، (دار الفكر، الطبعة الاولى، ١٩٧٣ م)، ص ٨٣ - السلومي، ص ٢٢٠.

٣ - تنسب الدولة السامانية (٢٦١ هـ - ٣٨٩ هـ) الى أسرة فارسية عريقة في المجد، يرجع اصلها الى بهرام جور، وقد نال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون، فولاهم بلاد ما وراء النهر ورفع من شأنهم، وقد أسس دولتهم نصر الاول بن أحمد الساماني (٣٦١ هـ / ٨٧٤ م) وتعاقب على حكم هذه الاسرة الاسلامية عشرة ملوك اولهم نصر الاول وآخرهم عبد الملك الثاني بن نوح الثاني (٣٨٨ هـ / ٩٩٩ م). وكان زوالها على يد الدولة الغزنوية. واشتهرت الاسرة السامانية بتشجيع العلوم والآداب واصبحت بخارى عاصمة الدولة مركزاً اسلامياً لنشر الثقافة والمعرفة، للمزيد من المعلومات حول الاسرة السامانية راجع:

Maulana Minhaguddi Abu Aumor Al - guzgani.(D. 658 A.LL)

- Tabagat - 1 - Nasiri, AGENERAL History of muhammadan dynasties of Asia from , A.H.194(A.D810)) to A.H658(A.D.1260) and the irruption of the infidel (mughals into Islam), tr. from original persian manuscript, by Major Raverty IIvols . (New Dilhi, 1970)vol. II, PP. 29 - 54.

- Lane - poole - Muhammadan Dynasties, (Lahore, 1976)pp. 132 - 133.

- د. حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ٣ ص ٧١ - ٨٢، (القاهرة، ١٩٦٥ م).

٤ - Tripathi, R.P.Some Aspects of muslim administration, (Allah abad - 1978) p.210

٥ - Pandey, early medieval India, (Allah abad

السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج ٥ ص ٣١٨ - ٢٨. ١٩٦٩

٦ - داندا نقان: بلدة عند مرو، وهي على مرحلتين من مرو مما يلي سرخس، وهي من اكثر البلاد إنتاجاً للحريز - (ابي الفداء، تقويم البلدان ص ٤٥٩ (باريس ١٨٤٠).

٧ - البيهقي، (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م)، محمد بن الحسن، تاريخ البيهقي، نقله عن الفارسية الى العربية الدكتور يحيى الخشاب والاستاذ صادق نشأت (بيروت ١٩٨٢)، ص ٦٦٣ - ٦٧٢، الحسيني (ت بعد ٦٢٢ هـ) صدر الدين ابو الحسن، زبدة التواريخ، اخبار الامراء والملوك السلجوقية، تحقيق الدكتور محمد نور الدين (بيروت ١٩٨٦) ص ٤٥.

- ٨- تاريخ البيهقي، ص ٧١٠.
- ٩- البيهقي، ص ١٦٦.
- ١٠- نفس المصدر، ص ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨.
- ١١- المصدر السابق، ص ٤١٧-٤١٨.
- ١٢- نفس المصدر، ص ٤١٩، ٤٢٠.
- ١٣- البيهقي، ص ٤٢٧، ٤٢٨.
- ١٤- البيهقي، ص ٥٣٦.
- ١٥- الماوردي، يقول الماوردي ان شرط جواز اثبات الجند بما فيهم صاحب الديوان فیراعی فيه خمسة أوصاف: ١- الحرية - ٢- الاسلام - ٣- السلامة من الآفات - ٤- ان يكون فيه اقدم على الحرب ومعرفة القتال - ٥- البلوغ فان الصبي من جملة الذراري والأتباع. الماوردي علي بن محمد بن حبيب (ت. ٥٤٥٠ / ١٠٥٨ م) الاحكام السلطانية (القاهرة ١٣٩٤هـ) ص ٢٠١، ٢٠٢.
- ١٦- البيهقي ص ٣٨، ٣٩، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧.
- ١٧- p8137 I.H.Qureshi, Muslim Administration under the sultanate of DELHI, (4th edition , Karachi, 1959)
- ١٨- البيهقي، ص ١٠.
- ١٩- البيهقي، ص ٤٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣.
- ٢٠- البيهقي، ص ٢٦، ٥٣٦، ٥٣٧.
- ٢١- Quershi, p.137 العتبي، (ت ٤٢٨ / ١٠٣٦ م) ابو نصر محمد بن عبد الجبار، تاريخ يميني، جزءان (القاهرة ١٩٨٦ م) ج ٢، ص ١٠٤-١٠٥.
- ٢٢- البيهقي، ص ١٥٨، ٢٩٦.
- ٢٣- المصدر السابق، ص ٥٤٩، ٦٦٠.
- ٢٤- نفس المصدر، ص ٦٦١.
- ٢٥- نفس المصدر، ص ١٦٩.
- ٢٦- نفس المصدر، ص ٣٥٧.
- ٢٧- البيهقي، ص ٢٥.
- ٢٨- البيهقي، ص ٥٣٦.
- ٢٩- الجوزجاني، طبقات ناصري، ط ١ ص ٧٣-٧٤ / زبدة التواريخ، ص ٢٦-٢٧.
- ٣٠- البيهقي، ص ٢١٤.
- ٣١- نفس المصدر، ص ٢١٥-٢١٦.
- ٣٢- نفس المصدر، ص ٢٢٤-٢٢٥.

٣٣ - العتبي ج ١ ص ٣٦١.

AL - Badaoni, Abdul AL- Qadir Mulukshah (D.1004 A.LL

- Muntaklab - ut - Tawarikh, tr.from persian into English, vol. I, by S.A. Ranking, vol. ii.by w. h.Lowe, and vol.II, by sir Haig . (1st. ed. Karachi 1968)(Calcutla. 1884, 1924) vol p 17

٣٤ - الندوي، نزهة الخواطر، ج ١ ص ٧٩ - ٨٠.

٣٥ - البيهقي، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

٣٦ - نفس المصدر، ص ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٧ - نفس المصدر، ص ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧.

٣٨ - البيهقي، ص ٤٥٩ - ٤٦٠، نزهة الخواطر، ج ١ ص ٧٧ - ٧٨.

٣٩ - الندوي، عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، (حيدر اباد، الدكن، الهند، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م) ج ١، ص ٧٩ - ٨٠.

٤٠ - البيهقي ص ٢٩٢.

٤١ - نفس المصدر، ص ٣٠٨.

٤٢ - نفس المصدر، ص ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٨.

٤٣ - نفس المصدر، ص ٥٨١.

٤٤ - البيهقي، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

٤٥ - نفس المصدر، ص ٣٦٢.

٤٦ - ص ٢٩٠.

٤٧ - ص ١٤٦.

٤٨ - زبدة التواريخ، ص ٤٣.

٤٩ - القلقشندي، أحمد بن علي القاهري الشافعي (ت ٨٢١ هـ) صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ١٤ جزءاً (دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢م) ج ٤ ص ٤٥٣.

٥٠ - منتخب التواريخ، ج ١ ص ٢٣.

٥١ - الطوسي، نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٥٨م) سياسة نامه أو سير الملوك، ترجمه الى العربية الدكتور يوسف بكار (الدوحة ١٩٨٧م) ص ٢٩٣.

٥٢ - البيهقي، ص ٨٦، ٨٧، ٨٨.

٥٣ - البيهقي، ص ٢٩١.

٥٤ - نفس المصدر، ص ٢٩٠.

٥٥ - نفس المصدر، ص ٤٢٥.

٥٦ - اتبعت الدولة الغزنوية سياسة فيها من التقديس والتوقير ما يتناسب مع رسل الخلفاء العباسيين؛ فيروي البيهقي وهو مؤرخ معاصر شاهد الاحداث، انه عند وصول رسول الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٠م. أمر السلطان مسعود الغزنوي استدعاء الرسول الى الحضرة على ان يكون موكبه حافلاً بكل مظاهر العظمة، فقال ابو سهل الزوزني (العارض):

إن كل ما هو خاص بالجيش والبلاط والديوان واهل المناصب وغيره فهو مما يقوم بشؤونه السيهسالار، ثم أمر مسعود باستعداد السيهسالار الحاجب الغازي قائد خراسان وقال له:

نأمر ان يقدم رسول الخليفة مع ما أتى به من منشور وخلعة وكرامات ونعوت وان تصل اخبار هذه الحفلات وذلك التكريم مسامع الناس في سائر البلاد، وينبغي ان توزع للجيش ليجعل نفسه في هذه الليلة على اتم ما يمكن من الابهة والنظام... وفي اليوم الثاني، جاء السيهسالار غازي الى الدركاه (البلاط) يصحبه موكب الجيش وأمر كافة المقدمين ان يقفوا صفين مما يلي الدركاه (اليهقي ص ٤٤) بخيولهم وأعلامهم، وكانت الاعلام تمتد الى مسافة بعيدة من ابواب قصر شادياخ، وقد وقف غلمان الخاصة والخدم في داخل الحديقة صفين من أمام صفة التاج حتى الدركاه، في تمام اسلحتهم وملابسهم المختلفة الالوان والاشكال، وكان معهم اهل المراتب، وكانت البغال قد سبقت لحمل الخلعة من نيسابور... وعندما وصل الموكل بالضيافة الى الرسول اركبه جنبه وكان قد ارتدى السواد، واعطى اللواء لفارس ليسير به في أثر الرسول، ومن خلفها بغال تحمل الصناديق المحتوية على خلع امير المؤمنين ومعها عشرة خيول، وكان بينهما جوادان يزدانان بسرجين ونعال ذهبية، اما الثانية الأخرى فكانت مسرجة بسروج من الديباج والاطلس، وكان طريق الرسول مزداناً بأبهى الزينات وكان الناس يثرون عليه الدراهم والدنانير الى ان بلغ صفوف الفرسان فعلت اصوات الطبول والابواق وهتاف الجماعات... وكانوا يمرون بالرسول والاعيان بين صفي الجند، والمقدمون من الجانبين يثرون عليه النشار حتى بلغ السرير وكان الامير مسعود متربعا عليه، ثم سار الرسول في هيئة مهيبة فتقدم الى السلطان وقبل يده، ثم وضع المنشور والرسالة على السرير فقبلها مسعود الغزنوي (تاريخ البيهقي، ص ٤٥) وأمر السلطان بان يكتب الى هراة وبوشنك وطوس وسرخس ونسا وباورد وبادغيس وكنج رويستان بهذه البشائر التي منحها من مجلس الخلافة، فنسخت صوراً من المنشور والرسالة أبرزوا فيها الالقاب التي يدعى بها هذا السلطان الجليل ويخطب بها على المنابر وكانت النعوت السلطانية (تاريخ البيهقي ص ٤٦) كما يلي: ناصر دين الله، حافظ عباد الله، المنتصر من اعداء الله، ظهر خليفة الله أمير المؤمنين (اليهقي، ص ٤٧).

٥٧ - تاريخ البيهقي، ص ٢٩١.

٥٨ - البيهقي، ص ٢٩٢ - ٣٠٨.

٥٩ - نفس المصدر، ص ٤١٥.

٦٠ - نفس المصدر، ص ٣١١.

٦١ - نفس المصدر، ص ٤١٥.

- ٦٢ - نفس المصدر، ص ١٣٦.
- ٦٣ - البيهقي، ص ٣٥٩، ٤١٠.
- ٦٤ - نفس المصدر، ص ٧٢٣.
- ٦٥ - نفس المصدر، ص ٣٥٨.
- ٦٦ - نفس المصدر، ص ٥١ - ١٦١.
- ٦٧ - البيهقي ٣٦٣.
- ٦٨ - نفس المصدر ص ٤٢٥.
- ٦٩ - البيهقي، ص ٤١٠ - ٤١١.
- ٧٠ - نفس المصدر، ص ٤١١.
- ٧١ - نفس المصدر، ص ٤١٣.
- ٧٢ - نفس المصدر، ص ٤١٥.
- ٧٣ - نفس المصدر، ص ٤١٧.
- ٧٤ - بالغت الدولة العباسية في هذا العصر مبالغة كبيرة في استخدام العيون والجواسيس، والتوصل بكل وسيلة الى كشف اسرار اعدائهم ومعرفة نواياهم، مستخدمين في ذلك الرجال والنساء والغلان من مختلف طبقات المجتمع، اذ كانوا يسافرون الى مختلف الاقاليم متنكرين على هيئة تجار او اطباء او طلبة علم او غلمان أو جوار، ليتمكنوا من التغلغل في الاماكن التي بعثوا اليها (د. خالد الجنابي، تنظيمات الجيش في العصر العباسي ٨٣٣م - ٩٤٥م، ص ١٢٤ بغداد، ١٩٨٩م) ودليل ما قاله ابن اللقطي في وصف اهتمام الدولة العربية الاسلامية في استخدام الجواسيس فيقول: وما اعتنت دولة بتحسين الاسرار والمبالغة في حفظها كالدولة العربية الاسلامية، فان لها من هذا الباب عجائب (الفخري في الآداب السلطانية، ص ٦١) ولم تكن هذه المبالغة في استخدام الجواسيس ناشئة عن مجرد رغبة او ميل لدى العباسيين للقيام بهذا العمل، بل يؤكد د. الجنابي، انما دفعهم الى ذلك عوامل عديدة، منها، اولاً، وجود الامبراطورية البيزنطية التي تعد المنافس القوي للدولة العربية الاسلامية، ثانياً: الدول الاسلامية وولايات الاطراف المحيطة بالدولة العربية الاسلامية، ثالثاً: الحركات والفتن الداخلية التي كان لها الاثر الكبير في انتشار استخدام الجواسيس (الجنابي، خالد جاسم، تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني، (٢١٨ - ٣٣٤هـ / ٨٣٣م - ٩٤٥م)، (بغداد، الطبعة الاولى ١٩٨٩)، ص ١٢٤ - ١٢٥.
- ٧٥ - البيهقي - ص ٣٢٤.
- ٧٦ - نظام الملك الطوسي، سياسة نامه، ص ١٠٢ - ١٠٣.
- ٧٧ - الطوسي، ص ١١١.

- ٧٨ - البيهقي، ص ٥٧٢.
- ٧٩ - الطوسي، ص ١١.
- ٨٠ - البيهقي، ص ٦٢٤.
- ٨١ - البيهقي، ص ٥٧٣.
- ٨٢ - البيهقي، ص ٧٢٠.
- ٨٣ - البيهقي، ص ٧٢١.
- ٨٤ - البيهقي، ص ٧٢٧.
- ٨٥ - البيهقي، ص ٣٦٣.
- ٨٦ - البيهقي، ص ٥٧٤.
- ٨٧ - تاريخ البيهقي (ص ٣٧٧، ٤٨٥، ٧٠٩).
- ٨٨ - نفس المصدر ص ٦٤٨.
- ٨٩ - نفس المصدر، ص ٤٨٥.
- ٩٠ - أيضاً، ص ٦٣٦.
- ٩١ - البيهقي، ص ٤٢٧ - ٤٢٨.
- ٩٢ - نفس المصدر، ص ٣٦٢ - ٣٦٣، للاطلاع على فحوى الرسائل التي كان يبعثها أميرك البيهقي صاحب بريد الجيش راجع تاريخ البيهقي (ص ٣٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٣٧٥).
- ٩٣ - المصدر السابق، ص ٧١٦.
- ٩٤ - يقول ابن خلدون في مقدمته عن الحاجب والحجابه: «وأما مدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم (يقصد الملوك) فكان محظوراً بالشرعية، فلم يفعلوه، فلما انتقلت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقباه، ان اول شيء بدىء به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع لعمر وعلي ومعاوية وعمر وبن العاص وغيرهم، مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم بذلك وسموه الحاجب». ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ (بيروت ١٩٧٩م).
- ٩٥ - اورد البيهقي في تاريخه اسماء الحجاب الذين تقلدوا هذا المنصب في عهد الدولة الغزنوية نذكر منهم، الحاجب على قريب، والحاجب التونتاش، والحاجب بلكا تكين والحاجب بكتكين، والحاجب سوباشي، والبتكين، والحاجب ارسلان جاذب وابو نصر الحاجب وقدر الحاجب. تاريخ البيهقي، ص ١، ٥، ٤، ٩، ٦٨، ٩٤، ٣١٢، ٣١٧، ٤٧٢، ٤٧٥، ٧٦٣).

- ٩٦ - البيهقي، ص ٣٠١.
- ٩٧ - البيهقي، ص (٥٠٥، ٦٦٩، ٦٧٨). تولى الحاجب بكتغدي قائداً لغلمان السراي (القصر) في حملة الجيش على مدينة نسا سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م، البيهقي، ص ٥١٧.
- ٩٨ - نفس المصدر، ص (١، ٢، ٥، ٧).
- ٩٩ - نفس المصدر، ص ٣١٠ - ٣١٢.
- ١٠٠ - نفس المصدر، ص ٣١٩ - ٣٢١.
- ١٠١ - ايضاً، ٣٨٨ - ٣٨٩.
- ١٠٢ - ص ٤٦٨.
- ١٠٣ - ص ٣١٢.
- ١٠٤ - زبدة التواريخ، ص (٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٥).
- ١٠٥ - زبدة التواريخ، ص ٢٧.
- ١٠٦ - نفس المصدر، ص ٦٨.
- ١٠٧ - البيهقي ص ١٧٠.
- ١٠٨ - نفس المصدر، ١٧١.
- ١٠٩ - نفس المصدر، ص ١.
- ١١٠ - نفس المصدر، ص ٥٦٢.
- ١١١ - نفس المصدر، ص ١٧١.
- ١١٢ - عبد الغافر الفارسي، تاريخ نيسابور والمنتخب من السياق، طبعة قم ايران ١٤٠٣ هـ، ص ٦٨٠.
- ١١٣ - Ellphinstone, 1889, p. ٣٤٩.
- ١١٤ - البيهقي، ص ٤٨١.
- {Mohammad Habib Sultan Mahmoud Of Ghaznin, Lahore, 1928, P-١١٥
45}
- {Ellphinstone, History Of India, London 1889, P.349}
- {Meyer, South - Asia. A short History Of The Sub - Continent , - ١١٦
P81, Neww Jersy ١٩٦٧.}

-
- ١١٧ - الهرثمي، ١٩٣٩ ص ٥١.
١١٨ - الطوسي: ١٩٨٧: ص ١٤٠.
١١٩ السيكي، ج ٥ ص ٣١٨ / ابن خلكان، ١٩٤٨ م: ج ٤ ص ٢٦٥ / البيهقي،
٦٦٣.
١٢٠ - Habib, p (٤٥).
١٢١ - البيهقي، ٣١١-٣١٢.
١٢٢ - البيهقي، ٦٦٥.
١٢٣ - البيهقي، ٦٦٤.
١٢٤ - الكامل، ج ٩، ٤١٦-٤١٧.
١٢٥ - البيهقي، ص ٤٧٨.
١٢٦ - البيهقي، ص ١٤٣.
١٢٧ - البيهقي، ص ص ١٢٣، ٣٦٦، ٥٠٠ الخ...
١٢٨ - البيهقي، ص ٤٢، وما بعدها.
١٢٩ - البيهقي، ٦٤٦.
١٣٠ - البيهقي، ٢٢٢، ٢٢٣.

أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء
الطرق التجارية في غور الأردن
(كرب القفول)

أثر تجارة المحاصيل الزراعية على نشوء الطرق التجارية في غور الاردن (درب القفول)

منذ بداية العصر العباسي حتى نهاية العصر العثماني

د. جمعة محمود كريم
جامعة مؤتة
كلية الاداب / قسم السياحة والآثار
الكرك / مؤتة
الاردن

تعدى هذه الدراسة بدرب القفول المار عبر غور الاردن الشمالي^(١). واثرت تجارة المحاصيل الزراعية على نشوئه في العصور الاسلامية الوسيطة والمتأخرة (منذ القرن العاشر الميلادي وحتى ١٩٤٨ م). وبالرغم من ان ذكر هذه الطريق التجارية جاء في فترة زمنية متأخرة؛ وذلك ما بعد القرن السادس عشر الميلادي، الا أن هدف هذا البحث هو تتبع اصول واهمية هذه الطريق منذ بداية العصر الاسلامي الوسيط، معتمداً في ذلك على:

١- المصادر التاريخية والجغرافية.

٢- ملاحظات الرحالة المسلمين والعرب والرحالة الاوروبيين الذين زاروا غور الاردن منذ بداية القرن التاسع الميلادي.

٣- نتائج المسوحات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٤- نتائج الحفريات الأثرية السابقة في غور الاردن الشمالي.

٥- نتائج الحفريات الأثرية الاخيرة في موقع ذراع الخان.

تفيدنا المصادر التاريخية والجغرافية ان ازدهار غور الاردن الزراعي قد استمر خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦ هـ / ٧٥٠-١٢٥٨ م). فيذكر الاصطخري^(٢) وابن الفقيه^(٣) كثرة العيون والاوادية الجارية في غور الأردن، وإزدهار زراعة النخيل فيه. كما يصفه ابن حوقل^(٤) بأنه بقعة جميلة تكثر فيها زراعة أشجار النخيل والازهار. ويحدد المقدسي^(٥) في القرن العاشر الميلادي مزروعات كل مدينة من مدن غور الاردن. فاشتهرت منطقة اريحا، بزراعة النيلة والنخيل والموز وقصب السكر، أما منطقة بيسان، فقد اشتهرت بزراعة النخيل والارز. وقد سجل الادريسي^(٦) أن اشجار النخيل والنيلة قد زرعت بكثرة في جنوب غور الاردن أيضاً.

ونتيجة لاستمرارية ازدهار غور الاردن زراعياً خلال العصر العباسي، فقد نشأت فيه مجموعة من القرى الزراعية، التي تحيط بالمدن الإدارية^(٧). ونذكر من هذه المدن الادارية، الواقعة في شرقي غور الاردن، مدينة طبقة فحل، الواقعة في شمال غور الاردن، وعمتا^(٨) (قرية أبو عبيدة حالياً)، الواقعة في وسط غور الأردن، وزُغَر (أو صُغَر) (قرية الصافي حالياً)، الواقعة للجنوب من البحر الميت.

وبالرغم من أن المصادر التاريخية والجغرافية لم تحدد لنا أسماء وأماكن وجود القرى الزراعية، والعائدة للعصر العباسي في غور الاردن، إلا أنه يمكننا حالياً من رصدها على خارطة غور، وذلك من خلال نتائج المسوحات الأثرية الأخيرة التي جرت في المنطقة. فقد تمكنت بعثة مسح غور الأردن عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ م من تسجيل ستة عشر موقعاً أثرياً^(١٠)، تمثل ما نسبته ١٤, ٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في المنطقة الممتدة من العدسية شمالاً والبحر الميت جنوباً، وقد التقط عن سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر العباسي/ الفاطمي. كما تمكن الباحث من التعرف على مخلفات حضارية تعود للعصر العباسي في موقع واحد، يمثل ما نسبته ١٤, ٧٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في منطقة سليخات^(١١). وأمكن التعرف على المخلفات الحضارية العائدة للعصر العباسي/ الفاطمي في ثلاثة مواقع تمثل قرى زراعية بمنطقة جسر الشيخ حسين، الواقعة في غور الأردن الشمالي^(١٢).

كما اشتهر غور الاردن باستخراجه لمعادن هامة، إلى جانب المنتوجات الزراعية السابقة الذكر، نذكر منها الملح والقار المستخرج من البحر الميت^(١٣). وقد مثلت المنتوجات الزراعية، العماد الاقتصادي لقرى ومدن غور الاردن في العصر العباسي/ الفاطمي. ذكر المقدسي أهم صادرات مدن غور الأردن في القرن العاشر الميلادي؛ فصُدِرت النيلة من أريحا، وصُدِرت النيلة والتمور والعصير المستخرج من قصب السكر من زُغر (صُغَر) وبيسان، وصدر الرز من بيسان أيضاً^(١٤). ويبدو أن مادة السكر المستخرجة من قصب السكر قد مثلت أهم صادرات غور الاردن، وذلك منذ القرن العاشر وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي^(١٥).

يرى هارتمان اعتماداً على ما أورده ابن خرداذبة، وابن قدامة، واليعقوبي، والمقدسي، أن الطريق المارة عبر فيق، فطبريا، فييسان، فمرج ابن عامر، هي الطرق التجارية الأساسية التي كانت تصل خلال العصر العباسي بين دمشق والقاهرة. كما يذكر المقدسي^(١٧) طريقاً تجارياً أخرى تمر عبر غور الأردن الجنوبي، وتمتد هذه الطريق من القدس الى اريحا، وبيت الرام (الرامه حالياً)، وعمان، ومآب أو الزرقاء، واذرعات (درعا حالياً) ومن ثم الى مدينة دمشق.

إن وفرة الإنتاج الزراعي لقرى غور الأردن في العصر العباسي، وكثرة مدنه الإدارية، كطبريا، وبيسان، وطبقة فحل، وعمتا، واريحا، وزغر، تقودنا للاعتقاد بوجود طرق تجارية، تربط بين هذه الحواضر من ناحية، وبين الطريق الرئيسية الواصلة بين دمشق والقاهرة، من ناحية أخرى. يبدو أن المصادر التاريخية والجغرافية لا تسعفنا في رصد هذه الطرق التجارية الواصلة الى الطريق الأساسي السابق الذكر، ولذا كان لابد من الاعتماد على المعطيات الأثرية، ما تسنى ذلك، لتتبع الطريق الفرعية.

كما أمكن التعرف على مخلفات أثرية تعود للعصر العباسي / الفاطمي على سطح عدد من المواقع في منطقة وادي العرب^(٢٤)، الواصل بين المرتفعات الشرقية، في شمال الأردن، وغور الأردن، قرب الشونة الشمالية. إن المعطيات الأثرية الآتية من هذه المواقع تدفع للاعتقاد بوجود خط تجاري آخر يمر عبر غور الأردن في العصر العباسي، يوصل بين الطريق الرئيسي المار عبر طبريا وبيسان، الى حوران، مخزن القمح والحبوب، كما وصفت من قبل المقدسي^(٢٥) في القرن العاشر الميلادي. ويعتقد بأن هذا الخط التجاري يمر عبر بيسان، وتل قدسية، ووادي العرب، وقم، واربد، والكسوة، ودمشق. ولعل الحفريات الأثرية في شمال الأردن، تسعفنا في المستقبل في تتبع أدق لمراحل هذا الخط التجاري، والذي يمثل أصل الطرق التجارية والمدعوة لاحقاً بإسم درب «القفل».

تمكن الصليبيون منذ بداية القرن الثاني عشر الميلادي من احتلال فلسطين وأجزاء من جنوب الأردن، وأسست فيها مجموعة من الحصون العسكرية^(٢٦)، كما أنشأ الصليبيون عدداً من القلاع العسكرية على الطريق التجارية الأساسية، والواصلة بين حاضرتي الخلافة الإسلامية، دمشق والقاهرة، والمارة عبر غور الأردن الشمالي. نذكر من هذه القلاع، قلعة طبريا، وقلعة بيسان، وقلعة الطور. ونتج عن هذا الاحتلال أن قطعت طريق الإتصال المباشر بين دمشق والقاهرة، المارة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن^(٢٨). فاستخدمت طرق أخرى أكثر مشقة وأبعد مسافة، لتمر عبر صحراء سيناء جنوب فلسطين، وجنوب الأردن، ومن ثم عبر شرق الأردن ومحاذة المنطقة الصحراوية الى دمشق. ومن هذه الطرق «درب البدرية» التي كانت تمر عبر جنوب فلسطين، موصلة الى وادي موسى، ثم عبر شرق الأردن الى دمشق^(٢٩). واستعمل هذه الطريق السلطان المملوكي بيبرس عام ١٢٧٦م للوصول الى البتراء والكرك، وحددت أهم المحطات الواقعة عليه. كما استخدمت طريق أخرى أقصر مسافة من الأولى، ولكنها أكثر خطراً، وهي الطريق المارة عبر جنوب فلسطين الى غور الصافي أو غور دامية، وثم عبر شرق الأردن الى دمشق^(٣٠).

ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي / الفاطمي، والواقعة في غور الأردن كطبريا، وبيسان، وطبقة فحل، واريحا، قد تقلصت الى أن أصبحت قرى صغيرة في القرن الثاني عشر الميلادي^(٣١)، وظهرت، بدلاً منها، مدن جديدة في القرن الثالث عشر الميلادي، مثل القصير (الشونة الشمالية)، وعمتا (قرية أبو عبيدة حالياً)، وبيت الرام (قرية الرامة حالياً) ودير الخصيان (موقع غير معروف لكنه يقع في غور البلقاء)^(٣٢). ويبدو أن المدن الإدارية العائدة للعصر العباسي / الفاطمي، والواقعة في غور الأردن، قد أصابها الدمار والهجران، نتيجة لوقوعها على الطرق الحربية بين الأيوبيين والصليبيين. كما يبدو أن بناء قلعة الرض عام ١١٨٤م قد وفر الأمن والاستقرار للقرى الزراعية الواقعة في وسط غور الأردن، لتظهر مدينة عمّا (أبو عبيدة) كحاضرة غور الأردن الأساسية في القرن الثالث عشر الميلادي^(٣٤).

شهد غور الأردن، إزدهاراً اقتصادياً نظراً لإنتعاش الزراعة الصناعية، المتمثلة بزراعة قصب السكر في غور الأردن^(٣٥)، ومرور طرق المواصلات الرئيسة بين دمشق والقاهرة عبر الجزء الشمالي من غور الأردن، مما ساعد على نقل المنتجات الزراعية والصناعية من غور الأردن إلى مراكز التمدن، خلال العصر المملوكي، ازدهاراً زراعياً ونمواً سكانياً وخلال العصر الأيوبي/ المملوكي، شهد غور الأردن كثافة سكانية عالية. ويبدو أن زراعة قصب السكر تتطلب جهوداً بشرية مدربة وكبيرة العدد، ولذلك فقد جلب الأمراء الأيوبيون والمماليك أعداداً بشرية كبيرة^(٣٧) (يُعتقد بأن غالبيتها جاءت من شمال افريقية) للإشتغال بحقول قصب السكر وبناء الطواحين اللازمة لصناعة السكر والآنية الفخارية اللازمة لتصنيع السكر، تلك التي سهاها النويري بالسلا بـاليج^(٣٨). وتؤيد نتائج المسوحات والحفريات الأثرية التي جرت في غور الأردن ازدهاره وكثرة قراه الزراعية، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي (انظر الخارطة رقم (١)). فقد سجلت بعثة مسح غور الأردن في عام ١٩٧٥ و ١٩٧٦ م مائة وتسعة عشر موقعاً^(٣٩)، تمثل ما نسبته ١, ٥٣٪ من المجموع العام للمواقع المسجلة في غور الأردن، وقد ظهرت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي. وقد وصفت ثلاث وثلاثين موقعاً من هذه المواقع على أن غالبية المخلفات الحضارية الظاهرة على سطحها تعود للعصر الأيوبي/ المملوكي. كما وصفت بعض هذه المواقع، كقرى زراعية، وأخرى خصصت لأغراض تصنيع السكر^(٤٠). أما في منطقة جسر الشيخ حسين، فقد عُثر على المخلفات الحضارية العائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي في ستة مواقع، وقد قُسمت هذه المواقع أيضاً إلى قسمين، أستخدم الأول منها كقرى زراعية، وأستخدم الثاني كمراكز لتصنيع السكر من قصب السكر، وذلك من خلال العثور على كميات كبيرة من الشقف الفخارية التي تخص أواني تصنيع السكر أو العثور على إنشاءات معمارية أستخدمت كمعاصر لقصب السكر^(٤١). كما أمكن أيضاً وضع التصنيف السابق للمواقع الأثرية التي حملت على سطحها مخلفات حضارية عائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي في منطقة سليخات^(٤٢). وقدّر الباحث حمارنة، عدد طواحين السكر، والعائدة للعصر الأيوبي/ المملوكي، في غور الأردن بحوالي ٣٠ طاحونة^(٤٣). وقامت الباحثة أبو دلو، بدراسة وتوثيق بعضها والواقعة في شمال ووسط غور

ونظرا لاهمية غور الاردن الاقتصادية في العصر المملوكي فقد قسم الى اربع ولايات هي : الغور الامجدية ، والغور التقوي ، وغور بيسان ، وغور قصير بن معين (الشونة الشمالية) (٤٨) . ويضيف ابن شداد (٤٩) ان الغور هو ضمن ولاية دمشق وقسم الى غور طبريا والسواد . ولقد وزعت هذه الاقسام بين الامراء المماليك الحربيين كاقطاع حربي ، ومثال ذلك منح السلطات المملوكي بيبرس كامل منطقة القصير (الشونة الشمالية) للامير عز الدين الاتابك الفخري (٥٠) .

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن ، في العصر الايوبي / المملوكي ، قد وفر مادة كبيرة للمتاجرة بها كما ان نظام الاقطاع الحربي في العصر الايوبي / المملوكي قد وفر الأمن والاستقرار في المنطقة ويبدو ان هذه الامور من ابرز العوامل التي ساعدت على نشاط الطرق التجارية المارة عبر غور الأردن . ومما يؤكد هذه الرؤية التوزيع المكاني للمواقع الاثرية ، والتي ظهر على سطحها مخلفات حضارية تعود للعصر الايوبي / المملوكي . حيث تركز وجود هذه المواقع بالقرب من الطرق التجارية المارة عبر غور الاردن ، كطريق بيسان ، الشونة الشمالية — زحر — اربد — او طريق اريحا ، الكفرين ، عمان (٥١) .

ويبدو ان النشاط الزراعي والصناعي لقرى ومدن غور الاردن في العصر الايوبي / المملوكي ، بالاضافة الى مرور طرق التجارة الرئيسية عبره ، قد عكس اثرهما على تسمية بعض المواقع ، فمثلاً نلاحظ تغير اسم قصير معين الدين الذي ظهر في الفترة الايوبية الى اسم الشونة الشمالية في العصر المملوكي ، والتي يقابلها في جنوب غور الاردن ، الشونة الجنوبية ، وتدل الدراسة اللغوية الدلالية لموقع الشونة انه استخدم كمركز لتجميع او تخزين المنتوجات الزراعية كالحبوب ، والصناعية كالسكر (٥٢) ، استعداداً لتصديرها الى المراكز الحضرية الكبيرة كدمشق والقاهرة ومما يعزز ذلك ، وقوع كل من الشونة الشمالية والشونة الجنوبية على طرق تجارية . كما ان اصول هذه التسمية « الشونة » والتي جاءت من اللغة القبطية (٥٣) ، تدل بشكل واضح على استخدام مصطلحات جديدة في غور الاردن آتية مع نفوذ الامراء المماليك في المنطقة . وبذلك فان النشاط الزراعي والصناعي لقرى غور الاردن في العصر المملوكي ، كان من اهم العوامل التي أدت الى انتعاش الطرق التجارية المارة عبره .

ويبدو ان الطريق التجارية المباشرة بين القاهرة ودمشق قد انتعشت مرة اخرى مع زوال الخطر الصليبي عن وسط فلسطين . كما يستدل من تتبع المحطات الرئيسية الواقعة عليه ، ان هذه الطريق قد تحول مسارها من مرتفعات الجولان الى شمال الاردن . فانشأ السلطان المملوكي بيبرس سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م على هذه الطريق مجموعة مراكز، دعت باسم محطات البريد (٥٤) ، ومع ان الهدف من انشاء هذه الطريق كان

عسكرياً أكثر منه تجارياً إلا أنها ساعدت في حماية التجار من الاعتداءات ، وفي رسم الطريق التجارية لاحقاً ، ومن هذه المحطات ما تطور ليصبح خاناً على هذه الطريق ، التي دُعيت في نهاية العصر المملوكي وخلال العصر العثماني باسم درب القفول . نذكر من هذه المحطات بيسان ، والمجامع وزحر ، والطيبة ، واربد (٥٥) ويرى هارتمان ، (٥٦) ان السلطان المملوكي بيبرس ، أسس محطات البريد الى الجنوب والشرق من مناطق النفوذ الصليبي ، والذين حتى فترة تأسيس خط البريد ، يسيطرون على مدن الساحل الفلسطيني ومنطقة الجليل وبناء على ذلك يرى متمان (٥٧) ان محطات البريد هذه لم تنشأ على الطريق الروماني ، وإنما أسست على طريق مباشر بين اربد وبيسان عبر غور الاردن ، ويرى هذا الباحث أيضاً ، ان من بين المحطات الواقعة على طريق البريد في غور الاردن ، جسر الشيخ حسين ، وتل الاربعين ، ووقاص ، والقصير (الشونة الشمالية) ، ومن ثم الى اربد بمحاذاة وادي العرب . وانتقلت هذه الطريق لاحقاً في نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الى الشمال قليلاً حيث حدد القلقشندي (٥٨) معالمها بذكره للمحطات التجارية الواقعة عليها ، نذكر منها : عيون التجار ، الجسر (جسر الجامع) والقصير (الشونة الشمالية) ، وزحر العقبة (وتسمى ايضاً زحر النصاري) واربد (انظر الخارطة رقم ١ ، الطريق رقم ٢) . ويبدو ان انتقال الطريق التجاري للشمال قليلاً لتمر عبر زحر العقبة بدلاً من الطيبة ، كان سببه زوال الخطر الصليبي خلال هذه الفترة من ناحية ، ولتلافي الصعاب الناتجة عن مرور هذه الطريق عبر اراضي جبلية وعرة من ناحية ثانية .

ولتسهيل المرور عبر نهر الاردن ، اقيمت عليه في الفترة المملوكية عدة جسور ففي سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥ م امر السلطان بيبرس ببناء جسر على نهر الاردن في منطقة دامية (٥٩) وبذلك نشط الخط التجاري المار عبر جنوب غور الاردن والواصل الى عمان ومن ثم الى دمشق عبر درعا . وأمر السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م ببناء جسر آخر على نهر الأردن في المنطقة الواقعة بين الشونة الشمالية وبيسان (٦٠) وذكر العمري مجموعة جسور على نهر الاردن وتقع جميعها في غور الأردن الشمالي ، منها يعقوب الصنبرة ، والعادلي ، وسامات المقارن ، وجسر شامة (٦١) ، وتمكنت بعثة مسح غور الاردن عام ١٩٧٥ م من رصد بعض من هذه الجسور المدمرة ، منها بقايا جسر اعتقد انه يعود للعصر المملوكي ، يقع على الطرف الجنوبي الشرقي لموقع مقام الشيخ حسين ، (الموقع رقم ٤٢) (٦٢) والواقع بين تل قدسية وبيسان .

وحدد القلقشندي وابن تغري بردي المحطات التجارية الواقعة على الطريق الموصل بين القاهرة ودمشق في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، نذكر منها في غور الاردن بيسان والجامع والقصير ، (٦٣) ولقد اهتم السلاطين والامراء

الماليك بهذا الخط التجاري وذلك لانه يمثل الخط التجاري المباشر والواصل بين حاضرتي السلطنة المملوكية ، دمشق والقاهرة . فقد اسس هذا الخط التجاري الاخير واعتنى به الامير الدمشقي سيف الدين تنكيز وكان ذلك سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م (٦٤) كما انشئت عليه الى جانب مجموعة من السور محطات تجارية عديدة (خانات) (٦٥). نذكر من هذه الخانات في غور الاردن ، خان الاحمر في منطقة بيسان ، الذي بناه الوالي الدمشقي سلار سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م (٦٦) وذراع الخان ، الواقع على بعد ١٥ كم للجنوب الشرقي من مدينة الشونة الشمالية (٦٧).

شهد غور الأردن خاصة ، و جنوب بلاد الشام عامة ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين ، مجموعة عوامل سلبية ، ادت الى ظهور تغييرات اساسية في انماط الإستيطان والانتاج الزراعي ، نذكر منها ، ضعف الدولة المملوكية عسكرياً واقتصادياً أدى الى قلّة حماية المزارعين من غارات القبائل البدوية ، وزيادة في نسبة الضرائب المدفوعة على الانتاج الزراعي (٦٨) الامر الذي ادى الى هجرة القرى الزراعية . كما ان الطواعين والحميات والابوثة اثرت بشكل مباشر على التعداد السكاني في بلاد الشام عامة ، وغور الاردن خاصة حيث ادت هذه الابوثة التي حدثت ما بين ١٣٤٧ / ١٥١٦ م الى انقاص التعداد السكاني في هذه المنطقة الى الثلث . ويشير الى ذلك صراحة المقرئزي ، حيث سجل هذا المؤرخ ان الابوثة التي حدثت سنة ٧٤٣ هـ / ١٣٨٢ م ، ادت الى افناء سكان الغور وعكا ، وصفد ، والقدس ، ونابلس والكرك والبدو كما اهلك الطاعون ، الذي حدث في سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م الحيوانات البرية في غور الاردن ويذكر المقرئزي وابن تغري بردي ان الاسود ، والحمر الوحشية ، والذئاب ، والخنازير ، والارانب البرية ، عثر عليها مطعونة ايضاً ، ويبدو ان هذه الابوثة ادت الى انخفاض كبير في عدد المشتغلين في حقول قصب السكر ، كما قلت الماشية المدربة في حرث الارض وادارة الطواحين مما ادى الى توقف انتاج السكر في غور الاردن في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ومما يدعم هذه الرؤية ، ان وظيفة شاد السكر التي كانت موجودة في القرن الرابع عشر الميلادي في غور الاردن قد قلت اهميتها في القرن الخامس عشر الميلادي ، لتدمج مع وظيفة ناظر الخاص (ناظر الاملاك السلطانية) (٧٣) كما ان استعراض سريع للمنتوجات الزراعية لقرى غور الاردن والعائدة لنهاية القرن السادس عشر الميلادي ، والمسجلة في سجلات الدولة العثمانية تشير بشكل واضح الى عدم ذكر زراعة قصب السكر ضمن تلك المنتوجات (٧٤). كما ان تصدير مادة السكر وهو الانتاج الرئيسي لقرى غور الاردن في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين الى اوروبا قد توقف (٥٧). وبدلاً من ذلك اخذت منطقة الشرق تستورده من قبرص وصقلية في القرن الخامس عشر الميلادي (٧٦).

كما شهدت منطقة جنوب بلاد الشام خلال القرن الخامس عشر الميلادي نشاطاً ملحوظاً لتحرك القبائل البدوية التي اخذت توسع اماكن تواجدها باتجاه المناطق الزراعية . كما اخذت هذه القبائل البدوية تهدد طرق التجارة والحج المارة عبر جنوب بلاد الشام (٧٧). ويبدو ان القبائل البدوية قد احكمت سيطرتها على مناطق واسعة من جنوب بلاد الشام في القرن الخامس عشر الميلادي ، حيث يسجل المؤرخ ابن طولون تسير حملات عسكرية لحاكم مدينة دمشق المملوكي ضد القبائل البدوية المتواجدة في حوران والزرقاء وشمال غور الاردن. ويشير المقرئزي بشكل مباشر ، ان القبائل البدوية هاجمت غور الاردن في عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩ م ووصلت الى القصير (الشونة الشمالية) حيث قتلت عددا من العمال المشتغلين بتصنيع السكر ، ونهبت ما عثرت عليه من هذه المادة وهددت طرق المواصلات التجارية الواصلة بين دمشق والقاهرة (٧٩).

ويبدو ان انخفاض التعداد السكاني الناتج عن الطواعين والابوئة المتكررة وفقدان الامن ، وزيادة الضرائب على مزارعي غور الاردن في العصر المملوكي المتأخر كانت من اهم الاسباب التي ادت الى ما يلي : اولاً تغير في اقتصاد قرى غور الاردن من اقتصاد تجاري يقوم اساساً على الزراعة الصناعية (زراعة قصب السكر) الى زراعة الاكتفاء الذاتي ، وثانياً ظهور تحول في سير خطوط الطرق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن. ويبدو ان فقدان الامن على الطريق المارة عبر شمال الاردن ، والتغير الذي حل في طبيعة الانتاج الزراعي والصناعي في مناطق مرور هذه الطرق (شمال غور الاردن وحوران) الذي لم يعد انتاجاً تجارياً كانت من اهم العوامل التي ادت الى تغير مسار الطريق الرئيسي الواصل بين دمشق والقاهرة حيث يعتقد هارتمان ان الخط التجاري المار عبر بيسان فالمجامع فزحر ، فاربد استبدل بخط تجاري اخر في الفترة الواقعة بين ١٤٧٠ - ١٧٠٠ م وكانت الطريق التجارية الجديدة تمر بهضبة الجولان عبر فيق ، وجسر بنات يعقوب ، وصفد (٨٠). كما ان طريق الحج التجارية الواصلة بين القدس واريحا وعمان قد تبدل مسارها هي الاخرى خلال هذه الفترة لتتخذ مساراً يتجه نحو الجنوب من البحر الميت (٨١).

صاحب الحكم العثماني لمنطقة جنوب بلاد الشام في القرن السادس عشر الميلادي بعض الاستقرار ، وشكلت المنتجات الزراعية عماد اقتصاد قرى الاردن (٨٢)، وبالمقابل شهدت فلسطين زيادة سكانية واستقرار امني ومدني (٨٣) ومن اجل حماية طريق الحج الواصل بين دمشق ومكة ، والمار عبر شرقي الاردن ، انشأت الدولة العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادين سلسلة من الحصون العسكرية نذكر منها ضبعة والقطرانة والحسا والعنزة ومعان وفاصوغة ،

والمدورة (٨٤). وساعد وجود مثل هذه القلاع على حماية التجار والحجاج ، كما شجع على الاستقرار في المناطق الداخلية من الاردن والاشتغال بالزراعة (٨٥). وبناء على دراسة سجلات ضرائب الدولة العثمانية والعائدة لنهاية القرن السادس عشر الميلادي رصدت ست عشرة قرية في غور الاردن وقد مثل انتاجها الزراعي كالقمح والشعير والنيلة عمادها الاقتصادي (٨٦) ولكن يبدو ان تأثير سيطرة القبائل البدوية على غور الاردن منذ نهاية العصر المملوكي ، قد استمر ايضا في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، ويستدل على ذلك من خلال وصف سجلات ضرائب الدولة العثمانية لبعض قرى غور الاردن كالمخينة وبيت رامة (الرامة) وحمه جور (حمه الغور) على انها خربة ومهجورة (٨٧). ولعل نمط الاستيطان في بعض قرى غور الاردن خلال القرن السادس عشر الميلادي قد تحول من مستقر دائم الى نصف مستقر حيث يظهر ان تربية الماشية اخذت تشكل جزءاً هاماً من اقتصاد قرى غور الاردن خلال هذه الفترة (٨٨).

ويبدو ان الطريق التجارية الجديدة المارة عبر هضبة الجولان، جسر بنات يعقوب وصفد، كانت هامة للدولة العثمانية ، وذلك لانها تمثل الطريق الرئيسة والواصلة بين القسطنطينية (العاصمة) ، ودمشق والقاهرة ، ولذلك اقيمت عليها مجموعة من المحطات التجارية ومحطات البريد ، نذكر منها خان التجار، بالقرب من بحيرة طبريا (٨٩). ويبدو ان السير على هذه الطريق في نهاية القرن السادس عشر الميلادي لم يكن آمناً ايضاً، اذ تذكر لنا بعض الوثائق العثمانية ان اهم محطة على هذه الطريق ، خان عيون التجار ، اصبحت مكاناً لالتقاء اللصوص والبدو (٩٠). ولذلك اسست على هذه الطريق قلاع عسكرية نذكر منها قلعة خان التجار بالقرب من مدينة طبريا ، والتي بناها حاكم مدينة دمشق ، سنان باشا عام ١٥٨١ م (٩١) واكد هذا الامر الرحالة العربي، عبد الغني النابلسي ، الذي بدأ رحلته من دمشق الى القدس في يوم الاثنين في ١٧ جمادى الثانية سنة ١٠١١ هـ / آذار سنة ١٦٩٠ م، عبر داريا وخان الشيخ وقرية سعسع ، والقنيطرة وجسر بنات يعقوب وجب يوسف وخان المنية وخان التجار ، وقرية الناعوة وقرية جلعة، وجنين ذوعرابة ، ونابلس وعورتا ، وجماعين . ومردا وعقبة اللبن والبيرة والشيخ جراح ، والقدس. وذكر هذا الرحالة ان كثيراً من الخانات التي صادفها في طريقه كانت خالية او خربة، خاصة تلك المتواجدة في منطقة طبرية وان الطريق في منطقة الحولة في غاية الخطورة (٩٢).

ويبدو ان سياسة القادة الادارين المحليين في فلسطين كظاهر العمر (١٧٥٠ — ١٧٧٥ م) واحمد الجزار (١٧٧٧ — ١٨٠٤ م) في حماية القرى الزراعية الواقعة في شمال وسط فلسطين هي الاخرى قد اكدت تواجد القبائل البدوية كالسردية والصقر ، وصخور الغور في شمال غور الاردن (٩٣). الا ان نفوذ هذه القبائل قد وصل الى وسط فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (٩٤).

ويظهر ان الطريق التجارية الفرعية المارة عبر شمال غور الاردن في الفترة الممتدة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادي ، كانت غير آمنة ولذلك لم تذكر من قبل المؤرخين والرحالة. ويشير بعض الرحالة صراحةً ان الطريق القديمة والمباشرة الواصلة بين دمشق والقدس عبر شمال الاردن كانت خطرة ولذلك استخدمت الطريق المارة عبر الجولان ، وجسر بنات يعقوب ، والجليل (٩٥). وعلى الرغم من ذلك فان هنالك دلالات واضحة على ان جميع طرق المواصلات المارة عبر الجولان وفلسطين خطرة ايضاً ، وان انتقال التجار والحجاج ، والرحالة من محطة الى اخرى يتم بحراسة القوات العسكرية العثمانية (٩٦). كما وصف الرحالة عبد الغني النابلسي ، الذي زار القدس في عام ١٦٩٠م محطة خان عيون التجار على انها محطة رئيسة على درب القفول . الا ان الحالة الامنية في هذه المنطقة — طبريا — هي في غاية الخطورة ، وان الوقف المجاور لهذه المحطة مدمر وان الطعام في هذه المنطقة قليل ، ومن اراد الموت فليأت لهذا المكان (٩٧). كما وصف الرحالة الاوروبي ساندرسون الذي زار فلسطين عام ١٦٠١م هذه الحالة الامنية السيئة ايضاً (٩٨).

يعتبر الرحالة عبد الغني النابلسي اول من اشار الى تسمية درب القفول ، الواصل بين محطة عيون التجار فالجامع ، فالشونة الشمالية فزحر فاربد (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٢). كما ذكر هذه الطريق ، بنفس التسمية في القرن التاسع عشر الميلادي الرحالة الاوروبي شوماخر (٩٩). ويبدو ان الطريق الواصلة بين محطة عيون التجار وجسر المجامع يتفرع الى فرعين الاول يتجه نحو الحمة وام قيس واربد وتدعى هذه الطريق باسم درب الحوارنة (١٠٠) (انظر الخارطة رقم ١ الطريق رقم ٣). اما الفرع الثاني فيتجه من عيون التجار فجسر الجامع فالشونة الشمالية ، فزحر ، فاربد ، وتدعى هذه الطريق باسم درب القفول. ويبدو ان الطريق الاول درب الحوارنة كان أكثر شهرة واستعمالاً من الطريق الثانية، في العصر العثماني المبكر (القرن السادس عشر — القرن الثامن عشر الميلادي). ومما يدل على ذلك تأسيس اسواق تجارية على هذا الدرب في القرن السادس عشر الميلادي ، نذكر منها سوق حبراص (١٠١). كما اسست على هذه الطريق محطة مكوس لجمع الضرائب المستحقة على المسافرين والتجار. ولقد اسست هذه المحطة في مدينة ام قيس الاثرية والتي اخذت اسمها هذا نسبة الى ضريبة المكوس بدلاً من اسمها القديم جدر (١٠٢). كما سلك هذه الطريق بعض الرحالة الاوروبيين في القرن التاسع عشر الميلادي للوصول الى منطقة اربد مثل بيركهاردت (١٠٣). ومن خلال تتبع المواقع التي ذكرها هذا الرحالة بين جسر المجامع واربد ، يمكننا تتبع اهم المحطات الواقعة عليه وهي : ام قيس ، وأبيلا (حرثا) وعين تراب ، وحبراص ، واربد .

ويجدر بالقوافل التجارية الآتية من سهول حوران ومنطقة عجلون والمحملة بالحبوب، ان تسلك طريق الحوارة الى الطريق الاساسي المار بفلسطين نحو القاهرة ودمشق والموانئ الفلسطينية وذلك لوجود محطة مكوس (ام قيس) بينما تسلك هذه القوافل في طريق عودتها درب القفول وذلك لسهولته وعدم حاجتها لدفع ضريبة المكوس، ويعتقد بان هذه الطريق، اعتماداً على الدراسة اللغوية الدلالية، سميت بدرب القفول، لان التاجر يقفل راجعاً عبرها من حيث أتى.

وبالرغم من عدم ذكر اسم درب القفول في المصادر الكتابية العائدة للقرن السادس عشر الميلادي الا ان هناك دلائل لغوية وأثرية تشير الى استخدامه في العصر العثماني، رغم خطورة السير عليه. وقد اسست الدولة العثمانية محطات ثابتة على طرق التجارة، يدفع فيها المسافرين والتجار، ضرائب حماية تدعى باج غفر، وان الدراسة اللغوية الدلالية لوادي الغفر، الواقع على درب القفول، قبل الوصول الى مدينة اربد من الناحية الغربية مباشرة (١٠٤) تدل على ان محطة باج غفر كانت موجودة في هذا الوادي. وان هذا الوادي اخذ اسمه «وادي الغفر» المتداول حالياً، في الفترة العثمانية نسبة الى اسم هذه الضريبة (١٠٥) كما تشير المكتشفات الاثرية في منطقة درب القفول على ان هذه المنطقة قد استمر الإستيطان فيها من العصر المملوكي الى العصر العثماني، حيث امكن التعرف على محطات حضارية عائدة للعصر العثماني في عدة مواقع في منطقة وادي العرب المحاذي لدرب القفول من الناحية الشمالية، بالاضافة الى تسجيل عدد من الطواحين عليه والتي كانت تستخدم لطحن الحبوب (١٠٦). كما عثر على عدد من الطواحين في موقع قم تعود للعصر العثماني (١٠٧).

وكمحاولة من الدولة العثمانية لاحكام سيطرتها على غور الاردن في القرن الثامن عشر الميلادي، فقد قسم ادارياً الى ثلاثة اقسام: الاول ويشمل المنطقة الشمالية من غور الاردن (المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالاً الى وادي الجرم جنوباً) ويتبع عمل بيسان وشم المنطقة الوسطى (ويشمل المنطقة الممتدة من وادي الجرم شمالاً الى نهر الزرقاء شمالاً الى البحر الميت جنوباً) ويتبع عمل البلقاء ونابلس (١٠٨)، ولكن لم يقف الكاتب على اي دليل اثري او وثائقي يدل على وجود استقرار قروي ثابت في غور الاردن خلال هذه الفترة واستمر هذا الحال في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، حيث بالرغم من اصلاحات ابراهيم باشا (١٨٣١ - ١٨٤١ م) الادارية والزراعية في منطقتي الحولة وبيسان (١٠٩). لم تظهر قرى زراعية ثابتة في غور الاردن ويبدو ان من اهم الاسباب المؤدية الى ذلك هو تعاظم قوة القبائل البدوية المستقرة في غور الاردن حيث انها ثارت ضد ابراهيم باشا (١١٠) وافشلت مشاريعه وزادت قوة القبائل البدوية بعد رحيل ابراهيم باشا عن بلاد الشام في عام ١٨٤١. حيث هاجمت القرى الزراعية في منطقة عجلون وحوران وهددت طرق التجارة (١١١).

وعلى ذلك يعتقد كارمون (١١٢) ان الطريق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن « درب القفول » كانت غير مستعملة في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر الميلادي وبدلاً منها استخدمت الطريق المارة عبر جسر المجامع، فالحمة فأم قيس، فأربد (درب الحوارنة).

ويبدو ان حالة الفوضى التي شهدتها جنوب بلاد الشام عامة، والأردن خاصة بعد رحيل قوات ابراهيم باشا عن بلاد الشام، دفعت الحكومة العثمانية الى ارسال قواتها العسكرية للسيطرة عليها وبشكل عملي. واستطاعت هذه القوات من السيطرة على الأردن من شماله الى جنوبه ما بين عام ١٨٥٠ وعام ١٨٩٣ (١١٨) وتمكنت هذه القوات بمساعدة القرويين من منطقة عجلون من الحاق هزيمة كبيرة بالقبائل البدوية (صخور الغور وعرب السعدية) المتمركزة في شمال غور الاردن (١١٤) ومع هذا الانتصار العثماني ظهر استقرار عام في المنطقة، وساعد على تثبيت هذا الاستقرار انشاء سكة حديد الحجاز المارة عبر شرقي الاردن (١١٥).

وظهر في القرن التاسع عشر الميلادي حاجة ماسة للحبوب في الأسواق الأوروبية (١١٦) وكنتيجة لهذه الحاجة ولإستتباب الامن في المنطقة، زرعت مساحات واسعة من سهول حوران والغور، بالحبوب (١١٧). ونتيجة لارتفاع درجة الحرارة في الغور فان الحبوب المزروعة فيه تنضج قبل تلك المزروعة في سهول حوران، وبالتالي يحصل مزارعو الأغوار على أسعار مرتفعة (١١٨). ولقد نشأ عن هذا النشاط الزراعي ان اخذت قرى غور الاردن بالظهور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ابتداء من المنطقة الشمالية ومن هذه القرى العدسية، والشونة ومعاذ، وعراق الراشدان والقليعات، وتل الاربعين (١١٩)، وبذلك عادت الى غور الاردن منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر الزراعة التجارية المتمثلة بزراعة الحبوب لقد شاهد الرحالة الاوروبيين الذين زاروا غور الاردن خلال هذه الفترة حقول القمح المزروعة فيه (١٢٠)، ونتيجة حتمية للنشاط الزراعي التجاري، فقد عادت الحياة مرة اخرى للطرق التجارية المارة عبر شمال غور الاردن. ونخص منها بالذكر درب القفول الذي استعمل بشكل مكثف في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للوصول الى سهول حوران الخصبة، والى سكة الخط الحديدي الحجازي، (١٢١) والتي وصفها الرحالة شوماخر، بانها الطريق الاساسية لنقل الحبوب من سهول حوران وجبل عجلون الى موانئ حيفا وعكا، اذ كانت القوافل تنقل عليها ما بين ٨٠٠٠٠ - ١٠٠٠٠٠ طن من الحبوب سنوياً (١٢٢)، وبقيت هذه الطريق نشطة الاستعمال حتى عام ١٩٤٨، حيث قطعت مع الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين.

موقع ذراع الخان كشاهد مادي على درب القفول :

سجل الاثاريون الذين مسحوا منطقة غور الاردن عام ١٩٨٥ م . موقعاً أثرياً بالقرب من ضريح معاذ بن جبل، على بعد ١٥ كم للجنوب الشرقي من بلدة الشونة الشمالية، يدعى ذراع الخان، ووصفت المخلقات المعمارية الظاهرة على السطح بأنها منشأة معمارية كبيرة، اعتقد انها تمثل خاناً يعود الى الفترة المملوكية، او العثمانية (١٢٣)، وارخت الشقف الفخارية الملتقطة عن السطح الى الفترات الاموية، والايوبية، المملوكية، العثمانية، (١٢٤) كما سجل بيركهارت، إن القريتين الوحيدتين اللتان كانتا مأهولتين في شمال غور الاردن وقت زيارته لمنطقة شمال فلسطين في عام ١٨١٢ م هما، تل الاربعين، ومعاذ (١٢٥). وسجل وجود بقايا خان يقع بالقرب من قرية معاذ (١٢٦). وزار الرحالة شوماخر، قرية معاذ، وقدر عدد سكانها بمائة واربعين نسمة، ولاحظ من هذه القرية وان هناك بقايا اثار لم تكشف بعد، ومن اجل تحديد تاريخ هذه المنشأة وتوضيح وظيفتها أُجري في هذا الموقع حفريات اثرية في الفترة الممتدة بين ١١/٢ — ١٠/١٢/١٩٩٤ م (٢٢٨).

وقد تبين ان هذه المنشأة المعمارية مستطيلة الشكل (٦٢ر٥) م شمال / جنوب x ٨٤ر٥ م (شرق / غرب) وباضلاع متوازية تحتضن مساحة وسطية مكشوفة (٥٣ م شمال / جنوب x ٦١ م شرق / غرب) وظهر على طرفها الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ابراج مربعة الشكل، (١٢٩) وبنيت الجدران الرئيسة لهذه المنشأة بصفين من الحجارة الجيرية المشذبة . واستخدم الملاط الجيري في تشيبتها، وبلغ عرض هذه الجدران ١٢٠ سم استندت الى دعائم حجرية مربعة الشكل . أما الحجارة البازلتية فقد استخدمت في بناء مرافق البوابة الواقعة في منتصف الجناح الشمالي . وعثر على اعدادا كبيرة من الشقف الفخارية الخاصة بجرار التخزين في الجناح الشمالي، مما يوحي بان الحجرات المجاورة للمدخل استخدمت لاغراض التخزين ويعتقد بان الحجرات المستطيلة التي عثر عليها في الجناح الشرقي استخدمت لاغراض السكن . اما الجناحان الجنوبي والغربي فلم يتمكن من التعرف على طبيعة استعمالهما .

عثر في هذا الموقع على ١٢٤ قطعة، عملة/ التقطت ١٧ منها عن السطح وتراوح تاريخ قطع العملة التي وجدت في طبقات اثرية ما بين فترة حكم السلطان المملوكي قلاوون (١٢٨٠ — ١٢٩٠ م) والسلطان جقمق (١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) .

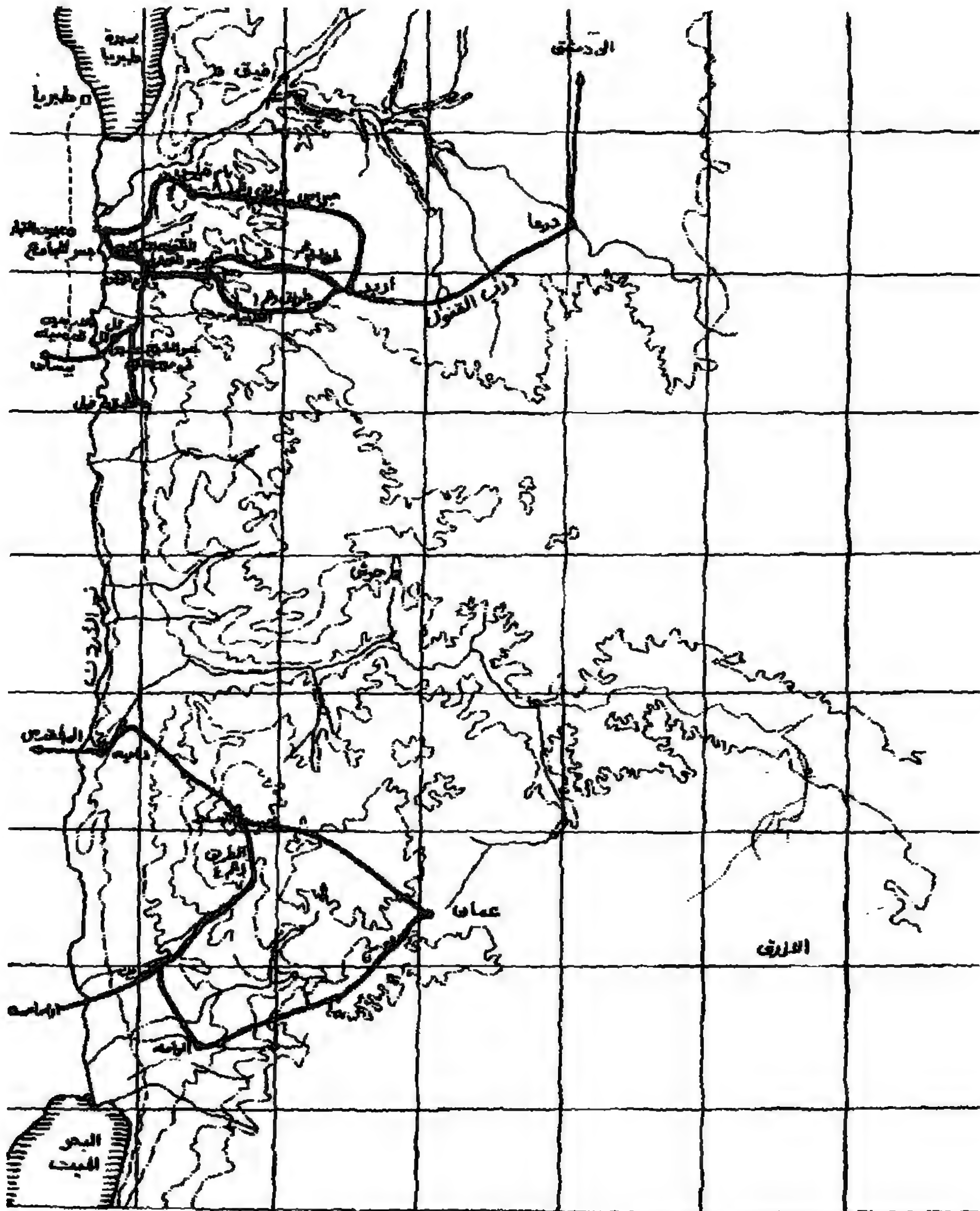
وعثر فوق هذه الطبقات الاثرية على حجارة ساقطة، وقد غطت جميع مربعات الحفر . ويعتقد بان هذه المنشأة المعمارية قد هدمت بحدود ١٤٥٣ م، وذلك اعتماداً على التاريخ المتأخر لقطع العملة التي عثر عليها في طبقات اثرية في الموقع . ويتوافق هذا التاريخ مع زلزال حدث في سنة ١٤٥٦/١٤٥٧ م، كان له اثر تدميري واضح على

المنطقة (١٢٠)، وأما قطع العملة التي تعود الى فترات متأخرة كفترة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦ م) والسلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥ م) فقد جاءت عن سطح الموقع .

اعتماداً على دراسة المخلفات الأثرية التي وجدت على الارضيات، وعلى الاختلافات الموجودة في الطرز المعمارية من حيث الإضافات، وقطع الحجارة فان هذه المنشأة المعمارية (الخان) قد بنيت، او اعيد بناؤها في مرحلتين: تعود الاولى الى فترة السلطان قلاوون، (١٢٨٠ - ١٢٩٠ م)، والثانية الى الفترة الثالثة من حكم السلطان الناصر محمد (١٣١٠ - ١٣٤١ م).

يبرز العثور على شقف فخارية مستوردة من سورية ومصر وبلاد فارس، والعثور على قطعتي عملة صليبية، وقطعة عملة إخنائية، أهمية هذا الموقع على خطوط التجارة في الفترة المملوكية . كما تشير الدلائل الأثرية كالعثور على قطع عملة تعود لفترة حكم السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥ م)، والعثور على شقف فخارية ضمن طبقات أثرية هي اقرب للسطح، مختلفة في تقنياتها عن تلك التي تعود للفترة السابقة المملوكية الى ان هذا الموقع استخدم في الفترة العثمانية ايضاً . ويؤكد ذلك التاريخ المتداول لدى السكان المحليين . ولكن لم يعثر على انشاءات معمارية تعود للعصر العثماني، وعلى ذلك يعتقد ان هذا الموقع استعمل في العصر العثماني، كمحطة استراحة قصيرة، حيث يتواجد بالقرب منه نبع ماء ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل، كما يحتمل ان هذا الموقع قد استخدم كأحد الاسواق المكشوفة على الطريق التجارية المارة بغور الاردن.

يستدل من هذا الاستعراض التاريخي والأثري، ان درب القفول المار عبر شمال الاردن يمثل احدى الطرق التجارية الرئيسية في العصر المملوكي للربط بين حاضرتي السلطنة المملوكية، دمشق القاهرة . وهناك دلائل أثرية وتاريخية واضحة، تدل على ان اصول هذه الطريق تعود للعصر العباسي، واستخدمت كطريق للبريد في العصر المملوكي المبكر . وقد مثل موقع ذراع الخان، الذي كشف عنه مؤخراً، احدى المحطات الرئيسية الواقعة عليه في شمال غور الاردن . وقد نشطت الحركة التجارية على هذه الطريق في ظل وفرة الانتاج الزراعي / الصناعي (قصب السكر) في العصر المملوكي، او الزراعي التجاري (الحبوب) لقرى غور الاردن في العصر العثماني المتأخر . ويبدو ان فقدان الامن والانتاج الزراعي القائم على مبدأ الاكتفاء الذاتي في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني، كان من شأنها تغيير سير الخطوط التجارية الأساسية نحو الشمال لتمر بهضبة الجولان وشمال فلسطين . وبالرغم من ذلك، بقيت هناك طرق تجارية فرعية (درب الحوارنة ودرب القفول) استعملت في العصر العثماني المبكر، وتوصل بين سهول حوران الخصبة وجبل عجلون مع الطريق الأساسية عبر محطة عيون التجار . وكان لاستمرارية استعمال هذه الطرق التجارية اثر واضح في استمرارية تواجد وانتعاش القرى الزراعية في شمال غور الاردن .



خارطة توضح الطرق التجارية المارة في غور الاردن

المراجع

- ١— انظر الخارطة رقم / ١ / ، الطريق رقم / ٢ / .
- ٢— الاصطخري (اسحق بن ابراهيم). المسالك والممالك. تحقيق محمد جابر عبد العلي الحني، القاهرة، ١٩٦١. ص ٤٥، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الاصطخري، المسالك والممالك.
- ٣— ابن الفقيه، (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني). مختصر كتاب البلدان، تحقيق م.ج. كويج. ليدن، ص ٥٦، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان.
- ٤— ابن حوقل (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله). كتاب صورة الأرض، ج ١. تحقيق م.ج. كويج. ليدن، ١٩٦٧. ص ١٨٠. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، كتاب صورة الأرض.
- ٥— المقدسي (محمد بن أحمد). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق م.ج. كويج. ليدن، ١٩٦٧. ص ١٨٠. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.
- ٦— الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحساني). أنس المهج وروض الفرج. فرانكفورت، ١٩٨٤. ص ١٥٥، ٣٥٩، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الإدريسي، أنس المهج.
- ٧— الإدريسي، أنس المهج. ص ٣٧٧.
- ياقوت، (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي). معجم البلدان، ج ٢، طهران، ١٩٦٥، ص ٢١٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم البلدان.

Le Strange, Guy. Palestine Under The Muslims. London: Palestine Exploration Fund. 1965. P. 15.

Le Strange, G. 1965: سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا.

- ٨— ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله). كتاب المسالك والممالك. تحقيق قدامة بن جعفر. بغداد، ١٩٦٧. ص ٩٤. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك.

- ٩— الإدريسي، أنس المهج. ص ٣٥٧، ٣٦٣، ٣٧٧.

- ١٠ — الادريسي، أنس المهج. ص ٣٥٥، ٣٧٧.
الاصطخري، المسالك والممالك. ص ٤٣، ٤٥.
ابن حوقل، كتاب صورة الأرض. ج ١. ص ١٧٠، ١٨٥.
المقدمي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٥.

11- IBRAHIM, M; Sauer, J . And Yassine, K. "the East Jordan Valley, 1975" Bulletin Of American School Of Oriental Research(BASOR), Vol. 22. Atlanta: Scholars Press. 1976. Pp. 48-50, 62. Ibrahim; M. et al. 1976. ميسار. إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Yassine, K; Ibrahim, M. And Sauer, J. "the East Jordan Vally Surey, 1976". Archaeology Of Jordan: Essays And Reports. ed. K. Yassine. Amman; 1988. Pp. 157-208.

ميسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Yassine, K. et al. 1988.

١٢ — كريم (جمعة محمود). المسح الأثري لمنطقة سليخات في غور الاردن. بحث مقدم لمجلة دراسات الجامعة الأردنية، ١٩٩٤، غير منشور، ميسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة سليخات.

Kareem, J. Evidece Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Jisr Sheikh Hussein Region. MA The Thesis. Institute Of Archaeologe And Anthropology- Yarmouk University. 1987. P. 451.

ميسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kareem. J. 1987.

Kareem. J. "EVIDENCE Of The Umayyad Occupation In The Jordan Valley As Seen In The Djir Shaykh Husayn Region". Studies On The History Of Bilad Al-sham During The Umayyad Period. ed. Muhammad A. Bakhit And Mohammad Y. Abbadi. Amman, 1990, P.47.

ميسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kareem, J. 1990.

كريم (جمعة محمود). «المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين: الاغوار الشمالية لعام ١٩٨٦». أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد السادس، العدد الأول، جامعة اليرموك، ١٩٩٠، ص ١٣٣. ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: كريم، المسح الأثري لمنطقة جسر الشيخ حسين. ١٤ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤.

Le Strange, G. 1965. P. 184.

١٥ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٨٤. ١٦ — أبو الفداء (عماد الدين اسماعيل بن محمد). تقويم البلدان. باريس، ١٨٤٠، ص ٢٢٣. ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: أبو الفداء. تقويم البلدان. ابن شداد (عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي). الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والحزيرة (تاريخ لبنان والاردن وفلسطين). تحقيق سامي الدهان، دمشق، ١٦٢، ص ١٣٦، ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. القزويني (زكريا بن محمد بن محمود). آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت — دار صادر، ١٩٦٩، ص ١٤٢، ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: القزويني، آثار البلدان وأخبار العباد.

القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي). صبح الأعشى في صناعة الانشاء. ج ٤، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٨٧. ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

ياقوت (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) المشترك وقعاً والمفترق صعباً. تحقيق فيردناند فوستفيلد. جوتنجن، ١٨٤٦. ص ٢٢٨. ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: ياقوت، المشترك وقعاً.

Hartmann, R. "Die Strasse VON Damaskus Nach Kai-ro". Zeitschrift Der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, (ZDMG). Vol. 64. Leipzig, 1910. Pp. 675-676.

Hartmann, R. 1910. ميسار إليه عند وروده فيها بعد هكذا:

١٨ — المقدسي، أحسن التقاسيم. ص ١٩٢.

19- Frank L. Kouchy. "The Environs Of Pella: ROADS; FORDS And Occupational Sites", Pella In Jordan 2. Ed Mc Nicoll, A. Edwrds, P, ; Hanbury- Tenison, J.; Hennessy, B.; Potts, Smith, R.; Walmsely, A. And Wason, P. Sydeny, 1992. P.200.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kouchy, F . 1992.

20- Kareem, J. 1987. Pp . 444-459.

Kareem, J. 1990. Pp . 44-49.

21-IBRAHIM, M. Et Al. 1976. P. 59.

Mittmann, S. Beithrage Zur Siedlungs Und Territorialgeschichte Des Nordlichen Ostjordanlandes. Wiesbaden, 1970. Pp.137-138.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Mittmann, S. 1970.

22- Mcnicoll, Q.; Edwards, P.; Hosking, J.; Macumber, P.; Walmsely, A And Watson, P.; "Preliminary Report On The University Of Sydney`s Seventh Season Of Excavations At Pella (Tabagat FAHL) , 1985" Annual Of The Depratment Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ), Vol. " Abbasid Fahil, The Mamluk And Early Ottoman Periods" . AKKADICA. Vol. VIII . Pp. 430-440.

23- Kareem, J. 1987. P. 94, 104, 112.

Kareem, J. 1990. Pp. 40-42.

٢٤—الطراونة (فايز عبد الحافظ). موقع قم في ضوء الأعمال الميدانية: دراسة تحليلية مقارنة. رسالة ماجستير غير منشورة. معهد الآثار والانثروبولوجيا— جامعة اليرموك. ١٩٩٠، ص ١٦٤ .

25- Hanbury - Tenilson, J.; Steven , H.; Watson, P . Falkner , R. " Wadi Arab Survey 1983" . Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan, (ADAJ) ` Vol . 28.Amman, 1984. Pp.313-314.

سيشار إليه عند وروده فيما 1984 Hanbury - Tenison, et Al .
بعد هكذا:

٢٦—المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٤ .

27- Smail , R. The Cruaders in Syria And in The Holy Land. Thames And Hudson, 1973. Pp. 9-38.

- سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: **Smail, R. 1973.**
- Müller - Weiner, W.** Castles Of The Crusaders. New York, 1966.
- سيشار إليه عند وروده فيما يلي هكذا: **Müller - Weiner, 1966.**
- 28- **Smail, R. 1973. P. 100.**
- Beyer, G.** " Civitus Ficum". Zeitschrift Des Deutschen PalAstina - Vereins. Vol. 69. Wiebaden. 1953.p. 67.
- ٢٩— ابن اياس (محمد بن أحمد). بدائع الزهور في وقائع الدهور. ج ١. تحقيق محمد مصطفى. القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٨. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن اياس، بدائع الزهور.
- 30- **HARTMANN, R. 1910, P. 683.**
- 31- **Zayadine, F.** " Caravan Routes Between Egypt And Nabataea And The Voyage Of Sultan Baibars to Petra In 1276." Studies on The History And Archaeology Of Jordan, Vol. 11. Ed. Hadidi, A. Amman, 1985. P. 161.
- 32- **Hartmann, R. 1910, P. 683.**
- ٣٣— الادريسي، أنس المهج، ص ٢١.
- ياقوت، معجم البلدان. ج ١. ص ٢٧٦—٢٧٧.
- ٣٤— ياقوت، معجم البلدان. ج ٢. ص ٦٥٧.
- 35- **Kareem, J.** The Settlement Patterns In The Jordan Valley In The Mid- to Late Islamic Periods . Ph. D. Thesis . FREI Universitat Berlin , 1992. P. 32 .
- Kareem, J. 1992.** سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:.
- ٣٦— القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٩٥.
- ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ١٣٦.
- ٣٧— القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤. ص ٣٨٠.
- 38- **Henninger, J.** " Pariastamme In Arabien ", Arabica Varia . Schweis Orbis Biblicus Orientalis , 910, Gottingen , 1989. Pp. 244-246.

- ٣٩— التويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) . نهاية الارب في فنون الأدب.. ج ٨ ، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٥ ، ص ٢٧٠ .
- 40- Ibrahim, M. et Al. 1986. Pp. 48- 50.
- Yassine, K. Et Al. 1988. Pp.
- 41- Ibrahim, M. et AL. 1976. P. 59.
- 42- Kareem, J. “ Tell Fendi : Jisr Sheikh Hussein Project, 1986.” Annual Of The DEPARTMENT Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 97-100.
- سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Kareem, J. 1989.
- ٤٣— كريم (جمعة محمود) . المسح الأثري لمنطقة سليخات.
- ٤٤— حمارنة، صالح زراعة قصب السكر وصناعته عند العرب والمسلمين . حولية دائرة الآثار العامة، المجلد ٢٢ ، عمان ١٩٧٧ / ١٩٨٧ م . ص ١٢—١٨ .
- ٤٥— أبو دلو، ربي معاصر السكر في غور الاردن. رسالة ماجستير غير منشورة معهد الآثار والانثروبولوجيا— جامعة اليرموك، ١٩٩١ . ص ٣٦—٦٤ .
- 46- Franken , H. And Kalsbeek, J. Potters Of A Medieval VILLAGE In The Jordan Valley. New York: American Elsevier Press. 1975. Pp.66-75 .
- سيشار إليه عند وروده فيما بعد. Franken , H, And Kalsbeek, J. 1975.
- هكذا:
- 47- La Gro , H.” Abu Sarbut”. Akkadica. Vol. 7. 1989. Pp . 118-119; .
- De Hass, H.; La Gro , H. And Steiner, M . “ First Season Of Excavations At Tell Abu Sarbut, 1988: A Preliminary Report”. Annual Of The Department Of Antiquities Of Jordan. Vol. 33. Amman, 1989. Pp. 323-326.
- La Gro, H. And De Hass, H. “ Sugar Pots: A Preliminary Study Of Technological Aspects of A Class Of Medieval Industrial Pottery From Tell Abu Sarbut , Jordan “. News Letter. DEPARTMENT Of Pottery Technology. Vol. 718. University Of Leiden . 1989/1990. Pp. 7-20.

٤٨ — ابن شداد الاغلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .
الدمشقي (الانصاري أبو عبد الله محمد). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق.
مهران، ليسزخ، ١٩٢٣ . ص ٢٠١ . سيشار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: الدمشقي ،
نخبة الدهر .

٤٩ — ابن شداد الاغلاق الخطيرة. ص ٣٢٦ .
٥٠ — المقرئزي (أحمد بن علي). كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١٢ . تحقيق محم
دزيادة، القاهرة، ١٩٥٨ . ص ٥٢٣ .

سيشار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: المقرئزي، كتاب السلوك.
الداوادي (أبو بكر بن عبد الله بن أيك). كتاب الدرر وجامع الفرر. تحقيق هارمان
، القاهرة، ١٩٧١ . ص ١١٢ .

سيشار إليه عند وروده فيها بعد هكذا: الداوادي، كتر الدرر.
٥١ — انظر الخارطة رقم /٢/ .

52- Wild Stefan. Libanesische Orts-name, Typologie
Und Bedeutung.

Lebanon, 1973. P. 174.

Sultan Al- Ma`ani. Nordjordanische Ortsnamen.
Hildsheim, Georg Olms Verlag. 1992. P. 132.

53- Westendorf, W. Koptisches Hand - Worterbuch.
Heidelberg, 1977. P. 335.

٥٤ — ابن اياس ، بدائع الزهور. ص ٣٣٢ .

٥٥ — العمري (فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى). مسالك الابصار في
مالك الامصار. تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة، ١٩٨٥ . ص ٥٥ . سيشار إليه عند
وروده فيها بعد هكذا: العمري، مسالك الابصار.

56- Hartmann, R. 1910. P. 686.

Hartmann, R. " Zur Geschichte Der Via Maris". Zeits-
chrf Des Deutschen Palastina- Vereins (ZDPV) , Vol. 41.
Leipzig. 1918. P. 54.

HARTMANN, R. 1918.: سيشار إليه عند وروده فيها بعد هكذا:

57- Mittmann, S. Beitrage Zur Siedlungs und ter-
ritorial geschichte des Nordlichen Ostjordanalandes.

Wiesbaden , 1970. P. 164, 228.

Mittmann, S. 1970. سيشار إليه عند وروده فيها بعد هكذا:

٥٨ — القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٨٠.
★ يقع موقع زحر العقبة، ويسمى زحر النصارى أيضاً، على يسار الطريق المعبد
الواصل بين مدينتي إربد والشونة الشمالية. ويبعد هذا الموقع الأثري حوالي ١٢ كم
للشرق من مدينة الشونة الشمالية، وعلى بعد ٥ كم للغرب من قرية قم. ولقد زاد كاتب
هذا التقرير هذا الموقع، وتبين أن جميع الشقف الفخارية الظاهرة على السطح تعود للعصر
الايوبي/ المملوكي. ويظهر فيه مجموعة إنشاءات معمارية تشبه تلك التي عثر عليها في
موقع ذراع الخان، والعائدة للعصر المملوكي. ويتواجد مجموعة من الاحواض استعملت
لتجميع مياه الامطار. وإن الدلائل الظاهرة على السطح تشير بشكل واضح على أن هذا
الموقع استعمل كمحطة تجارية على الخط التجاري الواصل بين الشونة الشمالية وإربد في
العصر المملوكي المبكر.

٥٩ — المقرئزي، كتاب السلوك، ج ١. ص ٥٤٤.
ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف). النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة. ج ٧. تحقيق جمال محمد محرز وفيهم محمد شلتوت. القاهرة. ١٩٧٠، ص
١٤١، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.
ابن شداد، الاعلاق الخطيرة. ص ٣٥٢.

٦٠ — ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٥. ص ٣٩١.
٦١ — معاوية أبراهيم وخير ياسين، وجيمس سور. اوراق تسجيل المواقع الأثرية
لعام ١٩٧٥ م. غير منشورة، محفوظة في أرشيف متحف الآثار الجامعة الأردنية.

٦٣ — القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٨٠.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦. ص ٤٨.
٦٤ — ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٦، ص ٤٨.

65- Laidus, I. Muslim Cities In The Later Middle Ages. Cambridge, Harvard Un . Press. 1967 . P. 124 .

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Laidus, I. 1967.

Labib, S. " Egyptian Commerical Policy In The Middle East". The Economic History of The Middle East. Ed. Cook, M. Oxford, 1978. Pp.70-72.

Schwolbe, V. " Die Verkherswege und Ansiedlungen Gelilaas In Ihrer Abhangigkeit von Den Naturlichen Bedingungen ". Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins(Zdpv) , Vol, 27. Leipzig, 1904. Pp. 57-149 .

Hartmann , R. 1910. Pp. 665-702.

Jaussen , J. " Inscription Arabe Du Khan Al-ahmar a` Baisan(Palestine)". Palestine Exploration Fund Annual, London , 1940. Pp. 99-104.

Sauvaget, J. " Caravanserais Syriens du Moyen Age". Ars Islamica. Vol. 7. 1940.pp.1-19.

Abu Khalaf, M. " Khan Yunus And The Khans of Palestine." Journal Of The British School Of Archaeology In Jerusalem, (Levant) , Vol. 15. London, 1983. Pp. 178-187.

٦٦- المقريري، كتاب السلوك. ج ٢. ص ٣١٨.

67- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105_180.

68- **Laidus, I.** 1967. Pp. 23-31.

Brown, R. Late Islamic Settlement Patterns on The Karak Plateau, Transjordan. Binghampton: Sung Press. 1985. P. 18.

سيشار إليه عند وروده هكذا: Brown, R. 1985.

69- **Russel, J.** " The Population of Medieval Egypt". Journal Of The American Center in Egypt. Vol. 5. Pp. 69-82.

Dols, M. The Black Death In The Middle East. Princeton Un. Press , 1977. Pp.154,185,223.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Dols, M. 1977.

Dols, M. The Second Plague Pandemic And Its Recurrences In The Middle East : 1347-1894" . Jesho , Vol. 22. 1979. Pp. 169_182.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Dols, M. 1979.

Dols, M. " The General Mortality of The Blach Death In The Mamluk Empire ". Studies in The Islamic Middle East, 700-1900. Darwin Press, PRINCETON, New Jersey , 19481.pp.416_417.

Dols, M. 19481. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:
غوانمة، يوسف درويش. «القرية في جنوب بلاد الشام (الأردن وفلسطين) في العصر
المملوكي في ضوء قرية أدر».

Studies on The History And ARCHAEOLOGY Of Jordan,
Vol. I. Ed. Hadidi, A. Amman, 1982.p.364.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٢ .
غوانمة، (يوسف درويش). الطاعون، والجفاف وأثرهما على البيئة في جنوب
الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي.

Studies on The History And Archaeology Vol. li . Am-
man , 1985. Pp. 316_318.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: غوانمة، ١٩٨٥ .

٧٠ — المقريري، كتاب السلوك، ج ٢، ص ٧٧٤ .

٧١ — المقريري، كتاب السلوك، ج ٢، ص ٧٨٤ .

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٢٠٩ .

72- Dols, M. 1977. P. 62, 159.

Rabie, H. " Some Technical Aspects Of Agriculture In
Medieval Egypt." The Islamic Middle East 700-1900. Ed.
Udovitch , A. The Darwin Press, Princeton. 1981. P. 80.

٧٣ — المقريري، كتاب السلوك، ج ٢، ص ١٥١ .

القلقشندي، صبح الأعشى. ج ٣، ص ١٨٨، ١٩٠، ١٩٢ .

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الله) . نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٨ . القاهرة

، ١٩٧٥ . ص ٢٧١ .

Ziadeh, N. Urban Life In Syria under The Early Mam-
luks. Bairut, 1953. P. 113.

Ziadeh , N. " Town Administration In Syria Under
The Early Mamluks". Proceedings Of Twentysecond Con-
gerss Of Orientalists. Vol. li . Ed . Zeki Togan . Leiden.
1957.p . 213.

74- Hutteroth, W. And Abdulfattah, K. Historical Geography Of Palestine, Transjordan and Southern Syria In the Late 16th Century. Erlangen , 1977, Map. 3;

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Hutteroth and ` Abdulfattah, 1977.

75- Ashtor, A. " Levantine Sugar Industry In The Late Middle Ages: An Example Of Technological Decline".

Ashtor, A. 1977: سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Ashtor, A. Levant Trade in The Later Middle East. Princeton UN. Press. 1983. P. 206.

Ashtor, A. 1983. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

Udovitch, A. " Introduction - Technology, Land Tenure And Rural Society: Pre- Modern Middle East". The Islamic Middle East 700-1900: Studies In Economic And Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981.p.15.

Udovitch, A. 1981. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

76- Ashtor , A. 1983,p.208.

77- Laidus, I. 1967, P. 27_28.

Musallem, B. " Birth Control and Middle Eastern History", The Islamic Middle East 700-1900: Studies In Economic and Social History. Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, Princeton, 1981,p.434.

٧٨- ابن طولون(شمس الدين محمد بن علي بن طولون). مفترق الخلان في حوادث الزمان. ج ١. توفيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة، ١٩٦٢م. ص ٢٠٣، ٢٢٥، ٢٦٤، ٣١٥، ٣٤٤.

٧٩- المقرئزي، كتاب السلوك، ج ٢، ص ٨٥٤.

80-Hartmann, R. 1910. Pp. 694-702.

Hartmann, R. 1918. Pp. 55-56.

81- Heyd, U. Ottoman Documents on Palestine 1552-1516. Oxford: The Clarendon PRESS. 1960. P. 76.

Heyd, U. 1960. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

82- Al- Bakhit, M. " Jordan In Perspective: The Mamluk Ottman Period." Studies on The History And Archaeology Of Jordan, I . Ed. Hadidi , A. Amman, 1982. P. 362.

Al- Bakhit, M. 1982. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Lewis, B. " Studies In Ottoman Archives". Bulletin Of The School Of Oriental and African Studies. Vol. 16. London, 1954. P. 487.

Lewis, B. 1954. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Hutteroth And Abdulfattah, 1977, P. 8.

83- Cohen, A. and Lewis, B. Population And Revenue in The Towns Of Palestine In The Sixteenth Century. Princeton Un. Press. 1978. P. 42-75.

Cohen And Lewis , 1978. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

84- Peterson, A. Early Ottoman Forts on The Hajj Route in Jordan. Oxford, 1986. Pp. 24-109.

Peterson, A. 1986. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

Burchhardt, J. Travels In Syria and The Holy Land. London, 1822. Pp. 656-661.

Burchhardt, J. 1822. سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا:

PeakeE, P. A History of Jordan and its Tribes, Miami Un. Press. Coral Gables, Florida. 1958. P.85.

-
- سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: Peak, P. 1958.
- Rafeq Abd L- Karim.** The Province Of Damascus 1723-38. Beirut, 1966.pp. 52-37,115.
- سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: Rafeq, 1966.
- Al - Bakhit, M.** The Ottoman Province Of Damascus In the Sixteenth Century. London , 1972. P. 99.
- سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: Al - Bakhit, M. 1972.
- Barbir, K.** Ottoman Rule in Damasus 1708-1758. Princeton , Un. Press. 1980. Pp. 133-150.
- سيشار إليه فيا بعد عند وروده هكذا: Barbir, K. 1980.
- 85- **Al- Bakhit, M.** 1972. Pp . 99-100.
- Al- Bakhit, 1982. P. 362.
- 86-**Hutteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.
- 87-**Hùteroth and `Abdulfattah,** 1977. Pp. 176-177.
- 88- **Kareem , J.** 1992/ P. 61.
- 89- **Heyd,.** 1960.pp. 110-112.
- 90- **Heyd, U.** 1960.pp.111.
- 91- **Tshelebi , E.** “ Evliya Tshelebi`s Travels In Palestine” , Quarterly Of The Department Of Antiquities In Palestine. Vol. 6. Jerusalem . 1936/37.p.84.
- سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: Tshelebi, E. 1936/37.
- Gal , Z.** “ Khan El- Tuggar: A New Look at A Western Survey Entry” . Palestine Exploration Quarterly. Vol.117. London, 1986. P. 74.
- سيشار إليه عند وروده فيا بعد هكذا: Gal, Z. 1986.
- Heyd, U.** 1960. Pp. 110-115.

٩٢ — النابلسي (الشيخ عبد الغني) الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين. رقم المخطوط 12 We 6145. ص ٢٠٦.
ميشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: النابلسي، مخطوط.

93- Cohen , A. Palestine in The 18th Century .

Cohen , A. 1973. ميشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: .

Rafeq , A. 1966. P. 130, 157, 285 ;

Rafeq , A. " Economic Relations Between Damascus And The Dependent Countryside 1943-71" . The Islamic Middle East 700-1900; Studies in The Economic and Social History . Ed. Udovitch, A. The Darwin Press, PRINCETON , New Jersey , 1981. P. 653.

94- Cohen, A. 1973. P. 105.

Steueranagel, C. Der `adschlun . Leipzig, 1927. Pp. 130-131.

Steuernagel, C. 1927.

95- Bosworth , c. " William Lithyow Of Lanark`s Travels In Syria and Palestine 1611-1612." Proceedings of the First International Conference ON BILAD AL-SHAM, 20-25 APRIL, 1984, PART I. UN. OF JORDAN AND Yarmouk Un. 1984. P. 20.

Bosworth, C. 1984. ميشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: .

96- Bosworth, C. 1984.p. 21.

Heyd, U. 1960. 85,88,80,101.

٩٧ — النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

98- Forster, W. The Travels Of John Sanderson in the Levant. London , 1931. P . 114.

النابلسي، مخطوط، ص ٢٠٦ .

99- Schumacher, G. " Das Sudliche Basan Zum Ersten Male Aufgenommen Und Beschrieben". Zeitschrift Des Deutschen Palastinavereins. Vol. 20. Leipzig. 1897. P . 108.

Schumacher, G. 1897. ميشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: .

- 100- Gal , Z. 1986. P. 69_75.
- 101_ HÜTTEROTH And Abdulfatah, 1977. P.88.
- 102_ Mershen , B. And Knauf, A. " From Gadar to Umm Qais", Zeitschrift Des Deutschen PalAstina- Vereins , Vol. 104. Stuttgart, 1988. P. 143.
- 103- Burckhardt, J. 1822.pp. 269. 70.
- 104_ Burckhardt, J. 1822.p. 315.
- Tshelebi, E. 1936/37. Pp. 84_85.
- Hütteroth and `Abdul Fattah, 1977. P. 43.
- Lewis , B. Studies In Classical And Ottoman Islamic (7th- 16th Century) . London, 1976. P. 497.
- 105- Al- MA` ANI, S. Nordjordanische Ortsnamen . Hildsheim, Georg Olms Verlage, 1992.p 253.
- 106- Hanbury - Tenison , et Al. 1984. Pp. 417_422.
- ١٠٧— أجريت في هذا الموقع حفرة أثرية انقاذية عام ١٩٨٩م. وأشرف عليها كاتب هذا المقال ممثلاً لمعهد الآثار والاثروبولوجيا— جامعة اليرموك، والسيد حكمت الطعاني ممثلاً لدائرة الآثار العامة. ولقد كشف في السويات العلوية على شقف فخارية وثلاثة طوابين، تعود للعصر العثماني، غير منشورة.
- ١٠٨— ابن زين البقاء(محمد بن زين البقاء عيسى بن كنعان). المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية. مخطوط في مكتبة الدولة ببرلين، رقم. 1116. We. 6088.
- 109- Karmon, Y;" The Settlement Of The Northern Huleh Valley since 1838".
- ١١٠ — أسد رستم. البشيرين السلطان والعزیز ١٨٠٤—١٨٤١. بيروت، ١٩٦٦، ص ١٧١.
- 111-Steuernagel, C. 1927. 27. 130.
- Ma`oz, M. Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861. Oxford, 1968, P. 145,164-165.

112-Karmon, Y. " An Analysis Of Jacotin is Map Of Palestine".

113-Peake, P. 1958. Pp. 81_92.

Issawi , B. The Economic History Of The Middle East, 1800-1914. Chicago Un. Press. 1966. Pp . 262_263.

Al- Mousa, S. " Jordan: Towards the end Of The Ottoman Empire 1841-1918". Studies On The History And Archaeology Of Jordan. Vol.I. Ed. Hadidi, A. Amman , 1982.pp.385/91.

Jones, B. " Interregional Relationship In Jordan: Persistence And Change ". Studies on the History and Archaeology Of Jordan, Vol. 2. Ed. Hadidi, A. Amman , 1985. P. 310.

114- Steuernagel, C. 1927. P. 130.

115- Peake, P. 1958.pp. 95_97.

116- Weakely, E. " Report on the Conditions and Prospects Of British Trade In Syria". Economic History Of The Middle East 1800-1914. Ed. Issawi, C. Chicago Un. Press. 1966. Pp. 274. 290.

117- Burckhardt, J. 1822.p. 296.

Schumacher, G. Across The Jordan: An Exploration and Survey of Part Of Hauran and Jaulan, 1886. Pp. 22. 23 .

118- Burckhardt, J. 1822. P. 274.

119- Schumacher, G. "Abila Of The Decapolis ". Palestine Exploration Fund , London, 1889. Pp. 71, 72, 189, 190.

-
- 120- **Schumacher, G.** 187. P .114.
Northy, A. "East Of Jordan , Expedition Exploration Fund. London , 1972. P. 71.
Warren , C. " Expedition East of Jordan". Palestine Exploration Fund . London , 1870. P. 285.
Robinson , E. Biblical Researches In Palestine and the Adjacent Regions. Vol. 11.
Smith, A. The Historical Geography Of The Holy Land. London, 1897. Pp. 488- 489.
- 121- **Karmon, K.** 1960. P. 251.
Steurnagel, C. " Der `adsclun" . Zeithschrift Des Deutschen Palastina - Vereins. Vol. 49. Leipzg, 1926. Pp. 134-137.
- 122- **Schumacher, G.** 1897. P. 108.
123- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.
124- **Ibrahim, M. et Al.** 1976. P. 59.
Yassine , K. et Al. 1988. P. 168.
125- **Burckhardt, J.** 1822. P. 275.
126- **Ibid.** P. 180.
127- **Schumacher, G.** 1992. Pp. 105-180.
128- **Kareem, J.** 1992. Pp. 105-180.

١٢٩—انظر الخارطة طريق رقم ٣ .

- 130- **Amiran, D.** " A Revised Earthquake Catalogue Of Palestine"

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر
العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

الصهيونية في مرآة الفكر العربي المعاصر العلاقة بين الصهيونية والتاريخ اليهودي

● د . احمد برقاي
جامعة دمشق

القسم الاول

— ١ —

مهما حاول المؤرخ او المفكر عربيا كان او غير عربي ان يعزل اليهودية عن الصهيونية ، فانه لا محالة مخفق . فمفاهيم الصهيونية الاساسية انما نبعت من اليهودية اساساً وقبل كل شيء على الرغم من لبوس « الحداثة » الذي تزينت به بعض التيارات الصهيونية .

ولاشك ان العربي مدفوع بعوامل كثيرة لاقامة التمايز بين اليهودي والصهيوني . ذلك ان العربي مسلماً كان ام مسيحياً ، علمانياً او متديناً ، ينظر الى الدين اليهودي اما كاحد الاديان السماوية الشرقية ، او كجزء من تراث الشرق القديم ، هذا ناهيك عن وجود عدد كبير من اليهود الذين لم يندرجوا في الصهيونية او لم يتخذوا منها ايدولوجيا تعبر عن مصالحهم ، وباستطاعة المرء — وهولا يستطيع ان يحكم استناداً الى الشك غير المعزز — ان يذكر من المفكرين اليهود المعاصرين امثال ناعوم تشومسكي وردنسون وغيرهم ممن لا يفكرون في اطار الحركة الصهيونية ، بل ويعتبرونها ايدولوجيا عنصرية مناهضة للترعة الانسانية .

ومع ذلك فلا يمكن تجاهل ان الصهيونية ايدولوجيا يهودية قبل كل شيء انتشرت في اوساط اليهود دون غيرهم او اعتنقها اليهود دون سواهم . والاشكال الذي يواجه الباحث هو : هل اليهودية تعبر عن انتهاء ديني ام انتهاء اثني ؟ سنؤجل الاجابة عن هذا السؤال الى حينه ، بعد ان نرى كيف نظر بعض المفكرين العرب الى قضية علاقة الصهيونية باليهودية .

يرى البعض ان الصهيونية ليست الا امتداداً لليهودية القديمة ، فجورجي كنعان مثلاً ينطلق من الفرضيات التالية: ان وثيقة الصهيونية في استملاك ارض فلسطين قائمة في كتاب العهد القديم (١). «والصهيونية المتجسدة في دولة اسرائيل ليست بنت وعد بلفور كما يدّعي مع الاسف معظم الدارسين وانما هي بنت الوعد الاول ، وعد «الله» لابراهيم في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وليست صنعة هررتزل نبي الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر بل هي صنعة موسى، نبي الصهيونية الاول. (٢) «الصهيونية حركة دينية ودعوة قومية ، قطعت على نفسها عهداً بتحقيق العهد الاول الذي قطعه «الله» لبني اسرائيل وتحقيق الرؤى الدينية والامال اليهودية» (٣).

«الصهيونية حركة عدوانية توسعية ، حركة دينية سياسية تستند في دعواها الدينية الى وعد «يهوه» لآباء اليهود بتمليكهم ارض كنعان» (٤). ان اسرائيل تجسيد للرؤى والتنبؤات «فمنذ السبي الاشوري والبابلي ، وهم يرنون بحسرة الى فلسطين ويتطلعون بامل ورجاء الى يوم العودة الى صهيون . الهيكل وارض العسل واللبن . وبعد خراب الهيكل وبدء الشتات ، قوي الامل وقوي الرجاء ، حتى باتت التنبؤات والرؤى خاصة رؤيا الخلاص ، بواعث قومية تحذو بهم الى التجمع والتكتل وشحذ العزائم للعودة الى ارض الرب ومهد الانبياء» ويضيف «وجاءت الصهيونية تتبنى تحقيق التنبؤات وتنفيذ رؤيا الخلاص . فالصهيونية قائمة في جذر الديانة اليهودية والديانة اليهودية، قومية تجسدت في الحركة الصهيونية (٥).

ويرى كل من هانئ الهندي ومحسن ابراهيم في كتابهما الصادر في دمشق ١٩٥٨ «اسرائيل» فكرة ... حركة ... دولة» «ان اليهود والصهيونية اسم واحد ومضمون واحد حتى ولو اعتبرنا الثانية تجاوزاً ، الوجه السياسي الحديث للاولى ، كما يحلو للبعض ان يفعل حين يريد ان يميز ويفرق بين الاسمين (٦) ويضيفان قائلين : «ان الصهيونية لم يتدعها تيودور هررتزل ولم يقرر وجودها المؤتمر الصهيوني ١٨٩٧ ، انها ليست فكرة جديدة فهي في الواقع ولدت في اللحظة الاولى من اليوم الاول ، لتشيريد اليهود من فلسطين ومع الزمن نمت هذه الفكرة وتطورت صعوداً عبر الاجيال من خلال الصلوات والادعية ومن خلال المشاريع والاعمال» (٧).

والصهيونية — كما يريان — ملتزمة باليهود وبيدنيهم وهي جزء من تفكير اي يهودي . يرضعها طفلاً ويسير بهديها ووحيتها وهذه الفكرة — الصهيونية — زرعت بذورها كما يقول هابر يوم ولت مملكة «اسرائيل» على يد الاشوريين في القرن الثامن ق . م ونمت بعد سبي القدس على يد نبوخذ نصر في القرن السادس ق . م (٨).

ويتابع مؤلفا (اسرائيل فكرة ، حركة ، دولة) قائلين : « اليهودية دين وقيم . اليهودية عقيدة ونظرة حياة معينة لمجموعة خاصة من البشر لها خصائصها المتميزة الواضحة . اليهودية كمعتقد لجماعة عرفت بتاريخها الطويل غير المشرف في فلسطين وخارجها ... والصهيونية في جوهرها ليست بمختلفة عما تقدم ذكره من حيث الجوهر . فالصهيونية هي الشعب اليهودي في طريقه الى فلسطين ... والصهيونية هي العقيدة القومية للشعب اليهودي ووسيلته من اجل استعادة ارض الاباء والاجداد برأي مناحيم بيغن ... والصهيونية هي وجه اليهود الحقيقي ... وهي الصفة المقصورة على العناصر اليهودية التي اوكلت لها مهمة التطرف امام العالم » (٩).

واخيراً « الصهيونية معتقد قديم جدا . واليهود هم معتنقو هذا المعتقد والصهيونية هي اليهودية في العمل المنظم لغزو فلسطين وما وراءها » (١٠). وبناء على النظر الى الدين اليهودي والصهيونية وبوصفهما شيئاً واحداً يخلص مؤلفا (« اسرائيل » فكرة ، حركة ، دولة) الى ان « الذين يعتبرون اليهودية مجرد دين وليست قوة منظمة متماسكة لن يستطيعوا ان يدركوا ضخامة العدو الذي نقاتله وجهاً لوجه في فلسطين ان اليهودية ليست ديناً عادياً كبقية الاديان ، انها رابطة متعصبة تشد معتنقيها بصلات اشبه ما تكون بالقربى الحية ... ان اليهودية ليست رابطة ، انها قوة فاعلة محركة يلمس اثرها في كل مجتمع يعيش فيه اتباعها ان اليهودية ليست كلاماً فارغاً وقولاً لامضمون له ، انها قوة ضخمة تسيطر على الحكومات والهيئات والاحزاب في عدد كبير من بلدان العالم » (١١).

ويرى السيد س . ناجي ان « اليهودي بظل يهودياً قبل كل شيء ، ويتضح من هذا بطلان زعم امكانية التفريق بين القومية واليهودية ، والشرعية اليهودية او الزعم بان الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر » (١٢).

لقد عرضنا نماذج ثلاثة لاربعة مؤلفين ، يلخصون الى حد كبير احدى النظرات الشائعة حول علاقة اليهودية بالصهيونية من حيث هما شيء واحد . وبالتالي فان الصهيونية ظاهرة قديمة قدم اليهودية وتجد اساسها في التوراة .

اعتقد ان هناك مسألتين مختلفتين يجب عدم الخلط بينهما . الاولى : نشأة الحركة الصهيونية والثانية الاساس الديني اليهودي للايديولوجيا الصهيونية . في معالجة هاتين المسألتين قد يتفق بعض المفكرين من العرب والصهيونيين حول قدم الحركة الصهيونية الاول بقدم استطالة للصراع العربي - الصهيوني . تمت عبر التاريخ . والثاني يريد ان يستعين بالتاريخ كي يبرز ظهور الصهيونية في وقت متأخر - القرن التاسع عشر .

الاول يبحث في التوراة عن علة قيام « اسرائيل » ليدحض التوراة . الثاني يستند الى التوراة لتقرير حق اليهود في فلسطين ويدحض حق الفلسطينيين في الجوهر . نحن امام خطابين متشابهين ومختلفي النية .

اجل ، يقدم الصهيوني شمويل ايتنغر صورة نموذجية تقارب الى حد كبير الصورة التي قدمت آنفاً من قبل العربي الذي يؤكد نزوع اليهودي القديم الى ارض فلسطين ، التي ليست ارضه . ففي دراسته « الشعب اليهودي وارض اسرائيل » يرسم شمويل ايتنغر اللوحة التالية :

« الصلات بين الشعب اليهودي وارض « اسرائيل » تُكوّنُ واحدة من اغرب الظواهر في تاريخه الطويل ، وهي ظاهرة قد لا تقع على نظيرها في تاريخ اي شعب من الشعوب . هذا الشعب — ويقصد اليهود — شأنه شأن كل شعب محمل بالتاريخ ، تضع بداياته بين الاساطير الملحمية والمعطيات المتناقضة ، ولكن حساسيته التاريخية الحادة ومحافظته الامينة على تراث الاقدمين والاهمية المعطاة لاحداث ما قبيل الخروج من مصر في اخراج شخصيته القومية الى حيز الواقع اتاحت كلها لشعب اسرائيل ان يكون منذ عصر بعيد ، وجداناً قومياً عميقاً . هذا الوجدان عبرت عنه التوراة قبل سواها فكان له على طبع الشعب اثر حاسم خلال سائر القرون (١٣)

هذا الوجدان القومي سيرافق اليهود على مر التاريخ وتظل فلسطين — كما يقول ايتنغر — هي الارض الموعودة . ويمسي وجود شعب اسرائيل في ارضه متعلقاً بنقاوة دينه وكمال خلقه . تظهر قوة هذه الافكار عند « الاحتلال » البابلي لاورشليم وهدمهم الهيكل عام ٥٨٦ ق . م وهي الكارثة الاولى (١٤) .
تجيء الكارثة الثانية بتدمير الهيكل الثاني على ايدي الرومان عام ٧٠ فتزيد من شوق اليهود الى الخلاص ، في فلسطين وفي المنفى (١٥) .

ثم كان الفتح العربي لفلسطين في القرن الثامن فسهل العلاقات بينها وبين يهود المنفى وحافظت البلاد على مكانها الممتاز في الوجدان القومي ، وفتحها لا يشكل حقاً فيها . وكان الوعاظ والمتصوفة يفسرون خرابها على انه اشارة من امارات الخلاص المقبل : فذلك التراب لا يؤتي ثماره الا للملاكة الشرعيين (١٦) .

الى ذلك ، كان ثمة تسليم ضمني بان اقامة اليهود في الخارج وان طالت أجيالاً ليست في عين الشرع سوى منفي مؤقت ، اكانوا فيه مضطهدين او محترمين (١٧) .

ثم يتابع ايتنغر رسم اللوحة المتخيلة قائلاً : « اما التعبير عن الحنين المضطرم الى الوطن الضائع واما البرهان الثابت على استمرار الضيق بالمنفى ، فنقرأهما في الحركات الخلاصية ، إذ أن يقظة هذه الحركات ترافق وضع الأقلية اليهودية ودينها في العصور الوسطى » (١٨)

وأما الاضطهاد الذي مورس على اليهود، في أوروبا فكان ينظر إليه اليهود بوصفه «آلام ولادة الخلاص». فكل تغير في الوضع السياسي القائم كان يمكن ان يعني بداية النداء. لذا، أيقظت الحروب الصليبية والغزو المغولي وفتح القسطنطينية أملاً مداره أرض اسرائيل (١٩).

ثم جاءت ضربة بالغة القسوة حلت باليهود، هي طرد اليهود من اسبانية (١٤٩٢) فاقتلعت أكبر الجاليات اليهودية في أوروبا من جذورها وأوسعها تحطيماً لكنها أدت إلى نهضة روحية، فتركز العديد من اليهود في فلسطين أوحى بأن مغزاه هو اقتراب الخلاص، لذا قامت محاولة لإعطائه وضع الأمة الديني طابع القداسة بالعودة إلى الرسم الكهنوتي في الأرض المقدسة (٢٠).

وخلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، جرى رد الأمل في خلاص اسرائيل في العودة نحو صهيون إلى شخص مسيح روحاني، فكان أن استجاب معظم اليهود إلى نداء ملك مخلص جديد هو شبتاي زفي، وإذا كان من دلالة لاتساع الاستجابة لهذا المخلص، فهي قوة الأمل في العودة إلى بلاد اسرائيل (٢١).

وفي القرن الثامن عشر فقد انتشرت بين أتباع البروتستانتية اعتقاد عودة «اسرائيل» إلى المسيحية، وربط الكثيرون بين هذا الاعتقاد وبين تجديد الملكية اليهودية لاسرائيل، وفي الوقت نفسه، فقد هاجم أتباع التنوير الأديان وظهرت نزعة الاندماج لدى اليهود، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية في أوروبا الغربية والوسطى، ولم يكن لهم وجود في أوروبا الشرقية ولا في الشرق الأوسط ولا في أفريقيا الشمالية — كما يقول اتينغر — ورغم ان الاندماج وقطع الصلات بأرض «اسرائيل» كانت تؤيده السلطات والاتجاه الليبرالي، إلا أن فشلها بدا ظاهراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر طلب اليهود، في صيغة حديثة وعلى أساس تجربة تاريخية جديدة، عودتهم إلى أرض اسرائيل (٢٢).

وهكذا ظهرت الصهيونية على يد عدد من المثقفين الأوروبيين.

هذه الصورة التي يرسمها شمويل اتينغر، استاذ التاريخ اليهودي الحديث في الجامعة العربية بالقدس، ونجدها عند أكثر من كاتب صهيوني، تريد ان تدلل على أن فكرة الخلاص بدأت بالظهور عند اليهود من «الكارثة الأولى» واستمرت حتى هذا التاريخ، كفكرة تدفع اليهود دائماً لتوجه روحياً، أو جسدياً شطر فلسطين، بوصفها — كما يعتقدون — وطنهم الأصلي، وكوسيلة لنفي النفي، أي الخلاص، هذه الصورة الخيالية، تعززها الوصايا المندرجة في التوراة.

بهذا المعنى، فاليهودية مستمرة أنفياً عن التاريخ، وليس بفضل التاريخ، ذلك أن ا
لتاريخ المتخيل لليهود على صراع بين الفكرة الصهيونية والسيرورة الواقعية، أو أن شئت
قل للتاريخ الواقعي ليس له من هم سوى انتاج وتذكير اليهود «بوطنهم الأصلي»، على
الرغم من أن التاريخ يجري نحو ادماجهم، او هكذا يريد، وبالتالي يقوم الصراع بين
إرادتين: إرادة الفكرة الصهيونية — الخلاص، التحرر من النفي، وإرادة التاريخ،
وبالنتيجة تنتصر الفكرة الصهيونية التي تعاند إرادة التاريخ، أما لماذا يستمر الشعور
بالنفي والرغبة في الخلاص عن طريق العودة إلى فلسطين؟ يجيب الصهيوني على شاكلة
اتينغر، لأن التوراة — كتاب اليهود — يتضمن ذلك.

هنا يأتي بعض المفكرين العرب ليقولوا نعم إن أساس وعي اليهودي قائم في التوراة،
لكن الفرق بين الاثنين هو أن الصهيوني يتعامل مع النص التوراتي كحقيقة مطلقة،
والعربي يتعامل معه كتزييف لحقيقة التاريخ وتاريخ فلسطين وتاريخ اليهود أيضاً، وبما ان
الفكرة الصهيونية قائمة في التوراة اصلاً، فلا بد من نقد التوراة.
إذاً، في خطوة أولى يتم عرض الصهيونية وأخلاقتها على أساس التوراة وفي خطوة ثانية
يشرع في نقد التوراة.

لنقرأ مثلاً مايقوله الدكتور رشاد عبد الله الشامي: «لم يرث اليهود كتاب العهد القديم
فقط، بل ورثوا معه تاريخاً طويلاً من اللاشعور والتعالى...» ويضيف «وكتابات العهد
القديم زاخرة بالأقوال التي تدلك على تلك الحالات» (٢٣).

والدونية — دونية اليهود — يعبر عنها سفر الخروج بقوله: «فقال الرب، لقد رأيت
مذلة شعبي في مصر، وسمعت صراخهم وعلمت أوجاعهم فنزلت لأنقذهم من أيدي
المصريين... إلخ». ثم يورد الدكتور الشامي نصوصاً متعددة أخرى وقصص متنوعة كلها
تدلك على ان هذه القصص الدينية قد خلفت لدى اليهود إحساساً بالمذلة
الدائمة، «عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم التي
سجلت قصة غزو أرض كنعان من منظورهم الديني» (٢٤).

ويتابع الدكتور الشامي قائلاً: «وقد رأى اليهود أنفسهم في مجتمعاتهم المتفرقة في أنحاء
العالم، التي كثيراً ما تعرضت لكرهية الأمم الأخرى، وقد عاشوا، منذ السبي البابلي في
القرن السادس ق.م والتشريد الروماني منذ القرن الأول الميلادي، يصارعون عوامل
الفناء، ويتغلبون بتضامنهم الاجتماعي والديني على كل مشاريع الإبادة التي خططت من
أجلهم، فكان من الطبيعي أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم». (٢٥)

في حقيقة الأمر، إن جملة الأفكار التي يوردها الشامي ليست متناقضة مع معظم
أفكار اتينغر، ولكن النتيجة التي يريد أن يصل إليها هي أن أساس العنصرية يقوم في
النص الديني المتوارث من قبل اليهود.

إذا كانت التوراة حاوية على الصهيونية والعنصرية وتعلن بدء هذه الحركة فما هو الموقف من التوراة، هذا الذي يرى فيه مثلاً جورجى كنعان سبيلاً لفهم العنصرية اليهودية: «وفي محاولتي تقصي جذور العنصرية اليهودية والقيام بعرض تاريخي لها قاذني البحث في طبيعة هذه العنصرية، ودلالاتها، إلى الرجوع إلى مصادرها وأصولها القديمة... وإذا كانت معرفة أي شيء تبدأ بمعرفة أصوله، فإن العدو إلى التاريخ اليهودي القديم ضرورية لفهم شخصيته والتعرف على طبائعه المكتسبة، لأن فكر اليهود الديني والتاريخي متأصل في نفوسهم، والوجود اليهودي — الصهيوني يرتبط فكرياً وسياسياً واجتماعياً وحضارياً بما يسمى بالتراث اليهودي، فسيلنا إلى فهم العنصرية اليهودية سيكون بالرجوع إلى التراث الذي خلفوه وأول مصادر هذا التراث هو التوراة، العهد القديم» (٢٦)

والتوراة، كما يرى مؤلف العنصرية اليهودية، كتاب أملاه الكهنة في السبي البابلي، أو كما يقول: «وعندما بدأ اليهود بتدوين التوراة زمن موسى أو بعده، أو عندما صاغوها من جديد في السبي البابلي استهدفوا تحقيق جملة أغراض أولها: تمجيد تاريخهم، وذلك بإرجاع أصلهم إلى أقدم شخصية قديمة عرفت شعوب المنطقة — إبراهيم الخليل — وثانيها: إضفاء صفة القداسة على عنصرهم كونهم سلالة إبراهيم الذين اختارهم الرب ليكون راعياً لهم من دون سائر البشر، يبيد الشعوب من أمام وجههم.. فوضعوا في توراتهم — كتابهم المقدس — بذور العنصرية والتعصب والانعزالية» (٢٧).

ويرى السيد ندره اليازجى: أنه يستحيل علينا أن نفهم التوراة، تاريخياً، إلا فسخاً لحقيقة الله وتحويله إلى إله قومي، هو يهوه، وإذا كان جورجى كنعان يرى أن التوراة قد كتبت من قبل كهان اليهود، فإن التوراة بكاملها كما يرى السيد ندره اليازجى «خاصة أسفار موسى الخمسة إنما تقوم على الآراء التي سادت فيما بين النهرين ومصر وبلاد ميديا فاليهود لم يبدعوا شيئاً فظلوا في عالم الشريعة ولم يدخلوا عالم الروح» (٢٨).

ويؤكد ندره تلك الفكرة — فكرة أن التوراة مقتبسة من الكتب الأخرى «فلقد أخذ داود مزاميره من كتابات الكنعانيين وكتابات رأس شمرا، وأخذ سليمان أقواله من الكنعانيين الذين خانهم ومن المصريين أيضاً، أما الكتابات الأخرى في التوراة فقد أخذت من كتابات شرقية تعتبر زرادشتية ومانوية في أساسها» (٢٩).

ويخلص ندره اليازجى إلى القول: «لانتعلم درساً أخلاقياً من التوراة، فهي مدرسة للفساد والشر، التوراة مدرسة سياسية لليهود وتوجيه لهم في كل أمر» (٣٠) «وبما أن الصهيونية قائمة في اليهودية وبما أن اليهودية قائمة في التوراة، فالصهيونية قائمة في تدبير يهوه لقضية اليهود، لحياتهم، وفي تخطيط مسبق لأموالهم، الصهيونية قائمة في عرفة وفي صلب يهودية التوراة، لا صهيونية بدون يهودية ولا يهودية بدون توراة» (٣١).

القسم الثاني -٢-

لسنا بصدد دراسة تاريخ اليهودية أو تناول التوراة من زاوية تاريخية نقدية — في أي عصر كتبت، وما التطورات والاضافات التي تعرضت إليها على مر الزمن والطابع الأسطوري والمنابع أو المصادر الشرقية المتعددة — فكل ذلك يمكن أن يكون موضوعاً للنقد التاريخي كأي وثيقة تاريخية قديمة، إنما نحن بصدد مسألة محددة تصاغ في السؤال التالي: إلى أي حد يمكن قبول الرأي القائل بقدم الصهيونية على أساس قدم التوراة، أو بكلمة أخرى إلى أي حد يمكن الركون إلى اعتبار أن التوراة هي الصهيونية بالذات؟ إننا يجب أن نميز بين مسألتين — كما أشرنا سابقاً — مختلفتين:

الأولى: نشأة الصهيونية كظاهرة تاريخية حديثة وأساس الصهيونية الايديولوجي. وثانياً: إن خرافة قدم الصهيونية التي يشيعها عدد من المؤدجين الصهاينة ليست أكثر من سلاح موجه لحمل جميع اليهود للايمان بالحركة الصهيونية والاندرج في سياستها قبل كل شيء، وبعث الحمية الدينية في صفوف اليهود، ومن أشنع الأخطاء أن يردد بعض المفكرين العرب هذه الخرافة — عن حسن نية — بكلمة واحدة، ان البحث عن مبرر ايديولوجي للحركة الصهيونية ماكان يمكن إلا أن يعود إلى الماضي الميت من أجل بعثه، وهم على بينة إلى حد يمكن أن تلعب الفكرة الدينية بعواطف البشر، وما الدور الذي تقوم فيه وسط جماعات اليهود في ظروف أزمت متعددة.

إذاً، وقبل كل شيء، إن قدم الصهيونية حيث يبدأ تاريخها من ابراهيم والكتاب المقدس مستمراً إلى القرن التاسع عشر فكرة صهيونية بالأساس، كما رأينا مثلاً عند اتينغر، وهناك امثلة كثيرة على المحاولات التي أرادت ان تجعل من الفكرة الصهيونية تاريخاً موصولاً منذ أربعة آلاف عام وحتى الآن، وهذه الخرافة هي التي يجب ان تكون موضوعاً للنقد قبل كل شيء. لقد أشار يوري ايفانوف الى هذه النقطة حين قال: «من المهم جداً كشف الأسباب الحقيقية لاختراع ونشر الخرافة حول قدم الصهيونية، ومن الجلي أن تختفي وراء ادعاءات الصهاينة الساذجة، ظروف خطيرة جداً». (٣٢)

في منتصف القرن التاسع عشر، كتب الحاخام يهودا التالي يقول: «نحن كشعب يليق بنا أن نلقب باسرائيل، فقط إذا كنا في أرض اسرائيل» ويضيف: «أمنيتنا الكبرى دون شك هي لم شمل منفيينا من أطراف العالم الأربعة كي يصيروا كتلة واحدة. نحن اليوم واحسرتاه، مبعثرون ومنقسمون لأن كل جالية يهودية تتكلم لغة تختلف عن الأخرى ولكل منها عادات مختلفة. هذه الانقسامات عائق للخلاص» (٣٣).

ترى ما الذي سيوحد اليهود كلهم المنتشرون في أطراف الأرض الأربعة والذين يتكلمون لغات مختلفة ولهم عادات بعدد عادات الشعوب التي يقطنون بينها؟

من الطبيعي أن يبحث الصهيوني عن ايديولوجيا توحد جميع اليهود وهو لأنه لا يجد ما يوحد اليهود في الواقع فخفف ليوحدهم عن طريق دينهم، ودينهم تحول إلى كتاب ووصايا وتاريخ خاص.

إذا فالعودة إلى التوراة تحقق لهم عنصراً مقاوماً لكل عوامل الاندماج لاسيما أن عددا كبيرا من مثقفي اليهود كانوا تنويريين اندماجين بالأساس، بل إن أغلب الذين بدأوا تنويريين قد نكسوا نحو اليهودية مرة أخرى ونظروا لوحدة اليهود — المعذبين في الأرض — لأنهم يهود. ولا أدل على ذلك من أن أسماء كثيرة من دعاة الصهيونية لاحقاً بدأوا حياتهم علمانيين اندماجين كما قلنا، كموسى هيس وبيريتز سمولنسكين وموشيه لايب ليلينبلوم وهرتزل وماكس نوردو وآخرين. كان لابد من بعث جميع الأساطير لصياغة المفاهيم الايديولوجية للصهيونية، كالمنفى والخلاص والشعب المختار والعداء للسامية، وهكذا تحولت اليهودية من مجرد دين إلى أساس قومي وتحولت عناصرها إلى عناصر موحدة، وتحولت التوراة إلى منبع تاريخي.

والخطوة الأولى، إذا، هي مواجهة معارضة بعض اليهود أو الأفكار التي انتشرت بين اليهود وهي أفكار معارضة لما يسمى بعودة «الدولة اليهودية».

في وقت مبكر كتب بيريتز سمولنسكين يقول: «ليكن معلوماً بأنه يتوجب علينا إعلان الحرب ليس ضد حركة التنوير على العموم لأنها شيء حسن... إنما ضد نوع معين من التنوير، ولنعرف الآن هذه الحركة من التنوير كي لا نخلطها مع غيرها وذلك بذكر تعاليمها» (٣٤) ٨

ثم يعدد سمولنسكين عناصر التنوير اليهودي الذي يقف ضده ويحملها بما يلي: «تبني طرق الأعميين، تبديل كل شيء ورثة اليهود من الأجداد، الذوبان في المجتمعات الأخرى، التخلي عن أمل العودة، محو اللغة العبرية، إرضاء الأمم الأخرى» (٣٥).

ولأن هذا التنوير يعني الذوبان في المجتمع والذوبان في المجتمع يعني اعتناق دين آخر — كما يرى — فلا بد من العودة إذا إلى وصايا التنوير، بل إلى وصايا التوراة.

إن الصهيونية في إبرازها أهمية ودور التوراة في ايديولوجيتها، إنما أرادت أن تجد جواباً عن سؤال «الهوية القومية»، وهي ظاهرة شاذة في العصر الحديث — ظاهرة — ان يبحث جماعة من الناس عن هويتهم في كتاب مضى على تأليفه آلاف السنين، فاليهودي الصهيوني وجد نفسه في حالة لا تسمح له بالحديث عن شعب أو أمة يهودية استناداً إلى العناصر التي تكون الأمة أو الشعب، بل قل إن الفكر الاجتماعي — السياسي الذي حدد عناصر تكون الشعب أو الأمة يدحض وجود أمة يهودية.

ففي غياب العنصر الجغرافي — الأرض — الذي يجمع اليهود — وهم متوزعون على بلدان كثيرة — صاغوا علاقة دينية بين اليهود وبين أرض موعودة، أي في ظل غياب الأرض الواقعية بحثوا عن أرض وهمية، وهذه الأرض الوهمية إنما وجدت على لسان التوراة، وليس مصادفة أن عبر أحد الصهيونيين عن هذه الواقعة بما يلي: «الصلات بين الشعب اليهودي وأرض اسرائيل تكون واحدة من أغرب الظواهر في تاريخه الطويل، وهي ظاهرة قد لا تقع على نظير لها في تاريخ أي شعب من الشعوب» (٣٦).

وشيمون بيرس يؤكد فرادة طابع دولة اسرائيل، حيث هذه الدولة الوحيدة في العالم ذات الديانة الواحدة «وهي الدولة الوحيدة التي تمتاز لغتها الحية بكونها لغة مقدسة، هي اللغة العبرية، كما أنها الدولة الوحيدة التي يبعث نشوؤها استقلالاً سياسياً وقومياً كان موجوداً في المنطقة الجغرافية منذ حوالي الألفي عام... ولا شك في صحة ما أشار إليه «هينه» (*) من أن «التوراة هي الوطن الأم الثالثة للشعب اليهودي» وهناك وعي جديد يفرض نفسه، هو ضرورة الوصول إلى توازن أفضل بين التاريخ والجغرافيا» (٣٧).

إذا إن الانفصال القائم بين التاريخ وبين الأرض — وهو انفصال واقعي — لا يزول إلا بإقامة الترابط بين التاريخ وبين الأرض، الموجود في التوراة، في هذا لا يختلف «العلماني» الصهيوني عن الصهيوني «المتدين» ذلك أن كليهما محتاج إلى التوراة ليقدم تبريراً ما — توراتي — لعلاقة بين اليهود والأرض، لتستكمل عملية إيجاد حجة الأمة التي لا تقوم إلا على أرض محددة.

وليس هذا فحسب، وإنما التوراة، بما تنطوي عليه من خرافة النسب اليهودي تقدم أيضاً عنصراً جديداً يوحد ما لا يوحد، بمعنى أن توزع اليهود — وهو توزع قديم وأسبابه كثيرة — على دول العالم لا يمكن أن يكون متحداً مهما كانت درجة العلاقات القائمة بين يهود العالم، ولهذا فالبحث عن أصول سلالية لليهود استمرت حتى هذه اللحظة — وهو امر تدحضه ولا شك حتى الصفات الأثنية لليهود — لا يمكن أن يدلل عليه عن طريق علم السلالات أو بالأنثولوجيا أو الأثنوغرافيا، فلا يبقى إذا إلا اسطورة التسلل السلالي الموجودة في التوراة، وإشاعتها بين اليهود كي يتكون وعي بالإنتماء، أو الهوية القومية المفقودة.

فالصهيوني وهو يستعيد اسطورة تكونه السلالي كما ورد في التوراة يصوغ على نحو فج فرادة هذا «الشعب» اليهودي وفرادة تكونه التاريخي أيضاً. وها هو احد الصهيونيين المعاصرين يرسم اللوحة السلالية التالية للتدليل على: أولاً، ان اليهود هم صفوة الشعوب. ثانياً، ان هذه الصفوة ترتد الى التاريخ طالما التوراة تختصر تاريخ البشرية والعالم وليس اليهود فحسب.

« عنصر شعب اسرائيل افخر العناصر لانه تكون عن طريق انتقاء الافضل في كل جيل ، فآدم الاول الذي خلقه الرب بنفسه كان كاملاً في غاية الكمال ، وقد ولد لآدم ابناء كثيرون كان احسنهم شات وقد وقع عليه الخيار كي يستمر عنصر آدم الاول ، ويتكون منه شعب اسرائيل . وكان لشات ابناء كثيرون احسنهم انوش ، الذي اختير ليستمر العنصر ، وهكذا دواليك ... وقد كان لنوح ثلاثة ابناء واحسنهم سام ، ، وكان احسن ابناء سام ارفكشاد ، ، واحسن ابناء ارفكشاد كان سيلح ، وهكذا دواليك ... وقد كان لابراهيم ابناء وهما اسحق واسماعيل . وقد وقع الخيار على اسحق ، ابناء اسحق هم يعقوب وعيسو ، وكان يعقوب هو الافضل . وقد اختير ليواصل العنصر . وكان ابناء يعقوب كلهم اخيار ولم يكن من داع لانتخاب واحد منهم » (٣٨) . وهذا يعني ان ابناء يعقوب — وهم اليهود — نسلهم جميعهم اخيار ومختارون ويتمون الى أصل واحد متسلل حافظ على نقائه السلالي . اي كتاب يمكن له ان يساعد على تكوين هذا التصور الساذج للانتماء اليهودي الى سلالة نقية غير التوراة ؟!

وهكذا نرى ان التوراة هو الحقل الايديولوجي الذي قطعت منه الحركة الصهيونية اهم اخشابها لتبني اعمدتها الاساسية ، الحنين الى الارض الموعودة ، الخلاص النقاء العرقي ، الامة اليهودية . لم يستطع العربي ان يتجاهل هذا التصور الاسطوري لتاريخ اليهود وان كان الكثير ، كما سنرى ، قد عالج الصهيونية من حيث هي ظاهرة اوربية حديثة ذلك ان مواجهة الحق عن طريق اعادة رسم تاريخ آخر لليهود لا يعطي لليهود مثل هذا الحق . واذا كانت المسألة كلها تكمن في حق العرب الفلسطينيين في فلسطين ، فان الايديولوجيا الصهيونية قد فرضت نوعاً من الجدل بين حقين: كلامهما يستند الى التاريخ . صحيح ان التاريخ لا يقدم لليهود اي مستند اطلاقاً للحديث عن حق تاريخي ، لكن مجرد ان حوّل البعض من المفكرين العرب المسألة الى صراع بين حقين — وهم يدحضون حق اليهود المزعوم في فلسطين — قد نقلوا القضية الى مستوى اخر من المعالجة وكأن المسألة هنا مسألة من يملك حججاً تاريخية اقوى .

تأسيساً على ما سبق ذكره خفّ المفكرون العرب — حين تناولوا تاريخ اليهود وهم بصدد دحض ادعاءات الصهيونية التاريخية — لرسم صور اخرى لهذا التاريخ ، على الرغم من اتفاقهم جميعاً بان ليس لليهود في فلسطين اي حق تاريخي .

سأتناول نماذج معينة تبرز تنوع تناول تاريخ اليهود ، دون ان يعنى ذلك انها تستنفذ كل ما كتب حول الموضوع . فهنا امر آخر مختلف من النماذج التي يقدمها بعض الباحثين العرب لتاريخ اليهود، عبر الحديث عن تاريخ فلسطين، ما كتبه السيد ابراهيم المسلم في كتابه « لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود ». يبدأ تاريخ فلسطين منذ ٣٥٠٠ ق. م ، حين استوطنتها اول قبيلة وهي عربية سميت بالكنعانيين . وفي « زمن النبي ابراهيم عليه السلام كان الكلدانيون يحكمون في العراق والعموريون في الشام والكنعانيون في فلسطين والفينيقيون في صور ، وكانوا عرباً . وعندما جهر النبي ابراهيم عليه السلام بدعوته انكره قومه ... وكادوا له » (٣٩) . وكان ابراهيم يقيم في مدينة أور الكلدانية . « وخرج ابراهيم فاراً بدينه يسعى في الارض ليظهر هذا الدين وحطت القافلة رحلها في مدينة حاران واجتمع اليه الناس وامتلات خيامه بالقادمين من التجار والمرافقين والمستضعفين من مدينة حاران وزادت رغبتهم في الدخول بدين ابراهيم . وبدأ سكان حاران يجهرون بهذه الدعوة ، الامر الذي اغضب الدولة . ترك ابراهيم ارض حاران وسارت القافلة باتجاه نهر الفرات ، وتأهبوا للعبور » (٤٠) *.

« وتم العبور باذن الله — وسجل المؤرخون هذا ما بين عام ١٧٥٠ — ١٧٠٠ ق. م » ثم دخل حلب ومنها رحل الى دمشق ونشر دعوته . وانتصر على الكهنة وعباد الاوثان . ثم رحل الى فلسطين لنشر دعوته لكن الكنعانيين رفضوها « واستعانوا بسنان بن الاش بن عبيد من ابناء سام وهو ملك مصر آنذاك » فجهز ملك مصر جيشاً وهزم ابراهيم واسرت زوجته سارة وحملت مع « السبايا الى مصر » . ثم انطلق ابراهيم الى مصر « لفك اسر زوجته وافتدائها بالمال » اعاد ملك مصر لابراهيم زوجته سارة واهداه « هاجر ام المؤمنين » (٤١) وعاد ابراهيم الى بيت ايل ثم بدأ الترحال مرة اخرى وحط بالخليل . ثم تزوج ابراهيم من هاجر وولدت اسماعيل . واوحى الله الى ابراهيم بان يبني بيت « الله » ، فخرج هو وزوجته هاجر وابنه اسماعيل وحط في واد غير ذي زرع . وعاد ابراهيم الى الخليل وقد اكتمل اولاد اسماعيل اثني عشر وأولاد ابراهيم من سارة باثني عشر آخرين ومات ابراهيم ودفن في الخليل » (٤٢).

تزعّم ابراهيم القبائل العربية في الجزيرة . وانتشرت ذرية اسماعيل في الشام والحجاز . « وفي عهد النبي سليمان عليه السلام توطدت بينه وبين قبائل اسماعيل اواصر الصداقة .

* كل ما سيرد حول هذا النموذج هو تلخيص لما كتبه المؤلف ، وجميع الجمل التي بين قوسين هي نقل حرفي عن المؤلف

ذاته .

أما بنو اسرائيل ، فيرى المؤلف انه بعد وفاة « سيدنا ابراهيم عليه السلام وفناء قوم لوط ثم وفاة اسحق ، عاش يعقوب — عليه السلام — وابناؤه بين الكنعانيين واخذوا عنهم العبرية ، وبعد حدوث الرؤيا ليوسف عاش يوسف في مصر وخرج « سيدنا يعقوب للقاء يوسف وابنه بينامين واستوطنوا مصر . وبخروج يعقوب انتهى وجود ابناء اسرائيل في ارض كنعان . وبعد حرب فرعون مع العماليق الذي ايدهم اليهود وانتصاره عليهم ، سام فرعون بني اسرائيل الهوان « (٤٣)

« وظهر النبي موسى — عليه السلام — يجهر بدعوة ابراهيم عليه السلام » لكن بني اسرائيل بدأوا يكيّدون له لدى فرعون . وخرج موسى هارباً بدينه واستقر في ارض مدين وتزوج احدى بنات النبي شعيب عليه السلام ، وعاد موسى الى مصر ليتدبر خروج بني اسرائيل وخلصهم من الاسر فتاهوا اربعين عاماً في الصحراء . ثم « قاد الشعب اليهودي يوشع بن نون من أسباط موسى عام ١٢٢٠ ق. م » وعبر بهم نهر الاردن واحتل هذا القائد اريحا وقتل اهلها ودام حكمه سبعة وعشرون عاماً . وبدأ تاريخ اليهود من نسل يهوذا . « وقد بعث الله فيهم نبياً اسمه شمويل يبلغ رسالات ربه ، وينهاهم عن عبادة الاوثان » . ثم استجاب الله لنداء شمويل وبعث في اليهود ملكاً اسمه طالوت ، وفي الحرب بين طالوت وجالوت قائد الكنعانيين « لم يجرؤ طالوت على محاربة جالوت وجاء داود وتقدم صفوف المقاتلين وداود بايانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت ، وانتهى هذا الفصل من ضعف وهوان بني اسرائيل وهُزِمَ الكنعانيون فان ايمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار » (٤٤).

لكن طالوت بدأ يتآمر على داود ، وخرج داود طريداً وعاد الكنعانيون وهزموا بني اسرائيل . وقتل طالوت ونودي بداود ملكاً وبدأ التاريخ يسجل حكم بني اسرائيل في عام ١٠١٧ ق. م ثم جاء سليمان وحج الى بيت الله الحرام ، واتم بناء الهيكل . وانتهى حكم سليمان عام ٩٣٧ ق. م بعد حكم دام اربعين عاماً . وبعد موته قامت الفتن بين اليهود وقامت الحروب بينهم وقسموا مملكة اسرائيل الى دولتين : « مملكة اسرائيل وعاصمتها السامرة . ومملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم » (٤٥).

ثم « سلط الله عليهم بظلمهم » ... بعل « الثالث وغزا مملكة اسرائيل ويهوذا ودمر مملكة اسرائيل ولولا تدخل بني اسماعيل لاستطاع ان يدمر الدولة الثانية — مملكة يهوذا . واسترد الكنعانيون ارضهم واقاموا حكمهم وحضارتهم على ما تبقى من بلادهم . وحارب ابناء اسماعيل الملك الاشوري ونجحوا في دخول بابل واكرمهم البابليون . واعادوا سبايا بني اسرائيل . ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو ابناء عموماتهم ... ولكنهم لم ينجحوا . ولما رأى يختصر ملك بابل ما وقع من اليهود

لأبناء عموماتهم جهاز جيشاً وقضى على مملكة يهوذا. وتمّ له ذلك عام ٥٨٦ ق.م. وأحرق الهيكل ونفى اليهود. وهناك في المنفى « اشتد التعصب بين الاسرى اليهود وكتبوا التوراة بأيديهم ووصفوا ابراهيم بالكذب ولم يذكروا موسى في توراتهم وزعموا ان سليمان مات كافراً.... الخ وتوقف تاريخ اليهود.... وانتهى دورهم في التاريخ » (٤٦).

انه لمن الدلالة بمكان ان «يؤرخ» عربي معاصر لليهود بهذه الطريقة مستنداً في ذلك على الطبري. فالقارىء لتاريخ اليهود عند الطبري في كتابه « تاريخ الامم والملوك » يجد ان الرواية المعاصرة هي تقريباً متفقة مع رواية هذا المسلم الذي كتب كتابه ما بين ٢٩٠ — ٣٠٣ للهجرة. وهي رواية اسلامية ، ليس فيها اي تعصب ديني او قومي . بل علي العكس من ذلك فان المسلم يجد في اغلب الملوك اليهود المتعاقبين انبياء الله مستنداً الى رواية التوراة وما جاء في القرآن الكريم بشأنهم . وانقطاع تاريخ اليهود ، حادث يدحض الحق التاريخي الذي تدعيه الصهيونية . وواقعه انقطاع تاريخ اليهود عن فلسطين واقعة لا ينكرها احد حتى الصهيونيين انفسهم . ولكن العربي يرى ان هذا الانقطاع التاريخي عامل مهم جداً في تأكيد تاريخ جديد لفلسطين — هو التاريخ العربي — الاسلامي والذي يبدأ من فتح القدس حتى الان .

ولكن من اللافت للنظر ، ان المسلم وهو «يؤرخ» لليهود . او يروي الاحداث استناداً الى ماورد في القرآن الكريم يميز نوعين من الصراع وهو صراع ديني داخل اليهود انفسهم وصراع بين اليهود وغيرهم . انه صراع بين ابراهيم . ومن سار على ملته موسى وشمويل وداود وبين من انكروا دعوة ابراهيم ان الله يؤيد بنصره ملة ابراهيم على الاعداء . ولهذا نجد ان الكاتب الآنف الذكر حين يذكر الحرب بين الكنعانيين واليهود لا يرى غضاضة من تأييد اليهود ضد الكنعانيين . وهم سكان فلسطين الاصليين . فالله ايد داود ضد جالوت ، وتأييد الله داود انتصر على جالوت الكنعاني (الكافر) . ثم ان الله يسلط على اليهود ، مثلما فعل بسبب ظلمتهم ويدمر مملكة « اسرائيل » ولكن بني اسماعيل يتدخلون ويدافعون عن مملكة يهوذا ، ولكن مملكة يهوذا حاولت غزو أبناء عموماتهم النبط ، وهم عرب وينتقم بختنصر ويعاقب مملكة يهوذا ، ويأخذهم اسرى . وهناك يبدأ التاريخ الزائف لليهود . حيث يسكتون التوراة بأيديهم . محرفين اياه بالطبع .

ان ابراهيم وموسى وداود هو جزء — من وجهة نظر المسلم — من تاريخ الايمان الذي يمتد حتى بعثة الرسول العربي صلعم والله يؤيد المؤمنين ، وإذا بغوا يسلط عليهم الاعداء .

واله اليهود — يهوه — هو الآخر بيده الهزيمة وبيده النصر ، لكن اليهودي يبقى على اتصال مباشر لا ينقطع مع يهوه من جهة نظر اليهودي ، فهو لم يتركه حتى هذه اللحظة والصهيوني، يستند الى وعده بينما سيرورة الايمان تبدأ من ابراهيم وموسى وعيسى وتنتهي بالدعوة الاسلامية — لدى المسلم — يتوقف اليهودي عند ايمانه وينفيه عن الآخرين .

طبعاً نحن لسنا امام تاريخ يمت الى علم المتفق عليه وانما امام رواية تخضع لحقائق دينية مسبقة وهذا احد اشكال تناول التاريخ اليهودي من قبل العرب .

من الكتب التاريخية المهمة التي اصبحت مرجعاً لعدد كبير من الدارسين والباحثين العرب ، كتاب الدكتور احمد سوسة ، (العرب واليهود في التاريخ) ، وهو من النوع الذي يستجيب لاصول البحث التاريخي ، مهما كان هناك من آراء مخالفة له ، ونحن اصلاً لانعدم اطلاقاً وجود اختلافات بين المؤرخين حول الظواهر التاريخية الماضية . والكتاب — بميله الى الدقة — يضع هدفاً مباشراً وهو تأكيد عروبة فلسطين منذ خمسة آلاف سنة وليدحض الحق التاريخي لليهود في فلسطين .

وهذا السفر الذي يقع في ثمان مئة وثلاث وسبعين صفحة يبدأ بدراسة تاريخ فلسطين منذ الهجرات الاولى اليها ، الهجرة الكنعانية ودراسة الشعوب التي سكنتها مروراً بدراسة التوراة والديانة اليهودية وانتهاءً بدراسة الحركة الصهيونية . لاجال لعرض كتاب بهذا الحجم الكبير ، غير ان زبدة هذا الكتاب تتحدد في اعادة النظر في ما اعتبر حقائق توراتية وتقديم تاريخ حقيقي لفلسطين قائمة على دراسة الوثائق التاريخية والمقارنة بين اللغات . فالمؤلف ينطلق من تحديد مصطلحات العبرانيين ، الاسرائيليين ، الموسويين ، اليهود ليدلل على انها ليست « اربع تسميات لمسمى واحد ، وانما لكل منها مدول خاص » (٤٧)

فالعبري مصطلح كان « يطلق في نحو الالف الثانية قبل الميلاد وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام وعلى غيرهم من الاقوام العربية في المنطقة ، حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء او ابن البادية بوجه عام ولم يكن للاسرائيليين والموسويين واليهود اي وجود بعد . لذلك نعت ابراهيم الخليل بـ « العبراني » كما ورد في التوراة انها اريد به معنى العبريين « العبيرو » وهم القبائل البدوية العربية ، ومنها القبائل الآرامية التي ينتمي اليها ابراهيم الخليل نفسه » (٤٨).

اما مصطلح اسرائيل « فالمقصود به يعقوب حفيد ابراهيم الخليل وابناؤه هم بنو اسرائيل ... ودورهم محصور في منطقة « حاران » (حاران حاليا) ، حيث وطنهم الاصلي الذي ولدوا ونشأوا فيه . اما فلسطين فهي ارض غربتهم ، وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد . وهو نفس عهد ابراهيم الخليل ... وانتهى دور « اسرائيل » بعد ان هاجرت اسرة يعقوب الى مصر وانضمت الى يوسف كما يقول التوراة واندجت وذابت في البيئة المصرية » (٤٩).

اما الدور الموسوي فجاء بعد الدور الذي تداولت فيه تسمية اسرائيل بنزهاء ستمئة عام . والموسويون هم من الجنود الفارين على ارجح الاحتمالات وكان دين هؤلاء ودين موسى هو التوحيد الذي دعا اليه اخناتون . وقد هرب موسى واتباعه الى ارض كنعان هرباً من اضطهاد الوثنيين ، واسم موسى مصري بحت » (٥٠).
واخيرا اليهود « وهي التسمية التي اطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد » (٥١).

ويخلص الدكتور احمد سوسة الى ان اليهود لم يتركوا اي كيان سياسي يهودي خاص بهم في تاريخ فلسطين القديم ولكنهم تركوا ديانة مقتبسة من التراث الكنعاني البابلي الآرامي ، وأن عهد ملوكهم هو عهد كنعاني ان كيانهم قائم على الدين والدين عرضة للتغيير على خلاف القومية بما هي عليه من ثبات . وبالتالي فان كيان اسرائيل كان قائماً على الاغتصاب والاعتداء على شعب آمن له قوميته وثقافته في فلسطين منذ خمسة آلاف عام . النتيجة ان ارض فلسطين هي ارض الشعب العربي » (٥٢).

ان سربقاء اليهودية واستمرارها طوال هذا الزمن هو انها دين ، وكما زالت الدولة الصليبية في الشرق وبقيت المسيحية ستزول اسرائيل بوضعها الشاذ الحالي » (٥٣)
النموذج الثالث الذي تقدمه في رصد تاريخ فلسطين هو كتاب الاستاذ يوسف اليوسف « تاريخ فلسطين عبر العصور » . يتتبع المؤلف الى نقطة جذيرة بالاهتمام الا وهي ان « معظم ما كتب عن تاريخ فلسطين هذه الايام قد حتمته الظروف السائدة في القرن العشرين . وهكذا انصبحت الابحاث بالدرجة الاولى على مناقشة التوراة وعلى دراسة التاريخ اثناء « العصور التوراتية ، مع ان تاريخ فلسطين او سواها ينبغي ان يدرس كاستجابة لنزعة العقل البشري الرامية الى معرفة الحقيقة في ذاتها ولذاتها ، وبغض النظر عن نتائجها السياسية ... » ويضيف : « ان تاريخ فلسطين اذا درس انطلاقاً من الرغبة في الحق فانه لن يكون الا في صالح الفلسطينيين من تلقاء ذاته او وفقاً لطبيعته الموضوعية » (٥٤).

اذا، ان مطلب الدقة والنزاهة والموضوعية لا يتناقض والحق الوطني ، لاسيما ان وجود دولتين « اسرائيل » و « يهوذا » او عدم وجودهما في فلسطين ، او تأسيسهما من قبل « العبرانيين » ليس من شأنه كما يقول يوسف اليوسف ان يكون اساساً منطقياً كافياً لقيام دولة يهودية في فلسطين (يقصد الان أ.ب.) وان انقطاع الوجود اليهودي في بلادنا طوال ثمانية عشر قرناً على وجه التقريب هو اساس الحجة التي تحرم اليهود من الحق في انشاء دولة لهم على اي شبر من تراب فلسطين » (٥٥).

النقطة التي يدحضها المؤرخون العرب اجمالاً هي هذه بالذات اي الى حد يسمح تاريخ فلسطين بتبرير الوجود الراهن للدولة اليهودية — الصهيونية في فلسطين . رأينا عند أحمد سوسة نفي الوجود اليهودي في فلسطين والنظر اليهم كغرباء، اي ان فلسطين في كل تاريخها الطويل لم تكن الا موطن غربة لليهود . وهذا بدوره نفي لدعوى الصهيونية المعاصرة .

ما يميز كتاب « تاريخ فلسطين عبر العصور » هو الدراسة النقدية للتوراة ونفي ان تكون مرجعاً صالحاً لدراسة تاريخ فلسطين وتاريخ اليهود بالذات . فتحويل التوراة الى وثيقة، ثم القيام بعملية نقد لهذه الوثيقة ، نقد يستند الى جملة الاكتشافات الاثرية التي اصبحت في متناول الجميع ، وهي اكتشافات تسمح باعادة رسم صورة جديدة لتاريخ المنطقة، غير الصورة التي رسمها عدد كبير من الغربيين والعرب انطلاقاً من الاقرار بصحة ما جاء في التوراة .

من الأمثلة على ذلك، ما يورده المؤلف من تناقضات التوراة، وهي فعلاً تناقضات لا تسمح لأي مؤرخ أوفى خطأ من الدقة والنزاهة والموضوعية والمخيلة التاريخية ان يقر بما جاء فيه من حوادث . مثال؛ إبادة بني اسرائيل لشعب مديان الذي جاء في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر العدو، حيث تمت الإبادة في عصر موسى، ولكن الإصحاح السادس والإصحاح الثامن من سفر القضاة يتحدث عن حروب طويلة بين اسرائيل وشعب مديان بعد موت موسى ص ٦٣ .

يسأل مؤلف « تاريخ فلسطين عبر العصور » السؤال التالي: « اسرائيل عبرانية أم كنعانية؟ » (٥٦). يجيب المؤلف إنها، لاريب دولة كنعانية لجملة اسباب : فاسم اسرائيل هو كنعاني وهذا ما يجمع عليه كثير من المؤرخين، وهو المؤلف من كلمتين « اسر » و « ايل » وأيا كان معنى « اسر » فإن إيل هو الاله الأعلى عد الكنعانيين، وحقيقة وجود اقليمين في الكتلة الجبلية الواقعة إلى الجنوب من مرج بني عامر، احدهما يسمى اسرائيل وهو الشمالي، وثانيهما يدعى يهوذا وهو الجنوبي، لا يستخلصها المرء من التوراة وحدها، بل من الوثائق الآشورية والبابلية قبل كل شيء » (٥٧).

وإن إسرائيل المذكورة في التوراة أو في الوثائق الآشورية: «لم تستطع جهود المنقبين جميعها أن تكشف فيها أي أثر غير كنعاني على الإطلاق مما لا يدع مجالاً للشك في أنها لم تكن إلا مجتمعاً كنعانياً» (٥٨).

إذا «حين أطلق الصهاينة اسم «إسرائيل» على دولتهم الراهنة، إنما سرقوا الاسم من الكنعانيين، أي أصحاب البلاد الشرعيين» (٦٠).

ثم يسأل يوسف سامي اليوسف سؤالاً آخر: هل كان يهوه كنعانياً هو الآخر؟ يجب اليوسف قائلاً: «إن التنقيبات قد اكتشفت ثلاثة ألواح بابلية ترقى إلى القرن الثامن عشر ق.م وقد نقش اسم يهوه على كل منها، مما لا يدع مجالاً للريب في أن يهوه، أو الدائم، إله يعبد في الهلال الخصيب منذ زمن لاندريه» (٦١).

الأهم من ذلك أن يوسف اليوسف يرى، أنه لا يمكن الثقة بما تروييه التوراة عن كل ما هو سابق للقرن التاسع ق.م. وهو يرى أنه «ليس لدينا أية وثيقة تاريخية تؤكد الوجود الفعلي لأي شخصية من الشخصيات الكبرى التي تعيش في الملحمة التوراتية: إبراهيم، اسحق، يعقوب، يوسف، موسى، يشوع بن نون، شاول، داود، سليمان، فكيف يمكن للعقل السليم أن يثق بما تسرده التوراة؟ لا سيما أن الأحداث السابقة على القرن التاسع قبل الميلاد قد جرت قبل عصر الكتابة» (٦٢).

والحقيقة أن الشك بالوجود الفعلي لشخصيات كإبراهيم واسحق ويعقوب... الخ، شك له ما برره، وهو إن تأسس على جملة وقائع تاريخية فإنه ولا شك، سيغير كثيراً من الأفكار والآراء التي تكونت لا حول تاريخ المنطقة العربية وتاريخ اليهود القديم فحسب، بل وتاريخ أفكار التوحيد ونشأة الدين التوحيدي.

واقع الحال، مهما كان التاريخ — تاريخ منطقة الشرق — ينطوي على جماعة من الناس سمها ماشئت عبرية، اسرائيلية، يهوداوية، بنت علاقاتها مع الجماعات الأخرى عدائية أم سلمية، فإن الاستناد إلى وقائع تمت إلى مرحلة ما قبل الميلاد لا يعني أبداً أن هذه الجماعة قادرة أن تكون سنداً تاريخياً لما نسميه اليوم — اليهود — بأن يستولوا بالقوة أم بطرق أخرى كالهجرة وما شابه ذلك على أرض يسكنها شعب تورات هذه الأرض بشكل مستمر مئات السنين.

فكيف إذا دلت الأبحاث التاريخية العلمية والوثائق التي بين أيدينا على بطلان الزعم بالحق التاريخي.

وإذا أجبر المؤرخ العربي على دخول معركة الجدل حول التاريخ، فهذا لأن الخصم المعاصر هو الذي جر العرب إلى هذه المعركة السجالية حول التاريخ، ليتجنب القناعة أن هناك مشكلة ليست هي ولادة مرحلة الاستعمار في القرن التاسع عشر، بل هي ولادة تاريخ طويل من الصراع، مع أن التاريخ لا يسجل أي صراع ذا قيمة بين العرب وبين

الجماعات المختلفة التي تدين باليهودية، فكما رأينا، استناداً إلى النماذج الثلاثة التي جئنا على ذكرها، فإن أي نموذج منها لا يتحدث عن اليهود إلا في مرحلة سابقة عن ميلاد المسيح، ومنذ تلك المرحلة حتى هذه اللحظة جرت تطورات تاريخية واجتماعية وقومية وأخلاقية، غيرت الطابع القديم للتاريخ بصورة كيفية جداً.

ولو أن المسألة تترد إلى حق جماعة تاريخي في فلسطين لتحدثنا عن حق أهل كريت المعاصرة كوارثين لجماعة الفلسطينيين، وعن حق الفرس وحق اليونانيين... الخ، بل ولأصبحت مصر المعاصرة وسورية والعراق عرض لجدل تاريخي بين العرب وغيرهم من الأمم المعاصرة التي ترى نفسها امتداداً لأقوام غارقة في القدم.

لقد احتفل مرة شاه ايران المخلوع بعيد تأسيس الامبراطورية الفارسية، وكان كورش الفارسي قد احتل في اواسط القرن السادس قبل الميلاد الأناضول والعراق والشام جميعها ومصر، فلماذا يكون حق اليهودي الأوروبي المعاصر في فلسطين أكثر من حق الفارسي المعاصر فيها، ألا يحق لليوناني المعاصر، إذا اعتبر نفسه سليل الاسكندر المقدوني، أن يحاجج اليهودي المعاصر بأن حقه في فلسطين هو الآخر مؤسس على وجود استمر مايقرب من ٣٣٢ ق.م إلى ٦٤ ق.م.

إن المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج (الوطن العربي الآن) قد أخذت طابعها العربي — الاسلامي الخالص منذ أكثر من ألف عام، رغم أنها خضعت خلال هذه الفترة لعدد كبير من الحكام غير العرب، واستعمرها الأوروبيون (وكان قد دخلها الصليبيون وداموا فيها مايقرب من مئتي عام). وهناك أقليات قومية احتفظت بعدد كبير من سماتها الثقافية، لاسيما تلك الأقليات التي احتفظت بوجودها التاريخي حتى الآن، كالبربر والأكراد، وهم جزء من سكان المنطقة الأصليين.

مايهمنا إبرازه هنا، ان عملية تدوين التاريخ، تاريخ المنطقة بعامة منذ آلاف السنين يجب أن لا تخضع لها جس يفرضه الاستعمار الصهيوني للمنطقة، بل يجب ان تبقى صعيداً يتناول بكل نزاهة ودقة، وهذا ماتفتقده أصلاً الايديولوجيا الصهيونية التي تسعى لرسم صورة لتاريخ المنطقة استناداً إلى رغبة ايديولوجية زائفة وتشكيل صورة للتاريخ لا توجد إلا في ذهن منشئها.

وبعد تطور علم التاريخ ووسائل ومناهج بحثه وتوافر أعداد هائلة من الوثائق والقدرة على فك رموز لغة الشعوب القديمة، لم يعد مقبولاً الاستناد إلى..... التاريخ البشري، إلى تاريخ جماعة تقاتل و..... تنتصر وتنهزم استناداً إلى رضا و غضب الإله الذي يحدد هو بالذات الوقائع والسيرورة التاريخية.

إن علم التاريخ وإن بدا علماً، هو أكثر العلوم تأثراً بالمواقف الايديولوجية المشبعة والأهواء والرغبات، لكنه محكوم على الأقل بجملة من الوقائع التي يختلف على فهمها وتفسيرها.

أما اختراع وقائع واحداث فهذا يبعدنا عن مجال علم التاريخ ويضعنا امام الأساطير التي لم تعد وعياً مطابقاً لمرحلتنا التي نعيش، وهذا هو حال علاقة الصهيونية بالتاريخ، أي أن الصهيونية هي مع كل ما يقال عن اختلاف داخلها بين المتدينين والعلمانيين، فإنها فيما يتعلق بالوعي التاريخي ليست إلا إعادة انتاج الأساطير مرة أخرى والتعامل معها كواقائع غير قابلة للدحض.

وإذا كان مجال الاختلاف في التاريخ هو الفهم والتفسير، فليس هناك ما هو موضوع خلاف مع الصهيونية، لأن الخلاف لا يقوم على فهم وتفسير التاريخ، بل نحن أمام تناقض مطلق بين الوعي الأسطوري الصهيوني، والوعي التاريخي العلمي، وإذا ما خف أحد من العرب لإعادة انتاج تاريخ المنطقة استناداً إلى التسلسل الأسطوري التوراتي بحجة تطابقه مع الشائع من التاريخ، فإنه في هذه الحالة لن يقدم خطاباً مختلفاً من حيث الطبيعة عن خطاب الصهيونية...

إن مجال التاريخ، هو مجال فعل الإرادة البشرية في شروط جغرافية وسياسية وثقافية واقتصادية معينة، وهذا ما ينفي تدخل أي قوى غيبية عن التاريخ، كما ينفي عنه أية غايات غير بشرية.

أما حال الصهيوني مع التاريخ فهو على العكس تماماً، إن التاريخ لديه هو تاريخ تدخل الإله (يهوه) كقوة فوق التاريخ تسيره، عندها يغدو تاريخ الشرق العربي تاريخ صراع بين (يهوه) إله اليهود وبين شعوب المنطقة، أو بين اليهود الذين يدعمهم يهوه بوعده الإلهي وبين العرب الذين يعاندون إرادة الإله الذي لا ينفك يطلق التهديدات والوعود وإعلان الحرب الخ، عندها تغدو إرادة اليهود تحقيقاً لإرادة يهوه.

في النموذج الأول من الخطاب التاريخي الذي يقدمه إبراهيم المسلم، سنجد كل مكونات الخطاب التاريخي الإسطوري. لكنه خطاب شائع، يجد قبولا لدى الكثيرين. صحيح أنه ينتهي بتأكيد عروبة فلسطين في النهاية، لكنه خطاب يؤسس على نفس المرتكزات التوراتية المعروفة تقريباً مع بعض التغيير والمقارنة التالية شاهد على ذلك.

إبراهيم مسلم

١- خرج إبراهيم فاراً بدينه... تاركاً أرضه... في أور الكلدانية وحطت القافلة في

حاران ص ١٧

٢- ترك إبراهيم أرض حاران.. سارت القافلة باتجاه نهر الفرات وتأهبوا للعبور وتم العبور بإذن الله... دخل حلب ثم رحل منها إلى دمشق ثم رحل إلى فلسطين... وحطت قافلته في بيت أيل حيث اختار أحد المرتفعات من الجبال وأقام خيامه في الجهة الشرقية. ص ١٨

٣- جهز ملك مصر جيشاً دخل فلسطين وقاتل ابراهيم وقومه، وانتهت الحرب في غير صالح ابراهيم وأسرت زوجته سارة... إن الله يأمره بالسفر إلى مصر. ص ١٩
٤- وأخيراً حطت القافلة من مصر في بيت أيل. ص ٢٠
٥- وبينما هو في سجوده سمع هاتفاً من السماء يقول له:
«يا ابراهيم ارفع عينيك إلى السماء وانظر إلى مشارق الأرض ومغاربها لسوف يعطيك الله هذه الأرض ويورثها لذريتك وسيجعل الله في ذريتك النبوة والكتاب» ص ٢١
التوراة

١- وأخذ شارح ابرام ابنه ولوطا بن هاران... فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك (التكوين ١١-١٢)
٢- وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان (ابراهيم ولوط وساراي) واجتاز ابرام في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة... ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي بيت ايل ونصب خيمته التكوين ١٢-١٣

٣- فحدث جوع في الأرض فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك، فحدث لما دخل ابرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة... فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. (التكوين ١٢-١٣)

٤- فصعد ابرام من مصر... وسار في رحلاته من الجنوب إلى بيت أيل. (التكوين ١٢-١٣)

٥- وقال الرب لابرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي انت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي انت ترى لك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد. (التكوين ١٣-١٤)

حتى قصة انتصار داود على جالوت الكنعاني - الفلسطيني الأسطورية التي وردت في التوراة ينقلها السيد مسلم بطريقته الخاصة مع الاحتفاظ بجوهر الاسطورة.
جاء في التوراة: «واصطف اسرائيل والفلسطينيون صفاً مقابل صفاً. فترك داود الأمتعة التي معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة أخوته، وفيما هو يكلمهم إذ برجل مبارز اسمه جليات دجالوت، الفلسطيني من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين... وجميع رجال اسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً... فقال شاوول لداود لا تستطيع ان تذهب إلى هذا الفلسطيني لتحاربه لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه... وكان لما قام الفلسطيني وذهب وتقدم للقاء داود أن داود أسرع وركض نحو الصف الفلسطيني... فتمكن داود من الفلسطيني بالمقلاع والحجر وضرب الفلسطيني وقتله، ولم يكن سيف بيد داود، فركض داود ووقف مع الفلسطيني وأخذ سيفه واخرجه من غمده وقتله وقطع به رأسه» (٦٢).

ويقول مسلم «والتقى الجمعان، ودخل الخوف إلى قلب طالوت فلم يجرؤ على مبارزة جالوت قائد الكنعانيين... وكان داود عليه السلام يرعى غنمه، ولم يشترك مع القوم في هذه الحرب، فلما سمع بها حدث من قومه وخور عزيمتهم، فغضب لله وتقدم صفوف المقاتلين ليعلن أنه هو الذي سيبارز جالوت، وللمرة الثانية بدأ القوم يشككون في مقدرة داود على المبارزة، لكن داود بإيمانه بالله وعزيمته الصادقة تقدم وقتل داود جالوت، وانتهى هذا الفصل من ضعف هوان بني إسرائيل، وهُزِمَ الكنعانيون، فإن إيمان داود بنصر الله هو الذي دفعه لقتال هذا الجبار» (٦٣).

طبعاً بعد ذلك يستمر عرض تاريخ اليهود من السبي حتى الاحتلال اليوناني ثم الروماني ثم الفتح الإسلامي وسيادة العرب، الذي يدحض أي حق لليهود في فلسطين. والوعد الذي قطعه الله لابراهيم بأن يعطيه الأرض ويورثها لذريته، يتحول عند السيد مسلم إلى وعد لابراهيم قبل أن يرزق بذريته، «وإن كان الوعد لولد دون الآخر فإن اسماعيل عليه السلام هو أول أولاد ابراهيم، وحينما انتشر أولاد ابراهيم في الأرض وتفرقوا كان أبناء اسماعيل أكثر حظاً في امتلاك الأرض ومحافظةهم على وصية ابيهم ابراهيم عليه السلام» (٦٤) وبما ان اسماعيل هو جد العرب، فالعرب أحق من أبناء اسحق بأن يرثوا الأرض.

من السهولة أن تقبض على الأسباب التي تقف وراء نموذج كهذا من الوعي او التفكير.

فأغلب العرب، مسلمين كانوا أو مسيحيين وجميع المسلمين يعترفون بالديانة اليهودية كدين سماوي ويقرّون بأن التوراة كتاب الله، مع الإقرار بأنه قد حُرّف في مرحلة تاريخية معينة، وينظرون إلى أنبياء اليهود بوصفهم أنبياء الله، وتبدأ أصلاً سلسلة الأنبياء من آدم وشيت ونوح وأدريس وابراهيم مروراً بأنبياء اليهود وعيسى وانتهاءً بالرسول العربي الكريم محمد، وكتب التراث العربي الاسلامي تجمع على هذا الأمر، وتكفي العودة لتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وقصص الأنبياء للنيسابوري وغيرها للتأكد من ذلك، استناداً إلى القرآن الكريم.

إن شخصية ابراهيم الخليل وهي شخصية مركزية في تاريخ العرب واليهود من وجهة نظر دينية، عامل توحيد، فابناه اسماعيل واسحق اصل التنوع في الذرية، لكنها يرتدان في النهاية الى ابراهيم أبي الأنبياء والصلة بين الاسلام وبين الابراهيمية صلة وثيقة — كما يرى مثلاً سعد زغلول عبد الحميد — «وتوثيق الصلة بين الاسلام والابراهيمية عن طريق اسماعيل أي العرب المستعربة، كما يصبح ابراهيم أبا للعرب الباقية من العاربة أيضاً عن طريق زوجة اسماعيل الجرهمية، وعن طريق هاجر ام اسماعيل يصبح المصريون أخوالاً للعرب».

لكن الصلة الأهم في النهاية، تلك التي تربط بين سكان المنطقة برابط الديانة التوحيدية، من وجهة نظر المسلم، التي تبدأ من ابراهيم مروراً بموسى وعيسى وانتهاءً بمحمد (ص) هذه الصلة ذات الطابع الانساني لا تترك مجالاً لأي تعصب قومي على العكس من الصهيوني المعاصر، الذي يرى في العالم أجمع عدوا لليهودية او اليهودي، بعد أن حول اليهودية من دين إلى قومية، وبالتالي حول اسحق ويعقوب «اسرائيل» إلى نبع عرق خاص يحمل من الصفات المتفوقة ما لا يحمله اي عرق آخر، ويمتلك من الوعود الالهية الخاصة ما لا يقض لشعب ان يمتلك، وهذا ما يفسر لنا لماذا مازال المسلم يبشر بإسلامه ويفرح عندما يعتنق انسان ما في افريقية أو آسية أو أوروبا الاسلام، ولماذا مازال المسيحي يبشر بمسيحيته، وقد اعتنقت شعوب المسيحية في وقت متأخر من القرن التاسع عشر في افريقيا، اما اليهودي فإنه قد انقطع عن التبشير باليهودية بوصفها دين فئة محددة من الناس وامتيازاً لا يحق لأحد ان يناله، مع ان اليهودية لم تستمر إلا بوصفها ديناً، وقد دلت التجربة التاريخية ان الوعي الديني، أو الاعتناق الديني اكثر قدرة على الحياة من أية أفكار أخرى.

إن العربي المسلم أو المسيحي وهو ينظر إلى اليهودية كدين فإنه عملياً لا يناصر اليهود أي عداء بسبب أن ديانتيه، بالأصل تعترفان بسماوية الدين اليهودي ولا يجد حرجاً من القول إن بعض من يدينون بالدين اليهودي هم من أصل عربي. عندها يشترك اليهودي العربي مع أبناء جنسه من المسلمين والمسيحيين بالانتماء القومي.

والمؤرخ العربي وهو يضع نصب عينيه دحض الدعاوى الصهيونية فإنه لن ينجو شاء أم أبى من الموقف المتعاطف الذي قد يفسد الحياء المطلوب في دراسة التاريخ، وعندي أن الخطأ الذي يمكن أن يرتكب في هذه الحالة هو الانطلاق مسبقاً من أن مجرد وجود اليهود في مرحلة تاريخية غارقة في القدم، في بعض مناطق فلسطين، يعطي مبرراً للحركة الصهيونية ان تنجب القناعة لدى الآخرين — ولا سيما الأوروبيين — بأن لهم حقاً في فلسطين، وهو لهذا يريد ان ينفي اي وجود لشيء اسمه اليهود أو اليهودية في فلسطين، مع أن المسألة لا ترد أبداً إلى أن اليهود عاشوا في مراحل ما قبل الميلاد في أجزاء من فلسطين أولاً.

فوجود اليهود في أجزاء كثيرة من العالم ظاهرة تاريخية لها أسبابها، وهم الآن يعيشون في مناطق منذ فترة زمنية أطول بكثير من الفترة التي يدعون أنهم عاشوها في فلسطين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لنفترض ان اليهود قوم من الأقوام السامية التي عاشت في فلسطين فترة من الزمن، فمن ذا القادر الآن على التدليل أن اليهودي الروسي أو الألماني أو الفرنسي أو الزنجي أو الحبشي هو استمرار لهؤلاء اليهود الذين عاشوا في فلسطين في فترة الحضور الكنعاني؟

لأحد باستطاعته ان ينفي حق المؤرخ في التنقيب في الماضي، فهم التاريخ يقوم على دراسة الواقعة الانسانية التي مضت، والتاريخ شأنه شأن العلوم الانسانية والأخرى يعاني من مشكلة الموضوعية والدقة وعرضة للأهداف الايديولوجية . ولكن لم يشهد التاريخ صراعاً إلى حد يقرر فيه هذا الصراع على الحقائق التاريخية مصير الحاضر .

فالمؤرخون قد يختلفون مثلاً من أيها أكثر أهمية في تاريخ مصر فرعون أم عبيده... من ذا الذي كتب هذه الوثيقة س أو ص.. حدثت هذه الواقعة أم لم تحدث، هل وجود ابراهيم حقيقة أم لا.. الخ أما أن يجري نقاش حول من هو أحق الآن في العيش فلسطين، الشعب العربي الفلسطيني أم اليهودي — الصهيوني الأوروبي الاستعماري، فهذا لغو فارغ لأن عروبة فلسطين حقيقة اسطع من وأقوى من كل أساطير التوراة ومعجزات أنبيائها.

المشكلة هي التالية ولا شيء يثيرها أبداً هناك حركة استعمارية صهيونية — يهودية أوروبية، نجحت — في مرحلة الاستعمار الأوروبي إلى المنطقة — في احتلال بلد عربي كل سكانه الأصليين عرب بالمعنى الدقيق للكلمة، وطردت وشردت شعبه وأقامت دولة غربية الوجه واليد واللسان في قلب المشرق العربي، وما زال وجودها مرتبطاً بالدول الاستعمارية القديمة والحديثة ولم يمر من هذه المشكلة حتى الآن أكثر من أربعين عاماً.

حق الشعب العربي الفلسطيني وحق العرب يقوم على زوال هذه الدولة كبقية من بقايا الاستعمار الأوروبي في المنطقة. هذه هي الحقيقة الساطعة التي يخفيها العجز العربي والتخلف العربي والتبعية العربية والحضور الاستعماري الجديد في المنطقة.

كيف السبيل إلى إزالة الاستعمار الصهيوني — اليهودي؟ هذا هو السؤال الذي يتطلب اجابة عملية ونظرية وكل ما عدا ذلك يعني الدخول في جدل سفسطائي، والدوران حول المشكلة.

الهوامش:

- ١— جورجى كنعان، وثيقة اليهودية في العهد القديم دمشق ١٩٧٧ ص ٧
- ٢— جورجى كنعان مصدر سابق، ص ٢١
- ٣— جورجى كنعان، مصدر سابق، ص ٢١
- ٤— جورجى كنعان، مصدر سابق، ص ٢٢
- ٥— جورجى كنعان، مصدر سابق، ص ١٠١
- ٦— هانىء الهندي، محسن ابراهيم «اسرائيل» فكرة... حركة... دولة، دمشق، ١٩٥٨، ص ٣٠.
- ٧— هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٣٠
- ٨— هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٣١
- ٩— هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٩٤
- ١٠— هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ٩٤
- ١١— هانىء الهندي، محسن ابراهيم، مصدر سابق، ص ١٠٦—١٠٧
- ١٢— س. ناجي، المفسدون في الأرض، دمشق ١٩٧٣، ط ٢، ص ١١٠
- ١٣— من الفكر الصهيوني المعاصر، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٣.
- ١٤— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٦—٣٧
- ١٥— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٩
- ١٦— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٠
- ١٧— من الفكر الصهيوني المعاصر ص ٤١
- ١٨— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤١
- ١٩— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤١
- ٢٠— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٢
- ٢١— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٣
- ٢٢— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٤٥—٤٦—٤٧—٤٨—٤٩
- ٢٣— د. رشاد عبد الله الشامي، الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٠٢ الكويت، حزيران ١٩٨٦، ص ٢٨
- ٢٤— رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص ٢٨—٢٩
- ٢٥— رشاد عبد الله الشامي، مصدر سابق، ص ٢٩
- ٢٦— جورجى كنعان، العنصرية اليهودية، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٩
- ٢٧— جورجى كنعان، المصدر السابق، ص ٣٥

- ٢٨— ندره اليازجي، رد على التوراة، ص ١٥٣-١٥٥
- ٢٩— ندره اليازجي، مصدر سابق، ص ١٧٥-١٧٦
- ٣٠— ندره اليازجي، مصدر سابق، ص ١٨٨
- ٣١— ندره اليازجي، مصدر سابق، ص ١٩٦
- ٣٢— يوري ايفانوف، احذروا الصهيونية، موسكو ١٩٦٨، ص ١٢
- ٣٣— الفكرة الصهيونية، النصوص الأساسية بيروت ١٩٧٠، ص ١٠-١١
- ٣٤— الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص ٥٥
- ٣٥— الفكرة الصهيونية، مصدر سابق، ص ٥٦
- ٣٦— من الفكر الصهيوني المعاصر، ص ٣٣
- ٣٧— ١٤ شيمون بيرس، يوم قريب ويوم بعيد (من الفكر الصهيوني المعاصر) ص ١٣٧
- ٣٨— شرجا غافني، السلام الاسرائيلي من كتاب «الصهيونية فكراً وهدفاً وممارسةً و منشورات الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٥، ص ١٧٦
- ٣٩— ابراهيم المسلم، لمحات من القضية الفلسطينية ودور الملك عبد العزيز آل سعود، الرياض ١٩٨٥، ص ١٦
- ٤٠— لمحات من القضية الفلسطينية ص ١٧-١٨
- ٤١— لمحات من القضية الفلسطينية، ص ١٩-١٠
- ٤٢— لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٢٣
- ٤٣— لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٢٧-٢٨
- ٤٤— لمحات من القضية الفلسطينية ص ٣٠
- ٤٥— لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٣١
- ٤٦— لمحات من القضية الفلسطينية، ص ٣٢
- ٤٧— انظر الدكتور احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، بلا تاريخ، الطبعة السادسة. ص ٤٦
- ٤٨— احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٤
- ٤٩— احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٥-٦٦
- ٥٠— احمد سوسة المصدر السابق، ص ٦٦-٦٧
- ٥١— احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦٧
- ٥٢— احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٥٩١
- ٥٣— احمد سوسة، المصدر السابق، ص ٦١٥
- ٥٤— يوسف سامي اليوسف، تاريخ فلسطين عبر العصور، دمشق ١٩٨٨، ص ٦٥

- ٥٥— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٩٨
- ٥٦— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥٠
- ٥٧— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥١
- ٥٨— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥١
- ٥٩— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥٣
- ٦٠— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٥٦
- ٦١— يوسف سامي اليوسف، المصدر السابق، ص ٦١-٦٢
- ٦٢— الكتاب المقدس، ٤٥٥-٤٥٧
- ٦٣— ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠
- ٦٤— ابراهيم المسلم، المصدر السابق، ص ٣٦.

قراءة في كتاب

قراءة في كتاب

جغرافية باطلة وتاريخ صحيح؟!

● محمد محفل

رئيس التحرير

في سلسلة الكتب السائرة في ركاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» (١)، للدكتور كمال صليبي، الصادر منذ عشر سنوات تقريباً، راجعنا كتاب (جغرافية التوراة «مصر وبنو اسرائيل في عسير») الصادر عن دار (رياض الرئيس للكتب والنشر، لندن، كانون الثاني ١٩٩٤) للاستاذ زياد منى. ولم نكد ننهي مراجعته، لنفاجأ بكتاب آخر بعنوان «التوراة العربية وأورشليم اليمينية»، للاستاذ، فرج الله صالح ديب. الصادر في بيروت، كانون الثاني ١٩٩٤، عن دار نوفل.

ولا يختلف هذان الكتابان الاخيران بموضوعهما، عما سبقهما إليه كمال صليبي، سوى بوقوع الكاتبين في أخطاء منهجية وجغرافية وتاريخية، اجتنبها الدكتور كمال صليبي، وكأننا أمام معيدين يكررون درس أستاذهم، دون أن يرقوا إلى مستواه. نتناول في دراستنا هذه، لكتاب «جغرافية التوراة (مصر وبنو اسرائيل في عسير)» مسألتين:

الاولى: في المنهج.

الثانية: الوثائق والشواهد التاريخية والآثار المتعلقة بالشرق العربي القديم (*) (لا سيما فلسطين) وتوافقها أو مخالفتها نظرية كمال صليبي وأشياعه وفي عدادهم زياد منى، صاحب كتاب (جغرافية التوراة «مصر وبنو اسرائيل في عسير»).

(*) لانجد هذا المصطلح الجغرافي / التاريخي في الوثائق العتيقة، بل اشاعه الكتاب العرب المسلمون القدماء للإشارة إلى العراق وبلاد الشام ومصر، في حين قالوا (المغرب مشيرين بذلك إلى شمال أفريقية والاندلس (م.م)

أولاً: في المنهج:

١ — يقول زياد مني: «يتناول الموضوع الرئيسي لهذا العمل بعض قضايا ومعضلات جغرافية مرتبطة بالعهد القديم (المقصود بذلك التوراة م. م.) ، علماً بأن هذا الفرع من الأبحاث التوراتية يندرج علمياً ضمن إطار ما أتفق على تسميته بـ «جغرافية التوراة» ... أما العهد القديم نفسه هو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني إسرائيل ... ومن البديهي أن هذا التاريخ قد جرى في مكان محدد، يقول الرأي التقليدي: أنه المنطقة الواقعة على أراضي القطرين المصري والعراقي، أي ما بين نهري النيل والفرات ... ويطلق علماء التوراة مصطلح «أرض التوراة» على البقعة الجغرافية التي يعتقدون أن أحداث الكتاب المقدس لليهودية والمسيحية قد جرت عليها ... إذن، اسهامي هذا يندرج في إطار التهذيب العلمي لجغرافية التوراة المشار إليه آنفاً، ويرتكز بالطبع في المقام الأول على موضوع الاستاذ صليبي ... لكنني عملت قدر الامكان على حصر بحثي ضمن إطار الجغرافيا، باحثاً من خلالها على بعض الجوانب المجهولة من تاريخ جزيرة العرب، أو التي غرقت في النسيان، وليس أكثر من هذا (جغرافية التوراة ص ١٥ وما بعدها).

ثم يتعرض الكاتب لدراسات علماء التاريخ الذين أصبحوا، في رأي كاتبنا، في حيرة من أمرهم، لأن التنقيبات والدراسات الأثرية لم تدعم وجهة نظرهم القائلة أن بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين ومصر وبلاد الرافدين هي مسرح الوقائع، مهملين منطقة عسير في شبه الجزيرة العربية.

ويقول حرفياً: «لأنه بعد أكثر من قرن من التنقيب الأثري المبرمج الذي قلب أرض فلسطين رأساً على عقب، ولم يعثر على أي لُقى أثرية (*) ثابتة تدعم آراءهم» ثم يتابع في الصفحة التالية: «رغم كافة القناعات والقناعات المتجددة، بقي هاجس غياب الدليل الأثري الحاسم يلاحق كتابات وتحليلات أصحاب المنهجية التقليدية وفهمهم الجغرافي ... وقد يرى أحدهم أن التوراة ليست المرجع الذي يصح اعتماده للبحث في تاريخ بني إسرائيل وبعض جوانب تاريخ جزيرة العرب، لذا أسجل هنا أن هذا العمل لا يناقش صحة أو خطأ تاريخية بعض الروايات الواردة في العهد القديم، فكل ما يعالجه هو المكان الذي ينقل الكتاب المقدس لليهودية أن أحداثه قد وقعت ضمنه، أما منطقتي فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا. (ص ١٧ وما بعدها).

يسترعي انتباهنا فيما جاء أعلاه، ما يلي:

أ — عسير في شبه الجزيرة العربية هي مسرح التاريخ التوراتي.

* يقول بعضهم أثري ونعتقد أن كلمة (أثري) تفيد المعنى بشكل أفضل نسبة لعلم (الآثار) ولانقول علم (الأثر)

ب— لم يعثر علماء الآثار على أي دليل مادي في فلسطين يدعم المسلمات التاريخية «الفلسطينية» ومن هنا حيرة علماء التاريخ.

ج— الوقائع التوراتية صحيحة تاريخياً وباطلة جغرافياً.
قبل أن نرد على منطلقات كاتبنا علمياً، في النقطة الثانية بالدلائل والشواهد والمسلمات التاريخية والآثار والنصية، نود طرح بعض الاسئلة المباشرة، المتعلقة بالنظرية والتطبيق.
أ) فبالنسبة لعسير وفلسطين، فإن أسقطنا فلسطين (المحتلة) من حسابنا، فتحنا الباب على مصراعيه، أمام دعاويهم الاسطورية الباطلة، للتسلل إلى قلب الجزيرة العربية، بعد اغتصابهم فلسطين.

ب) ليس صحيحاً، ان علماء الآثار لم يعثروا حتى الآن على أي دليل مادي في فلسطين، يدعم المسلمات التاريخية «الفلسطينية».

ان كاتبنا من أصحاب «لا تقربوا الصلاة». أما «وأنتم سكارى» فتجاهلها ولم تخطر بباله. وهنا نتفق معه تماماً بأن علماء الآثار «لم يعثروا على أي دليل...» «اسرائيلي قديم أو يهودي يضاهي مئات الأدلة الكنعانية منلقى وأسوار مدن وقنوات سقاية وري وأدوات منزلية الخ...» في عشرات المواقع الآثرية الكبرى اضافة لمئات أخرى أقل أهمية، والتعليل المنطقي البسيط هو أن الاسرائيليين القدماء ولا أقول عبرانيين ولغة عبرية(*) كما يحلو لكاتبنا تكراره، نقول أن أولئك الاسرائيليين القدماء لم يكونوا سوى جماعات من البدو الرعاة أمام حضارة ترقى بأصولها إلى الالف الرابع (ق.م)، حينما راحوا يتسللون تدريجياً إلى الأراضي الفلسطينية، اعتباراً من القرن الثالث عشر (ق.م) — ان سلمنا جدلاً بتقويم المدرسة التوراتية — من فترة يشوع وحتى عصر سليمان، الذي استعان بملك صور (حiram) لبناء هيكله، لجهل عشيرته بأمور الحداثة والبناء الخ... (٢) وأين هذا الطراز الكنعاني في البناء الحصين لأسوار المدن والقلاع المائل للعيان منذ القديم، في مختلف بقاع بلاد الشام: السورية/ اللبنانية/ الفلسطينية، والظاهر للعيان بشكل رائع في أوغاريت وغيرها من المواقع الأثرية في ربوعنا، أنجد لذلك مثيلاً في عسير؟!

ج) وثالثة الاثافي هي التسليم بزعم، ان الروايات التوراتية صحيحة بعموميتها ويكفيها ان ننقل جغرافيتها إلى قلب الجزيرة العربية، ليستقيم الأمر. (الإشارة من عندنا) حقاً، نحن في حيرة من أمرنا، وما علينا إلا أن نقارن بين مقطعين وردا في صفحتين مجاورتين، من كتاب مؤلف «جغرافية التوراة» لنذكر مدى التناقض الواضح في منطق الأستاذ زياد منى.

* لانجد مطلقاً عبارة «لغة عبرية» في أي سفر من أسفار التوراة . (م.م).

جاء في (الصفحة ١٥) : « أما العهد القديم نفسه، فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل، والتي تنقل بالاضافة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ، كتابات وأحكاماً دينية تأملية نسكية». وبالنسبة لصحة روايات التوراة أو عدمها، فيقول كاتبنا في (الصفحة ١٨) : « ... أما منطلقى فهو فرضية صحة التاريخ بعموميته وخطأ الجغرافيا». وطبعاً، المقصود هنا صحة الروايات التوراتية تاريخياً، مع خطأ جغرافيتها الفلسطينية... وهنا، لابد من طرح السؤال المشروع التالي: أي من القولين يجب اعتناده؟ وكيف نوفق بين طرفي المعادلة:

صحة تاريخ نص ————— مفعم بالاساطير والخرافات.

لن ندخل في جدل عقيم حول روايات وأخبار مختلف الاسفار التوراتية وتاريخ كتابة تلك الاسفار ومن شارك في انشائها، الخ... فهذا ليس قصداً ولا يتسع المجال هنا لذلك، ولكن، لنضع القارىء في الصورة، لابد من توضيح بعض جوانب الموضوع، فالنسخة التوراتية الموجودة حالياً بين أيدينا، مأخوذة عن المخطوطة الماسورية، (٣) التي أعدتها جماعة من اليهود في طبرية — بتأثير من الكتابتين العربية والسريانية — من القرن السادس إلى القرن العاشر للميلاد، عندما قام هؤلاء بوضع النقاط والحركات لضبط النص الأصلي، فثبتوا بذلك الألفاظ ووحدوا قراءتها. وأقدم مخطوطة كاملة للتوراة بالقلم الآرامي المربع تعود إلى القرن العاشر للميلاد ونعرف منها نسختين: الأولى كانت في كنيس في حلب، ثم اختفت، أما الثانية، فلا تزال في متحف لنتغراد (سان بترسبورغ) (٤). كما وجدت عدة ترجمات للتوراة، قبل النسخة الماسورية وبعدها اعتباراً من القرن الثالث (ق.م) وحتى القرن التاسع عشر، بمختلف اللغات: من يونانية (السبعينية) وسريانية (البشيطا/ البسيطة) ولاتينية (الولجاتا/ الشعبية) وعربية وأوربية. وقد يختلف عدد الاسفار من ترجمة لأخرى، فبعضها مثلاً يشتمل على بعض الاسفار القصصية والتاريخية، تعتبر غير شرعية، ولانجدها في النسخة المعتبرة شرعية لدى الأحبار اليهود. وطبعاً لدينا أيضاً التوراة السامرية، التي لاتضم سوى الاسفار الخمسة الأولى، المنسوبة في رأيهم للنبي موسى، وهي: التكوين والخروج واللاويين (الاحبار)، والعدد وتثنية الاشتراع، إضافة لسفر يشوع في بعض النسخ القديمة.

ونكرر قائلين: لسنا بصدد دراسة نقدية لأسفار التوراة، ان في الشكل أو المضمون، وان كان لنا عودة حول استعمال كاتبنا لكلمة «اللغة العبرية». وفي الواقع، لانهدف من مطالعتنا هذه سوى الرد على أولئك الذين خلطوا الأوراق وأشاعوا البلبلة في الأذهان، ولاندرى، ألم يرغمنا تحليل محتوى الكتاب (جغرافية التوراة..) على اعتبار كاتبنا في عدادهم، وسيبدو هذا الأمر جلياً واضحاً، عندما نعرض لبعض الوثائق التاريخية الأثرية التي أهملها كاتبنا، على غرار كمال صليبي، وفيما بعد فرج الله صالح ديب.

وهكذا، فنحن أمام نص توراتي — النسخة الماسورية — وقد اعترف الثلاثة: صليبي / زياد مني / فرج الله صالح ديب، بأنهم اعتمدوه، مع تعديل طفيف، والحالة هذه، فنحن أمام نص تاريخي صحيح بعموميته — في رأيهم — وما علينا سوى أن نقوم بعمليات قلب واستبدال لأسماء الأشخاص والمواقع، بين «عبرية النص التوراتي» واللغة العربية، فنصحح المسار ويصبح الأمر واضحاً، عندما ننقل مسرح التاريخ التوراتي من فلسطين إلى عسير، في شبه الجزيرة العربية، وهذا هو منهجهم باختصار.

أما منهجنا، فيختلف عنهم كل الاختلاف. فنحن أمام نص توراتي مليء بالخرافات والأساطير، إضافة لوقائع تاريخية أو شبه تاريخية، مع بعض الأحكام الدينية والقانونية والتشريعية، الخ.....

ولا يمكن فهم وإدراك وتفسير هذا كله، إلا في سياقه التاريخي العام وفي ضوء دراسات مقارنة، وأضعين نصب أعيننا دراسات مختلف العلوم المساعدة للتاريخ، ودون أن نسقط من حسابنا مختلف وثائق حضاراتنا القديمة من مصرية ورافدية وكنعانية وأرامية الخ... وقبل أن نتقل إلى النقطة الثانية عسى أن يجيبونا عما يلي: إن كنتم تعتقدون أن عسير وماجاورها هي المسرح الجغرافي الواقعي للعالم التوراتي، فأين هي الكتابات والنقوش اليمنية القديمة، المتعلقة بتاريخ شبه الجزيرة العربية، في قسمها الجنوبي الغربي، مع عسير إلى الشمال، وكلها بالقلم المسند، بأشكاله المختلفة، وقد أصبحت هذه الكتابات والنقوش معروفة عالمياً في الأوساط العلمية، وتقدر حالياً بالمئات والألوف وهي، مع علم الآثار، الفصل العلمي في موضوع كهذا. ومع أن تفسير هذه الكتابات والنقوش مازال محدوداً، فقراءتها أصبحت معروفة جزئياً، ومع ذلك فقد أهملتموها لصالح نص «توراتي» أقحمتموه في جغرافية عسير وجيزان وغيرها من ربوع جنوب غربي شبه الجزيرة العربية (٥).

ثم، مامعنى هذه الطريقة المبتكرة في غياب الإشارة إلى المصادر والمراجع. فباستثناء كمال صليبي الذي ذكر بعضاً منها، فوجئنا بأسلوب مبتكر غامض، ولندكر بعض نماذج:

في الصفحة ١٦: «... هذه المنهجية جعلت الكثير من العلماء في حيرة من أمرهم..» من هم هؤلاء العلماء، وماهي مصادركم حول ذلك؟!!

في الصفحة ١٧: «... فاتحةً بذلك مجالات جديدة أمام اتجاه ثالث رأى أن المنهاج العلمي الوحيد في صحته يجب أن نبحت عن تلك التجربة في حضارات جزيرة العرب الجنوبية..» حقاً من هم ممثلو هذا الاتجاه من العلماء؟!!

في الصفحة ٢٥: «يتفق أهل الاختصاص من علماء التوراة أن أسفار العهد القديم جمعت وكتبت عبر قرون عديدة اعتماداً على مصادر مختلفة تعرف في هذا العلم باسم التقاليد، كما أن التيار الرئيسي بين العلماء يرى أن أقدم تلك النصوص يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد».

من هم المعنيون وأين جاءت هذه الأقوال؟! علماً أن الجميع متفقون حالياً على أن أقدم وثائق لها علاقة بالأسفار التوراتية عُثر عليها بالقرب من البحر الميت، في خربة قُمران(*) ولا تشكل هذه الوثائق سوى (٤٪) من أسفار التوراة، ومع أن الاختصاصيين اختلفوا حول أصولها وتاريخها المطلق، فقد أجمعت أغليبيتهم على أن تاريخ أقدم مخطوطة لا يرتقي إلى ما هو أقدم من عام (١٥٠ ق.م).

في الصفحة ٣٠: «..لقد أدرك العديد من أهل الاختصاص أهمية اعطاء الانتباه اللازم لهذه الحالة اللغوية، وأفردوا لها العديد من المؤلفات».

من هم هؤلاء «أهل الاختصاص» وأين هي هذه المؤلفات؟! في الصفحة ٤٧: «كما أشار المؤرخون الرومان، وبمعلومات عابرة إلى شخصية اسطورية؟ خرافية؟ باسم Nectanabus تمكنت في عصور سحيقة من اخضاع العرب..»

من هم هؤلاء؟ وأين ورد هذا القول؟! في الصفحة ٧٠: «وفي عملية بحثي قمت بقراءة الأسماء الواردة في النقوش المصرية بالأحرف الساكنة، مهماً كافة التحريكات المقترحة من قبل أهل الاختصاص..» هكذا نقبل رأي أهل الاختصاص ان وافقنا وإلا اسقطناه دون تردد. في الصفحة ١٠٣: «لكن هذا الافتراض غير جائز لأن أهل الاختصاص يشددون على أن مصر لم تكن من الشعوب السامية وتوصف بأنها حامية..» ولكن من هم أهل الاختصاص هذه المرة؟ فلنقرأ ماجاء في (سفر التكوين، الاصحاح العاشر الفقرة ٦):

«وبنو حام كوش ومصرائيم وفوط وكنعان..» وسؤالنا: هل أهل اختصاصكم هم دائماً من هذا النموذج التوراتي؟!!

في الصفحة ١٠٥: «أما مسألة كنعان، فلا بد أن المقصود بهم أيضاً هم بعض من شعوب جنوبي جزيرة العرب وليس فينيقيي بلاد الشام.. أما مسألة كنعان فهي معقدة، وسأتجنب الخوض فيها في هذا المؤلف».

* حيث عثر في عين الفشخة، شمالي غرب البحر الميت، في خربة قمران على مخطوطات بالخط الآرامي المربع وذلك اعتباراً من عام ١٩٤٧. وتعود هذه المخطوطات لفرقة يهودية نسكية، مازال أمرها موضوع دراسة الباحثين. انظر على سبيل المثال

A. Dupont- Sommer, Les Ecris Esséniens Découverts près de La Mer Morte, Payot, Paris, 1960.

حيث نجد دراسة شاملة لمخطوطات قمران، ويعتبر دوبرون سومر من كبار الباحثين في مجال الدراسات الآرامية / التوراتية.

نقول لصاحبنا بكل تواضع: أن مسألة كنعان ليست بهذا التعقيد كما تزعمون، ولقد نشرنا حول الموضوع دراسة تمهيدية، في عام ١٩٧٢ بعنوان «بلاد كنعان والاسرائيليون القدماء» في مجلة (صوت فلسطين، العدد ٥٠، ١٩٧٢، ص ص ١٧—٣٤) حيث رأينا أن تسمية «كنعان» ظلت سائدة لدى السكان المحليين حتى الفترة المسيحية الأولى، بينما اسم «فينيقيين» ذاع في المؤلفات اليونانية مشيراً إلى الكنعانيين (ص ص ٢٨—٢٩). وقد عُثر على قطعة نقد من العصر السلوقي، القرن الثاني قبل الميلاد منقوش عليها على الوجه الأول. باللغة الكنعانية «لاذقية التي في كنعان» (*)، وعلى الوجه الثاني باللغة اليونانية «لاذقية» (**). التي في فينيقية. وأطلق اسم لاذقية على بيروت في العصر السلوقي الهلنستي. فماذا يعني ذلك؟! الاغريق هم الذي أطلقوا اسم «فينيقيين» على كنعاني بلاد الشام الساحلية، وقد استشهد كمال صليبي بهذا، في كتابه (التوراة جاءت من جزيرة العرب الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص ٣٣): «.. وكون فينيقيا قد سميت كنعان من قبل سكانها أنفسهم أمر معروف من خلال قطعة نقد هيلينية (الصحيح سلوقية/ هلنستية وليس هيلينية م.م) من بيروت تصف هذه المدينة بأنها «في كنعان» (ب—كنعن)، وبالاغريقية بأنها في «فينيقيا».

كما رأينا أعلاه، يلجأ الكاتب إلى الأسلوب المعمي في استشهاده، كأن يقول «أهل الاختصاص، جاء في المصادر، الخ..» ولكن من هم أهل الاختصاص هؤلاء، وما هي هذه المصادر، فالله أعلم، علماً أنه وضع الأمر في إحدى المرات، عندما أشار الى نص توراتي أسطوري، لعل له بالعلم التاريخي، لامن قريب ولا من بعيد (٦).

ونأتي الآن الى النقطة الثانية، المتعلقة بالوثائق والشواهد التاريخية والآثار والنصية ولا بد من الاجابة عن بعض الاسئلة، ولا مجال هنا لاجتهادات لغوية عقيمة أمام براهين وأدلة أقر بها القاضي والداني.

* جاء في النقش حرفياً «...بكنعن»

** نسبة إلى والده سلوقس (لاوديكة) ونجد عدة مدن «سلوقية» باسمه وأفامية (نسبة لزوجته إياما) وكذلك مدن

«انطاكية» الخ..

ولنأخذ بعض النماذج المصرية:

١— نص من المملكة الوسطى، أمر بنقشه أحد قواد الفرعون (سنوسرة الثالث) (*) (١٨٧٨—١٨٤٣ ق.م) وهو عبارة عن نصب حجري عثر عليه غربي حوض النيل في أييدوس، شمالي وادي الملوك، في مصر الوسطى، وجاء على لسان القائد العسكري (سوبك خو): «توجه جلالته نحو الشمال لقهر الأعداء فوصل إلى منطقة غربية اسمها شكّم (شخم) (**)(التوراتية، سفر التكوين، ٣٣: ١٨، ٣٤) وأنجز جلالته عملاً بطولياً وسقطت شكّم وكذلك بلاد الرتنو التعسة..» (٧) كما يقول النص: شمالاً، نحو بلاد الشام الجنوبية، ومن ضمنها فلسطين ولم يأت على ذكر الجنوب والشرق، نحو عسير، عبر البحر الأحمر، وشخم كلمة كنعانية وليست عبرية، ونحن نعرف أنها بلدة عريقة في القدم وكشف التنقيب عن هيكل (بعل بريث/ رب العهد) الكنعاني وكذلك عن الأسوار الكنعانية القديمة، بمرضومها السكلوبي (حجارة مرصوفة بلا ملاط ولا رباط) وشكّم / شخم هي شكيم بالقرب من نابلس المعاصرة، ولا علاقة لها لامن قريب ولا من بعيد بعسير وجيزان.

أما بلاد الرتنو، فهي باجماع علماء التاريخ والآثار، بلاد الشام الجنوبية، وعلينا أن لانسى ما عثر عليه في السنوات الماضية، في (ابلا/ تل مردوخ من لقي أثرية مصرية، أكثر قدماً).

٢— حملات الفرعون (تحوتس الثالث) (***) (١٤٩٠—١٤٣٦ ق.م) على بلاد الشام، مع النص الطويل المنقوش على جدران الكرنك، الذي يروي بالتفصيل أخبار تلك الحملات من مجدو (***) إلى نهارينا (****)، مع قطنا ومتياني الخ...

٣— رسائل تل العمارنة، أي المراسلات بين الفرعونين (أمنحوتب الثالث ١٤٠٥—١٣٦٧ ق.م وخليفته أمنحوتب الرابع / اخناتون ١٣٦٧—١٣٥٠ ق.م)

* واسمه باليونانية سُسُوتوس كما ذكر هرودوتس (التواريخ ٢، ١٠٢ الخ..) وفيما بعد لدى غيره من الكتاب اليونانيين.

** وتعني كتف، وفي الواقع تقع عند سفح جبل جزيريم، بالقرب من نابلس،
*** لم يستلم الحكم بمفرده إلا في عام ١٤٦٨ ق.م بعد صراعه المرير مع الملكة حتشبسوت لمدة ٢٢ سنة، قبل ان يلحق بها الهزيمة.

**** حيث يقع (تل المتسلم) حالياً، على بعد حوالي ٣٠ كم جنوبي شرق حيفا وكشف التنقيب عن عدة طبقات أثرية وعن سرداب شق في الصخر ويصل الى نبع ماء، كدليل على مهارة الكنعانيين الهندسية. كما أكتشفت نقوش على قطع عاجية ترجع إلى القرن الرابع عشر ق.م. تبرز مهارة الكنعانيين وحضارتهم.

***** المقصود حوض الفرات السوري، شمالي دير الزور مع المنطقة الواقعة حول حوضي الخابور والبلخ بل وحتى الساجور.

٤- حملات الفرعون (رعمسيس الثاني ١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م) واصطدامه مع الحثيين، ولا سيما في معركة قادش (تل النبي مند/ منثو/ مندو؟) جنوبي بحيرة حمص (قطينة)، عام ١٢٨٦، والتي خلدها المصريون على لوحة مثبتة أمام جدار في معبد الكرنك المصري، وكما يقول (سير ألن جارنر) (٨): «...أما النص الحثي فهو أقل كمالاً وقد عثر عليه منقوشاً على لوحين من الطين مكتوباً بالبابلية الآسفينية (المسمارية م.م) وهو ليس نسخة طبق الأصل ولكنه يتضمن الى حد كبير عبارات وتعبيرات متماثلة، وهو أمر هام، لأنه يؤكد دقة عمل اللغويين في حقلين متباعدين من الدراسة».

واضافة لذلك، لدينا نصب ذلك الفرعون عند مصب نهر الكلب، بين بيروت وجونية، فهل نهر الكلب هذا يقع في عسير؟!... ونعلم انه تم الكشف في نفس الموقع عن ثلاثة أنصاب تذكارية أخرى محطمة، ذات صلة بموضوعنا.

٥- حملات الفرعون (سيتي الأول ١٣٠٦-١٢٩٠) على فلسطين، حيث تم العثور في موقع تل الحصى بالقرب من (بيت شان/ بيسان)، على لوحة في معبدها الكنعاني، ذكر عليها أخبار حملة الفرعون على بعض أنحاء فلسطين وغيرها من بلاد الشام الوسطى (بيت رحوب/ تل القاضي، بيت شائيل، بحل (فحل)، حماة الخ..). وهذا النص دليل مزدوج (نصي وآثاري) ميداني، يذكر بعض المواقع في بلاد الشام، وأية «بهلوانية لغوية» مقلوبة، لن تعطينا جواباً مقنعاً، مع وجود النصب في فلسطين أصلاً.

هذا غيض من فيض بالنسبة للوثائق المصرية، ولا مجال في عجالتنا لأكثر من ذلك. ونأتي الآن إلى الوثائق الآشورية، التي تتقاطع مع الروايات التوراتية، لتشير إلى بلاد الشام بصورة قاطعة جازمة:

١- حملات (شلمنأسر الثالث ٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الآشوري ومن أهمها (معركة قرقر) عام ٨٥٣ (ق.م). وتقع قرقر جنوبي بلدة جسر الشغور الحالية، غربي نهر العاصي، ونجد صدى لاسم الموقع في تل قرقر، الواقع في نفس المنطقة، نقرأ في لوائح هذا الملك أخبار هذه الحملة وكيف عبر نهر دجلة ثم نهر الفرات، في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز، ثم وصل إلى منطقة نهر الساجور، حيث تلقى الجزية من ملوك (كركميش/ جرابلس حالياً)، ثم تقدم نحو حلب وتلقى الجزية وقدم قرباناً إلى «حدد» اله حلب، ومن حلب اتجه نحو حماة ومنها إلى موقع قرقر، حيث احتشد الحلف الآرامي الأكبر. (٩). وضم هذا الحلف عدة ملوك آراميين ومعهم جنديو العربي وغيرهم. ومن الملوك الآراميين الذي جاء ذكرهم في الوثيقة الآشورية ملك حماة الآرامية (يرخوليني)، وقدم تم العثور على عدة وثائق في مواقع قريبة من حماة وتابعة لمملكته مثل (محرده وقلعة المضيق والرستن، تذكر اسم (يرخوليني، الذي بنى معبداً للربة بعلاقي (١٠).

من جديد مارأي أصحاب نظرية «عسير»؟! . فحماة المذكورة هي على العاصي وليست في عسير.

٢— ونأتي إلى الملك الآشوري «تغلاث فلاسر الثالث» (٧٤٤—٧٢٧ ق.م) ولدينا نص يذكر أسماء الملوك الذين أرسلوا الجزية إلى ملك آشور، فإضافة إلى (منحيم، ملك السامرة و(حيرام، ملك صور) الخ.. نجد (بنامو، ملك شمال)، وشمال هي عاصمة مملكة (يادي الأرامية)، حيث يقوم حالياً (تل زنجري/ زنجري) على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، قرب منابع (نهر الأسود/ قراصو)، ولقد عثر علماء الآثار في الموقع على عدد من النصوص الأرامية التي تأتي على ذكر (بنامو، ملك شمال).

كما أن هاتين الروايتين تتقاطعان أحياناً مع مانجده في التوراة (سفر الملوك الثاني الاصحاح ١٥، الفقرة ٢٧—٣٠).

ولو أردنا أن نتابع لذكرنا عشرات الأمثلة شبيهة بما ذكرناه آنفاً. ونكرر قولنا: ان كانت مختلف الوثائق والسجلات التي ذكرناها أعلاه لاعلاقة لها بجغرافية بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين، بل ترتبط بعسير في شبه الجزيرة العربية، فأين تلك المتعلقة بسورية؟! ثم ان كان الكنعانيون والآراميون وغيرهم ممن ورد ذكرهم في السجلات القديمة، لم يسكنوا ربوعنا، بل عاشوا في عسير، وإلى جانبهم الاسرائيليون القدماء، فمن سكن بلادنا في الألفين الثاني والأول (ق.م)؟! ... أم كانت ربوعنا مهجورة ومتروكة للسباع والبهائم؟! ...

— الملاحظات المعرفية البحتة —

جاء في الصفحة ١٨: «... كان عبارة عن تحالف أو تجمع لقبائل أو عشائر ناطقة بلهجة كنعانية تسمى حالياً بالعبرية، رغم أن المصطلح الأخير لا يرد في التوراة لتعريف لغة بني اسرائيل، لكن بغياب دليل علمي مقبول رأيت عدم امكانية تجنب توظيفه».

هذا غير صحيح البتة، وكم من باحث يعمل في هذا الميدان يقول دون أي تردد «اللغة التوراتية» ولا ندري، لماذا أصبح البعض (ملكياً أكثر من الملك)، وحينما يشير كتبة التوراة إلى لغة أسلافهم لا يقولون «لغة عبرية» وهذه تسمياتهم، من الأقدم إلى الأحدث:

— (سفر أشعياء الاصحاح ١٩، ١٨: «في ذلك اليوم تكون خمس مدن في أرض مصر تتكلم بلغة كنعان وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها الشمس».) (وحرفياً كما جاء في التوراة: مدبروت تتكلم (سفة/ شفة، لغة) كنعن).

— سفر الملوك الثاني الاصحاح ١٨، ٢٦: «فقال إياقيم بن حلقيا وشبنة ويوآح لربشاقا كَلِّمْ عبيدك باللغة الآرامية فانا نفهمها ولا تكلمنا باليهودية على مسامع الشعب القائمين على السور»

— سفر نحميا الاصحاح ١٣، ٢٤: «وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية بل بلسان شعب وشعب».

أما مفهوم «لغة عبرية» للدلالة على لسان معتنقي الديانة اليهودية، التي راحت تتطور في بابل، ثم بعد العودة من السبي، في فلسطين، فلانجده الا اعتباراً من القرن الأول للميلاد وذلك في انجيلي (لوقا ويوحنا) وذلك اشارة الى صلب السيد المسيح، والى اللوحة فوق رأسه كالتالي:

— (انجيل يوحنا، الاصحاح ٢٣، ٣٨): «وكان عنوان فوقه مكتوباً بالحروف اليونانية واللاتينية والعبرانية..»

— (انجيل يوحنا، الاصحاح ١٩، ٢٠): «وهذا العنوان قرأه كثير من اليهود لأن الموضع الذي صُلب فيه يسوع كان قريباً من المدينة وكان مكتوباً بالعبرانية واليونانية واللاتينية..»
ولذلك نرفض اصطلاح اللغة «العبرية». وينطبق نقدنا لكتاب (جغرافية التوراة..)
على نموذجها الأصلي، (التوراة جاءت من جزيرة العرب)، حيث ينقل زياد منى، دون تعديل كبير أقوال كمال صليبي.

ولنأخذ نموذجاً من كتاب هذا الأخير: «وحيثما تكلم القرآن عن الآباء العبريين أو عن اسرائيل أو عن الأنبياء اليهود...» (١١)

نود أن نقول للدكتور صليبي ومشايغيه بأن القرآن الكريم لم يأت ولم مرة واحدة، على ذكر «عبريين، عبرانيين، لغة عبرية الخ...» بل أشار إلى القوم كالتالي في بعض سورته:
هوداً (٦ مرات، البقرة ١١١، ١٣٥، ١٤٠، الاعراف ٦٥، ٥٨).

اليهود (البقرة ١١٣، ١١٣، ١٢٠، المائدة ١٨، ٥١، ٦٤، ٨٢، التوبة ٣٠)

يهودياً (مرة واحدة، آل عمران ٦٧).

كما جاء ذكر «بنو اسرائيل» ثلاث وأربعين مرة في سبع عشرة سورة مختلفة.
ونأتي الى «بيت القصيد» كما جاء في كتاب زياد منى: «الآن، لقد بينت قراءتي لهذه النصوص الجغرافية في ضوء جغرافية عسير، انها لم تستفد من ناحية التعرف على مدى قدم النصوص التوراتية وصحتها فحسب (*)»، بل أنها أسهمت أيضاً، والى حد ما، في التعرف على بعض من آلهة العرب القديمة، وعلاقة العربية والعبرية.

أخيراً اترك للقارىء، إما مشاركتي هذه القناعات، او الاختلاف معه» (١٢).

كلا، واستناداً على كل ما جاء أعلاه، لانشاركم قناعاتكم، بل نحن وإياكم على طرفي نقيض.. ولنا ثقة كاملة بنباهة القارىء العربي.

* وقول المؤلف هذا، يتناقض مع ما ذكره أعلاه (ص ١٥)، عندما قال: «أما العهد القديم (المقصود هنا التوراة. م.م) نفسه، فهو عبارة عن مجموعة من النصوص المتباينة في قدمها عن تاريخ بني اسرائيل والتي تنقل بالاضافة إلى الخرافات والأساطير والتاريخ كتابات وأحكاماً دينية ونسكية».

الحواشي

١- الدكتور كمال صليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب المطبعة العربية الثانية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٦ .

٢- هنا لابد من الإشارة الى كتاب أثار ضجة في الأوساط العلمية العالمية منذ صدوره في عام ١٩٩٤ وأدى بصاحبه توماس طومسون^١ علم الآثار في (جامعة مليووكي الامريكية) إلى فقد مركزه الاكاديمي بضغط من الاوساط الصهيونية وعنوان الكتاب:

Early History Of The Israelite People، من اصدار دار E.J.Brill ليدن نيويورك- كولن، ١٩٩٤ . وقد صدر عن دار (بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٥) نسخة مترجمة للكتاب بعنوان «التاريخ القديم للشعب الاسرائيلي» بقلم الاستاذ صالح علي سوداح.

علماً ان النسخة العربية قد أفقدت الاصل بعض أهميته لاهمال المترجم ذكر المصادر والمراجع والملاحظات الهامشية، وعلى أي حال، يظل العمل مشكوراً وذو نفع، لاسيما لغير ذوي الاختصاص.

اذ ان الاستاذ طومسون قد اعاد النظر في مختلف الدراسات المتعلقة بالموضوع، والتي صدرت منذ حوالي القرن، داخضاً مفاهيم وفرضيات أنصار المدرسة التاريخية/الاثارية التوراتية، وياحبذا لو تناول بعض باحثينا العرب (كزياد منى وأقرانه) موضوع تاريخ فلسطين القديم بهذه الجدية والشمول، مقلعين عن مشتقاتهم اللغوية و«بهلوانياتهم الجغرافية» لصالح الجميع. وعلى كل لأهمية كتاب الاستاذ طومسون، لنا عودة إليه في الاعداد اللاحقة لمجلتنا.

٣- بشأن ذلك انظر: قاموس الكتاب المقدس الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٧٦٣.

٤- قاموس الكتاب المقدس ص ٨٤٥، بالنسبة لنسخة حلب، فهي موجودة حالياً في فلسطين المحتلة.

ونحن نعلم حالياً كيف جرى تهريبها من حلب عبر تركية وذلك من كتاب نُشر مؤخراً بالفرنسية بعنوان Le Siècle D'ISRAEL دار Fayard ١٩٩٤، حيث يذكر الكاتبان (ص ٥٣١ وما بعدها) طريقة تهريبها بملاساتها المختلفة.

٥—انظر على سبيل المثال كتاب: مختارات من النقوش اليمينية القديمة، اعداد محمد عبد القادر بافقيه وآخرون، منشورات : المنظمة العربية للتربية والثقافة العلوم ، ادارة الثقافة ، تونس ١٩٨٥ .

٦—انظر حول ذلك كتاب: محمد محفل، المدخل إلى اللغة الآرامية، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الخامسة ١٩٩١ / ١٩٩٢ ، ص ٥ وما بعدها.

7-JOHN A.,. Wilson Egyptian Historical Texts ; (In J . Pritchard's Near Eastern Texts, Princeton) P. 227.

٨—مصر الفراعنة مترجمة: د.نجيب ميخائيل ابراهيم ، مراجعة :د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٩٢، وما بعدها

9-A. Dupont - Sommer, Les Araméens, Lib. A. Maisonneuve. Paris , 1949, P.135 F. F .

وصدرت نسخة عربية مترجمة في عام ١٩٨٨ عن دار أماني ، طرطوس، طبعة أولى بقلم ناظم الجندي، ومراجعة د. توفيق سليمان.

10-H. Sader , Les États Araméens depuis leur Fondation jusqu a` leur tranformation en Provinces Assyriennes, 1984, Dissertation.

ولمزيد من التفاصيل انظر: د. علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني ، طرطوس، طبعة أولى ١٩٨٨ ، ص ٧٠ وما بعدها.

١١—التوراة جاءت.. ص ٦٩ .

١٢—جغرافية التوراة.. ص ١٧٥ .

Directeur de la Revue	Abdul Gani Ma' Al Bared Recteur de l' Université de Damas
Directeur de la Rédaction	Mouhammad Mouhaffel
Rédacteur en Chef Adjoint	Qbdul Karim Ali

Revue Historique éditée par la Comité de Rédaction de l'histoire Arabe:

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared
 Dr. Adel Awwa
 Dr. Nour el- din Hatoum
 Dr. Chaker Fahham
 Dr. Mouhammad Kheir Fares
 Dr. Hamed Khalil
 Dr. Khairieh Quasmieh
 Dr. Taib al Tizini
 Dr. Soultan Mouhaissen
 M. Mouhammad Mouhaffel
 Dr. Souheil Zakkar
 Dr. Id Mur'i
 Dr. Faisal Abdulah
 Dr. Ali Ahmad
 Dr. Ibrahim Za' Rour
 M. Abdul Karim Ali

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

«تعنى بتاريخ العرب»

تصدر عن لجنة كتابة تاريخ العرب - جامعة دمشق

السنة السابعة عشر / العددان / ٥٧ - ٥٨ / أيلول - كانون أول / ١٩٩٦

للطلاب	للمؤسسات	لأفراد	الاشتراكات
(١٠٠) ل.س.	(٤٠٠) ل.س.	(٢٠٠) ل.س.	في القطر العربي السوري
	(٤٠) دولار امريكي	(٢٠) دولار امريكي	في الاقطار العربية
	(٦٠) دولار امريكي	(٣٠) دولار امريكي	في البلاد الاجنبية

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة منذ عام ١٩٨١ بالبدل نفسه لكل عام، ويتم تسديد بدل الاشتراك بشيك الى لجنة كتابة تاريخ العرب، أو بتحويل المبلغ الى حساب جامعة دمشق في مصرف سورية المركزي رقم ٢٣/٣٣٢٣.

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية - جامعة دمشق.
المكاتيب: جامعة دمشق - هاتف / ٢١٢٤٤٦١ /

تصدرها وتشرف على تحريرها
لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول

أ.د. عبد الغني ماء البارد
رئيس جامعة دمشق

رئيس التحرير

أ. محمد محفل

مدير التحرير

أ. عبد الكريم علي

هيئة التحرير والإشراف:

د. عبد الغني ماء البارد	د. حامد خليل	د. سهيل زكار
د. عادل العوا	د. خيرية قاسمية	د. عيد مرعي
د. نور الدين حاطوم	د. طيب تيزيني	د. فيصل عبد الله
د. شاكر الفحام.	د. سلطان محيسن	د. علي احمد
د. محمد خير فارس	أ. محمد محفل	د. ابراهيم زعرور
		أ. عبد الكريم علي
تصميم الغلاف د. بشينة ابو الفضل		

شروط النشر في المجلة

ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي، وهو كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقييد بأسلوب البحث العلمي، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مساره الخاص، وايضاح مآلفه الغموض، وتصحيح مآشوه وكشف الزيغ ان وقع، وكل مايمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية.

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترحا ورأي يساعد في مسيرتها، وتتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب ومايتصل به، على ان يراعى فيها مايلي:

- أ: ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي.
 - ب - ان لا يكون البحث منشورا من قبل.
 - ج - ان يكون مطبوعا على الآلة، خاليا من الاخطاء الطباعية.
 - د - تعرض البحوث، في حال قبولها مبدئيا، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر، وفق المعايير المذكورة اعلاه، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء. وتبقى عملية التحكيم سرية.
- وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال، بما يتوافق مع اغراض الصياغة. ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع، ولذلك يحسن ان يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها، على النحو التالي:

أ - في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الأولى):

ذكر اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته بين قوسين () ان كان متوفى، اسم المصدر او المرجع وتحت خط، عدد المجلدات أو الأجزاء، اسم المحقق ان وجد، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ب - في محاضر المؤتمرات:

ذكر اسم الباحث كاملاً، عنوان الدراسة كاملاً بين قوسين مزدوجين « »، عنوان الكتاب كاملاً، اسم المحرر او المحررين، الناشر، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت، مكان النشر وتاريخه، الصفحة.

ج - في المجلات:

اسم الباحث كاملاً، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملاً وتحت خط، رقم المجلد او السنة، رقم العدد وتاريخه، الصفحة.
ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية:

د - في المخطوطات (للمرة الأولى):

اسم المؤلف كاملاً، عنوان المخطوط كاملاً، الجهة التي تحتفظ به، تاريخ النسخة وعدد أوراقها، رقم الورقة من الإشارة الى وجهها (أ) وظهرها (ب). ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية.

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ()، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة *. وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من اول البحث الى آخره، دون التوقف عند نهاية الصفحات.

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه والاعداد الصادر خلال ذلك العام، مع عشرين (مستلة) من البحث.

محتويات العدد

- تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن في عصور ما قبل التاريخ.
د. خالد أبو غنيمة
ص ٣
- إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة الامبراطور ليو الثالث اللايقونية .
د. عبد الرحمن محمد العبد الغني
ص ٧١
- التجارة بين مصر والشام في العصر الفاطمي .
د. محمد زيود
ص ١٠٩
- اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى .
د. علي أحمد
ص ١٥٩
- المدرسة المملوكية في قلعة الكرك .
د. وائل الرشدان
ص ١٩٩
- أعمال الرحلة من المشرق إلى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى .
عبد الكريم علي
ص ٢٣١

تنويه واعتذار

إلى قرائنا الأعزاء .. أصدقاء مجلة دراسات تاريخية ، أسعد الله أوقاتكم .. وأمنياتنا لكم بموفور المحبة والعافية وبعد ...

لقد حالت ظروف القاهرة دون انتظام صدور أعداد المجلة في مواعيدها المحددة ، وهذا لايعني أن الفترة الزمنية الماضية لن تغطي كما هو مقرر لها .

ومع أملنا بأن لا تتكرر مثل هذه الظروف فإننا نثق بقدرتكم على التسامح بما تملكوه من رحابة صدر وتفهم لمثل هذه المواقف التي تتعرض لها أحياناً بعض الأعمال .. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية ، فإننا نغتنم فرصة صدور العدد الجديد للمجلة لنبادلكم التحية ونقول لكم كل عام وأنتم بخير ، ونحن سعداء بصداقتكم وثقتكم فينا . مع تحيات أسرة تحرير مجلة دراسات تاريخية .

هيئة تحرير مجلة

دراسات تاريخية

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن في عصور ما قبل التاريخ

د. خالد أبو غنيم

« أستاذ مساعد »

جامعة اليرموك / أربد
معهد الآثار والانثروبولوجيا / قسم الآثار

تاريخ الاستيطان البشري في جنوب الأردن

خلال عصور ما قبل التاريخ

يشمل هذا البحث المنطقة الواقعة في الجزء الجنوبي من الأردن ، وبشكل خاص الممتدة من وادي الموجب شمالاً حتى وادي عربة وخليج العقبة جنوباً . ويعتني هذا البحث بمنطقة جنوب الأردن ، إذ أنها تمتاز بتنوع بيئي واستمرارية في الاستيطان الكثيف من العصر الحجري القديم وحتى الفترة الحالية . ويستعرض تاريخ الاستيطان البشري في عصور ما قبل التاريخ في منطقة جنوب الأردن ، من خلال المسوحات والتنقيبات الأثرية التي جرت في المنطقة . ومن وجوه التنوع الجغرافي الكبير في جنوب الأردن، إذ أنه يشتمل على المناطق الجغرافية الثلاث التي تتمثل في الأردن وهي : منطقة المرتفعات الجبلية ، والصحراء ، ومنطقة الأغوار .

وتشير نتائج المسوحات والتنقيبات الأثرية الحديثة إلى غنى الأردن بمواقع عصور ما قبل التاريخ . وعلى الرغم من هذه المكانة الأثرية ، إلا أن الاهتمام بدراسة عصور ما قبل التاريخ في الأردن بدأ متأخراً عن البلدان المجاورة . فبدأ الاهتمام بدراسة مخلفات عصور ما قبل التاريخ في فلسطين بالحفريات التي أجراها ف . تورفيل - بتري (F. Turville - Petrie) في مغارة الزطية عام ١٩٢٥ . وبدأ الاهتمام في سورية مع بداية الثلاثينات مع قدوم الفرد روست (A. Rust) وقيامه بالتنقيب في مغائر يبرود . إلا أن الاهتمام في الأردن بدأ مع حفريات تليلات الغسول ، إلى الشمال الشرقي من البحر الميت، بإشراف مالون

وكويل (Mallon and Koeppel) ، والتي تعود للألفين الخامس والرابع ق.م وذلك في الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ .

المسوحات الأثرية في جنوب الأردن :

وتعتبر المسوحات الأثرية التي قام بها نلسون جلوك (N. Glueck) في مناطق شرق الأردن بين الأعوام ١٩٣٠ - ١٩٤٩م من أوائل المسوحات الأثرية التي جرت في الأردن . وزار جلوك خلالها العديد من مواقع ما قبل التاريخ ، ولكن ، مما يؤخذ على عمله أنه أشار إلى مخلفات عصور ما قبل التاريخ بمصطلح العصر الحجري دون تحديد^(١) . وتلى ذلك المسح الذي قام به ألكس كير كبرايد ولانكستر هاردنج (A. Kirkbride and L. Harding) في وادي رم عام ١٩٤٧ ، ونتج عنه الكشف عن العديد من المواقع ، ومنها مواقع عين أبو نخيلة^(٢) . وتلى ذلك قيام فرانسوا زينور (F. Zeuner) وفريقه بأعمال مسح أثري لمناطق متفرقة من شرق الأردن خلال عام ١٩٥٥ شملت منطقة الأزرق ، ومنطقة جرش، إضافة إلى وادي رم ، والمنطقة الواقعة إلى شمال خليج العقبة^(٣) . ونتج عن المسوحات الأثرية الذي أجرتها ديانا كير كبرايد (D. Kirkbride) في الخمسينات في منطقة البتراء ، ووادي رم في جنوب الأردن، وجرش في وسط الأردن ، ووادي شعيب في غور الأردن اكتشاف العديد من المواقع التي تعود إلى المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث . كما قامت بإجراء تنقيبات أثرية في موقع عين أبو نخيلة في وادي رم ونتج عن ذلك تصحيح التاريخ الذي اقترحه موسى ستيكيلس للموقع (M. Stekelis)^(٤) وأعادته إلى العصر الحجري الحديث، قبل الفخاري (ب).

وأشار أندرو جارارد ونيكولاس ستانلي - برايس (A. Garrard and N. Stanley - Price) إلى وجود مواقع أثرية في منطقة وادي رم، وذلك من خلال مسحهما الأثري لوادي رم عام ١٩٧٥^(٥) .

كما قام هانس غيورغ جيبل (H. G. Geble) بإجراء مسوحات منهجية ومنظمة منذ عام ١٩٨١ بهدف إجراء دراسة جيومورفولوجية في المنطقة المحيطة بموقع البيضا ودراسة وتثبيت المواقع الأثرية التي اكتشفتها كير كرايد سابقاً . كما قام بحفر بعض الأسبار في عدد من مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب»^(٦) . واستمر العمل في منطقة البتراء بالمسح الأثري الذي قام به دانييل شيل وهانس - بيتر أوريمان (D. Schyle and H. - P. Uerpman) في منطقة البتراء ضمن مشروع أطلس تيوبنجن عام ١٩٨٣ ، ونتج عنه الكشف عن عدد من مواقع العصر الحجري القديم الأوسط والأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث^(٧) . وأشار ماكسويل ميسر (M. Miller) ، إلى مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط . خلال المسح الأثري لوادي الموجب عام ١٩٧٨^(٨) .

ويعد مشروع المسح الأثري لوادي الحسا الذي بدأه بيرتون مكدونالد (B. MacI Donald) بين الأعوام ١٩٧٩ و ١٩٨٣ ، وأكملته جيوفري كلارك (G. Clark) وفريقه من خلال مشروع العصر الحجري القديم في نصفة الجنوبية من وادي الحسا، البالغ طوله ٧٠ كم (Wadil el - Hasa Palaeolithic Project) منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، من أهم المسوحات التي جرت في الأردن، إذ زودنا بمعلومات هامة عن عصور ما قبل التاريخ . ونتج عن هذه المسوحات تسجيل واستطلاع واستكشاف ١٠٧٤ موقعاً منها ٥٤٢ موقعاً تعود

لفترات تمتد من العصر الحجري القديم وحتى العصر الحجري النحاسي^(٩) . ولكن ، لابد من التنويه إلى إنّ عدداً كبيراً من هذه المواقع لم تحتو إلا على القليل من الأدوات الصوانية . وقام كلارك وفريقه بدراسة أنماط الاستيطان في المنطقة، إذ تناولت دراسته أحجام وتوزيع مناطق الاستيطان ومقارنتها مع مسوحاته في منطقة النقب . وقام بدراسة العلاقة بين أحجام المستوطنات والارتفاعات المختلفة وأحجام المستوطنات ذات المساحات المتساوية والارتفاعات المختلفة ، ومساحات المستوطنات المختلفة ذات الارتفاعات المتساوية ، وربط هذا التوزيع بفترات معينة وبالتغيرات المناخية في منطقة جنوب الأردن . وقد بدأ الفريق الأميركي نفسه ، مسحاً جديداً في المنطقة يشمل الضفة الشمالية لوادي الحسا منذ عام ١٩٩٠ ، نتج عنه اكتشاف عدد من مواقع ما قبل التاريخ^(١٠) .

ويعتبر مشروع دونالد هنري (D. Henry) الذي قام به بين عامي ١٩٧٩ و ١٩٨٤ في منطقتي رأس النقب والقويرة في جنوب الأردن، من أهم المشاريع المنظمة والمنهجية التي درست المنطقة . وقد شارك الباحث في الفريق الأثري المشارك في أعمال المسح في موسمي ١٩٧٩ و ١٩٨٠ ، إذ قام هنري بدراسة أحوال البيئة القديمة لمعرفة أنماط الاستيطان المختلفة في العصور القديمة في منطقتي رأس النقب والقويرة . وتتمثل فيها ثلاث مناطق جغرافية نباتية (البحر المتوسط، وإيرانو - طورانية Irano - Torania وصحاري - سنديان Shara Sindian متجاورة تمثلت في منطقة الاراضي العليا ومنطقة سفوح الهضبة ومنطقة قعر الوادي) . وقد تم تسجيل واحد وسبعين موقعاً أثرياً ابتداء من العصر الحجري القديم وحتى نهاية العصر الحجري - النحاسي ، وحفرت أسبار اختبارية في ١٩ موقعاً^(١١) . وأشارت نتائج المسوحات إلى وجود علاقة قوية بين كثافة مناطق

الاستيطان في الفترات القديمة ومستوى ارتفاعها عن سطح البحر . ففي المناطق التي يصل ارتفاعها إلى ١٠٠٠ م ، يصل عدد المواقع أعلى نسبة إذ بلغ عددها ثمانية مواقع في الكيلو متر مربع . أما المناطق التي يتراوح ارتفاعها ما بين ١٠٠٠ - ١٢٠٠ م فإن استيطانها كان خلال إطار بيئات مناخية مختلفة ومتنوعة في الماضي . بينما نجد أن المناطق ذات الارتفاع ٩٦٠ م لم تكشف عن أية أدلة على سكنى تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى ، والأوسط ، والأعلى . وتميزت مواقع المناطق المنخفضة بأنها مؤقتة وموسمية ، ومقتصرة على فصول الشتاء الممطرة . أما المناطق المرتفعة ١٢٠٠ - ١٣٠٠ م ، فقد استخدمت للسكنى الطويلة خلال فترات الدفء المناخي فقط^(١٢) .

وأشار سليمان الفرجات من فريق التنقيب في منطقة الحميمة إلى وجود ثلاثة مواقع تعود إلى العصور القديمة ، منها اثنان يرجعان للعصر الحجري الحديث قبل الفخار (ب) ، والثالث يعود للعصر الحجري القديم^(١٣) . وأشرف فريق من دائرة الآثار العامة الأردنية على مسح المنطقة مجدداً من خلال مسح منطقة الطريق الجديد لرأس النقب - العقبة عام ١٩٩١ ، نتج عنه تثبيت وتحديد مواقع جديدة تعود للعصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث ، والعصر الحجري النحاسي^(١٤) .

كما أجرى و . ج . جوبلنج (W. J. Jobling) مسحاً أثرياً للمنطقة الواقعة بين معان وخليج العقبة اعتباراً من عام ١٩٧٩ ولغاية ١٩٩٠ . وقد شمل المسح وادي عربة وحوض الحسمى ، ونتج عنه اكتشاف ما يقارب عشرين بناء دائرياً قليل المساحة أرخت إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري . كما وأشار إلى موقع عين الحمام كأحد مواقع العصر الحجري الحديث ، وتليلات

محطة المدورة ، وجبل أم المقور ، إضافة إلى عدد من مواقع العصر الحجري - النحاسي : مثل هضبة الفلا ، وسيل الحمام ، وتل الخرزة . وقد قام جوبلنج بحفر خندقين في تل الخرزة ، نتج عنهما تمييز ١٩ طبقة أثرية واستمرارية للاستيطان البشري منذ العصر الحجري - النحاسي وحتى العصر البرونزي الوسيط . وقد عثر في طبقات العصر الحجري النحاسي على أدوات صوانية وعظام حيوانات^(١٥) .

وأشار المسح الأثري لمنطقة جنوب معان الذي قام به ادواردو بورزاتي (E. Borzati) منذ عام ١٩٨٥ ، إلى وجود مواقع تعود إلى العصر الحجري القديم ، والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري ، والعصر الحجري النحاسي^(١٦) . كما قام مجاهد المحيسن بمسح أثري لمناطق معان والشوبك ، وعثر على عدة مواقع تعود للعصر الحجري القديم^(١٧) .

وقامت أليسون بتس (A. Betts) بدراسة الأدوات الصوانية التي جمعها والمسلي وايت (W. White) من عدة مواقع في منطقة معان، ومن داخل الحدود السعودية وأرجعت بعضها إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري^(١٨) .

وفي وادي العسال الذي يقع إلى الغرب من الكرك، جرى مسح أثري من قبل ليندا جاكوبس (L. Jacobs) في عام ١٩٨١ . وتبين من المسح وجود ٩٠ موقعاً أثرياً منها ثلاثة ترجع للعصر الحجري القديم الأوسط ، وواحد للحجري النحاسي^(١٩) .

ونتج عن المسح الأثري لمنطقة وادي الكرك بإشراف أودو فورشيش (U. Worschech) ابتداء من عام ١٩٨٣ ، اكتشاف وتوثيق عدد من المواقع الأثرية، منها اثنان يعودان للعصر الحجري القديم ، وموقع يعود للمرحلة اللاحقة للعصر

الحجري القديم ، وآخر يعود للعصر الحجري النحاسي ، وهو موقع أم سدره^(٢٠) .

وقد شهدت المنطقة الممتدة من البحر الميت شمالاً وخليج العقبة جنوباً ، نشاطاً ميدانياً مكثفاً تم فيه دراسة مناجم تعدين النحاس ومناطق استخراجها الذي بدأ استغلاله في العصر الحجري النحاسي في الألف الرابع ق . م . فقد تم مسح أثري لمنطقة وادي عربة عام ١٩٧٩ من قبل ت . ريكس (T. Raikes) ، أشار فيه إلى وجود مواقع تعود للعصور الحجرية القديمة^(٢١) . وقامت بعثة أثرية بإشراف بيرتون مكدونالد (B. MacDonald) بمسح منطقة الغور الجنوبي ومنطقة وادي عربة عام ١٩٨٥ و ١٩٨٦ . ونتج عن المسح تثبيت وإعادة تحديد خمسة مواقع للعصر الحجري الحديث ، وثمانية مواقع للعصر الحجري النحاسي ، إضافة إلى مواقع تعود للعصر الحجري الحديث / العصر الحجري النحاسي ، ومواقع للعصر الحجري النحاسي / العصر البرونزي^(٢٢) . كما قامت بعثة ألمانية - أردنية بالاستكشاف والتنقيب في منطقة فينان ، بهدف التعرف على أوجه استغلال واستخراج النحاس من مناجم المنطقة^(٢٣) .

التنقيبات الأثرية في جنوب الأردن :

كشفت المسوحات الأثرية الآتفة الذكر، عن تسجيل وتدوين عدد كبير من المواقع الأثرية الهامة التي تعود إلى مختلف فترات عصور ما قبل التاريخ . وقد تركز اهتمام المنقبين في جنوب الأردن في اختيار المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) ، كمناطق لإجراء التنقيبات الأثرية فيها . بينما نجد أن المواقع الأثرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم ، بأقسامه الثلاثة والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم قد تركت دون تنقيب باستثناء

إجراء بعض الأسبار التجريبية . ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى عدم العثور على مواقع داخل الكهوف أو ذات طبقات استراتغرافية . وقد أجريت تنقييات أثرية منظمة في مناطق متعددة من جنوب الأردن منذ منتصف هذا القرن ، وأستعرض فيما يلي هذه التنقييات بحسب تسلسلها التاريخي .

تعتبر تنقييات ديانا كير كبرايد في موقع عين أبو نخيلة في وادي رم من أوائل التنقييات التي جرت في جنوب الأردن . فقد قامت كير كبرايد بحفر عدة مربعات في الموقع بهدف التأكد من التاريخ المقترح من قبل ستيكيلس^(٢٤) . كما قامت كير كبرايد بالتنقيب في البيضا بالقرب من البتراء ، وتعتبر التنقييات التي أجرتها كير كبرايد في هذا الموقع منذ عام ١٩٥٨ من أهم الحفريات التي جرت في مواقع العصور الحجرية في شرق الأردن، من حيث النتائج التي تم التوصل إليها ، والتي كشفت عن ست سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري (ب) . وأظهرت هذه الحفريات التطور في مجال العمارة من خلال الانتقال من البيوت الدائرية الشكل إلى البيوت المستطيلة . وكشفت عن سوية أخرى تعود للفترة النطوفية . وإضافة لذلك ، فقد درست النباتات القديمة ، وعظام الحيوانات القديمة ، والبيئة في الموقع من قبل الاختصاصيين كل في مجاله^(٢٥) .

وقام هنري بحفر عدة أسبار تجريبية في مواقع راس النقب ، والقويرة ، والحميمة كموقع طور صبيحة ، وطور فرج ، وطور عايدة ، وطور حمار ، ومواقع J412, J403, J14 أثناء المسوحات الأثرية التي قام بها اعتباراً من ١٩٧٩ في هذه المناطق^(٢٦) . وقامت كريستال بنت (C. Bennet) عام ١٩٧٩ بحفر أسبار استكشافية في موقع الذراع، كشفت عن وجود بعض الحفر السكنية التي تعود للعصر الحجري الحديث الفخاري^(٢٧) . وقام إيان كوجيت

(I. Kuijt) ومحاسنة في عام ١٩٩٤ بتنقيبات أثرية في موقعي الذراع ووادي الويضة ، نتج عنها الكشف عن بقايا معمارية في موقع الذراع^(٢٨) . كما قام جويل بحفر بعض الأسبار التجريبية في عام ١٩٨١ في المواقع التي اكتشفها في المنطقة المحيطة بالبتراء ، مثل الضمان ، وشكارة مساعيد ، والبعجة ، والثغرة ، وصبرا « ١ »^(٢٩) . وأجرت البعثة المشرفة على المسح الأثري لوادي الحسا عدة أسبار بهدف التأكد من بعض المواقع المكتشفة في المنطقة ، مثل وادي الحسا ١٠٦٥ ، ووادي الحسا ٦٢٣ X ، وادي الحسا ٧٨٤ X^(٣٠) . وأجرى لطفي خليل موسمين من الحفريات عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ في موقع المقصر بالقرب من العقبة ، كشف عن وجود مبان سكنية في الموقع تعود للعصر الحجري النحاسي^(٣١) . وقامت بعثة أردنية - ألمانية مشتركة بإجراء عدة مواسم من التنقيبات الأثرية اعتباراً من عام ١٩٨٥ في موقع البسطة بالقرب من الطفيلة ، وأسفرت هذه التنقيبات عن الكشف عن مخلفات قرية تعتبر من أكبر مواقع الشرق الأوسط مساحة ، وتعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري «ب»^(٣٢) . وقام الفريق الأردني المشارك في فريق المسح الأثري لمنطقة فينان بالتنقيب في موقع وادي فينان ٤ خلال موسمي ١٩٨١ و ١٩٨٣ . وقد شارك الباحث في التنقيب في موسم ١٩٨٣ ، وأسفرت التنقيبات عن الكشف عن مخلفات معمارية ومادية تعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري (الثقافة اليرموكية)^(٣٣) ، وبدأ الفريق الأثري سنة ١٩٩٣ أعمال التنقيب في موقع الغوير « ١ » ويعود تاريخه إلى المرحلة « ب » من العصر الحجري الحديث قبل الفخاري^(٣٤) .

ومما لاشك فيه أن التحريات الأثرية وكذلك التنقيبات في جنوب الأردن

لاتزال في بدايتها ، وقد تزودنا التنقيبات مستقبلاً بكثير من المعلومات حول المنطقة وتاريخها . وعلى الرغم من أن مسوحات أثرية شاملة قد جرت في منطقة جنوب الأردن ، وزودتنا بمعلومات غنية عن الفترات القديمة ، إلا أن القليل من المواقع قد جرى فيها تنقيبات أثرية وخصوصاً مواقع العصر الحجري القديم بفتراته المختلفة . وسنقصر حديثنا هنا على المواقع الأثرية التي جرى التنقيب فيها أو تلك التي درست بشكل منهجي منظم .

العصر الحجري القديم الأدنى (جدول رقم ١) (خارطة رقم ٢) :

لم يعثر حتى وقتنا الحاضر على أية موقع يحتوي على مخلفات تعود إلى فترة العصر الحجري القديم الأدنى الباكر في منطقة جنوب الأردن، علماً أن منطقة غور الأردن قد احتوت على موقعين هامين يمثلان هذه الفترة ، هما أبو هابيل وأبو الخس ، بينما تمثلت مرحلة العصر الحجري القديم الأدنى الأوسط (الأنشولية الوسطى) بموقعين سطحيين .

وتوجد مواقع المرحلة الثالثة وهي العصر الحجري القديم الأدنى / الأعلى ، في مواقع سطحية مكشوفة في المرتفعات الجبلية المطلّة على الوديان والبحيرات القديمة (مثل الحسا والجفر) . وأهم هذه المواقع :

١ . أبو الجرذان^(٣٥) :

يقع إلى الشمال من مدينة معان وعلى بعد ٥ كم . تم التعرف على الموقع أثناء المسح الأثري لمنطقة معان بإشراف مجاهد المحيسن عام ١٩٨٦ ، وهو يقع على الجانب الأيسر لوادي الجرذان ، ضمن الترسبات النهرية لوادي الجرذان ،

وهي ترسبات غرينية صفراء اللون تبلغ سماكتها حوالي ١٥ م ، أرخها بندر (Bender) إلى فترة البليستوسين المتأخر^(٣٦) . وتنتشر ضمنها خمس قطع وجدت في أماكنها الطبيعية . وتمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط الجانبية (Side Scrapers) والشظايا الليفلوازية (Levallois Flakes) إضافة إلى المقاشط العلوية (End Scrapers) والمخارز (Borers) . كما تم العثور على خمس أدوات من ذات الوجهين (Biface) منها اثنان بشكل مثلثي طويل ، ومن النوع البيضوي وقطعة أبيفيلية . واللافت للنظر أن الموقع قد تعرض لعوامل تعرية في المنطقة الشمالية الشرقية . وأرخ الموقع بناء على مقارنة الأدوات الصوانية مع المناطق المجاورة إلى الفترة الآشولية المتأخرة .

٢. الجفر موقع ٧٢^(٣٧) :

يقع على بعد ١٢ كم إلى الشرق من مخفر الجفر على منتصف الطريق بين معان والجفر . وتشتمل الأدوات التي جمعها زينور من الموقع ، على فؤوس يدوية بالإضافة لشظايا ، وأنوية ، لصناعة الأدوات .

٣. الفجيج^(٣٨) :

يقع على بعد ٤ كم إلى الشمال الشرقي من قلعة الشوبك . اكتشفت الموقع عام ١٩٧٩ جاري رولفسون (G. Rollefson) . وتنتشر الأدوات الصوانية على مساحة ١٥ دونماً داخل المحطة الزراعية الحالية ، ويشرف الموقع على وادي البستان مباشرة . وكانت الأدوات الصوانية الملتقطة عن السطح وعددها ١٣٤ قطعة من ذوات الوجهين ذات الأشكال المختلفة ، إذ صنف ٣١ قطعة ذات شكل رمحي و ٣٦ قطعة قلبية ، و ٣٧ قطعة بيضوية ، إضافة إلى السواطير ذوات الوجهين جانبية وأبيفيلية . كما تم تصنيف نوع جديد أطلق عليه اسم D

باللاتينية .

وقد ظهرت نماذج مشابهة لهذا النوع في مناطق الأزرق في الصحراء الأردنية، إضافة إلى المقاشط الجانبية والمستنات والثلثات التي بلغ عددها ١٢٣ قطعة . ويؤرخ الموقع للثقافة الآشولية المتأخرة .

٤- موقع ج ٤٠١ (٣٩) :

عثر على الموقع عام ١٩٨٠ من قبل هنري بالقرب من وادي كلخة، وهو يرتفع نحو ١٠٠٠م تقريباً عن مستوى سطح البحر ، وتنتشر الأدوات الصوانية على سطح مساحته تبلغ ٤٠٠٠ متر مربع . وتشير دراسة الأدوات التي التقطت عن السطح ، والتي بلغ عددها ٦٦ قطعة منها ٢٧ أداة بأنها تتميز بوجود أدوات ذات الوجهين (Bifaces) القلبية ، واللوزية ، والرحمية الشكل، إضافة إلى الأدوات المشذبة (Retouched Tools) ، والمقاشط الجانبية (Side Scrapers) والثلثات (Notchs) ، والقطع المطروقة (Troncations) ، والمثاقب (Borers) ويشير هنري إلى تشابه الصناعة التي وجدت في الموقع مع تلك التي وجدت في موقع الفعيج من حيث أنهما على نصال (Blades) .

العصر الحجري القديم الأوسط (جدول رقم ٢) (خارطة رقم ٢):

أشارت نتائج المسوحات الأثرية في منطقة جنوب الأردن وخاصة منطقة وادي الحسا ورأس النقب إلى وجود كثيف لمواقع هذه الفترة ، وتم تأكيد ذلك عن طريق الأسبار الاستكشافية والتجريبية التي جرت في بعض هذه المواقع . وقد عثر على المخلفات المادية لإنسان النياندرتال في مواقع مكشوفة ، وملاجئ صخرية ، ولم يتم حتى الآن العثور على كهوف أو مغائر تعود إلى هذه المرحلة. ولا بد من التنويه إلى عدم اكتشاف بقايا إنسانية تعود لإنسان النياندرتال في مواقع هذه الفترة في الأردن . وتالياً بعض المواقع التي جرت بها أسبار تجريبية وكشفت عن وجود تراكمات طبقية :

١ . طور صبيحة (ج ٨)^(٤٠)

يقع على الطرف الغربي لحوض الجديدة ، وهو ملجأ صخري اكتشفه وحفر أسباراً تجريبية فيه هنري منذ عام ١٩٧٩ . وكشفت الأسبار عن ثلاث طبقات تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط ، وكانت الطبقة « ج » أغناها بالأدوات الصوانية ، إذ احتوت على ٩٠٪ من الأدوات الصوانية المكتشفة في الموقع . وتميزت الأدوات الصوانية بالمديبات الليفلوازية (Levallois Points) إضافة إلى المقاشط الجانبية والمقاشط العلوية .

٢ . عين الدفلة (وادي الحسا موقع ٦٣٤)^(٤١)

ملجأ صخري يقع بالقرب من وادي العلي في وادي الحسا . كشفت الأسبار فيه عن وجود مديبات ليفلوازية طويلة ، تذكرنا بتلك التي وجدت في مغارة الطابون في فلسطين . وكذلك عثر على بقايا حيوانية ونباتية .

العصر الحجري القديم الأعلى (جدول رقم ٣) (خارطة رقم ٣) :

تعتبر مواقع هذه الفترة قليلة كما هو الحال في بقية مناطق الشرق ، وإن كانت منطقة وادي الحسا قد أفرزت عدداً كبيراً من المواقع التي في غالبيتها سطحية . ولم يتم إجراء حفريات أو تنقيبات أثرية في مواقع هذه الفترة ، وإنما جرت بعض الأسبار التجريبية ، وتالياً أهمها :

١- موقع (٦٨١) (٤٢) :

يقع في الجهة الشمالية الغربية من بحيرة البلايستوسين التي وجدت في منطقة وادي الحسا في فترة ما قبل التاريخ . يعتبر هذا الموقع من أهم مواقع هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن ، إذ تنتشر الأدوات الصوانية على مساحة تقدر بحوالي ١٢٠٠٠ متر مربع ، وقد عثر على ما يقارب ٣٠٠٠٠٠ قطعة صوانية . وتدل الأسبار التي قام باجرائها كلارك في الموقع بأنه استخدم كمخيم غير ثابت (Base - Camp) . تمتاز الأدوات الصوانية بوجود المقاشط العلوية ، والمناقيش ، والشفرات ، والشظايا المشذبة الحواف ، والمثاقب ، والمقاشط الجانبية ، والمدقات . وإضافة إلى الأدوات الصوانية فقد عثر على بقايا حيوانية ونباتية . وقد تم تأريخ الموقع بواسطة الحصول على تاريخ كربون مشع ، وكان ٢٠٣٠٠ + من الوقت الحاضر .

٢- موقع ٦٢٣ X (٤٣) :

يقع فوق هضبة صغيرة مستديرة الشكل بالقرب من شاطئ البحيرة القديمة . وهو موقع صغير المساحة إذ تبلغ مساحته ٤ أمتار مربعة فقط . ويعتقد كلارك بأن الموقع استخدم كمكان لتصنيع الأدوات .

٣. موقع ٧٨٤ X (٤٤) :

وهو ملجأ صخري يقع في وادي الحسا . تتميز الأدوات الصوانية المكتشفة بأنها مصنوعة من النصال ، والنصال الصغيرة ، والشظايا وتكونت من المكاشط العلوية والمناقيش . وتشير هذه الأدوات إلى تشابه مع الأدوات الكبارية أكثر من كونها مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم الأعلى والمرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم . كما يؤكد التاريخ الذي تم الحصول عليه من عينة إلى ١٩٠٠٠ + ١٣٠٠٠ من الوقت الحاضر .

المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم (جدول رقم ٤) ، (خارطة رقم ٤) :

تمتاز منطقة جنوب الأردن باحتوائها على مواقع تعود لثقافات المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم سواء الكبارية ، والكبارية الهندسية ، والثقافة النطوفية . وأطلق بعض الباحثين على بعض الثقافات أسماء محلية كالحمارية والكلخية على صناعات صوانية وجدت في بعض مواقع المنطقة مثل الحمارية . وتبدو غالبية المواقع سطحية ، ولم تقم بها حفريات منتظمة ، بل أجريت أسبار تجريبية في بعض المواقع .

١. البيضا (٤٥) :

تقع على بعد ٥ كم جنوبي البتراء . أظهرت التنقيبات الأثرية التي اشرفت عليها كير كبرايد ، وجود سوية أثرية تعود للثقافة النطوفية أسفل السويات الأثرية التي تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . وتمتاز الأدوات انصوانية النطوفية بوجود كثيف للأدوات ذات تشذيب حلووان

(Helwan Retouche) وتشذيب شديد الانحدار (Abrupt Retouche) ،
إضافة إلى أعداد كبيرة من المقاشط العلوية المصنعة على نصال (Blades) ،
والمثلثات (Notches) ، والمستنات (Denticulates) ، إلى جانب الأدوات
القزمية .

٢-٢ ج ٢٠٢ (٤٦) :

وهو موقع مكشوف في منطقة رأس النقب ، اكتشفه هنري عام ١٩٨٠
أثناء المسح الأثري لرأس النقب . ودلت الأسبار التجريبية عن وجود أدوات
صوانية تعود للثقافة الكبارية الهندسية .

٣-٣ ج ٥٠٤ (٤٧) :

يقع بين جبل المشرق في الشمال وجبل الميسي في الجنوب . تدل نتيجة
الأسبار التي حفرت عام ١٩٨٢ على وجود أدوات صوانية تتميز بالمقاشط
العلوية ، والأدوات المثلمة ، والأدوات المشذبة ، والأدوات القزمية غير الهندسية .

٤-٤ صبرا « ١ » (٤٨) :

يقع في الجزء الشمالي من وادي صبرا وهو موقع مكشوف . أظهرت
الأسبار الاستكشافية التي أجراها شيل عام ١٩٨٧ عن وجود سويتين أثريتين :
العليا وتمثل الثقافة الخيامية ، واشتملت السوية السفلى على قطع صوانية بلغ
عددتها ١٨١٩ منها ٩٨ أداة . وامتازت هذه الأدوات بوجود كثيف للأدوات
القزمية الهندسية وغير الهندسية للمقاشط العلوية . وتمتاز الأدوات القزمية
بتشذيب حلوان ، والذي يميز الفترة النطوفية القديمة .

٥-٥ الطبقة (موقع ١٠٢١) (٤٩) :

يقع على الضفة اليمنى لوادي الأحمر على بعد ٣٠٠ م تقريباً من موضع

التقائه مع وادي الحسا . تنتشر الادوات الصوانية على مساحة تبلغ ٥٠٠٠ متر مربع . وتميزت الادوات الصوانية التي التقطت عن السطح وعددها ٥٤٥ قطعة بوجود مقاشط علوية ، وأدوات قزمية هندسية ، ومثلّات ، ومسنّات .

٦. المدمغ^(٥٠) :

ملجأ صخري يقع إلى الشمال الغربي من البتراء . ودلت الأسبار التي أجرتها كير كيرايد في الموقع عام ١٩٦٦ عن اكتشاف بقايا عظام حيوانية وأدوات صوانية تعود للفترة النطوفية ، كما قامت بعثة ألمانية بإجراء أسبار عام ١٩٨٣ ، أظهرت أدوات قزمية غير هندسية .

العصر الحجري الحديث (جدول رقم ٥) (خارطة ٥ و ٦) :

يجمع غالبية العاملين في آثار ما قبل التاريخ على تقسيم هذا العصر إلى مرحلتين ، هما العصر الحجري الحديث المبكر (حوالي ٨٥٠٠ - ٥٥٠٠ ق.م) ويشمل مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، « ب » والعصر الحجري الحديث المتأخر (٥٥٠٠ - ٣٧٥٠ ق.م) ويشمل العصر الحجري الحديث الفخاري (اليرموكية ، المرحلة « أ » و « ب ») .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » :

لا يزال هذا العصر من أكثر العصور غموضاً ، فالمعلومات المتوافرة عن هذه الفترة قليلة جداً سواء في الأردن أو في البلاد المجاورة ، والمواقع التي تعود إلى هذه الفترة تعد على الأصابع ولا يزال موقعا أريحا والمريبط هما المرجعين الأساسيين لمعلوماتنا عن هذه الفترة . فمن خلال ماعثر عليه في هذين الموقعين نستطيع التعرف إلى خصائص هذه المرحلة وخاصة على عمارة هذه الفترة ، والتي تتميز

بالبناء الدائري والغائر أحياناً في الأردن ، والمشيدة من الطوب أو الحجارة ، وذلك حسب ماهو متوافر في البيئة الجغرافية . وتمثل هذه الفترة في منطقة جنوب الأردن بثلاثة مواقع هي الذراع ، وجبل القويسي ، وصبرا « ١ » . وتم التعرف على هذه المواقع من خلال رؤوس السهام الخيامية التي وجدت في المواقع . ويبدو أن هذه المواقع استخدمت محطات لخدمة الصيادين الذين كانوا يستخدمون الصيد وسيلة معيشية لفترات قصيرة جداً .

١- الذراع^(٥١) :

أُكتُشِفَ الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، وأظهرت الأدوات الصوانية التي وجدت على السطح وخاصة رؤوس السهام الخيامية أن الموقع يعود إلى العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » . وفي عام ١٩٩٤ قام كوخيت ومحاسنة بإجراء حفرة في الموقع ، الذي بلغت مساحته في هذه الفترة حوالي ٤٠٠٠ م^٢ أسفرت عن الكشف عن بقايا عمائرية تتمثل بينائين تحت مستوى الأرض . كما عثر على بقايا بيت دائري مبني من الحجارة ، ويبلغ ارتفاع الجدران فيه حوالي ٨٥ سم . وإضافة إلى البقايا العمائرية ، فقد عثر على رؤوس سهام خيامية ومثاقب وقدم داخل البيوت وخارجها . وهناك تأريخ كربون ١٤ يعطي ٩٩٦٠ + ١١٠ تاريخاً للموقع .

العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » :

تمثلت هذه الفترة بالعديد من المواقع والتي في غالبيتها كانت تشتمل على بقايا عمائرية (خارطة ٦) .

١- عين أبو نخيلة :

تقع أطلال هذا الموقع الذي تبلغ مساحته ٥٠ x ٤٥ م ، والذي تبدو مخلفاته

المعمارية على الشكل البيضوي غير المنتظم ، ظاهرة على السطح ، على بعد ٥ كم جنوب بقايا المعبد النبطي ومركز الشرطة . ويحتوي الموقع على مجموعة من العيون في أسفل جبل رم . اكتشف الموقع عام ١٩٤٧ من قبل الكس كير كبرايد ولانكستر هاردنج^(٥٢) ، وقام بدراسة الأدوات الصوانية موسى ستيكليس الذي أرخ الموقع إلى السوية الثامنة لأريحا^(٥٣) . وكشفت ديانا كير كبرايد التي قامت بإجراء حفرة تجريبية في الموقع عام ١٩٥٧ عن مخلفات معمارية تتضمن نطين من المباني ، أحدهما دائري الشكل والآخر مستطيل الشكل . ويتألف أحد المباني من غرفة دائرية الشكل مشيدة تحت مستوى الأرض على غرار مباني البيضا ، باستثناء أنه لا توجد تجاويف للأعمدة في الجدران . وبالإضافة إلى الأدوات الصوانية التي امتازت بوجود رؤوس السهام ، فقد تم العثور على عدد من المخلفات الأثرية كالألات الحجرية وأدوات الزينة ، وأرجعت المنقبة قلعة سماكة المخلفات السكنية في الموقع إلى قصر فترة الاستيطان التي شُغل الموقع خلالها ، وتعتقد بأنه لم يكن مسكوناً على مدار العام ، وإنما كان محطة لأغراض الصيد . ويؤيد ذلك كثرة رؤوس السهام المختلفة ، والتي وجدت بأعداد كثيرة . واقترحت المنقبة إرجاع تاريخ الموقع إلى المرحلة الانتقالية بين العصرين الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » والحجري الحديث الفخاري « أ » (٥٤) .

٢- البسطة^(٥٥) :

يمتاز موقع البسطة بمساحته الكبيرة ، إذ تبلغ أكثر من ١٤ هكتاراً ، وبطرازه المعماري المتميز ، وبكون القرية قد بنيت حسب تخطيط مسبق . فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي جرت في الموقع منذ عام ١٩٨٥ وحتى الآن عن قنوات مبنية من الحجارة الدبش بعرض ٢٠ سم وعمق ٤٠ سم ، ولم تكن هذه القنوات مقصورة من الداخل ، ولا تسد الفجوات في جدرانها بأية مواد ، مما

ينفي استخدامها لتصريف أو جمع المياه ، ويعتقد بأنها استخدمت لعمل توازن بين المباني المختلفة . وقد عثر على نموذجين من المباني ، امتاز الأول بغرف ووحدات سكنية مختلفة المساحات مع عدم وجود مساحات فارغة بين الأبنية ، ومن أهم هذه المباني الغرفة التي بلغت مساحتها ٥٠،٢٤ × ٩ م . بينما امتاز الثاني بمجموعة من وحدات سكنية مكررة بنيت بتخطيط مسبق ، فكل وحدة سكنية تحتوي على ساحة مركزية أو غرفة واسعة محاطة بثلاثة أو أربعة صفوف من الغرف الصغيرة المساحة على ثلاث جهات . واحتوت الجهة الرابعة صفين من الغرف الصغيرة المساحة المتعاكسة الاتجاه . (لوحة رقم) . وتم الكشف عن مجموعة من الهياكل البشرية المدفونة تحت أرضيات المنازل أو القنوات الحجرية .

٣ - البيضا^(٥٦) :

تعتبر البيضا من أوائل مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » التي تم التنقيب فيها في منطقة جنوب الأردن . وهي تقع في وادٍ على مسيرة ساعة إلى الشمال من مدينة البتراء الأثرية النبطية في طريق بين الجبال ، وتحيط بها التلال الرملية من الجانبين . وتقع على سطح تبلغ مساحته ٦ كم وعلى ارتفاع ١٠٠٠ م عن سطح البحر . بدأت أعمال التنقيب بإشراف د. كير كيرايد على مدى ثمانية فصول، من ١٩٥٨ ولغاية ١٩٦٧، وكان الموسم الأخير عام ١٩٨٣ . وكشفت التنقيبات الأثرية عن مرحلتين أثريتين ، الأولى تعود للفترة النطوفية ، والثانية تحتوي على ست سويات أثرية تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » ، رقمتها ١ إلى ٦ من الأحدث إلى الأقدم . وتفصل بين المرحلتين طبقة عازلة من التراب بسماكة ٣ أمتار . وتحتوي السويات الست على بقايا لست قرى تختلف في هندستها وبنائها الواحدة عن الأخرى ، إنما الصفة العامة الجامعة بينها هي أنها دون مستوى الأرض ويُنزل إليها بثلاث درجات

حجرية . وأقيمت بيوتها من الحجارة الغفل الكبيرة ، وسدت الفجوات بينها بالحجارة الصغيرة والحصى .

وتعتبر السوية السادسة ممثلة لأولى المراحل السكنية في الموقع ، حيث جاءت هذه المباني دائرية الشكل ومبنية من جدران حجرية تتخللها تحاويف لأعمدة خشبية. وتم الكشف عن خمسة بيوت رصفت أربعة منها بالجص . ووجد في اثنين منها ثقبوب لدعامة ، تمثل الدليل الوحيد في الموقع على كيفية وضع السقف. وقد وجدت هذه البيوت متلاصقة بعضها ببعض، مما دعا المنقب لتشييدها بخلية النحل . كما عثر في أحد البيوت على كميات من الحبوب المتخشبة من الشعير ، والقمح ، والفستق .

أما السوية الخامسة، فاحتوت على بيوت دائرية بجدران سميكة عرضها نصف متر، وتشبه بيوت أريحا في مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، إلا أن بيوت البيضا امتازت بأن أرضياتها وجدرانها غطيت بالقصارة البيضاء .

بينما جاءت بيوت السوية الرابعة بيضوية الشكل بزوايا دائرية ، وكان البيت مكوناً من غرفة واحدة ، تنخفض أرضياتها تحت مستوى الأرض ، وينزل إليها بثلاث درجات ، وشيدت من الحجر الرملي ، كما غطيت الأرضيات والجدران بالقصارة . وتفصل هذه الغرف عن بعضها البعض ساحات مكشوفة ، واحتوت بعض الغرف على مواقد لها حواف تبرز عن مستوى أرضية الغرفة ، ومغطاة بالقصارة أيضاً . أما مباني السوية الثالثة والسوية الثانية فهي متشابهة ، وقد كشفت المنقب عن المخطط الكامل لبنائين ، واحد في السوية الثالثة والآخر في السوية الثانية ، وهما متشابهان في مخططهما الذي يتألف من ممر ضيق

٨ × ١ م ، وتصطف ثلاث غرف على كل جانب . وتبلغ أبعاد هذه الغرف حوالي ١ × ١,٥ م ، وسي مغطاة بالقصارة من الأعلى ، ويبلغ ارتفاع الجدران المتبقية حوالي المتر . وتقع هذه المباني تحت مستوى الأرض ، ويُنزل إليها بثلاث درجات وأرضياتها مغطاة بالحص ، وتحتوي بعض هذه الغرف على مصاطب حجرية . وتتفق مع المنقبة على أن هذه المباني استخدمت كمبان ذات وظائف عامة ، حيث يستدل من مساحتها ومن محتوياتها على أنها كانت مراكز تجارية وصناعية لصناعة المنتجات الصناعية وبيعها ، كالجواريش ، المدقات ، وأدوات الزينة ، والأدوات الصوتية والعظمية . كما وجدت إلى الجنوب من مباني الممرات غرفة واسعة مساحتها ٩ × ٧ م ، مستطيلة الشكل ، وينزل إليها بثلاث درجات ، مما يؤكد أن هذه الساحة كانت تحت مستوى الأرض أيضاً . واحتوت الساحة على موقد كبير له حافة بارزة من الحجر . وظليت الأرضية والجدران بالقصارة البيضاء ، وظهر على بعض طبقاتها حروز من الخطوط الحمراء على مسافة ٢٥ سم من الحائط ، تمتد إلى أسفله لتؤلف شريطاً تزينياً يذكرنا ببيوت شاتال هويوك (Catal HOYUK) وهاجيلار (Hacilar) في الأناضول . وعثر على الأدوات الصوتية والتي قام بيدر مورتسن (P. Mortensen) بدراستها وتصنيفها^(٥٧) . وعثر أيضاً على أدوات عظمية كالمخارز ، والدبابيس ، والملاعق ، وكان بعضها مصقولاً والقليل منها يحمل زخرفة أو محزراً . وعثر كذلك على أدوات الزينة ، وتتضمن عدداً من الخرز المصنوع من العظم ، ومن الصدف ، ومن الحجر . كما وجد العديد من التماثيل الطينية ، والتي تمثل أشكالاً حيوانية في الغالب . كما عثر على أربعين هيكلاً بشرياً مدفونة تحت أرضيات المنازل ، ولم يعثر على جماجم هذه الهياكل ، إذ كانت هذه الفترة تمتاز

بفصل الجماجم عن الهيكل . وقد وُجدت أمثلة شبيهة لهذه العادة في العديد من مواقع بلاد الشام مثل أريحا في فلسطين ، وعين غزال في الأردن ، والمريبط في سورية . وكذلك عثر على بذور نباتية كالقمح ، والشعير ، والعدس ، والفتسق ، والبلوط^(٥٨) .

٤- البعجة « ١ »^(٥٩) :

موقع اكتشفه جليل عام ١٩٨١ ، وقام بحفر أسبار تجريبية فيه ، ويقع إلى الشمال من البتراء . وهو قرية أثرية كبيرة ، وتبلغ مساحة الموقع حوالي ١٠٠٠٠ متر مربع . وعثر فيه على مبان مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة الجيرية والرملية.

٥- جبل القويسي (ج ٢٤)^(٦٠) :

ملجأ صخري اكتشفه هنري عام ١٩٧٩ ، خلال المسح الأثري لمنطقة رأس النقب . وأظهرت الأسبار التي فتحها هنري عن ثلاث سويات أثرية ، رقمها أ ، ب ، ج . احتوت السويتان « أ » و « ب » على أدوات تعود للعصر الحجري النحاسي ، بينما زودتنا السوية « ج » بأدوات تعود للعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « أ » ، وفصلت بينهم سوية رملية عازلة بسماكة ٢٠ - ٣٠ سم ، واحتوت السوية « ج » على ١٨٨٤ قطعة صوانية منهما ٢٠ أداة فقط . وتميزت المجموعة الصوانية بوجود النصيلات (Bladelette) التي استخرجت من الأنوية ذات منطقة الطرق المزدوجة . وعثر على ثلاثة من رؤوس السهام ذات المقبض ، مع أثلثة متقابلة .

٦- صبرا « ١ »^(٦١) :

موقع مكشوف في الجزء الشمالي لوادي صبرا بالقرب من البتراء ، اكتشفه وحفر فيه أسباراً جليل ، وقد كشفت الأسبار عن سويتين أثريتين تفصل بينهما

طبقة من الجير الأبيض . السوية الأولى (العليا) تحتوي على مخلفات تعود للثقافة الخيامية بينما السوية الثانية (السفلى) تشتمل على مخلفات تعود للفترة النطوفية القديمة .

٧- الضمان^(٦٢) :

تقع على بعد ١ كم غرب / شمال - غرب صبرا « ١ » وبالقرب من عين الضمان . وأظهرت الأسبار التي حفرها جيبيل في الموقع عن بعض البقايا العمائرية ذات المخطط المستطيل الشكل والمشيدة من الحجارة . وتتميز الأدوات الصوانية بوجود نسبة عالية من الأدوات المشذبة إضافة إلى وجود رؤوس السهام والمثاقب . ويرجع جيبيل تاريخ الموقع إلى مرحلة العصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » الأوسط .

٨- خربة الحمام :

تقع على المنحدرات الجنوبية الشرقية لوادي الحسا . وهو موقع مكشوف أشار إليه عام ١٩٧٩ مكدونلد تحت رقم ١٤٩^(٦٣) ، ثم زاره رولفسون عام ١٩٨٥^(٦٤) . تبلغ مساحة الموقع ٢ - ٤ هكتاراً ويقع على ارتفاع ٣٠٠ م فوق مستوى البحر . وتم التعرف داخل المقطع الجانبي للطريق على مبان مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة ، ومقصورة من الداخل ومدهونة باللون الأحمر . إضافة إلى ذلك ، فقد عثر على مدقات ، وأجران حجرية ، وتمائيل إنسانية . وتتميز الأدوات الصوانية بالمناقيش والمقاشط الجانبية إضافة إلى المثاقب والأدوات المثلمة والأنوية .

٩- الغوير^(٦٥) « ١ » :

يقع موقع الغوير « ١ » على الضفة الجنوبية لوادي الغوير ، أحد روافد وادي فينان . اكتشف الموقع خلال مشروع المسح الأثري المعدني الذي أشرفت

عليه بعثة أردنية - ألمانية مشتركة في منطقة وادي عربة ووادي فينان بين ١٩٨٤ و ١٩٩٣ . تمتد مساحة الموقع على ٦٠٠٠ متر مربع . وأظهرت التنقيبات الأثرية لعام ١٩٩٣ مباني مستطيلة الشكل ذات ارضيات مطلية بالحصص ومدهونة باللون الأحمر . كما تم الكشف عن غرف بمساحة ٤ x ٤,٥ م أعيد استعمالها كغرف صغيرة المساحة ١,٥ x ١ م تذكرنا بمباني الممرات مع وجود نوافذ صغيرة استخدمت كمداخل . كما عثر في المنطقة الجنوبية الغربية من الموقع على مبان دائرية الشكل مع مدخل في الجهة الشمالية من المبنى ، ويقابل المدخل كوة (Niche) . وعثر فوق أرضية المبنى وبالقرب من الكوة على تمثال حجري صغير . وقد استخدمت الحجارة الغشيمة في بناء جدران هذه المباني . وبالإضافة إلى المباني ، فقد عثر على أدوات صوانية تتميز بوجود رؤوس السهام (Arrowheads) ، والسكاكين (Knives) ، والمناجل (Sickles) ، والمثاقب (Borers) ، وأدوات ثقيلة ، مثل أدوات الجرش والطحن ، والزبادي ، وتمثيل حجرية وطينية تمثل أشكالاً بشرية وحيوانية ، كما عثر على أدوات الحلبي المصنوعة من العظم أو الحجر الأخضر (Green Stone) . ويرجح أن تاريخ الموقع يعود إلى الربع الثاني من الألف السابع .

العصر الحجري الحديث الفخاري (جدول رقم ٦) : ١- الذراع^(٦٦) :

اكتشف الموقع عام ١٩٧٦ من قبل ريكس ، ثم قامت بنت ، بإجراء أسبار استكشافية في الموقع عام ١٩٧٩ أظهرت وجود بقايا عمائرية تتمثل ببعض حفر ذات أرضيات وجوانب محاطة بالحجارة والطين . وأظهرت الكسر الفخارية التي وجدت في الموقع أنه يعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري .

٢- تل وادي فينان (٦٧)، (٦٨) :

يقع على الضفة الجنوبية لوادي فينان على ارتفاع يتراوح بين ٢٥٠ - ٣٠٠ م عن سطح البحر . وكشفت التنقيبات الأثرية التي جرت عامي ١٩٨٨ و ١٩٩٠ عن ثلاث طبقات أثرية في الموقع . واحتوت الطبقتان الأولى والثانية عن بقايا تعود إلى منتصف الألف الخامس ، بينما اشتملت الطبقة الثالثة على بقايا تعود للفترة الرومانية - البيزنطية (القرن الرابع م) . وأظهرت التنقيبات في الطبقتين الأولى والثانية بقايا معمارية تتألف من غرفتين وساحة تقع إلى الشرق من الغرفتين (لوحة رقم) . وبلغت مساحة الغرفة الأولى ٤،٩ x ٣،٥ م والثانية ٨ x ٣،٥ م بينما بلغت مساحة الساحة ١٠ x ٧ م . كما عثر على مواعد للنيران . وكانت أرضيات الغرف والساحة من الطين أو الحصى . وعثر على أدوات فخارية تشتمل على جرار وزبادي إضافة إلى أدوات صوانية تميزت بوجود المناجل ، والمقاشط العلوية والسكاكين ، والمثاقب . ويلاحظ غياب رؤوس السهام في الموقع ، كما تم العثور على أدوات عظمية ، وصدف ، وخرز، وتمثيل فخارية وحجرية .

العصر الحجري النحاسي (جدول رقم ٧) ، (خارطة رقم ٧) :

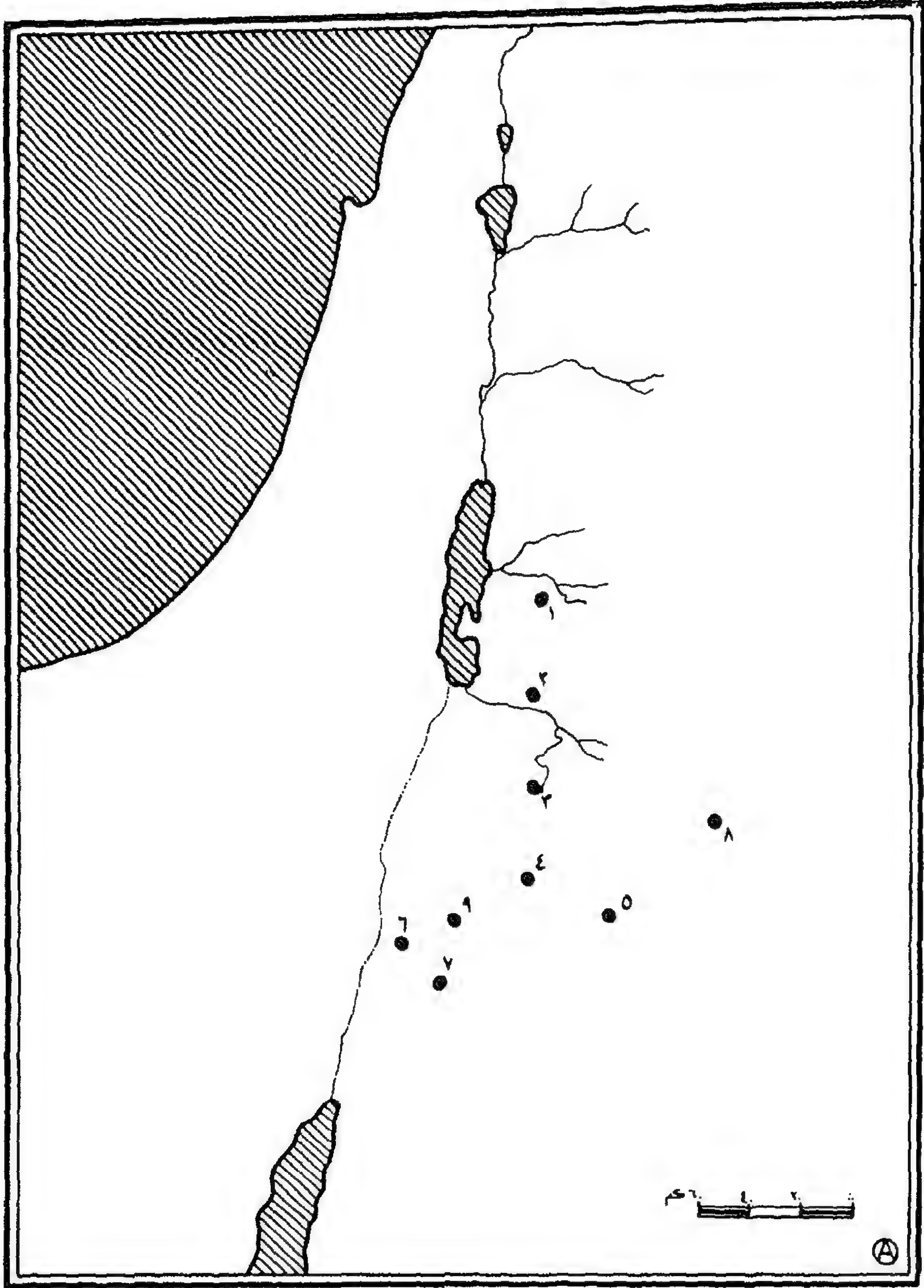
١- المقص (٦٩) :

يقع على بعد ٤ كم إلى الشمال الغربي من العقبة ، اكتشف أثناء شق طريق وادي عربة - العقبة عام ١٩٦٧ ، ثم ذكره ريكس عام ١٩٧٦ ، وأخيراً قام لطفي خليل بإجراء موسمين من التنقيبات في الموقع أعوام ١٩٨٥ و ١٩٩٠ . وأسفرت نتائج التنقيبات عن الكشف عن بيوت وغرف مستطيلة ومشيدة من

الحجارة الغفل ، وغطيت الواجهات الحجرية بالطين المخلوط بالتبن . كما عثر خلال موسم ١٩٨٥ على حفرة داخل أرضية احدى الغرف ، يبلغ قطرها حوالي المتر ، وكانت مقصورة من الداخل . كما عثر خلال موسم ١٩٩٠ في أسفل الحفرة السابقة على حفرة أخرى يبلغ قطرها حوالي ١،٩٥م وعمقها حوالي ٧٥سم وهي مقصورة من الداخل ، وكانت الحفرتان خاليتين من أية موجودات أثرية سواء فخارية أو غيرها . وإضافة إلى ذلك ، فقد عثر على العديد من الأدوات الحجرية ، كالفؤوس الحجرية ، والمدقات بأشكال مختلفة ، وطاسات حجرية ، وهروات حجرية ، مصنوعة من البازلت . ويبدو أن موقع المقص كان مركزاً صناعياً ، إذ عثر على كتل خامات غنية بالنحاس وحببيات نحاس مخلوطة مع الفحم والرماد في المقص ، مما يشير إلى أن عمليات صهر النحاس كانت تتم في الموقع . وأشار المنقب إلى وجود مواد صدفية خام ، وبقايا مخلفات صناعية ، وقطع صدفية مصنعة مما يشير إلى إمكانية استخدام الموقع كمركز لصناعة الحلبي الصدفية في العصر الحجري النحاسي ، وخصوصاً أن الموقع قريب من خليج العقبة الغني بأنواع مختلفة من الصدف .

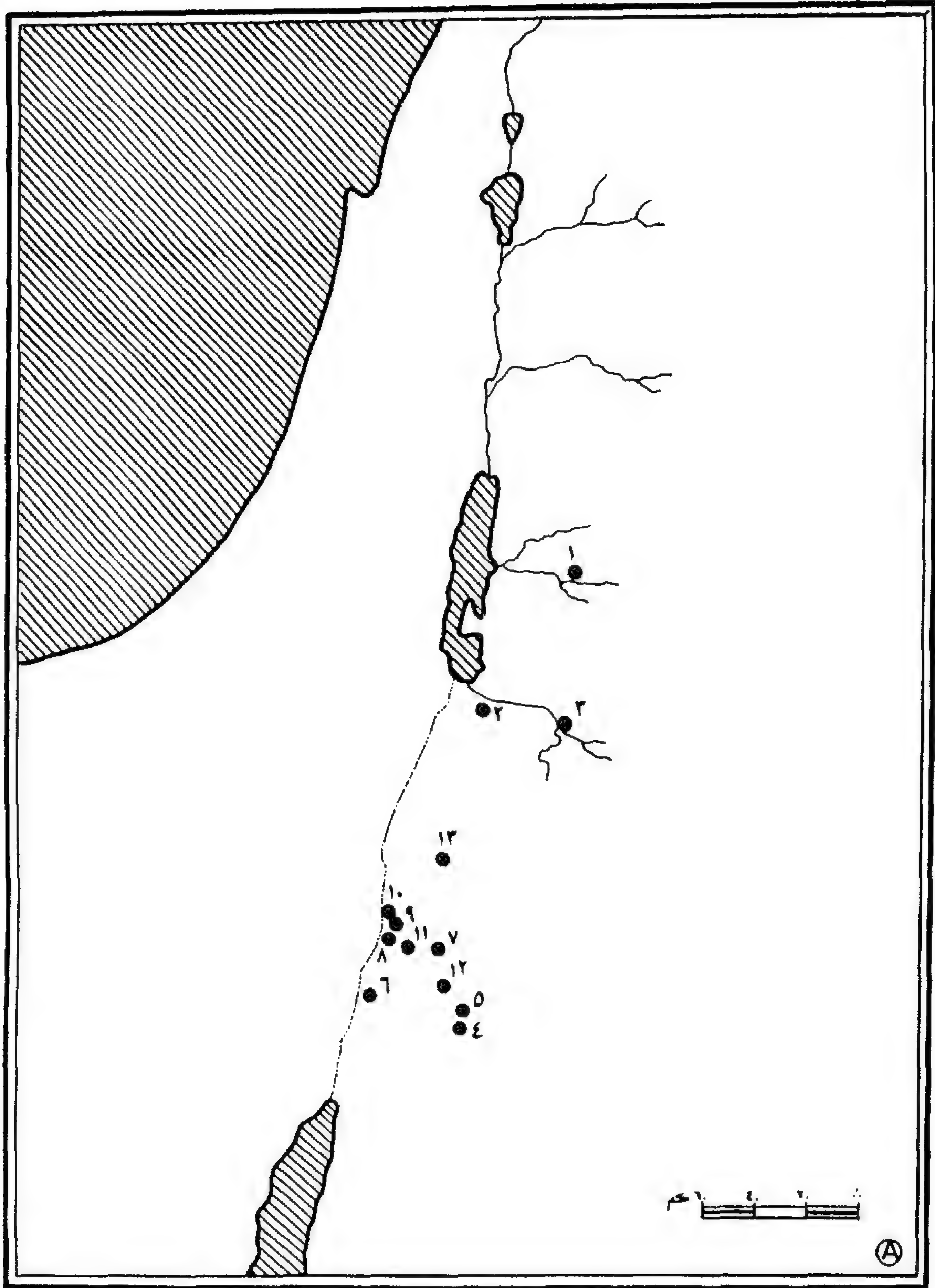
الخلاصة :

يتضح مما سبق عرضه من حديث حول التنقيبات الأثرية في منطقة جنوب الأردن ، أن هذه المنطقة لعبت دوراً هاماً في بناء حضارة الإنسان في منطقة الأردن خاصة وبلاد الشام بشكل عام . فقد أظهرت التنقيبات والمسوحات الأثرية أن المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجري القديم الأدنى حتى بداية العصور التاريخية . وتبين النتائج أن المنطقة قد مرت بمراحل ازدهار حضاري واسع في بعض الفترات كما هو الحال في المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث قبل الفخاري « ب » . ومع تراجع هذا الازدهار في بعض الأحيان ، إلا أننا نجده يعود للازدهار مرة أخرى . ويبدو أن هذا التراجع كان بسبب تأثر منطقة جنوب الأردن بالمؤثرات المناخية والبيئية التي أثرت في بلاد الشام بشكل عام في فترة عصور ما قبل التاريخ حيث أظهرت نتائج مسوحات هنري في منطقة رأس النقب أن المنطقة قد سادها مناخ جاف في فترة العصر الحجري النحاسي التأثيرات في منطقة رأس النقب .



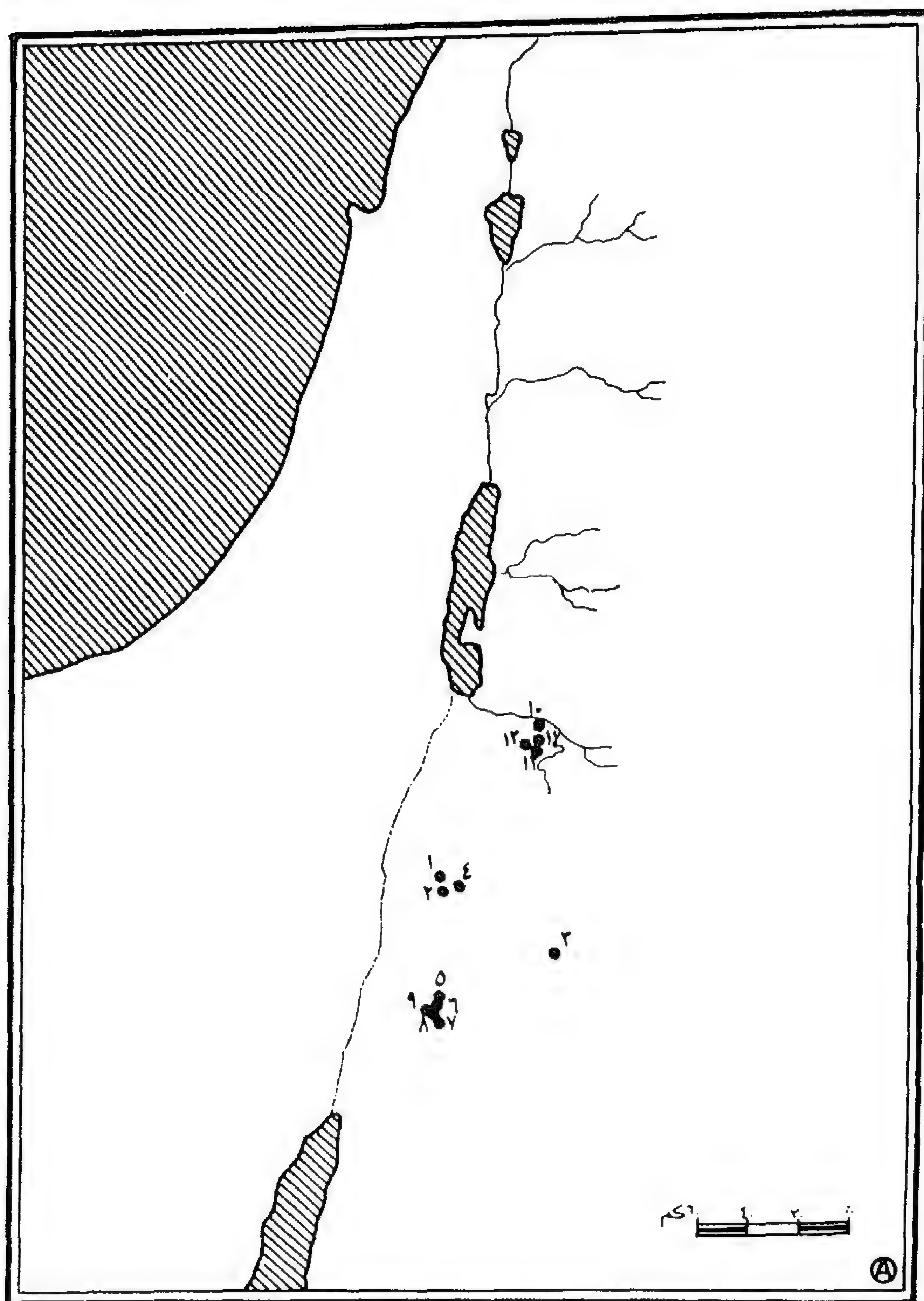
خارطة رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الأدنى

- ١ - خربة المحاريم - ٢ - وادي الحسا - ٣ - الفجيج - ٤ - أبو الجرذان - ٥ - الجفر « ٧٢ » - ٦ - الفرذخ - ٧ - رأس النقب ج « ٤٠١ » - ٨ - باير - ٩ - بسطة « ٣ » .



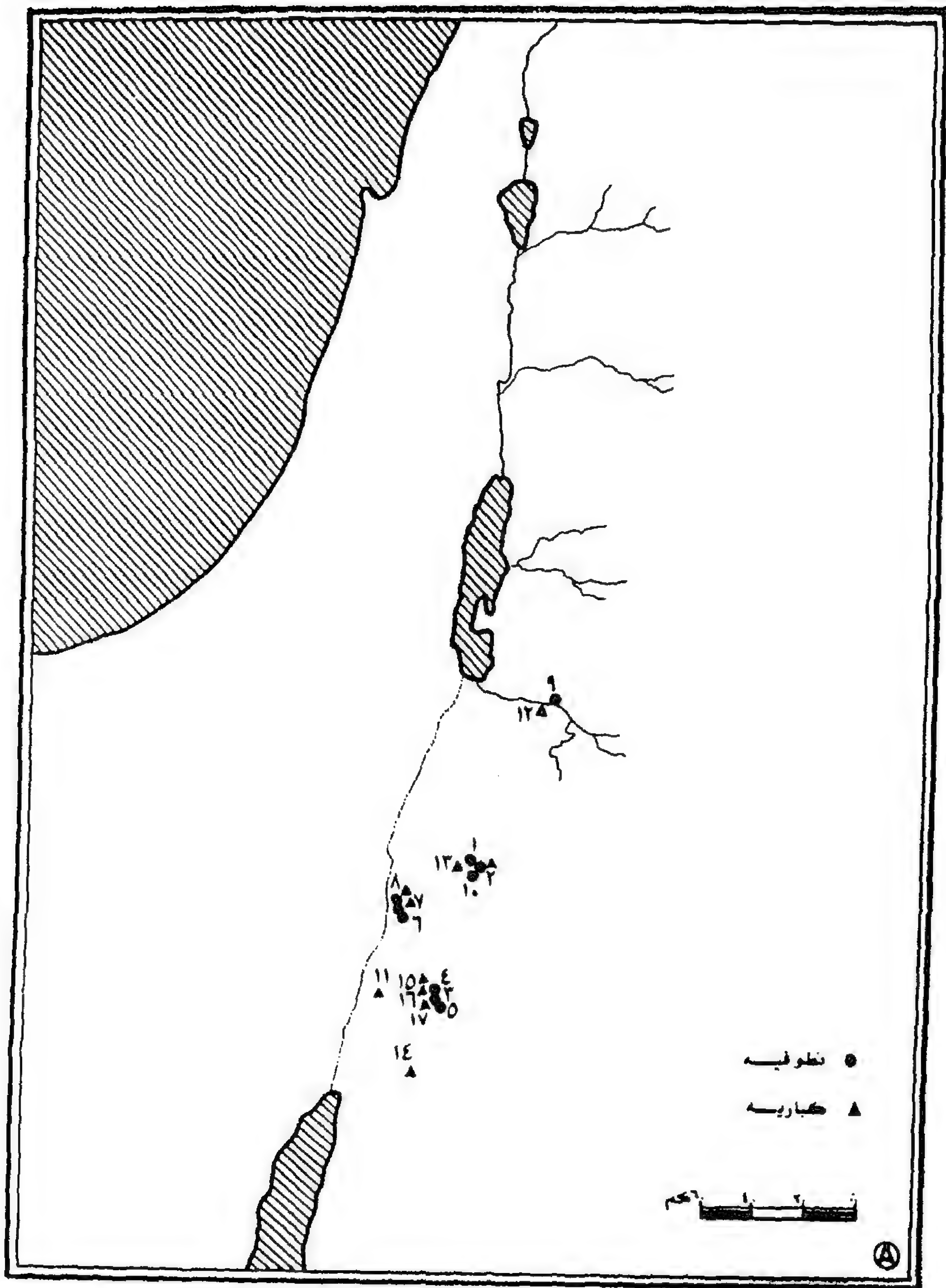
خارطة رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

- ١ - وادي العسال - ٢ - عين الدفلة - ٣ - موقع « ٦٢١ » - ٤ - طور فرج - ٥ - طور صبيحة - ٦ - كلخة -
- ٧ - رأس سليمان - ٨ - رأس نيازي - ٩ - السنخ « ٢ » - ١٠ - الضمان - ١١ - الغرنديل - ١٢ - رأس
- النقب - ١٣ - وادي الغوير .



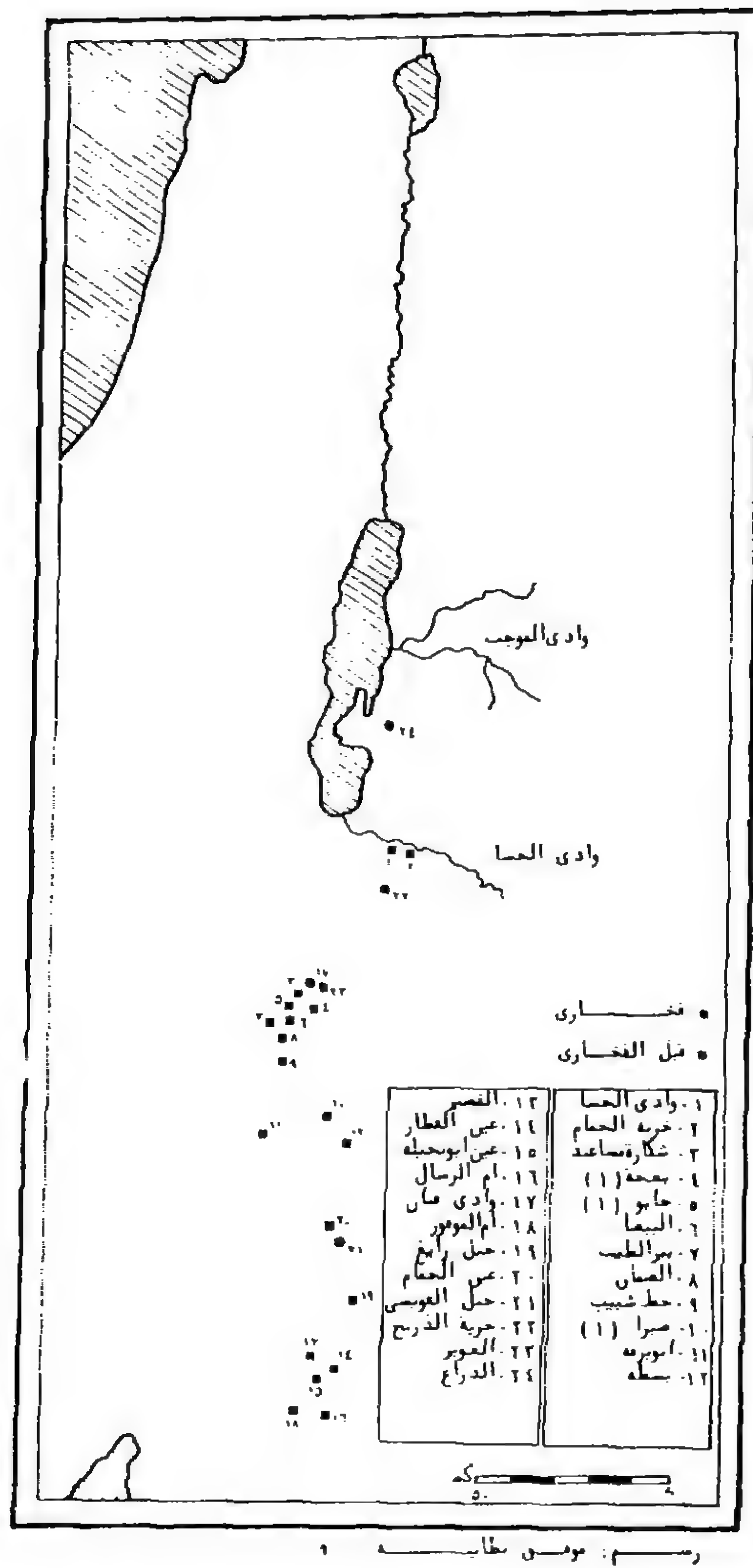
خارطة رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

- ١ - أبو شاهر - ٢ - أنساب - ٣ - الجفر « ٧١ » - ٤ - صبرا - ٥ - طور عايد (ج ٤٣٢) - ٦ - ج « ٥ » -
- ٧ - ج ٤٠٣ - ٨ - ج « ٤١٢ » - ٩ - ج « ٤٣٣ » - ١٠ - موقع « ٦١٨ » - ١١ - موقع « ٦٢٣ » -
- ١٢ - موقع ٦٢٣ x - ١٣ - موقع ٧٨٤ x .

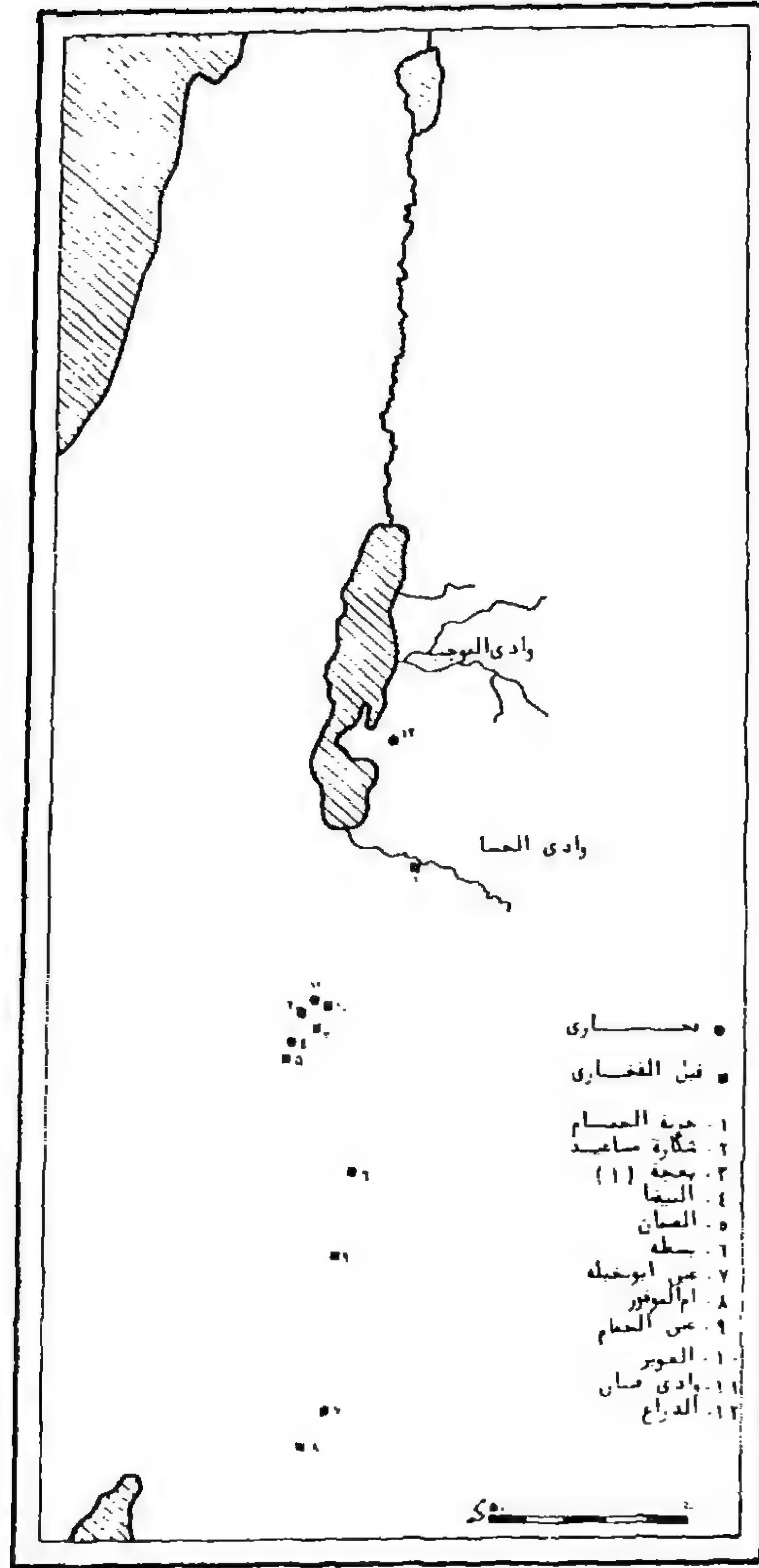


خارطة رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

- ١ - البيضاء - ٢ - الثغرة « ١ » - ٣ - ج « ٢ » - ٤ - ج « ٤٠٦ أ » - ٥ - ج « ٤٣٦ » - ٦ - السنخ -
 ٧ - صبرا « ١ » - ٨ - الضمان - ٩ - الطبقة - ١٠ - وادي سليسل - ١١ - ج « ٥٠٤ » - ١٢ - قلعة الحسا -
 ١٣ - المدغ - ١٤ - وادي رقم - ١٥ - ج « ٤٠٧ » - ١٦ - ج « ٤٠٦ ب » - ١٧ -
 ج « ٤٠٥ » .

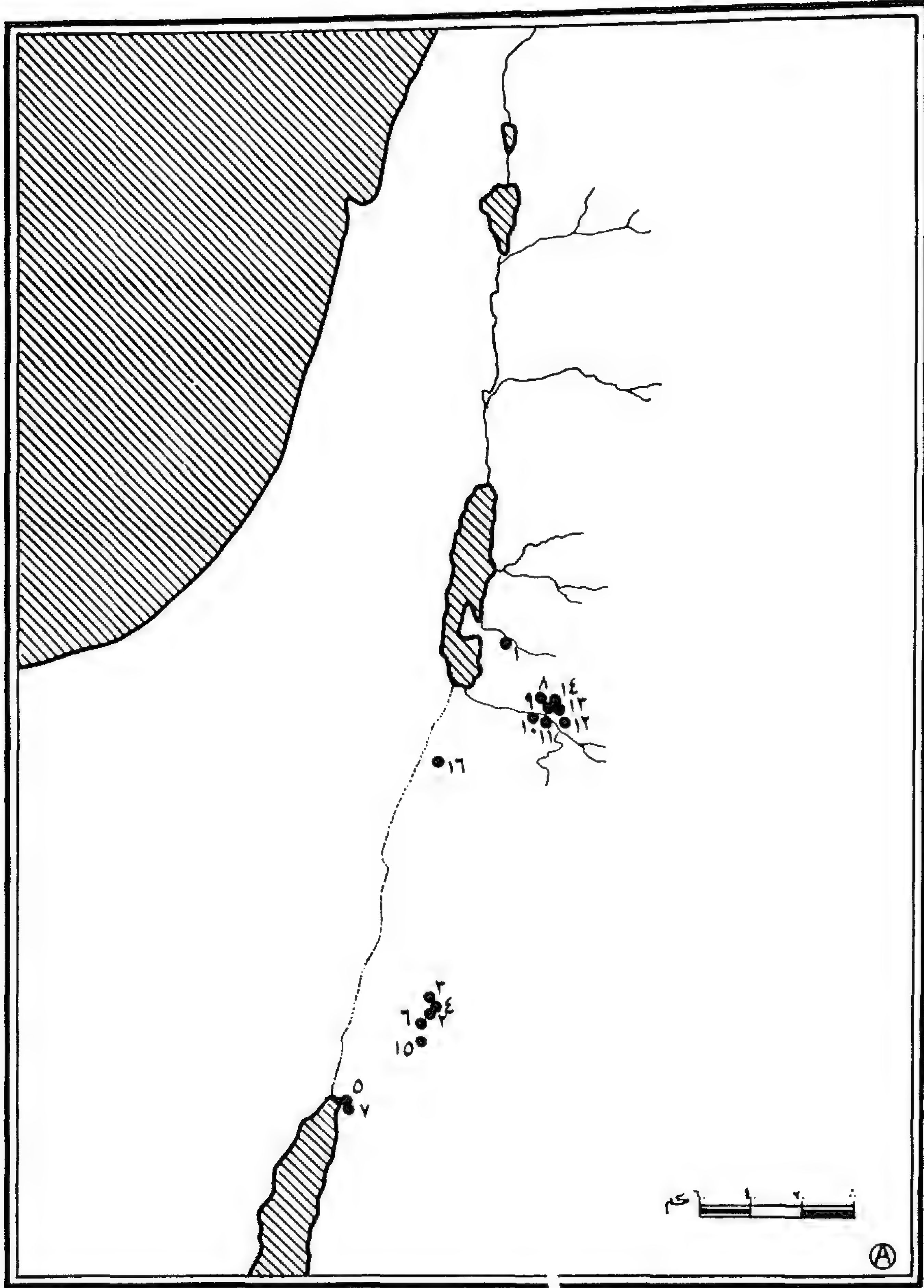


خارطة رقم ٥ : خريطة توضح مواقع العصر الحجري الحديث في جنوب الأردن



رسم: موقع بطانة

خارطة رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث ذات البقايا المعمارية في جنوب الأردن



خارطة رقم ٧ : مواقع العصر الحجري - النحاسي

- ١ - أم سدره - ٢ - تل الخرزة - ٣ - جبل القويسي - ٤ - جبل الجبل - ٥ - حجرة الغزلان - ٦ - ميل الحمام -
- ٧ - المقص - ٨ - موقع « ٣٠٨ » - ٩ - القصر (موقع « ٦١٦ ») - ١٠ - موقع « ٦٤٧ » - ١١ - موقع « ٨٥٨ » - ١٢ - موقع « ٨٦٦ » - ١٣ - موقع « ٩١٥ » - ١٤ - موقع « ٩٣٩ » - ١٥ - هضبة الفلا -
- ١٦ - وادي الفدين « ٤ » .

جدول رقم ١ : مواقع العصر الحجري القديم الادنى الباكر والأوسط والأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- موقع ٣٣٧	٦٥٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	أشولي وسيط	MacDonald 1980;1988
٢- موقع ٣٥٠	٦٥٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	أشولي وسيط	MacDonald 1988
٣- أبو الجرذان	١١٤٠+	مكتشف	مسح أثري	معان	أشولي حديث	Muheisen 1988
٤- باير	٦٦٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي باير	أشولي حديث	Field 1960; Releston and Rollefson 1982
٥- بسطة ٣	١٤٢٠+	مكتشف	مسح أثري	جبال الشراة	أشولي حديث	Muheisen 1988
٦- موقع ج ٤٠١	١٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	رأس النقب	أشولي حديث	Henry. 1982;1985
٧- الجفر ٧٢	٦٥٠+	مكتشف	مسح أثري	حوض الجفر	أشولي حديث	Zeuner 1957
٨- غربة المحاريم	٨٧٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الموجب	أشولي حديث	Miller 1979
٩- الفرذخ	١٦٤٠+	مكتشف	مسح أثري	البتراء	أشولي حديث	Muheisen 1988
١٠- فجيج	١٢٨٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي البستان، المشوبك	أشولي حديث	Rollefson 1981.1985
١١- فيجاي	١٢٠٠+	مكتشف	مسح أثري	منطقة معان	أشولي حديث ، عيسن	Muheisen 1988, 1993

جدول رقم ٢ : مواقع العصر الحجري القديم الأوسط

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- حرف الدراويش	٩٣٦+	مكتشف	مسح أثري	الطفيلة	موسميري	Bender 1974. Muheisen 1988
٢- ج ٤٣٠	٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موسميري	Henry 1988
٣- رأس سليمان	٩٦٠+	مكتشف	أسبار	البتراء	موسميري	Gebel 1985, Schyle and Uerpman 1988
٤- رأس نيازي	٠٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	البتراء	موسميري	Schyle and Uerpman 1988
٥- السنخ ٢	٩٧٠+	مكتشف	مسح أثري	البتراء	موسميري	Gebel 1985, Schyle and Uerpman 1988
٦- الضمان ٣	٧٦٠+	مكتشف	مسح أثري	البتراء	موسميري	Schyle and Uerpman 1988
٧- طور صبيحة	١٢٥٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	موسميري	Henry 1982, 1988
٨- طور فرج	٩٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	موسميري	Henry 1982, 1988
٩- عين الدغلة	٧٨٠+	ملجأ صخري	أسبار	وادي الحما	موسميري	Clark et al 1988
١٠- القرنندل	٣٠٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي عربة	موسميري	Muheisen 1988
١١- موقع ٦٢١	٨١٠+	مكتشف	أسبار	وادي الحما	موسميري	Clark et al 1988
١٢- موقع	٧٠٠/٣٠٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي لعسان	موسميري	Jacobs 1981, 1982 1983, 1984 and 1985
c10-7						
C10-11						
D7-14						
١٣- نقب الربيع	١٠٠٠+	مكتشف	أسبار	البتراء	موسميري	Gebel 1985, Schyle and Uerpman 1988
١٤- وادي الغرير	٧٠٠+	مكتشف	مسح أثري	الشوبك	موسميري	Muheisen 1988

جدول رقم ٣ : مواقع العصر الحجري القديم الأعلى

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- أبو شاهر	٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	البيضاء	قديم أعلى	Schyle and Uerpman 1988
٢- أنساب	٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	البيضاء	قديم أعلى	Schyle and Uerpman 1988
٣- الحفر «٧١»	٦٠٠+	مكتشف	مسح أثري	حوض الحفر	قديم أعلى	Zeuner 1957
٤- صبرا	٨٠٠+	مكتشف	مسح أثري	البيضاء	قديم أعلى	Schyle and Uerpman 1988
٥- طور عايد (ج ٤٣٢)	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1988
٦- موقع ج ٥	٠٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982
٧- موقع ج ٧٤٠٣	١٠٢٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982, 1988
٨- موقع ج ٤١٢	٨١٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982, 1988
٩- موقع ج ٤٣٣	٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	قديم أعلى	Henry 1982, 1988
١٠- موقع ٦١٨	- ٨٠٠+	مكتشف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et al 1988
	٨١٥					
١١- موقع ٦٢٣	٨٠٠+	مكتشف	أسبار	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et al 1988
١٢- موقع ٦٢٣	٨٠٧+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et al 1988
١٣- موقع X٧٨٤	+805	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	قديم أعلى	Clark et al 1988

جدول رقم ٤ : مواقع المرحلة اللاحقة للعصر الحجري القديم

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- الثغرة «١»	٩٨٠٠-١٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Gebel 1988
٢- ج ٤٠٥	٩٧٨+	مكتشف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٣- ج ٤٠٦ ب	٩٠٠+	مكتشف	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982, 1988
٤- ج ٤٠٧	٩٢٢+	مكتشف	مسح أثري	رأس النقب	كبارية	Henry 1988
٥- ج ٥٠٤	٩٠٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	جبل كلخة	كبارية	Henry 1982, 1988
٦- صبرا «٢»	٨٠٠+	مكتشف	مسح أثري	البتراء	كبارية	Schyle and Uerpman 1988
٧- قلعة الحسا	٨٥٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	كبارية	Copeland and vita - finzi 1978
٨- المدمغ	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	البتراء	كبارية	Kirkbride 1958, 1966
٩- موقع ٦١٨	٨١٠+	مكتشف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et al 1987
١٠- موقع ١٠١٥	٨١٠+	مكتشف	أسبار	وادي الحسا	كبارية	Clark et al 1988
١١- ج ٢١	١٠٩٠+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٢- ج ٢٢	١٠٩٠٠	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٣- ج ٣١	١٠٤٠+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٤- ج ٢٠١ ب	٨٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1982, 1985
١٥- ج ٢٠٢	٠٠٠٠+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٦- ج ٢٠٣	٧٧٢+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٧- ج ٢٠٥	٠٠٠٠+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	كبارية هندسية	Henry 1988
١٨- الضمان	٧٦٠+	ملجأ صخري	مسح أثري	البتراء	كبارية هندسية	Kirkbride 1966; Schyle and Uerpman 1988
١٩- قاع ام سلاب	١٠٣٩٠	مكتشف	مسح أثري	الحسمى	كبارية هندسية	Zenner 1957
٢٠- وادي رم	٩٦٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي رم	كبارية هندسية	Stanley - Price and Garrard 1975
٢١- البيضاء	١٠٠٠٠	مكتشف	حفرة	البتراء	نطوية	Byrd 1989, Kirkbride 1966
٢٢- الثغرة «١»	٩٨٠٠-١٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	البتراء	نطوية	Gebel 1988
٢٣- ج ٢	٧٠٠٠	مكتشف	أسبار	رأس النقب	نطوية	Henry et al 1983
٢٤- ج ٤٠٦ ا	٩٧٨٠	مكتشف	أسبار	رأس النقب	نطوية	Henry 1988

Henry 1988	نطوفية	رأس النقب	مسح أثري	ملحاً صندري+	٤٣٦ ج ٢٥
Schyle and Uerpman 1988	نطوفية	البزاء	أسيار	مكتوف	٩٨٠-٩٦٠+	٢٦- المنخ «١»
Gebel 1988	نطوفية	البزاء	مسح أثري	مكتوف	٨٢٠+	٢٧- صوا «١»
Gebel and Starck 1988						
Gebel 1988	نطوفية	البزاء	مسح أثري	مكتوف	٨٢٠+	٨- الفضمان «٢»
Byrd and Rollefson 1984	نطوفية	وادي الحسا	مسح أثري	مكتوف	٧٠٠+	٩- لاطقة موقع
Gebel 1988	نطوفية	البزاء	مسح أثري	مكتوف	- ١٠١٠+	١٠- وادي سليل
					١٠٣٠	

جدول رقم ٥ : مواقع العصر الحجري الحديث قبل الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- جبل القويس	٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	رأس الثقب	قبل فخاري أ	Henry 1982, 1985
٢- صير «١»	٨٢٠٠	مكتشف	أسبار	البترء	قبل فخاري أ	Gebel 1988
٣- قنوع	٢٠٠	مكتشف	أسبار	وادي عربة	قبل فخاري أ	Raikes 1980: Bennet 1980
١- أبو بركة	٣٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Gebel 1988, Gebel et al 1985
٢- أبو نخيلة	٠٠٠٠	مكتشف	أسبار	وادي رم	قبل فخاري ب	Kirkbride 1960, 1978
٣- تم نرمان	٠٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	وادي رم	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
٤- تم المقور	٠٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	الحصى	قبل فخاري ب	Jobling and Tangri 1991
٥- البسطة	١٤٥٠	مكتشف	حفرة	البقيعة	قبل فخاري ب	Gebel et al 1988
٦- البعجة «١»	١١٢٠- ١١٦٠	مكتشف	أسبار	البترء	قبل فخاري ب	Gebel et al 1985, Gebel 1988
٧- بير البقية	١١٢٠- ١١٦٠	مكتشف	أسبار	البترء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
٨- البيضاء	١٠٠٠	مكتشف	حفرة	البترء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1958 - 68, 1983
٩- الشفرة	٩٨٠٠- ١٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٠- ج ٢٤	٠٠٠٠	ملجأ صخري	أسبار	البترء	قبل فخاري ب	Henry 1982, 1985, 1988
١١- جابر «١»	١٠٨٠٠- ١١٢٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Gebel 1988
١٢- جبل ربيع	٢٥٤٠	مكتشف	مسح أثري	الحصى	قبل فخاري ب	Vianello 1985
١٣- جرف	٩٥٥٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Raikes 1963, 1967
١٤- بحيرة الحمام	٣١٠٠	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	قبل فخاري ب	Rollefson and kafafi 1986
١٥- حط	٠٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Zeuner 1957
١٦- شكاكة	٩٨٠٠	مكتشف	مسح أثري	البترء	قبل فخاري ب	Kirkbride 1966, Gebel et al 1985
١٧- سفينة	٠٠٠٠	مكتشف	حفرة	وادي الموجب	قبل فخاري ب	

Gebel 1988	قبل فخاري ب	البثاء	مسح أثري	مكتشف	٨٢٠+	١٨- صبرا «١»
Kirkbride 1966, Gebel et al 1985	قبل فخاري ب	البثاء	مسح أثري	مكتشف	٧٦٠+	١٩- الضمان
Bisheh et al 1993	قبل فخاري ب	رأس النقب	مسح أثري	مكتشف	١٢٠٠+	٢٠- عين الجمام
Zeuner 1957	قبل فخاري ب	وادي رم	مسح أثري	مكتشف	٤٦٠+	٢١- عين القطار
Najjar 1994	قبل فخاري ب	وادي فيتان	حفريّة	مكتشف	٢٨٠+ - ٣٢٠	٢٢- الغوير ١
MacDonald 1980, 1988	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٧٣٥+	٢٣- موقع ٤٢
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٩٢٢+	٢٤- موقع ٥٥٩
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٩٢٠+	٢٦- موقع ٦٢
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٩١٥+	٢٧- موقع ٥٦٤
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٩١٥+	٢٨- موقع ٦١٠
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٩٠٠+	٢٩- موقع ٩٢٤
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٧٤٥+	٣٠- موقع ٩٦٥
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٥٦٠+	٣١- موقع ١٠٠٧
MacDonald et al 1983	قبل فخاري ب	وادي الحسا	مسح أثري	مكتشف	٥٧٥+	٣٢- موقع ١٠٠٨

جدول رقم ٦ : مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- حربة الحمام نبر غراب	٣١٠٠	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٢- حربة تندريج و.ح. ٥٢٤	٧٠٠٠	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	Bossut et al 1988 MacDonald 1988
٣- تندريج	٢٠٠	مكتشف	تنقيب	نكرث	فخاري «ب»	Bennet 1980 Kuijet and Mahasneh 1995
٤- موقع ٨٥٧	٩٠٥٠	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٥- موقع ٨٧٠	٩٣٦٠	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	فخاري «ب»	MacDonald 1988
٦- وادي فيندان «٦»	٦٠٠	مكتشف	مسح أثري	وادي عربة	فخاري «ب»	Raikes 1980
٧- وادي فيندان	٢٦٠٠ - ٣٠٠	مكتشف	تنقيب	وادي فيندان	برموكي	Najjar et al 1991; Najjar 1994
٨- وادي الويضة	٤٥٠	مكتشف	تنقيب	نكرث	برموكي	Kuijt and Mahasneh 1995

جدول رقم ٧ : مواقع العصر الحجري - النحاسي

اسم الموقع	الارتفاع	نوع الموقع	نوع الاكتشاف	المنطقة	الفترة الزمنية	المراجع
١- أم سدرة	٠٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الكرك	Worschech 1985
٢- تل الخرزة	٠٠٠٠+	مكتشف	أسبار	معان العقبة	دائرية	Jobling 1983, 1984
٣- جبل القويسى ج ٢٤	٠٠٠٠+	ملجأ صخري	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1982, 1985, 1988
٤- جبل الجبل ج ١٤	٠٠٠٠+	مكتشف	أسبار	رأس النقب	دائرية	Henry 1988; Henry et al 1983
٥- حجرة الغزلان	١٥٥٠+	مكتشف	أسبار	العقبة	Khalil 1987
٦- سيل الحمام	٠٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	معان العقبة	Jobling 1983
٧- المقص	١٥٥٠+	مكتشف	تنقيب	العقبة	مستطيلة	Amr' 1987
٨- موقع ٣٠٨	٥٧٥+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	MacDonald 1988
٩- موقع ٦١٦ القصر	٨٧٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	MacDonald 1988
١٠- موقع ٦٤٧	٦٦٠+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١١- موقع ٨٥٨	٩٠٥+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٢- موقع ٨٦٦	٩٢٢+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	دائرية ومستطيلة	MacDonald 1988
١٣- موقع ٩١٥	٩٣٥+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	ثلاثة مبانى مستطيلة	MacDonald 1988
١٤- موقع ٩٣٩	٩٢٦+	مكتشف	مسح أثري	وادي الحسا	مستطيلة	MacDonald 1988
١٥- هضبة الفلا	٠٠٠٠+	مكتشف	مسح أثري	معان العقبة	Jobling 1983, 1984
١٦- وادي فيدان ٤	٠٠٠٠+	مكتشف	تنقيب	وادي فينان	مستطيلة	Adama and Genz 1995

المراجع

Glueck, N., 1934 Explorations IN Eastern Palestine I. - ١

Annual OF The American Schools OF Oriental Research
14 : 1 - 118 .

Glueck, N., 1939 Exporations IN Eastern Palestine II.
AASOR: 8 - 19 .

Kirkbride, A.,AND Harding, L., 1946 Hasma. — ٢

Palestine Exporation Quarterly 79 : 7 - 26 .

Zeuner, F., With Contribution By Kirbride, D.,AND - ٣

Park. P. C., 1957 Stone Age Exporion IN Jordan I. **PEQ 89 :**
17 - 55 .

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue Biblique - ٤**

67 : 232 - 235 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN The Wadi Rumm : Ain
Abu Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN The Levant.**
Essays For Kathleen Kenyon. Edit Roger MooreyAND
Peter Parr. Warminster : ArisAND Phillips Ltd.

STANLEY - PRICE, N. P., AND Garrard, A.. 1975 A - ٥

Prehistoric Site IN The Wadi Rumm Area OF The Hisma
Annual OF The Department OF Antiquities OF Jordan 20
: 91 - 98 .

Gebel, H. G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٦

Neolithic Sites IN Petra Area. IN : Garrard, A., AND Gebel H.
G. (Eds) : **The Prehistory OF Jordan** : 101 - 134 . Bar,
Intern. Series 396. Oxford.

Gebel, H., G. AND Starch, J. M., 1985 Investigations IN to
The Stone Age OF The Petra Area (Early Holocene
Research). A Preliminary Report On The 1984 Campaigns.
ADAJ 29 : 89 - 114 .

Schyle, D., AND Uerpman. H. P., 1988 Palaeolithic - ٧
sites IN The Petra - Area . IN : Garrard, A., AND Gebel H., G.
(Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** 39 - 65. Bar. Intern.
Series 396. Oxford.

Miller, J., 1979 Archaeological Survey South OF - ٨
Wadi Mujib. **ADAJ** 23 : 79 - 92.

- MacDONALD, B., Banning E.AND Pavlish, L., 1980 - ٩
The Wadi El Hasa Survey 1979 : A Preliminary Report.
ADAJ 24 : 169 - 183 .
- MacDONALD, B., Rollefson, G.AND Roller, D., 1982 The
Wadi El Hasa Survey 1981 : A Preliminary Report. **ADAJ** 26
: 117 - 131 .
- MacDONALD, B., 1983 The Wadi El Hasa Survey 1982 : A
Preliminary Report. **ADAJ** 7 : 311 - 323 .
- Mac Donald. B., 1988 **The Wadi El Hasa Archaeological
Survey 1979 - 1983 , West - Central Jordan .** Wilfrid
Laurier University Press .
- Clark, G., Lindly, J., Donaldson. M., Garrard, A., Coinman
N., Schuldenrein. J., Fish, S.AND Olzewski, D., 1988
Excavations At Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites IN
The Wadi Hasa. West - Central Jordan. IN : Garrard, A.,AND
GEBEL , H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 209 -
285 Bar. Intern Series 396. Oxford.
- Clark, G. A., Neeley, M. P., MacDONALD, B., - ١٠ .
- Schuldenrein, J.AND Amre, Kh, 1992 Wadi A Hasa
Paleolithic Project 1992 : Preliminary Report. **ADAJ** 36 : 13 -
23 .

Clark, G. A. Olszewski, D. I. Schuldenrein, J., Rida. N. AND Eighm. J. D., 1994 Survey AND Excavation IN Wadi A Hasa : Preliminary Report Of The 1993 Field Season. **ADAJ** 38 : 41 - 55 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - - ١١

Naqb Basin, South Jordan. **ADAJ** 23 : 93 - 99 .

Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites Within Theras En - Naqb Basin, South Jordan. **PEQ** 111: 79 - 85 .

Henry . D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan AND Relationships WITH The Levant . **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 47 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric AND Palaeoenvironment Research IN Northern Hisma. IN : Garrard, A., AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 7 - 37 Bar. Intern Series 396. Oxford.

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan - ١٢ and Relationships with The Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 47 .

١٣ - فرجات ، سليمان ١٩٩٣ نظام الري عند الأنباط في منطقة الحميمة ،
حولية دائرة الآثار العامة ٣٥ : ١٧ - ٣٠ .

Bisheh.G. Farajat. S., Palumbo. G.AND Waheeb. - ١٤

M., 1993 Archaeological Rescue Survey OF The Ras An - Naqab - Aqaba Highway Alignment 1992. **ADAJ** 37 : 119 - 133 .

-Jobling W. J., 1982 Aqaba - Ma'an Survey, January - ١٥

February 1981 . **ADAJ** 26 : 199 - 209 .

Jobling. W. J., 1983a The 1982 ArchaeologicalAND Epigraphic Survey of the Aqaba - Ma'an Area OF Southern Jordan. **ADAJ** 27 : 185 - 196 .

Jobling. W., J., 1983b Preliminary Roport ON THE Fourth Season OF The Aqaba - Ma'an ArchaeologicalAND Epigraphic Survey, 1982 - 1983 . **ADAJ** 27 : 197 - 209 .

Jobling. W., J., 1984 The Fifth Season OF The Aqaba - Ma'an Survey 1984. **ADAJ** 28 : 191 - 202 .

Fobling. W. J., 1985 Preliminary Report OF The Sixth Season OF The Aqaba - Ma'an EpigraphicAND Archaeological Survey. **ADAJ** 29 : 211 - 220 .

١٦ - سليمان ، امصيطف ١٩٨٧ تقرير عن نتائج المسح الأثري لمنطقة

جنوب معان . تقرير غير منشور في سجلات دائرة الآثار لعامة (قسم التسجيل) .

Muheisen, M., 1988 **Le Paléolithique Et — ١٧**

L'épipaléolithique en Jordanie Thèse de Doctorat University
OF Bordeaux I.

Betts, A., 1987 The Walmesley White Collection : - ١٨

Flint FROM North Arabian Prehistoric Sites. **PEQ** 118 :
122 - 28.

Jacobs, L. K., 1983 Survey of The South Ridge of - ١٩

The Wadi Isal. 1981 . **ADAJ** 27 : 245 - 274 .

Worschech. U., 1985 Preliminary Report ON THE - ٢٠

Third Survey IN THE North - West Ard- El Kerak 1985 .
ADAJ 29 : 161 - 173 .

Rollefson, G., 1985 Description of the Chipped Stone
Artifacts FROM THE Moab Survey (Worschech). **Biblische**
Notizen Beiheft 2 : 78 - 85 .

Rollefson. G., 1986 Chipped Stone Artifacts From Two
Prehistoric Sites From The Moab Survey (Worschech)
Zeitschrift Des Deutschen Palastina - Vereins 102 : 53 - 67

Raikes T. D., 1980 Notes On Some Neolithic and - ٢١

Later Sites IN Wadi Araba and the Dead Sea Valley

LEVANT 12 : 40 - 60 .

Kouchy, F. L. and MacDONALD, B., 1985 The — ٢٢

Northeast Araba Archaeological Reconnaissance Survey,
1985. **ADAJ 29 : 293 - 94.**

MacDONALD, B., Clark, G., Neeley, M., Adams, R., AND
Gregory, M., 1987 Southern Ghors and Northreast Arabah
Achaeological Survey 1986. Jordan A Preliminary Report.
ADAJ 31 : 391 - 418 .

Hauptmann, A., AND Weisgerber, G., 1987 — ٢٣

Archaeometallurgical and Mining - Archaeological
Investigations IN THE Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan).

ADAJ 31 : 419 - 38 .

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue — ٢٤**

Biblique 67 : 231 - 232 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic IN THE Wadi Rumm : Ain
Abu Nkheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant,**
Essays For Kathleen Kenyon Edit. By Roger Moorey AND
Peter Parr. Warminster, : Aris AND Phillips Ltd.

Kirkbride, D., 1966a Five Seassons AT THE Pre - - ٢٥

Pottery Neolithic Village Beibha IN Jordan. **PEQ 98: 8- 72 .**

- Henry, D., 1979 Palaeolithic Sites within The Ras En - ٢٦
- Naqb Basin, Southern Jordan. **PEQ** 111 : 79 - 85 .
- Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan AND Relationships WITH The Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9 : 417 - 44 .
- Henry, D., 1988 Summary of Prehistoric AND Palaeoenvironmental Research in The Northern Hisma IN : Garrad. A., AND Gebel, H. - G. (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 7 - 37 Bar, Intern. Series 396. Oxford. B. A. R.
- Henry. D., Hassan. E. Jones. M. AND Henry. K. C., 1981 An Investigation OF THE Prehistory AND Palaeoenvironments OF Southern Jordan (1979 Field Season). **ADAJ** 25 : 113 - 46 .
- Bennet, C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. - ٢٧
Levant 12 : 30 - 39 .
- Kuijt, I., AND Mahasneh, M., 1995 Dhra' AND Ain - ٢٨
Waida.. **American Journal OF Archaeology** 99/3 : 504 - 5 .
- Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٢٩
Neolithic Sites in Petra. IN : Garrad. A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 67 - 100 . Bar. Intern. Series 396. Oxford.

Clarck. G., Lindly.J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٣٠

Coinman. N., Schuldenrein. Fish. S.AND Olszewski, D., 1988
Excavations at Middle, UpperAND Epipalaeolithic Sites at
Wadi Hasa, West - Central Jordan IN : Garrard, A.,and Gebel.
H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** : 209 - 85 Bar.
Intern. Series 396 . Oxford.

Khalil, L., 1987 Preliminary Report ON THE 1985 - ٣١
SEASON OF Excavation At Maqass - Aqaba, **ADAJ** 31 : 481
- 84 .

Nissen. H., Muheisen. M.,AND Gebe., H. 0- G., - ٣٢
With Contributions By Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi.
N.AND Schult, A., 1987 Report ON THE First Two Seasons
At Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 119 .

Najjar, M., Abu Dayya, A., Suleiman, E., - ٣٣
Weisgerber, G.AND Huppmann. A., 1991 Tell Wadi Feinan :
The First Pottery NEOLITHIC Tell in The South OF Jordan.
ADAJ 34 : 27 - 56 .

Najjar, M., 1994 Ghuwair I, A Neolithic Site IN - ٣٤
Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN**

Antiquity. German Contributions TO THE Archaeology OF Jordan , Palestine, Syria, Lebanon AND Egypt. Vol. 111 : 75 - 85 .

Muheisen M. 1988 **Le Paléolithique et — ٣٥**

Epipale'olithique EN Jordanie . Thèses de Doctorat Es - Science. Universite De Bordeaux I.

مجاهد المحيسن ١٩٩٣ الثقافة الأشولية في الأردن ١٥٠٠٠٠٠ - ٩٠٠٠٠ . مجلة

أبحاث اليرموك المجلد التاسع، العدد الرابع : ١٥٣ - ١٨١ .

Bender, F., 1974 **Geology OF Jordan.** Berlin. - ٣٦

Zeuner. F., with Co - Operation By Kirkbride, - ٣٧

D., AND Park. P. C., 1957 Stone Exploration IN Jordan. I. **PEQ** 89 : 17 - 55 .

Rollefson, G., 1981 A Late Acheulian Site At Fjaje, - ٣٨

Wadi EL Bustan, Southern Jordan. **Paléorient** 7/1 : 5 - 21.

Rollefson, G., 1985 Late Pleistocene Environments AND Seasonal Hunters Stratigies : A Case Study From Fjaje, NEAR Shobak, Southern Jordan. **Studies IN The History and Archaeology of Jordan** 2 : 103 - 107 FIGS.

Henry, D., 1982 The Prehistory of Southern — ٣٩

Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF Prehistoric AND Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrar, A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan**. Bar, Intern. Series 96 : 7 - 37 Oxford, B. A. R.

Henry, D., 1982 The Prehistory OF Southern — ٤٠

Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 444 .

Henry, D., 1988 Summary OF Prehistoric and Palaeoenvironmental Research in The Northern Hisma. IN : Garrar, A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan**. Bar, Intern. Series 396 : 7 - 37 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤١

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S. AND Olszewski, D., 1988 Excavations at Middle, Upper AND Epipalaeolithic Sites in The Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, - ٤٧

A., Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S. and Olszewski, D.,
1987 Excavations at Middle, Upper AND Epipalaeolithic Sites
in the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard,
A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan**
Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., Coinman,
N., Schuldenrein, J., Fish, S. and Olszewski, D., 1988
Excavations At Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites IN
the Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A., and
Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan** Bar.
Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٨

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S. and Olszewski, D.,
1988 Excavations AT Middle, Upper and Epipalaeolithic Sites
IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard,
A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan**
Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Clark. G., Lindly, J., Donaldson, M., Garrard, A., - ٤٩

Coinman, N., Schuldenrein, J., Fish, S. AND Olszewski, D.,

1988 Excavations At Middle, Upper AND Epipalaeolithic Sites IN THE Wadi Hasa, West - Central Jordan. IN : Garrard, A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan** Bar. Intern. Series 396 : 209 - 285 . Oxford. B. A. R.

Kirkbride, D., 1966 Five Seasons At The Pottery — ٤٥

Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern Jordan - ٤٦

and Relationships with The Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Palaeoenvironmental Research IN THE Northern Hisma. IN : Garrard, A., and Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.

Henry. D., 1982 The Prehistory OF Southern — ٤٧

Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal OF Field Archaeology** 9/4 : 417 - 44 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric AND Palaeoenvironmental Research in the Northern Hisma. IN : Garrard, A., AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF**

- Jordan.** Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R.
- Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٤٨
Neolithic Sites IN Petra Area. (Early Holocene Research). A
Preliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 -
114.
- Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic
Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A., AND
Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory OF Jordan.** Bar.
Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.
- Byrd, B., AND Rollefson, G., 1984 Natufian — ٤٩
Occupation IN THE Wadi El - Hasa, Southern Jordan. **ADAJ**
228 : 143 - 50 .
- Kirkbride, D., 1958 A Kebaran Rockshelter in Wadi - ٥٠
Madamagh, Near Petra, **Man** 58 : 55 - 58 .
- Kirkbride, D., 1966 Five Seasons At The Pre - Pottery
Neolithic Village Beidha IN Jordan . **PEQ** 98 : 8 - 72 .
- Schyle. D., AND Uerpmann. H. - P., 1988 Palaeolithic Sites
IN Petra Area. IN : Garrard, A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) :
The Prehisotory of Jordan Bar Intern. Seires 396 : 39 - 65
Oxford. B. A. R.

Bennet. C., 1980 Soundings At Dhra, Jordan. — ٥١

Levant 12 : 30 - 39 .

Raikes. T. D., 1980 Notes on Some Neolithic and Later Sites
IN Wadi Araba AND THE Dead Sea Valley, **Levant** 12 : 40 -
60.

Kuijt, I., and Mahasneh, M., 1995 Dhra' and Ain Waida.
American Journal of Archaeology 99/3: 504 - 5 .

Kirkbride, A., AND Harding, I., 1947 Hasma. **PEQ** - ٥٢
79 : 7 - 26 .

Stekelis, M., 1947 Hasma. **PEQ** 79 : 26 - 27 . - ٥٣

Kirkbride, D., 1960 Ain Abu Nkeileh. **Revue** — ٥٤
Biblique 67 : 231 - 232 .

Kirkbride, D., 1978 The Neolithic on the Wadi Rumm : Ain Abu
Nekheileh. Pp. 1 - 10 IN **Archaeology IN THE Levant ,**
Essays For Kathleen Kenyon. Edit. By Roger Moorey and
Peter Parr. Warminster : Aris AND Phillips Ltd.

Nissen. H., Muheisen. M., and Gebe., H. O- G., with — ٥٥

Contributions by Becker, C., Neef. R., Pachur. H., Qadi.

N. and Schult, A., 1987 Report on the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 31 : 79 - 120 .

Nissen. H., Muheisen. M., and Gebe., H. O- G., WITH Contributions BY Becker, C., Neef Hermansen. D., Karasneh. W., Qadi, N. Schults, M., and Scherer, A., 1991 Report On the First Two Seasons at Basta (1986 - 1987). **ADAJ** 315 : 13 - 40 .

Kirkbride, D., 1960a A Short Account of the — ٥٦

Excavations at Petra IN 1955 - 56. **ADAJ** 4 - 5 : 117 - 22 .

Kirkbirde, D., 1960b The Excavation of A Neolithic Village AT Seyle Aqlat, Beidha, Near Petra. **PEQ** 92 : 136 - 145 .

Kirkbirde, D., 1962 Excavation of THE Prepottery Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha. **ADAJ** 6 - 7 : 7 - 12 .

Kirkbirde, D., 1963 Seyl Aqlat, A Pre - Pottery Village near PETRA. **Illustrated London News** January 19 : 82 - 84 .

Kirkbride, D., 1966a Five Seasons at the Pre - Pottery Neolithic Village Beidha in Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Kirkbirde, D., 1966b Beidha. An Early Neolithic Village Jordan. **Archaeology** 19/3 : 199 - 207 .

Kirkbride, D., 1966e Beidha 1965 Campaigns. **Archaeology** 19/4: 268 - 272 .

- Kirkbride, D., 1967 Beidha 1965 An Interim Report. **PEQ** 99 : 5 - 13 .
- Kirkbride, D., 1968 Beidha 1975 An Interim Report. **PEQ** 100 : 90 - 96 .
- Kirkbride, D., 1968 Beidha Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. **Antiquity XLII** : 263 - 74 .
- Kirkbride, D., 1984 The Environment of the Petra Region During THE Pre - Pottery Neolithic **Studies OF The History AND Archaeology OF Jordan** 2 : 117 - 124 .
- Mortensen. P., 1970 A Preliminary Study of the - ٥٧
Chipped Industry FROM Beidha **Acta Archaeologia** 41 : 1 - 54.
- Mortensen. P., 1988 A Note on A Small Box WITH Blades and Arrowheads from beidha and Implications. IN : Garrad, A., and H. Gebel. (Eds.). **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern Series 396 : 199 - 207 . Oxford. B. A. R.
- Perkins. D., Jr., 1966 The Fauna From Madamagh - ٥٨
AND Beidha . A Preliminary Report. **PEQ** 98 : 66 - 67 .
- Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٥٩
Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A

reliminary Report on the 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A., AND Gebel. H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern. Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Henry. D., O., 1982 The Prehistory of Southern - ٦٠

Jordan AND Relationships with the Levant. **Journal of Field Archaeology** 9/4 : 417 - 47 .

Henry. D., 1988 Summary of Prehistoric and Lalaeonvironmental Research in THE Northern Hisma. in : Garrard, A., AND Gebel H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern. Series 396 : 7 - 37 Oxford. B. A. R. Intern. Series 396 . Oxford. B . A. R.

Gebel, H. G., 1985 Late Epipalaeolithic - Aceramic - ٦١

Neolithic Sites in Petra Area. (Early Holocene Research). A Preliminary Report ON THE 1984 Campaignes. **ADAJ** 29 : 89 - 114.

Gebel. H. - G., 1988 Late Epipalaeolithic - Aceramic Neolithic Sites in The Petra Area. in : Garrard. A., and Gebel.

H. - G., (Eds.) : **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern.
Series 396 : 67 - 100 . Oxford. B. A. R.

Kirkbride, D., 1966 Five Seasons at the Pre - Pottery - ٦٢

Neolithic Village Beidha IN Jordan. **PEQ** 98 : 8 - 72 .

Gebel. H. - G.,AND Starck. J. M., 1985 Investigations in to
The Stone Age OF THE Petra Area (Early Holocene
Researchg). A Preliminary Report on the 1984 Campaignes.
ADAJ 29 : 89 - 114.

Gebel, H. - G., 1988 Lateepipalaeolithic - Aceramic Neolithic
Sites in the Petra Area. IN : Garrard. A.,AND Gebel H. - G.,
(Eds.): **The Prehistory of Jordan**. Bar. Intern. Series 396 : 67
- 100. Oxford. B. A. R.

Schyle, D.,and Uerpmann. P. - H., 1988 Palaeolithic Sites in
the Petra Area in : Garrard. A.,and Gebel H. - G., (Eds.) : **The
Prehistory of Jordan**. Bar Intern. Series 396 : 39 - 65 .
Oxford. B. A. R.

Mac Donald, B., 1980 The Wadi El Hasa Survey . - ٦٣

1980 A Preliminary Report. **ADAJ** 24 : 169 - 183 .

Rollefson, G.,and Kafafi. Z., 1985 Dhirbet — ٦٤

Hammam: ; A PPNB Village in the Wadi EL Hasa. Southern

Jordan **Bulletin of the American Schools of Oriental Research** 258 : 63 - 69 .

Najjar, M., 1994 Ghuwair I. A Neolithic Site IN - ٦٥

Wadi Feinan. IN : Kerner, S., (Ed.) : **The Near East in Antiquity.** German Contributions to THE Archaeology OF Jordan. Palestine. Syria, Lebanon.and Egypt. Vol. III : 75 - 85.

Bennet. C., 1980 Soundings at Dhra, Jordan. **Levant** - ٦٦
12 : 30 - 39 .

Raikes T. D., 1980 Notes ON Some Neolithic AND Later Sites IN Wadi Araba and the DEAD Sea Valley . **Levant** 12 :
40 - 60 .

Hauptmann, A.,and Weisgerber, G., 1987 — ٦٧
Archaeometallurgical and Mining Archaeological
Investigations in the Area OF Feinan, Wadi Araba (Jordan.)
ADAJ 31 : 419 - 437 .

Najjar. M., Abu Dayya A., Suleiman. E., — ٦٨

Weisgerber, G.,AND Hauptman. A., 1993 Tell Wadi Feinan
The First Pottery Neolithic Tell in the Southern of Jordan.
ADAJ 34 : 17 - 56 .

Najjar, M., 1992 The Wadi Feinan / Wadi Araba: A New Pottery Neolithic Site FROM Jordan in Kerner, S., (Ed.) : **The Near East IN Antiquit.** German Contributions TO THE Archaeology of Jordan. Palestine, Syrian Lebanon AND Egypt. Vol. III : 19 - 28 .

Khalil, L., 1987 Preliminary Report On The 1985 - ١٩٨٥ Season of Excavation at El - Maqass Aqaba . **ADAJ** 31 : 481 - 84 .

Khalil. L., 1988 Excavation at EL Maqass - Aqaba 1985 . **Dirasat** 15/7: 77 - 117 .

Khalil, L., 1992 Some Technological Features FROM A Chalcolithic Site At El Maqass Aqaba **SHAJ** 4 : 143 - 48 .

Vianello E., 1985 LA Preistoria NEL Deserto L' - ٧٠ . **Unverso** 56/1 : 71 - 89 .

Adams R.AND Genz II., 1995 Excavations at Wadi - ٧١

Fidan 4 : A Chalcolithic Village Complex in the Copper Ors District OF Feinan, Southern Jordan. **PEQ** 172 : 8 - 20 .

إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك

الخاص

بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة

الامبراطور ليو الثالث الأيقونية

د. عبد الرحمن محمد العبد الفني

جامعة الكويت

تذهب بعض الروايات التاريخية إلى أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧١٩ - ٧٢٣ م) ، قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات^(١) في الكنائس والأديرة الواقعة في داخل الدولة الإسلامية .

وانقسم الباحثون المعنيون بهذه المسألة إلى فريقين ، الأول يشك في صدور مثل هذا المرسوم ، ويعد مثل هذه الروايات وهماً لا أساس تاريخي لها . أما الفريق الثاني فيكتفي بالقول إن هذا المرسوم حقيقة تاريخية لا يرقى الشك إليها ، بل يذهب إلى أنه كان لهذا المرسوم تأثير كبير في بيزنطة بحيث تبنى أحد الأباطرة المعاصرين ليزيد وهو ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ - ٧٤١ م / ٩٩ - ١٢٤ هـ) سياسة معادية للأيقونات .

أما وقد تضاربت الآراء حول هذا الموضوع المثير الذي يغري بالبحث والدرس فقد ولجناه لابهدف القطع الحاسم اثباتاً أو نفيّاً ، بقدر ما نطمح إليه من طرح الإشكالية وتوصيفها توصيفاً علمياً رصيناً ، لذلك سنقوم على رصد كل النصوص المتاحة ومناقشة مضمونها بما يحقق غرض الباحث .

أشارت المصادر التي تناولت عهد الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك إلى قيامه بتحريم وضع الأيقونات في الكنائس في الدولة الإسلامية . ومن المعروف أن الإسلام وقف واضحاً من مسألة التصوير كما سيتضح بعد قليل ، ولكن الأمر الذي يثير اخيرة هو ، لماذا أصدر خليفة من خلفاء المسلمين مرسوماً بتحريم تقليد منتشر في الكنيسة المسيحية ؟ ولماذا كل توقيت هذا المرسوم في عهد يزيد ، ولم يصدر قبل ذلك ؟ وما أثر هذا المرسوم في مرسوم آخر مماثل له صدر في عهد الامبراطور البيزنطي ليو الثالث ؟ وهو المرسوم الذي بدأت به الحركة الأيقونية في عصر الأسرة الايسورية . إن التوصل إلى اجابات شافية عن هذه التساؤلات تشكل القضية الأساسية لهذه الدراسة .

ذلك أن الامبراطورية البيزنطية شهدت في القرن الثامن الميلادي (الثاني فحجري) حركة إصلاحية دينية واسعة استهدفت تحريم عبادة الأيقونات . وأطلق

على هذه الحركة اسم الحركة اللاأيقونية Iconoclasm — أي سياسة تحريم الأيقونات^(١). ويرجع بعض الدارسين إلى أن هناك أسباباً ودوافع اقتصادية واجتماعية أدت إلى هذه الحركة ، ومنها رغبة أباطرة تحطيم الأيقونات إلى تقليل أظافر المؤسسات الدينية والأديرة التي كانت قد أثرت ثراء فاحشاً . وخشيتهم من تحول البيزنطيين إلى عبادة الأصنام والرموز الوثنية^(٢) . وعلى الرغم من أن المؤرخين اهتموا بهذه الحركة — التي امتدت ما بين ٧٢٦ — ٨٣٤ م / ١٠٨ — ٢٢٩ هـ — اهتماماً كبيراً ، فإنهم لم يهتموا كثيراً بالربط بينها وبين المرسوم الذي أصدره يزيد بن عبد الملك قبل ذلك بسنوات قليلة ، بل لم يحظ المرسوم نفسه إلا بقليل من الاهتمام من جانب المؤرخين الحديثين^(٣) . وسنحاول في هذه الدراسة الربط بين هذين الأمرين في ضوء موقف الإسلام من التصوير ، وذلك قبل أن نتبع ماجاء في المصادر من نصوص ذات علاقة وثيقة بهذه القضية ، بغية مقارنة ماجاء فيها مع بيان أثر الإسلام في سياسة تحريم الأيقونات في عهد الامبراطور ليو الثالث .

ذلك أنه من المعروف أن الإسلام وقف موقفاً معارضاً من تصوير الكائنات الحية أو عمل تماثيل لها . ومع أننا لا نجد نصاً صريحاً في القرآن الكريم ينهى أو يبيح تصوير الكائنات الحية آدمية كانت أم حيوانية ، إلا أننا يجب أن نأخذ في الحسبان ماجاء في الأحاديث النبوية بشأن موقف النبي عن تصوير . حيث وردت بعض الأحاديث النبوية التي تنقر من تصوير الكائنات الحية وتنهى عن عمل تماثيل لها^(٤) .

ومن هذه الأحاديث ماورد في البخاري « أن أشد الناس عذبا عند الله يوم القيامة المصورون »^(٥) . لئلا صار لمصورون مغضوباً عليهم من الفقهاء .

وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع^(٦) .

وكانت بعض هذه الأحاديث تخص صوراً وجدت داخل الكعبة ، حيث أن بعضها عبرت عن صور لبعض الأنبياء والشجر والملائكة ، من هذه الصور صورة للسيد المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء^(٧) . لذلك أمر الرسول الكريم بإزالة جميع الصور المعلقة واعتبرها من التي حاربها الإسلام ونهى عن عبادتها .

وقد جاء في السيرة النبوية لابن هشام « أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم .. فأمر بتلك الصور كلها فطمست^(٨) . أما الأزرقى فيذكر رواية تفيد أن الرسول ﷺ قد أبقى على صورتى المسيح عليه السلام وأمه السيدة العذراء^(٩) .

على أية حال ، لم يذهب المسلمون في أول عهدهم بالإسلام بعيداً في كراهيتهم للتصوير ، والدليل على ذلك الحديث الذي أورده البخاري ، من أن السيدة عائشة قالت : « قدم رسول الله ﷺ من سفر وقد سترت بقرام^(١٠) لي على صهوة^(١١) لي فيها تماثيل فلما رآه رسول الله ﷺ هتكه ، وقال أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ، قالت فجعلناه وسادة أو وسادتين^(١٢) ونرى هنا أن غضب رسول الله ﷺ يسكن عندما صنعت السيدة عائشة من القرام وسادة أو وسادتين استعملها النبي الكريم نفسه ولم يبال بالصور التي فيها ، وذلك لأنها غير محرمة لذاتها^(١٣) .

ويبدو أن مبررات النهي عن التصوير لم يقصد بها منع رسم ما يشابه خلق الله ، وإنما كان للنهي هدف آخر وهو حماية المسلمين - الذين كانوا في أوائل عهدهم بالإسلام - من شبهة الوثنية وعبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن التصوير في حد ذاته غير ممنوع ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، والدليل على ذلك أن ابن عباس أجاز التكسب من صناعة التصوير^(١٤) . ونستخلص مما سبق : أن الإسلام لم ير في التصوير شيئاً محرماً ، إلا إذا تعرض لشيء فيه روح ، أو لصناعة تماثيل بغرض عبادتها دون الله ، أو مضاهاة ما خلق الله من مخلوقات . وقد اتفق رأي كثيرين من المفسرين والفقهاء على أن الهدف من النهي عن التصوير هو إبعاد المسلمين عن عبادة الأصنام التي كانت منتشرة بين العرب قبل الإسلام ، وجوازه إذا قصد به الزينة المباحة^(١٥) .

وهناك من يقول : إن النهي عند المسلمين قد تأثر بموقف الديانة اليهودية التي تحرم هي الأخرى الصور في المعابد اليهودية ، وأن المسلمين قد تأثروا ببعض اليهود الذين أسلموا^(١٦) . ولكن من الثابت أن المسلمين لم يرسموا أو يزينوا مساجدهم بشيء من هذا القبيل ، ولم يعرفوا الصور المقدسة منذ مجيء الإسلام وحتى وقتنا الحاضر .

وننتقل في ضوء ما سبق لنتبع ما جاء في المصادر على اختلافها عن مرسوم يزيد بن عبد الملك الذي نص على تحريم الأيقونات في الكنائس والأديرة الواقعة داخل الدولة الإسلامية .

والواقع أنه في دراستنا للمصادر البيزنطية لا بد من الإشارة إلى رسالة البطريك جرمانوس Germanus ، لأنه كان معاصراً للحركة اللاأيقونية ، إذ تولى كرسي بطريركية القسطنطينية في الفترة ٧١٥ إلى ٧٣٠ م (٩٧ - ١١٢ هـ) وقد كتب جرمانوس رسالة إلى توماس أسقف كلاديوس Thomas of Cloudis Polis وهو أحد الاساقفة اللاأيقونيين في آسية الصغرى ، وذلك حوالي سنة ٧٢٤ م / ١٠٦ هـ .

وترجع أهمية هذه الرسالة التي وصلتنا ضمن أعمال وقرارات المجمع المسكوني السابع الذي انعقدت جلساته في نيقية عام ٧٨٧ / ١٧١ هـ^(١٧) . إلى أنها تتضمن هجوماً على اليهود لموقفهم المعادي للصور ، فضلاً عن انتقاد المسلمين للسبب نفسه ، رغم تقديسهم للحجر الأسود على حد قوله^(١٨) .

وهكذا عبّر البطريك في هذه الرسالة عن موقفه المعادي للسياسة اللاأيقونية للامبراطور ليو الثالث ، حتى أنه رفض التوقيع على مرسوم التحريم الذي أصدره هذا الامبراطور عام ٧٣٠ م / ١١٢ هـ ، مما أدى إلى عزله من منصبه^(١٩) .

على أن أهم مصدر في التاريخ البيزنطي يتناول جذور الحركة اللاأيقونية في الامبراطورية البيزنطية والتأثيرات اليهودية والإسلامية فيها ، هو تقرير الأسقف يوحنا المقدسي John of Jerusalem الذي كان نصيراً للأيقونات ، وممثلاً لاسقفيات آسية الصغرى في المجمع ، والذي قرأه في الجلسة الخامسة للمجمع المسكوني السابع السابق ذكره^(٢٠) . وقد بدأ الأسقف يوحنا تقريره بالإشارة إلى أن انتشار تيار تحريم عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية إنما يرجع إلى انتقال « وباء التحريم » من الدولة الإسلامية إلى بيزنطة ، وذكر في تقريره أن الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك كان طائشاً يفتقر إلى الحكمة وبعد النظر ، وأن أحد العرافين اليهود ويدعى بذي الأربعين ذراعاً قد جاءه في أحد الأيام ليقراً له طالع ، فقال له : « سوف تبقى في ملكك ثلاثين عاماً إذا اتبعت نصيحتي ، فانفرت اسارير الخليفة وأجابه أنه على استعداد تام للعمل بما يقترحه عليه ، فقال له العراف اليهودي : « أصدر الأوامر في الحال واكتب منشوراً إلى جميع أرجاء الخلافة تنص على تحريم وتخطيم كل شكل من أشكال التصوير سواء أكان على ألواح خشبية أم على حوائط مزينة بالفسيفساء ، أو على آنية مقدسة

أو على النسيج الذي يغطي الهياكل المقدسة في الكنائس » . ويمضي التقرير قائلاً أن الخليفة يزيد استجاب للعراف ، وأرسل مبعوثين بمرسوم لتحطيم وإزالة الأيقونات من الكنائس القائمة في أقاليم الخلافة^(٢١) .

وهكذا نجم عن نصيحة هذا العراف اليهودي أن تم تجريد الكنائس المسيحية من كل ما فيها من الأيقونات . وقد حدث كل هذا قبل أن ينتشر تيار تحريم وتحطيم الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية^(٢٢) . ويوضح التقرير أن المسيحيين اضطروا إلى الهرب من كنائسهم فقام الولاة بتكليف اليهود والمسلمين بالقيام بمهمة تحطيم وإزالة الأيقونات كما قاموا بطلاء جدران الكنائس وكشط ما عليها من صور .

ويفهم من هذا التقرير أيضاً أن التيار المناهض لعبادة الأيقونات انتشر بعد ذلك بسرعة في الامبراطورية البيزنطية ، ولقى تأييد بعض رجال الكنيسة مثل أسقف ناكولية في شرقي آسية الصغرى . وأشار الأسقف يوحنا في ختام تقريره إلى أن الخليفة الأموي يزيد توفي بعد عامين ونصف لتعود الأيقونات إلى مكانها الأصلي في الكنائس والأديرة القائمة في الدولة الإسلامية .

ويتضح من هذا التقرير المقدم إلى الجمع والذي عادت بموجبه عبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية بشكل مؤقت عام ٧٨٧م / ١٧١هـ - أن الأسقف المذكور ألقى باللوم في انتشار الحركة اللاأيقونية في بيزنطة على تأثيرات يهودية وإسلامية . كما يؤكد التقرير على صدور مرسوم للخليفة يزيد في عام ١٠٣هـ / ٧٢١م تم بموجبه تحريم عبادة الأيقونات في الكنائس والأديرة الموجودة في أنحاء الدولة الإسلامية وتحطيمها . كذلك يعد هذا المرسوم سابقاً للمرسوم الذي أصدره الامبراطور ليو الثالث الأيسوري سنة ٧٢٦م / ١٠٨هـ للغرض

نفسه^(٢٣) .

وكانت الافادة التي تقدم بها الأسقف ميساننا Messana إلى المجمع نفسه ،
دليلاً آخر على صدور مرسوم يزيد بن عبد الملك . فمن المعروف أن هذا
الأسقف قد شارك في جلساته وأكد في إفادته على أنه كان موجوداً في بلاد
الشام زمن صدور مرسوم الخليفة يزيد القاضي بتحطيم الأيقونات^(٢٤) .

ومن ناحية أخرى ، تعد حولية المؤرخ ثيوفانس Theophanes (ت ٨١٨ م
/ ٢٠٣ هـ) من المصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع البحث ، فقد كتب
حولته في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، وأكد فيها على أن يزيد
بن عبد الملك أصدر مرسوماً ضد الأيقونات بسبب تأثيره بساحر يهودي وفد إليه
من مدينة اللاذقية ، وتنبأ له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتحطيم أيقونات
الكنائس الواقعة في دولته . وبالفعل أصدر الخليفة مرسوماً بذلك ، ولكنه توفي
في العام نفسه . ويوضح ثيوفانس أن وفاة يزيد بن عبد الملك بعد صدور المرسوم
وبالتالي إيقاف تنفيذه كان سبباً في أن معظم السكان في أمصار الدولة الإسلامية
لم يكونوا على دراية بهذا المرسوم^(٢٥) . ويضيف ثيوفانس أن فحوى هذا المرسوم
اللاأيقوني للخليفة الأموي قد انتقلت إلى الامبراطور البيزنطي ليو عن طريق
رجل يدعى بسر Beser أو بشر Bishr . ويذكر ثيوفانس أن هذا الرجل كان
مسيحياً ثم اعتنق الاسلام ، وأنه هرب من بلاد الشام (ربما بعد وفاة يزيد بن
عبد الملك) متجهاً إلى القسطنطينية حيث اتصل بالامبراطور البيزنطي واكتسب
ثقته ونال الحظوة لديه لما تمتع به من قوة جسمانية ، وميول هرطقية على حد
قول ثيوفانس^(٢٦) . ومن قراءة هذه السطور التي أوردها الأخير ، يمكننا أن
نستخلص أن الخليفة يزيد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات تحت تأثير عراف

يهودي . وهكذا يتضح - كما يرى الأستاذ فازيليف أن بسر أو بشر المذكور في رواية ثيوفانس ، هو العراف اليهودي ذي الأربعين ذراعاً الذي ذكره الأسقف يوحنا المقدسي في التقرير الذي قرأه في الجلسة الخامسة للمجمع المسكوني السابع^(٢٧) .

وتعد كتابات نقفور بطريرك القسطنطينية (٨٠٥ - ٨١٦ م) من المصادر البيزنطية التي أشارت إلى المرسوم موضوع الدراسة ، إذ ينسب لنقفور هذا ثلاث رسائل بلاغية كتبها ضد الامبراطور قسطنطين الخامس رداً على الأسس اللاهوتية والأدلة التي استند عليها الامبراطور المذكور في الدعوة لسياسة تحريم عبادة الأيقونات^(٢٨) . فقد أشار في إحدى هذه الرسائل إلى قدوم العراف اليهودي من مدينة طبرية ، وأنه كان يحمل لقب ذي الأربعين ذراعاً طولاً . ويكرر البطريرك نقفور الرواية نفسها الخاصة بنبوءة طول العمر والعهد التي ذكرها العراف اليهودي للخليفة يزيد إذا قام بتحطيم الأيقونات . ويقول إن المرسوم أنتهك حرمة المقدسات بتحطيم الأيقونات في الكنائس الواقعة داخل الدولة الإسلامية . ويتهم نقفور اليهود والمسلمين بتنفيذ المرسوم المذكور ، ولم يمض وقت طويل حتى امتد تأثير الحركة اللاأيقونية من الدولة الإسلامية إلى الامبراطورية البيزنطية^(٢٩) . ويقول في هذا الصدد « وما أن وصلت بذور هذا الشر (معاداة الأيقونات) إلى الامبراطورية البيزنطية ، وبلغت الامبراطور الجالس على العرش ويدعى ليو ، الذي كان فاسقاً قاصراً مثل ذلك المتبربر (يقصد يزيد) ، حتى قام بانتزاع الأيقونات من الكنائس المسيحية »^(٣٠) .

وهناك رسالة رابعة لنقفور حول هذه المسألة ، ومفادها أن اليهودي التقى الخليفة يزيد وهو على فراش المرض ، وأنه بشره بالشفاء إذا ما أقدم على تحريم

الأيقونات وازالتها من كنائس دولته ، ويكرر البطريك نقفور اتهامه في هذه الرسالة لليهود والمسلمين ، بأنهم كانوا أصل الداء ، وأن تيار التحريم المعادي للأيقونات إنما انطلق من بلاد الشام وانتشر في آسية الصغرى التابعة للامبراطورية البيزنطية^(٣١) .

ولم تقتصر الإشارة إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك على حولية ثيوفانس وكتابات البطريك نقفور ، وإنما أشار إليه أيضاً جورج الراهب في حوليته . والمعروف أن هذا الأخير كتب في عهد الامبراطور ميخائيل الثالث Michael III (٨٦٧ - ٢٥٣ هـ) تاريخاً للعالم ، من بدء الخليفة حتى عام ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ^(٣٢) . وكان جورج الراهب قاسياً في حكمه على اليهود ودورهم في تحريض الخليفة يزيد بن عبد الملك على اصدار المرسوم المذكور . ويكرر جورج الراهب قصة تأثير الخليفة الأموي بأقوال العرافين ، ولكنه يوضح أن التحريض على تحطيم الأيقونات قام به أثنان من العرافين اليهود ، وليس عرافاً واحداً . ويضيف إلى الرواية المألوفة ، أن هذين العرافين تملكهما خوف شديد عندما مات يزيد مما دفعهما إلى الهرب إلى إقليم أيسورية في شرق آسية الصغرى^(٣٣) .

وتتكرر الإشارة إلى مسؤولية اليهود والمسلمين عن انتشار التيار المناهض لعبادة الأيقونات في الامبراطورية البيزنطية في سير القديسين . وتعد سيرة القديس ستيفن St. Stephen (المعروف بالصغير) من أهم سير القديسين الخاصة بفترة الحركة اللاأيقونية في بيزنطة . والمعروف أن القديس قد قتل في سنة ٧٦٥ م / ١٤٨ هـ في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس ، أما سيرته فقد تم تدوينها في سنة ٨٠٦ م / ١٩١ هـ^(٣٤) . ورغم أن كاتب سيرته لم يشر إلى يزيد بن عبد الملك ، إلا أنه يتهم المسلمين بآثاره التيار المعادي لعبادة الأيقونات^(٣٥) .

وبالنسبة للمصادر البيزنطية اللاحقة ، يلاحظ أنها اشارة أيضاً إلى المرسوم موضوع هذه الدراسة ، ويبدو أنها اعتمدت على الحوليات البيزنطية الباكرة ، والتي سبقت الاشارة إليها . ولكنها أضافت لها أو حذفت منها بعض التفاصيل. فالمؤرخ كيدر ينوس Cedrenus (عاش في القرن الثالث عشر الميلادي / السادس الهجري) يتحدث عن عدد من يهود اللاذقية الذين حضروا إلى الخليفة يزيد وقرأوا له الطالع ، وتنبأوا له بحكم يطول أربعين عاماً إذا قام بتدمير الأيقونات في الكنائس الواقعة في أمصار دولته . ويبين أن يزيد أصدر المرسوم ، إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل أي قبل أن يتم ابلاغ ولاية الأقاليم وتنفيذه . وعندما هم خلفه بالانتقام من أولئك اليهود على النبوءة الكاذبة فرّوا إلى إقليم ايسورية^(٣٦) .

أما المؤرخ زوناراس Zonaras (عاش في القرن الثاني عشر الميلادي « السادس الهجري ») فيبدو أنه اختزل في حوليته القصة ذاتها التي رواها جورج الراهب، وإن كان قد احتفظ بعناصرها الرئيسة ، فهو يتحدث عن قيام اثنين من اليهود بقراءة الطالع للخليفة يزيد بن عبد الملك ، ويشير إلى صدور مرسومه الخاص بتحطيم الأيقونات ، كما يذكر هروب العرافين إلى إقليم ايسورية بعد وفاة الخليفة الأموي^(٣٧) .

ويتضح من هذا العرض للمصادر البيزنطية المعاصرة للفترة موضوع الدراسة واللاحقة على حد سواء ، أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قد أصدر مرسوماً بتحطيم الأيقونات في الكنائس الواقعة في داخل الدولة الاسلامية . وإذا كانت التفاصيل التي تضمنتها الروايات التاريخية تشير إلى أن اليهود لعبوا دوراً في تحريض الخليفة ، فإن الباحث يرى أن كراهية تقديس الصور كانت تقليداً

معروفاً عند المسلمين ، ولم تكن قاصرة على اليهود .

أما عن المصادر اللاتينية فإنها تخلو من أية إضافة هامة بالنسبة لمرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع هذه الدراسة ، لأن هذه المصادر كررت ما أورده المصادر البيزنطية ، وخاصة رواية المؤرخ البيزنطي ثيوفانس دون أن تأتي بجديد . هذا على الرغم من أنها أشارت إلى تقارير أعمال المجمع المسكوني السابع^(٣٨) .

وأما المصادر السريانية المعاصرة ، فإنها أشارت بوضوح إلى قيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بإصدار المرسوم الآنف الذكر^(٣٩) . ولكن تكمن أهميتها بالنسبة لهذا الموضوع في أنها تقدم إضافتين جديدتين ، الأولى أوردها ميخائيل السرياني Michel le syrien (عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر والثالث الأول من القرن الثالث عشر الميلاديين « السادس - السابع الهجريين ») واعتمد فيها على مصادر باكرة لم يحددها ، ومفادها أن الامبراطور ليو عندما بدأ سياسته اللاأيقونية إنما فعل هذا سراً على نهج الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك^(٤٠) .

أما الإضافة الثانية فقد قدمها مؤرخ سرياني مجهول^(٤١) ومفادها أن يزيد بن عبد الملك كلف أخاه مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم الذي أصدره بتخطيط كل الصور الموجودة في الكنائس والأديرة أو النقوش على الجدران أو الموجودة في المنازل أو المرسومة في الكتب . ويعد هذا المصدر الوحيد الذي يشير إلى تكليف مسلمة بن عبد الملك بتنفيذ المرسوم موضوع الدراسة^(٤٢) .

كذلك أشارت المصادر الأرمنية إلى مرسوم يزيد . والمصدر الأول الذي يجب الوقوف عنده في هذا الصدد ، هو كتاب جيوفند Ghevond الذي يحمل

عنوان « تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية » والمعروف أن جيوفند عاش في النصف الثاني من القرن الثامن ، وبداية القرن التاسع الميلادي (النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين) . بمعنى أنه كان قريباً من الفترة موضوع الدراسة^(٤٣) ، وذكر جيوفند أن سياسة يزيد بن عبد الملك اتصفت بالقسوة تجاه المسيحيين الذين يعيشون في دولته ، بل قام باضطهادهم ، والدليل على ذلك تلك الأوامر التي أصدرها بشأن تحطيم الأيقونات والصلبان ، وأنه دنس بذلك مقدسات المسيحية على حد قوله^(٤٤) .

وعلى هذا فإن رواية جيوفند تؤكد من طرفها على صدور مرسوم من جانب يزيد بن عبد الملك حقيقة تاريخية على الرغم من أنها لاتضيف معلومات جديدة ، ولكن نقرأ في موضع آخر من كتاب جيوفند نفسه نصاً يفهم أن تياراً مناهضاً للأيقونات التي يقدها النصارى قد اجتاحت الدولة الإسلامية ، وأن هذا التيار تميز بالتشديد والعنف . ففي معرض حديثه عن الحملة الإسلامية التي قادها مسلمة بن عبد الملك ضد القسطنطينية عام ٧١٧ - ٧١٨ م / ٩٩ هـ - يسجل جيوفند كلمات وجهها مسلمة إلى الامبراطور ليو ابان المفاوضات التي جرت بينهما أثناء زحف المسلمين عبر آسية الصغرى ، قال مسلمة فيها^(٤٥) : « أنني أعلن لك بأنني عقدت العزم وأقسمت ألا أعود قبل أن أحطم دولتك وأزيل تحصينات العاصمة التي وضعت فيها كل ثقتك ، وأجعل من كنيسة آيا صوفيا التي تقدسونها مسجداً لجنودي ، وأحطم على رأسك خشب الصليب الذي تقدسونه » . إذا كان هذا النص صحيحاً ، وليس من مخيلة المؤرخ الأرميني فإنه يعكس بالإضافة إلى تصميم مسلمة بن عبد الملك على فتح القسطنطينية ، روحاً معادية للرموز الدينية عند النصارى . بما في ذلك الأيقونات . ولانستبعد قيام

الخليفة الأموي يزيد بعد ذلك بتكليف أخيه مسلمة بمهمة تخطيط الأيقونات كما ذكر المؤرخ السرياني المجهول^(٤٦) .

والجدير بالذكر ، أن بقية المصادر الأرمينية رددت ما أورده جيوغند ، وأعادت إصدار روايته عن تخطيط الأيقونات في عهد يزيد بن عبد الملك ، ولكن بصورة مختلفة^(٤٧) .

أما المصادر الإسلامية ، فإنها لم تغفل الإشارة إلى مرسوم يزيد . وليس صحيحاً ما قاله بعض المؤرخين الحديثين أن المصادر الإسلامية خلت من أية إشارة إليه^(٤٨) . فالطبري^(٤٩) مثلاً كان قد أشار إلى ذلك اليهودي الذي التقى بالخليفة يزيد ، وأكد له بأنه سيحكم مدة أربعين عاماً ، إلا أنه لم يربط هذه النبوة بضرورة تخطيط الخليفة للأيقونات الموجودة في كنائس دولته . كما قال الكندي^(٥٠) (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) في أحداث سنة ١٠٤ هـ / ٧٢٢ م وكتب يزيد في سنة أربع ومائة بكسر الأصنام فكسرت كلها ومحيت التماثيل وكسر فيها صنم حمام زبان بن عبد العزيز ...

كما تناول سفيروس بن المقفع المصري القبطي^(٥١) (عاش في أواخر القرن العاشر الميلادي « الرابع الهجري ») في كتابه تاريخ بطارقة كنيسة الأسكندرية القبطية في عهد يزيد بن عبد الملك ، وأشار إلى مرسومه الخاص بتخطيط الأيقونات ، بل رسم بقلمه صورة قائمة لنمو مشاعر العداء ضد النصارى قبل عهد يزيد ، والتي انتشرت بشكل خاص في ولاية مصر الأموية ، ويعدد صور الاضطهاد الذي عانى منه النصارى . ويجب توخي الحذر عند قراءة وصفه لصور الاضطهاد التي تعرض لها النصارى في مصر لأن كلماته يغلب عليها السخط والانفعال .

كما أشار إلى هذا المرسوم أثنان من المؤرخين الثقات ، وإن لم يكونا معاصرين أو قريين من الأحداث التاريخية . ولكن تكمن أهميتهما بأنهما قد يكونا اعتمادا على مصادر معاصرة لم تصلنا . سجل الإشارة الأولى المقرئ (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) بقوله^(٥٢) : « هدمت الكنائس وكسرت الأصنام بأجمعها وكانت كثيرة في سنة أربع ومائة والخليفة يومئذ يزيد بن عبد الملك فلما قام هشام بن عبد الملك في الخلافة كتب إلى مصر بأن تجري النصارى على عوايدهم وما بأيدهم من العهد » . أما الإشارة الثانية فقد وردت عند المؤرخ أبي المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤١٩ م) عندما قال:^(٥٣) ثم ورد عليه (يقصد واليه على مصر حنظلة بن صفوان في ولايته الأولى) كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها وحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه .

مهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن عهد يزيد بن الملك شهد نمو مشاعر معادية للنصارى في دولته ، بدأت قبل عهده وبلغت الذورى في أيامه ، إلا أن ذلك يجب ألا يتخذ منه البعض ذريعة على الحسم بإصدار يزيد مرسوماً في هذا الصدد . وعلى هذا فإن ماجاء في المصادر البيزنطية بخصوص تحريض اليهود للخليفة الأموي من أجل اصدار هذا المرسوم يصبح غير ذات موضوع خصوصاً وأن هذه المعلومة لا سند لها في المصادر الاسلامية .

وتترك هذه المصادر انطبعا لدى القارىء بأن هناك فترات زمنية مرت في تاريخ المسلمين ازدادت فيها مشاعر العداء ضد النصارى ورموزهم الدينية ، وعلى هذا فإن ماجرى في عهد يزيد بن عبد الملك لم يكن حدثاً فريداً بل يعبر عن ظاهرة تكررت مرات . مما يؤكد وجود علاقة بين سياسة يزيد بن عبد الملك

المتشددة ازاء النصارى وبين ماجرى في الامبراطورية البيزنطية من اصدار مرسوم الامبرطور ليو الثالث في عام ٧٣٠ / ١١٢ هـ . أن صدور هذا المرسوم الأخير لم يكن متزامنا مع صدور المرسوم موضوع دراستنا . تلك الحقيقة تنفى بما لا يدع مجالا للشك ظنون بعض المؤرخين الذين يربطون بين اندلاع ذلك النزاع الذى مزق الامبراطورية البيزنطية والذي ثار حول عبادة الأيقونات ، والذي بدأ رسميا بمرسوم الامبرطور ليو الثالث آنف الذكر ، وبين مرسوم يزيد بن عبد الملك موضوع الدراسة .

والواقع أن الدوافع التي حددت سياسة الامبراطور البيزنطي اللاأيقونية كانت متعددة الأصول ، ويصعب أن نفترض دافعا واحدا وراء تلك السياسة العنيفة ، التي استهدفت تحطيم الأيقونات في الامبراطورية . ولم يخطئ المؤرخون الحديثون في آرائهم ازاء دوافع تلك السياسة اللاأيقونية . لقد كانت الدوافع السياسية واردة فضلا عن دوافع أخرى دينية ، واجتماعية ، واقتصادية . كما أن وجود تأثيرات شرقية وافدة عبر الحدود الاسلامية البيزنطية ، وتأثيرها على فكر الامبرطور ليو الثالث أمر لا يمكن القطع فيه بحكم .

ومن المرجح أن تأثير الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية بالمسلمين الذين كانوا يطبقون في معارضتهم لتقديس الأيقونات تعاليم دينهم . فالمسلمون نظروا إلى عبادة الأيقونات على أنها شكل من أشكال الوثنية ، لكن ذلك لا يعنى رغبتهم وقدرتهم على تطبيق تعاليم دينهم داخل « دار الحرب » .

والمعروف أن الامبراطور ليو الثالث نشأ في مدينة مرعش ، حيث قضى طفولته في شمال الشام وشرق آسية الصغرى . وكانت هذه المدينة قد سقطت في

قبضة المسلمين سنة ١٦ هـ / ٦٣٦ م . ولذا تأثرت حياة ليو في شبابه بالمسلمين بحكم الاتصال الدائم بهم في مرعش . ثم أمضى ليو معظم حياته جندياً وقائداً للثيم (البند) الأناضولي الذي كانت مهمته التصدي للجيش الإسلامية الزاحفة عبر آسية الصغرى^(٥٤) .

وقد تردد في بعض الروايات أن ليو كان على معرفة جيدة بالمسلمين ، كما كان يعرف العربية ، لكن ذلك لا يتخذ ذريعة البتة لزعم ثيوفانس أن كراهية الامبراطور ليو الثالث لعبادة الأيقونات قد نشأت من اتصاله بالمسلمين^(٥٥) . ورغم ما قاله ثيوفانس ، يرى فازيلييف أنه لا توجد أدلة كافية للقول بأن ليو الثالث قد تأثر بالإسلام مباشرة^(٥٦) .

قد يحتاج البعض بوصول تيار المعارضة لعبادة الأيقونات إلى الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، على أساس أن تلك الولايات كانت تجاور الدولة الإسلامية ، ومع ذلك ، من المجازفة القول بأن ما أقدم عليه الامبراطور ليو الثالث من تحطيم الأيقونات في امبراطوريته كان نتيجة عامل ثانوي مفاده تأثره بالثقافة العربية الإسلامية ، خصوصاً وأن هذه الثقافة لم تكن قد تبلورت بعد خلال الحقبة الأموية . بل أن عصر التأسيس والتدوين للثقافة العربية الإسلامية لم يحدث إلا خلال الحقبة التالية في العصر العباسي الأول . إذن لم يكن التأثير الفكري الإسلامي هو الوحيد وراء الاتجاه اللاأيقوني ، رغم وجوده ، ووضوحه وفعاليته في تلك الولايات الشرقية من الامبراطورية . ومع ذلك فإن تحري حقيقة الأمر مناط بظروف تتعلق بالجانب البيزنطي . صحيح أن الاتجاه اللاأيقوني في الولايات الشرقية كان موجوداً قبل الإسلام ، كما أن ظهور الإسلام والاتصال الحضاري بين الدولة الإسلامية وتلك الولايات والتأثير الفكري الذي ترتب على

هذا الاتصال ما كان بوسعهم أن يسهم في تنشيط الاتجاه اللاأيقوني فيها . فلابد إذن من وجود ثمة عوامل أخرى وراء ذلك الاتجاه اللاأيقوني الذي انتشر في الولايات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، مثل المواقف المعادية لعبادة الأيقونات التي كانت تبناها بعض المذاهب المسيحية كالبيالصة (اتباع بولص) Paulicians في المنطقة الوسطى من الحدود البيزنطية الاسلامية ، وكانت هذه الطائفة تعارض عبادة الأيقونات^(٥٧) . وربما كان وجود اليهود في تلك الولايات الشرقية عاملاً آخر خاصة وأنهم هاجموا بشدة عبادة الأيقونات .

على أن العامل الفاعل في تفسير سياسة ليو الثالث اللاأيقونية إنما يرجع إلى التدهور الاقتصادي الذي حل بالامبراطورية آنذاك في وقت تصاعدت فيه أخطار القوى المتربصة بيزنطة ، ومنها الجانب الاسلامي ممثلاً في حملة مسلمة بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م . لذا لم يكن هناك مناص لمواجهة هذه الأخطار من التعويل على ماتحويه الكنائس والأديرة البيزنطية من كنوز كانت تشكل الحافز الفعلي لمصادرتها باتباع سياسة لا أيقونية . وهذا يشكك على الأقل بوجود تأثير ديني اسلامي في سياسة بيزنطة الدينية . إن الزعم بصدور أول مرسوم سجلته بعض المصادر البيزنطية ضد عبادة الأيقونات في الدولة الاسلامية سنة ١٠٣ هـ / ٧٢١ م في عهد يزيد بن عبد الملك أمر مخوف بالشك العلمي .

وخلاصة القول ، إن النصوص والإشارات التي وردت في المصادر التاريخية، البيزنطية والسريانية والأرمنية والاسلامية ، دفعت معظم المؤرخين الحديثين إلى القول بأن مرسوم يزيد حقيقة تاريخية ثابتة . فيرى أسد رستم^(٥٨) أن الخليفة يزيد الثاني قد أمر سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م بتحطيم الأيقونات في كنائس النصارى، كما ترى السيدة اسماعيل كاشف^(٥٩) الرأي نفسه ، وذلك نقلاً عن سير الآباء

البطارقة . وتؤكد على أن هذا القرار قد شمل جميع بلاد الدولة الإسلامية . فمصر مثلاً ، لم تنج من حركة تحطيم التماثيل والصلبان وبعض الآثار الفرعونية . أما السيد الباز العريني^(٦٠) فيقول إن مرسوم يزيد صدر قبل قرار ليو الثالث بإزالة الأيقونات ، وذلك نقلاً عن ثوفانس . ويؤكد وسام عبد العزيز^(٦١) على أن مرسوم الخليفة الأموي قد صدر فعلاً في عام ١٠٦ هـ / ٧٢٤ م ، وأن لليهود أثراً في تحريض يزيد على إصدار هذا المرسوم . ويؤكد كل من أوستروفورسكي Ostrogorsky ، وفازيليف Vasiliev^(٦٢) وهما من المؤرخين الثقات في التاريخ البيزنطي ، على أن مرسوم يزيد قد صدر فعلاً ، وأن قرار الامبراطور ليو الثالث قد تأثر بالمؤثرات الإسلامية بل واليهودية المعادية لعبادة الأيقونات .

وفي ضوء ماتقدم ، نستطيع القول إن صدور مرسوم يزيد الثاني المتضمن إزالة الأيقونات من دور العبادة المسيحية الواقعة في حماية الدولة الإسلامية ، غداً أمراً لا يقبل الشك . ولكن المسائل الفرعية المتعلقة ، بشكل أو بآخر ، بهذا المرسوم لاتزال مسائل جدلية ولم تحسم بعد ، منها مثلاً : هل صدر هذا المرسوم بتأثير أحد اليهود كما ذهب بعض المصادر البيزنطية ؟ وهل تم تنفيذ هذا المرسوم على أرض الواقع ؟ وهل نفذ في كل الأمصار الإسلامية ؟ وما هو رد فعل الرعايا المسيحيين ؟ ثم هل وصل هذا المرسوم إلى أسماع الامبراطور البيزنطي ليو الثالث ، وجعله يصدر بدوره مرسوماً مماثلاً بعد ثلاث سنوات يحرم فيه عبادة الأيقونات في امبراطوريته ؟ والواقع أن الإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها مما قد تثيره هذه الإشكالية غير ممكنة في ضوء المعطيات التاريخية المتاحة . بل أن المؤرخين الحديثين اختلفوا . فإذا كان البعض قد انساق وراء المصادر البيزنطية واعتقد بتأثير يهودي في صوغ قرار يزيد الثاني^(٦٣) . فإن البعض الآخر ينفي ذلك نفياً قاطعاً ، ويؤكد

على أن الخليفة لم يكن دمية بأيدي العرافين اليهود ، بل لانلمس أي تأثير يهودي في سياسة بني أمية وقراراتهم . وإذا كان بعض المؤرخين البيزنطيين المعاصرين ذهبوا إلى التأكيد على أثر اليهود في هذه المسألة ، ربما كان السبب في ذلك هو لأن اليهودية قد حاولت عبادة الأيقونات قبل الإسلام ، وظن هؤلاء المؤرخون أن الموقف الإسلامي من الأيقونات هو في حقيقته استمرار للموقف اليهودي في هذه المسألة^(٦٤) .

أما فيما يتعلق بإشكالية تأثير الامبراطور ليو الثالث الأيسوري بمرسوم يزيد . فإن هناك من يرى أن القضيتين مستقلتان عن بعضهما استقلالاً كاملاً ، فلكل منهما ظروفها الخاصة . فمرسوم يزيد له ظروفه ويرتبط بالعقيدة الإسلامية وتقاليد المجتمع العربي الإسلامي بل والتراث الشرقي قاطبة ، أما مرسوم ليو الثالث فهو يرتبط بظروف بيزنطة والتراث الاغريقي ، وأحوال الامبراطورية كافة . ولهذا فإننا لانستطيع الافتراض - كما ذهب بعضهم - إلى أن مرسوم ليو الثالث جاء استمراراً أو تحت تأثير قرار الخليفة الأموي . فإن لكل منهما ظروفه الخاصة وإن صدرا في وقتين متقاربتين^(٦٥) . بل لماذا لانفترض أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد احتج احتجاجاً شديداً على قرار الخليفة يزيد ، وماتبعه من اجراءات ضد المسيحيين في الدولة الاسلامية ؟ ولماذا لانفترض أن تكون بيزنطة قد اعتبرت مثل هذا القرار الإسلامي هو انتهاك لحقوق المسيحيين في البلدان الاسلامية ؟ لاسيما وأن كل الاتفاقات التي وقعت بين الفاتحين المسلمين وسكان المدن المسيحيين في الشام ومصر تضمنت تعهد المسلمين بحماية حقوقهم وعقيدتهم وأرواحهم وأملاكهم ؟

أما والأمر كذلك ، لا يمكن للباحث أن يقطع برأي يرجح أو ينفي ،
وحسبه أنه طرح الاشكالية لباحثين تالين ربما يكونون أحسن حظاً في العثور
على نصوص جديدة تحسم القول في هذه الإشكالية .

والله ولي النعمة والتوفيق

هوامش البحث

- ١ - الأيقونات لفظ يوناني معناه الصور أو الرسم ، ويستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة إلى صور القديسين . أنظر : أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت ، ١٩٥٦) ج ١ ، ص ٣٠٢ .
- ٢ - أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ، وسام عبد العزيز فرج : دراسات في تاريخ حضارة الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .
- ٣ - من المؤرخين الحديثين الذين اهتموا بهذا الموضوع فازيلييف ، انظر Vasiliev, A., A., " The Iconoclastic Edict of the Caliph Yazid, A. D. 721 " , DOP, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .
- ٤ - نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ١٩٨٢) ص ٤٢ ، عفيف بهنسي : الفن والاستشراق (بيروت ، ١٩٨٣) ص ٢٢٨ .
- ٥ - البخاري : صحيح البخاري (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج ٧ ، ص ٢١٥ .
- ٦ - حسن الباشا : التصوير في الإسلام في العصور الوسطى (القاهرة ، ١٩٧٨) ص ٤٢ .
- ٧ - حسن الباشا : التصوير في الإسلام ، ص ١٠ .
- ٨ - ابن هشام : السيرة النبوية لابن هشام (بيروت ، بدون تاريخ) ، ج ٤ ، ص ٥٥ .
- ٩ - الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (مكة ، ١٩٢٣) ،

ص ١٠٦-١٠٧ .

١٠ - القرام : الستر الأحمر أو ثوب ملون من صوف فيه رقم ونقوش أو ستر رقيق كالمقرم . الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** (بيروت ، بدون تاريخ) ، مادة « القرم » .

١١ - السهوة : الرف والطاق يوضع فيه الشيء ، أو بيت صغير شبه الخزانة الصغيرة . للمزيد أنظر : الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، مادة « سها » .

١٢ - البخاري : ج ٧ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

١٣ - أبو صالح الألفي : **الفن الإسلامي** (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص ٨٤ .

١٤ - حسن الباشا : **التصوير في الإسلام** ، ص ٤٢ .

١٥ - الألفي : **الفن الإسلامي** ، ص ٧٩ .

١٦ - من المعروف أن اليهود حرّموا عبادة الصور . أنظر :

Vasiliev, **History of Byzantine Empire** (Madison, 1958), I, p. 255.

١٧ - Mansi, J. D., **Sacrorum Conciliorum nova et Amplissima Collectio** - (Florence, 1967 ff.) Vol. XIII, Col. 109 B - E .

١٨ - يسمى البطريرك جرمانوس Germanus الكعبة باسم حبر Khober ويدعى بأنها حجراً في الصحراء يقده المسلمون . أنظر :

Mansi, Vol. XIII, Col. 109 B - E.

١٩ - Ostrogorsky, G., **Byzantine State** (Oxford, 1968), P. 149; .

Vasiliev, **Byzantine Empire** vol. I. p. 258 .

٢٠ - انظر نص تقرير الأسقف يوحنا المقدسي في :

Mansi, Vol., XIII, Cols. 196 - 200. B - E.

٢١ - أيضاً انظر : وسام عبد العزيز فرج : **دراسات في تاريخ وحضارة**

الامبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٢٠٥م (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ،

ص ١٨٠ - ١٨١ .

٢٢ - Cambridge Medieval History, part IV, 2nd ed. (1966), p. 66 .

انظر : السيد الباز العربي : الدولة البيزنطية (بيروت ، ١٩٨٢) .

ص ٢٠٤ .

٢٣ - انظر نص كلمات الأسقف ميساناس Mansi أمام المجمع المسكوني السابع

في : Mansi, Vol. XIII, Col. 200 B - E .

٢٤ - Theophane, I., The Chronicle of Theophanes, Eng. tr. H. -

Turthedove (Pennsylvania, 1982), p. 93.

Theophanes, p. 93. - ٢٥

Theophanes, Ibid. - ٢٦

٢٧ - ويلاحظ أن ثيوفانس يذكر اسم بسر أو بسر مرتين بعد ذلك . ذكر في

المرّة الأولى أنه كان رفيقاً « لليو المرتد » حسب قوله ، وساعده الأيمن في

سياسته « الخرقاء » يعني السياسة اللاأيقونية . وفي المرّة الثانية يشير ثيوفانس

إلى البطريق بسر ب « ذي الميول الإسلامية » ويوضح أنه قتل في حرب

قسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١ - ٧٧٥ م / ١٢٤ - ١٥٩ هـ)

ضد زوج أخته أرتفازدوس Artavasdos عام ٧٤١-٧٤٢ م / ١٢٤ - ١٢٥ هـ

Theophanes, p. 97 and pp. 105 - 106; Vasiliev, Iconoclastic, p. 31. .

٢٨ - عن كتابات البطريق نقفور انظر :

Blake, R., " Note sur L'activite' Litte'raire de Nicephore Ist Patriarche of Constantinople' , B, 14 (1939), pp. 1 - 15 .

٢٩ - عن رسالة البطريق نقفور في الرد على الأسس اللاهوتية التي استند عليها

الامبراطور قسطنطين الخامس في تحريم الأيقونات ، انظر :

S. Nicephori Antirrheticus, II, in; Migne, PC, vol. 100, Cols. 528 - 532 .

Ibid., Col. 532 . - ٣٠

Ibid., Cols. 201 - 202; Vasiliev, Iconoclastic, p. 32 . - ٣١

George Monachus Hamartolus, Chronicle, ed. Boor (Leipzig, - ٣٢
1904) 2 vols .

ويلاحظ أن الجزء الأول وشطر من الجزء الثاني نقل جورج الراهب مادتهما من
حولية ثيوفانس . أما بقية الجزء الثاني الذي يغطي الفترة بين عامي ٨١٣ ،
٨٤٢ م (١٩٨ ، ٢٨٨ هـ) فله أهمية خاصة :

Ostrogorsky, Byzantine State, p. 147.

George Monachus, Chronicle, vol. 2., 735 - 76 . - ٣٣

- ٣٤ - للمزيد عن نص سيرة القديس ستيفن Stephen (المعروف بالصغير) انظر:
Stephani Junioris Vita, in : Migne, PG, vol. 100, Cols. 1067 - 1186 .

وانظر أيضاً : وسام دراسات ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ حاشية ٧٨ .

Ibid., Col. 1116. - ٣٥

Cedrenus, I., Compendium Historiarum, ed. I. Bekker (CSHB, - ٣٦
Bonn, 1838 - 1939), vol. I. p. 788 .

Zonaras, I., Epitomae Historiarum, e. M. Pinder and Th. - ٣٧
Buttmerr - Wobest (CHSB, Bonn 1481 - 1897), vol. 3., pp. 257 -
258 .

Vasiliev, Iconclastic, pp. 35 - 36 . - ٣٨

Denys de Tell - Mahr, La Chronique, tr. J. B. Chabot (Paris, - ٣٩
1895) p. 17: Michel le Syrien, Chronique, tr. J. B. Chabot (Paris,
1899 - 1905), Vol. II, p. 489 .

Michal le Syrien, II. p. 491 . - ٤٠

- ٤١ - عن هذه الحولية السريانية التي كتبها مؤرخ مجهول ، انظر :

Tharossian, H., **Histoire de la Littérature Arménienne. Des Origines Jusqu'a nos Jours** (Paris, 1951), pp. 108 - 109 .

وانظر :

فايز نجيب اسكندر : أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيوفند (٦٣٢ - ٦٦١ م / ١١ - ٤٠ هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) ، ص ٣ - ١٣ .

Histoire des Guerres .

Ghevond, **Historie des Guerres et des Conquêtes Arabes en - ٤٤**
Arménie, trad. G. V. Chahnazarian (Paris, 1856) p. 98 .

Ghevond, **Histoire des Guerres**, p. 98 . - ٤٥

- ٤٦ - انظر حاشية : ٤١ و ٤٢ .

Asolik, S., **Historie Universelle (Iere Partie)** , trad. E. Dulaurier - ٤٧
(PARIS, 1883) , p. 158: Vardan, **La Domination Arabe en Arménie** trad. J. Muyldermans (Paris, 1927) , p. 104 .

- ٤٨ - ذكر أحد مؤرخي الفن البيزنطي الفرنسيين ، أن المصادر الاسلامية خلت من أي ذكر لمرسوم يزيد ، وهذا بالطبع خطأ . انظر :

De Vaux, R., ‘ Une Mosaïque Byzantine a Main (Trans jordanie) ‘,
RB, 47 (1938), p. 256 .

- ٤٩ - الطبري : كتاب تاريخ الرسل والملوك (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ج ٧ ،
ص ٢٢ .

- ٥٠ - الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة (بيروت ، ١٩٠٨) ، ص ٧١
- ٧٢ . وللمزيد عن حمام زبانا . أنظر :

Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) , p. 85 .

- ٥١ - سفيروس بن المقفع : تاريخ بطارقة كنيسة الاسكندرية القبطية ، قام

افت B. Evett بنشر النص العربي للحولية مع ترجمة انجليزية في الجزء الخامس
من Patrologia Orientalis . انظر :

History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria (ed. Evetts), pp. 326 - 327 .

٥٢ - المقريري : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريرية) (بيروت ، ١٩٧٢) ، ص ٤٩٣ .

٥٣ - ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، ١٩٧١) ج ١ ، ص ٢٥٠ .

٥٤ - عن الثيمات ، انظر : Ostrogorsky, State, pp. 80 - 149 وانظر : أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٠١ وما بعدها .

٥٥ - وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي الهيئة العامة للكتاب (الاسكندرية ، ١٩٨١) ، ص ٣٩٤ .

٥٦ - Vasiliev, Byzantine Empire, I, p. 255 .

٥٧ - Ostrogorsky, Byzantine State, p. 221 t; Vasiliev, Byzantine Empire, p. 256 .

٥٨ - أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص ٣١٤ .

٥٩ - السيدة اسماعيل كاشف ، مصر في فجر الإسلام (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٦٠ - السيد الباز العريبي : الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١ (بيروت ، ١٩٨٢) ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

٦١ - وسام عبد العزيز ، دراسات ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

٦٢ - Ostrogorsky, *State*, pp. 161 ff; Vasiliev, *Byzantine Empire*, p. 257 ff.

٦٣ - Vasiliev, *Iconoclastiv*, pp. 25 ff; Ostrogorsky, *State*, pp. 161 ff; انظر : وسام عبد العزيز : دراسات ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، السيد الباز : الدولة البيزنطية ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

٦٤ - Ostrogorsky, *state*, pp. 161 ff; Jenkins R., *Byzantium, The Imperial Centuries AD 610 - 1071* (London, 1966), pp. 82 ff. .

٦٥ - Jenkins, *Imperial*, p. 82 ; *Cam . Med. Hist.* vol. 4, pp. 66 ff.

أولا : المصادر العربية

- (١) - ابن غري بردي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤١٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ، ١٩٧١) .
- (٢) - ابن هشام (ت ٢١٨ هـ / ٨٢٣ م) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري : **السيرة النبوية لابن هشام** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .
- (٣) - الأرزقي : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م) **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار** ، المطبعة الماجدية (مكة ، ١٩٣٣) .
- (٤) - البخاري (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م) محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبة البخاري : **صحيح البخاري** ، دار احياء التراث العربي (بيروت ، بدون تاريخ) .
- (٥) - الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م) محمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : **القاموس المحيط** ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر (بيروت ، بدون تاريخ) .
- (٦) - الكندي (ت ٣٥٠ هـ / ١٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف : **كتاب الولاية وكتاب القضاة** ، مطبعة الآباء اليسوعيين (بيروت ، ١٩٠٨) .
- (٧) - المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي : **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (المعروف بالخطط المقرئزية) ، جزآن ، دار صادر (بيروت ، ١٩٧٢) .

ثانياً : المصادر البيزنطية والارمنية والسريانية

- (1) Asolik (Stephen De Taron) , **Histoire Universelle** (Iere Partie), Trad . E .Dulaurier (Paris , 1883) .
- (2) Cedrnus , I., **Compendium Historiarum** Ed. I. Bekker (Chsb , Bonn, 1838 - 1839) .2vols .
- (3) Denys De TELL - MAHRE (ou ANONYME De Zugnin) **La Chronique** , Tr . J . B Chabot (Paris,1895) .
- (4) De Vaux, R, «**Une Mosaïque Byzantine A Ma, in Transjordanie**» *Revue Biblique*, 47 (1938) .
- (5) George Monachus Hamartolus, **Chronicle**, Ed De Boor (Leipzig, 1904) 2vols .
- (6) Gregorius Bar - Hebraeus, **The Chronography**, Tr. E. Budge (London, 1932),2Vols.
- (7) Ghevond, **Histoire Des Guerres ET DES Conquêtes Arabes En Arménie**, Trad, G. V. Chahnazarian (Paris, 1856).
- (8) Severus Ibn - Al - Muqapfa, **History Of The Patriarchs Of The Coptic Church Of Al Exandria**, Ed. And Eng. Tr. B. Evetts, In Po, (1947),pp. 254 ff.

(9) Michel Le Syrien , Chronique, Tr. J.B.Chabot (Paris 1899 - 1905) 3Vols.

(10) S.Nicephori Antirrheticus iii, In :Migne, Pg,Vol. 100,Cols. 528 - 532.

(11) **Stephani Junioris Vita** In : Migne Pg, Vol. 100. Cols. 1067-1186.

(12) Theophanes, 1., **Chronicle Of Theophanes**, 1982 Eng. Tr H.Turledov.(Pennsylvania,1982).

(13) Vardan **La Domination Arabe en Arménie** Trad. J.Muyldermas (Paris, 1927).

(14) Zonaras , I. , **Epitomae Historiarum** , Edd.M.Pinder And Th. Buttner - Wobst (CSHB,Bonn 1841-1897), 3Vols.

ثالثا : المراجع العربية والمعرية

- ١ - اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، ط ١ ، دار المكشوف (بيروت ، ١٩٥٦) .
- ٢ - أبو صالح الألفي : الفن الاسلامي أصوله ، فلسفته ، مدراسه ، ط ٣ ، دار المعارف (القاهرة ، بدون) .
- ٣ - حسن الباشا : التصوير الاسلامي في العصور الوسطى ، ك ٢ ، مكتبة النهضة العربية (القاهرة ، ١٩٧٨) .
- ٤ - السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١ م ، دار النهضة العربية (بيروت ، ١٩٨٢) .
- ٥ - عفيف بهنسي : موسوعة تاريخ الفن والعمارة - الفن والاستشراق ، المجلد الثالث ، ط ٢ (بيروت ، ١٩٨٣) .
- ٦ - فايز نجيب اسكندر : أرمنية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرخ الارمني جيوفند (٢٣٦ - ١٦٦ م / ١١ - ٤٠ هـ) ، مكتبة نشر الثقافة (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .
- ٧ - نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الأوسط في العصور الاسلامية ، ط ٣ ، دار المعارف (القاهرة ، ١٩٨٢) .
- ٨ - وسام عبد العزيز فرج : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية من ٣٢٤ - ١٠٢٥ م ، مطبعة مصنع اسكندرية (الاسكندرية ، ١٩٨٢) .

- ٩ - وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (الاسكندرية ن ١٩٨١) .
- ١٠ - يوليوس فلهوزن : تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة ، ١٩٦٨) .

رابعاً : المراجع الأجنبية

- (1) - Arnold, T., **Painting in Islam** (Oxford, 1928) .
- (2) - B. Byzantion .
- (3) - Blake, R., “ Note sur L’activite’ litteraire de Nicephore I Patriarche de Constantinople “ , B, 14 (1939), pp. 1 - 15.
- (4) - Bury, J. B., **A History of the later Roman Empire A. D. to 800 A. D.** (London, 1889) .
- (5) - **Cambridge Medieval history**, IV: The Byzantine Empire, Part I; Byzantium and its Neighbour, Ed. by J. M. Hussey (Cambridge, 1966, 1967) .
- (6) - Creswell, K., “ **The Lawfulness of Painting in Early Islam** “ A. I. 11 - 12 (1946) .
- (7) - Crowfoot, J., “ **The Christian churches (at Gerasa)**” in : **Gerasa city of the Decapolis**, ed. C. Kraeling (New Haven, 1938) .
- (8) - Finaly, G., **History of Greece** (Oxford, 1877) .
- (9) - Heinz, G., **Die Syrischen Wustwtschlosser** (Wiesbaden, 1979) .
- (10) - Jenkins, R., **Byzantium, The Imperiae Centuries AD 610 - 1071** (London, 1966) .

(11) - Mansi, J. D. Mansi, **Sacrorum Conciliorum Nota et Amplissima Collectio** (Florence, 1769 ff.) .

(12) - Musil, A., **Kusejr' Amra I**, Textband (Vienna, 1907) .

(13) - Ostrogorsky, G., **A History of the Byzantine State**, tr., J. M. Hussey (Oxford, 1968) .

(14) - Ostrogorsky, G., “ **Les de'buts de la querelle des Images** “, *Melanges Charles Diehl*, (Paris, 1930) , pp. 235 - 255 .

(15) - **PO Patrologia Orientalis** .

(16) - Thorossian, H., **Histoire de la litte'rature arme'nienne. Des Origines jusqu'à nos jours** (Paris, 1951) .

(17) - Vasiliev, A. A., **History of the Byzantine Empire** (Madison, 1958) .

(18) - Vasiliev, A., A., **Justin the First : An introduction to the Epoch of Justinian the Great** (Cambridge, Mass., 1950).

(19) - Vasiliev, A. A., “ **The Iconcolastic Edict of the Caliph Yazid II, A. D. 721** “ , *DOP*, 9 - 10 (1956), pp. 25 - 47 .

التجارة بين مصر والشام في العصر الفاطمي

د. محمد زيود

جامعة دمشق

يعد موضوع العلاقات بين مصر والشام قديماً قدم التاريخ ، وربطت بين البلدين أواصر التعاون والقربى ، ودعمتها علاقات حضارية وعززتها علاقات تجارية قديمة^(١) .

والعلاقات بين مصر والشام في العصر الفاطمي من الموضوعات المهمة والجديرة بالبحث . فعلى الرغم من الأبحاث العديدة التي تناولت الحديث عن البلدين خلال الحقبة الفاطمية^(٢) إلا أنها لاتزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات والأبحاث التي تلقي الضوء على جوانبها المختلفة، لاسيما العلاقات التجارية التي توضح عمق العلاقات الحضارية بين البلدين وتكشف النقاب عن مزاياها وطبيعتها^(٣) .

من المعلوم أن الشام ومصر قد أصبحتا منذ بداية الفتوحات العربية الإسلامية ولايتين تتبعان مركزاً سياسياً واحداً، حتى قيام الدولة الطولونية في أواسط القرن الثالث الهجري ، حيث اندمجتا كلياً وشكلتا دولة واحدة . ولاشك أن هذه التطورات السياسية وهذا الوضع الجديد للبلدين قد ساعد على توثيق أواصر الروابط القديمة بين هذين الاقليمين ودعمها على جميع الصعد الحضارية^(٤) .

لقد أدرك الطولونيون ومن بعدهم الاخشيديون أن موقع مصر والشام ومواردها الاقتصادية والبشرية تشكلان قوة كبيرة يهابها الأعداء والأصدقاء على السواء، فيما إذا أحسن استخدامها، لهذا لم يترددوا في الاستفادة من امكانيات البلدين وتوظيفها لحماية استقلالهما السياسي وازدهارهما في مختلف مظاهر الحياة الحضارية والاجتماعية منها والثقافية والاقتصادية بخاصة، وقاد ذلك كله لوضع عسكري مهيب وقوة فعالة^(٥) ، لكن سرعان ما كانت هذه القوة تنهار أثر

سياسة الصراعات الاقليمية والأطماع الشخصية وضعف الرؤى للحكام في البلدين ، ودليلنا على ذلك ماسجله المؤرخون في العصرين الطولوني والأخشيدي من تقدم حضاري مرموق ونشاط تجاري ملحوظ^(٦) .

ولاشك أن العلاقات بأشكالها المختلفة غدت في العصر الفاطمي أكثر عمقاً وشمولاً ، بحيث قامت خلافة فاطمية مستقلة كل الاستقلال عن الخلافة العباسية في بغداد ، وكان لها أهداف وتطلعات عقائدية وفكرية دفعتها إلى التوجه إلى الشرق وبخاصة إلى مصر والشام، منذ أن بزغ فجرها في المغرب العربي في عام ٢٩٦هـ / ٩٠٨م^(٧) . ودفع الفاطميون نحو الشرق ، الضرورات الاستراتيجية والفكرية والايولوجية واقامة خلافة فاطمية تقود العالم العربي الاسلامي سياسياً وحضارياً ، وبالتالي السيطرة على امكانات البلدين الكبيرة والوصول إلى الديار المقدسة في فلسطين والحجاز ، والحصول على شرف حمايتها وحراسة وتأمين الطرق المؤدية إليها، وكسب الرأي العام العربي الاسلامي الذي زاد استيائه وتدمره من التعديات على قوافل الحجاج ونهبها واختلال أمن الطرقات^(٨) .

وما أن تم لجوهر الاستيلاء على مصر، حتى دعت الضرورات السياسية والعسكرية والاقتصادية التوجه إلى بلاد الشام ، لذلك قرر الشروع فوراً بارسال جيش لضمها^(٩) ، ولتأمين نشر الدعوة الفاطمية فضلاً عن الرغبة في تأمين حدود الدولة الفاطمية في مصر، التي باتت مهددة بأخطار كبيرة، على رأسها الدولة البيزنطية والقرامطة والخلافة العباسية وغيرهم من الطامعين. لكل ذلك جهز جوهر جيشاً في أواخر عام ٣٥٩هـ / ٩٧٠م ، ولم يلق هذا الجيش مقاومة كبيرة من القوات الأخشيديّة، وتمكن بفترة وجيزة من أن يسيطر على الرملة وطبرية وحووران والبثنية ، ودخل القائد الفاطمي دمشق وأقام الخطبة للخليفة المعز فيها

وقطعت الخطبة للخليفة العباسي المطيع في بغداد، من العام السابق الذكر نفسه^(١٠) .

ولقد سيطر على الحكم الفاطمي لبلاد الشام ولاسيما في عهد القائد الفاطمي الأول^(١١) « جعفر بن فلاح الكتامي » ، وربما كان ذلك نتيجةً للصعوبات التي واجهها الحكم الفاطمي فيها، أو نتيجة لسوء التصرف الذي حصل من القائد جعفر وجنوده وردود الفعل على اعتماده وعساكره من المغاربة، أسلوب البطش والقتل والتدمير والحرق والنهب للمدن والقرى ، واهانة الأهالي في دمشق وغيرها من المدن الشامية .

كما أنه مما لاشك فيه، أن السر في الصراع العنيف بين القرامطة والفاطميين في بلاد الشام، يعود إلى أن القرامطة قد خسروا نفوذهم الاقتصادي والتجاري في بلاد الشام، أثر امتداد النفوذ الفاطمي عليها ورفض هؤلاء دفع الأتاوة والفروض المقررة للقرامطة على المدن الشامية بموجب الاتفاقات منذ أيام الأخشيدين^(١٢) .

ومع أن الفاطميين اعتمدوا أساليب متعددة لتوطيد نفوذهم السياسي والاقتصادي في مصر والشام، إلا أن الدبلوماسية والتسامح الديني^(١٣) والتقرب إلى الشعب كانت من أبرز هذه الأساليب، وأعطوا سائر الفئات والطوائف ولاسيما أهل الذمة كامل التصرف والعمل ، وظهر هذا التوجه أكثر مازهر في مصر .

ومن المعروف أن التسامح الفاطمي لم يقتصر على علاقات الفاطميين برعاياهم الذميين وغيرهم، وإنما امتدّ ليشمل التجار الوافدين من العالم الغربي إلى موانئ مصر والشام ، ودلّلنا على ذلك ماقيه تجار إيطالية، ولاسيما تجار (أمالفي والبندقية وجنوه) من تسهيلات، وما تمتعوا به من امتيازات تجارية

مكتتهم من ممارسة نشاطات تجارية مثمرة في كل من مصر والشام ، وجاءت بالفائدة المشتركة للجميع . ومما لاشك فيه أن هذه العلاقات التجارية كانت لمصلحة الطرفين الايطالي والفاطمي، التي استمرت حتى الحروب الصليبية . فاذا كان التجار الايطاليون قد افادوا من نقل السلع والمتاجر إلى الغرب الاوربي ، إلا أن الفاطميين افادوا بدورهم من الحصول على بعض السلع الضرورية اللازمة لمجهوداتها العسكرية من جهة ، وزيادات واردات الدولة من جهة أخرى، لقاء ما كان يؤخذ من التجار، من رسوم وضرائب وبلغت أهمية على رأسها الخشب والحديد والرقيق وكانت هذه السلع مجال منافسة كبيرة بينهم وبين بيزنطة والغرب، الممثل بالبابوية والمدن التجارية الايطالية وغيرهم^(١٤) .

وعلى الرغم من كل الظروف التي كانت تحيط بالدولة الفاطمية ، فلقد شهدت الحقبة الفاطمية الاولى منها تقدما اقتصاديا وتجاريا كبيرا وملحوظا، شمل جميع شعوب حوض البحر المتوسط العربية منها والاجنبية . وتؤكد الوثائق والمصادر والمعلومات التاريخية هذا النشاط الاقتصادي في العصر الفاطمي الأول وحتى الغزو الفرنجي للشام ومصر^(١٥) .

عمل الفاطميون على التمسك بالشام وبذلوا جهودا مضيئة للاحتفاظ بها ، وتعرضوا فيها لدسائس واعداء كثر ، وغدت الشام طريقاً لجهتين حربيتين : العباسيون وقواهم في بغداد ، والبيزنطيون في القسطنطينية . وهؤلاء لم يغيروا استراتيجيتهم طوال العصر الفاطمي، حيث استمرت بيزنطة في شن حروبها على جميع الاصعدة السياسية منها والاقتصادية والعسكرية ضد الفاطميين، وذلك كي لاتسمح لهم بتشكيل قوة سياسية في الشام ومصر، تهدد مصالحها الاقتصادية ولاسيما التجارية منها، في بلاد الشام وحوض البحر المتوسط . وقد وصلت

الاطماع البيزنطية إلى ذروتها قبيل التوسع الفاطمي في جنوب الشام ، وتجلى ذلك بالغزو البيزنطي لشمال الشام وتطوير حاضرتة السياسية والتجارية «حلب» ، وفرض بيزنطة وصايتها عليها وعلى المناطق التابعة لها وذلك بفرض معاهدة أبرمتها مع بقايا الحمدانيين فيها، في صفر سنة ٣٥٩ هـ / ديسمبر / يناير ٩٦٩/٩٧٠ م ، وجعلت هذه الاتفاقية من حلب والمناطق التابعة لها، منطقة نفوذ بيزنطي ومجالا للتوسع الاقتصادي لهم وفتح تجارتهم مع الشرق وسلعه عبر اسواق حلب وقيسارياتها التجارية النشطة .

هذا أخذت بيزنطة تساند القوى المحلية من حمدانية وغيرها ، ضد الفاطميين وتعمل جاهدة على منع شمال بلاد الشام من الهيمنة الفاطمية . ومما يؤكد هذا الاهتمام البيزنطي بحلب، ما ورد صراحة في نص الاتفاقية الالفة الذكر، مفاده أن يتعهد والي حلب « قرعويه » ومن يأتي بعده بحماية القوافل التجارية القادمة من بيزنطة ومن ثم أن يقوم باستلامها وحراستها^(١٦) . ولاشك أن هذا التدخل البيزنطي في شمال بلاد الشام، يفسر لنا العلاقات المتوترة بين بيزنطة والفاطميين . غير أن القوة العسكرية والسياسية للفاطميين كانت تفرض وجودها، وتجبر بعض اباطرة بيزنطة إلى اعتماد سياسة التفاهم^(١٧) . ولهذا كثيرا ما كانت بيزنطة تعقد المعاهدات والاتفاقات مع الفاطميين ، وتعيد العلاقات التجارية معهم وتتم عمليات التبادل التجاري بينهما . لكن سرعان ما كان اباطرة بيزنطة ينقضون هذه الاتفاقات عند اول فرصة تسمح لهم الظروف بذلك انسجاما، مع السياسة البيزنطية المعادية للفاطميين وغيرهم من القوى الفاعلة الاسلامية في الشام ومصر . وتؤكد المصادر اخبار الجهود الفاطمية فيما يخص التجارة وخدمتها، وذلك بعقد اتفاقات التفاهم مع بيزنطة وغيرها ، كاتفاقية عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م

و٤٣٩هـ/١٠٥٤م وغيرها. وكثيرا ما تضمنت هذه الاتفاقات بنودا خاصة تتعلق بالتجارة ، وذلك ادراكا من الفاطميين لاهمية التجارة وضرورة المبادلات التجارية ، وذلك على الرغم من موقف بيزنطة الحذر والمتذبذب في هذا الاتجاه . ولم تستجب بيزنطة للطلبات الفاطمية الا بعد أن فرض هؤلاء قوتهم العسكرية في مصر أولا ومن ثم في بلاد الشام ، وأحكموا سيطرتهم عليها على يد بعض القادة كالوزير وغيره ، وذلك أوائل حكم المستنصر الفاطمي (٤٢٧ - ٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م). لهذا اضطر ميخائيل الرابع الفلاغوني (١٠٤١م) للجنوح إلى السلام ووقع الهدنة مع الخليفة المستنصر الفاطمي في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م آنفة الذكر . واستمرت العلاقات الفاطمية البيزنطية حتى نهاية الحكم الفاطمي يشوبها هذا الشعور المشحون بالحذر^(١٩) .

وعلى الرغم مما تعرضت له السياسة الفاطمية في بلاد الشام من معارضة عنيفة، فقد استمر الفاطميون متمسكين بحكم الشام والعمل على ابقائه تحت سيطرتهم بهدف تأمين مصالحهم وحماية حدود دولتهم . وتحملوا الكثير من المتاعب وصرفوا الأموال الطائلة ، واشتروا الاتباع من أجل أحكام السيطرة على الشام، ولاسيما محور فلسطين دمشق (محور عسقلان الرملة طبرية دمشق)، الذي يؤمن لهم الطرق التجارية بين البلدين ويحميها من جهة ويؤمن طريق التجارة بخاصة مع الغرب الأوروبي والمدن الايطالية التجارية من جهة أخرى . كما يؤمن لهم الطرق التجارية في شرق البحر المتوسط وانعاش الطريق تحت نفوذهم من الشام حتى أقصى افريقية^(١٩) ، وعلى هذا الأساس أدرك الفاطميون أهمية بقاء الشام بأيديهم ، بأسواقه وموانئه المليئة دائماً بالبضائع والسلع الشرقية الاتية براً وبحراً بوساطة منافذ الخليج العربي وغيره من الموانئ الشامية ومنها في

اتجاه أوروبة . وهذا مايفسر لنا موقف الفاطمين من ثورة الملاح «علامة» في مدينة صور، ودعم البيزنطيين له عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م، والتشدد الفاطمي في القضاء على هذه الثورة والمؤيدين لها من زعماء بني طي في فلسطين، والقسوة في عقاب هذا الثائر وغيره^(٢٠) . ولاشك في أن فظاعة هذا الانتقام تعطي الدليل على خطر صور وغيرها من المدن الساحلية الشامية ومكائنها في دولة الفاطمين . ولقد استمر الوضع في بلاد الشام في الميدان السياسي والعسكري مضطربا ، وظهرت آثار الحروب والصراعات العسكرية في القرى والمدن الشامية، حيث تعرضت للنهب والتدمير خلال تلك المنازعات، وشكّل ذلك عاملا معيقا ووقف حائلا أمام التطور الاقتصادي بشكل عام والنهوض التجاري بشكل خاص، وخسرت البلاد الكثير من مواردها وامكاناتها ، وصرفت الأموال الباهظة لاختاد الثورات والفتن والحروب^(٢١) .

العوامل التي اسهمت في النشاط التجاري :

كان على الفاطمين بعد أن اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم الفتية وبعد تحقيق الكسب السياسي الكبير، أن يعملوا على حماية هذا النجاح ويدعموه بتقدم وتفوق اقتصادي، يتناسب مع المشروع الفاطمي الكبير وأهدافهم وحجم المسؤولية الخطيرة، بعد السيطرة التي فرضوها على أهم ولايتين واقليمين في الدولة العربية الاسلامية . ومن خلال استعراض الاحوال الاقتصادية لمصر والشام في لعصر الفاطمي الأول، يتضح أن هناك عوامل كثيرة كانت الى حد كبير وراء الازدهار التجاري ويمكن أن يأتي في مقدمتها :

أولا : الموقع الجغرافي والاستراتيجي الهام للبلدين ، هذا الموقع الذي أهلها لان تكون طوال هذه الحقبة، تلعب دورا مهما ورئيساً في التجارة الدولية، ساعدها على زيادة فعاليتها ونشاطها التجاري. وحظيت معظم المدن الساحلية

بهذا النشاط أمثال : طرابلس وبيروت وصيدا وصور الاسكندرية ودمياط وغيرها ، هذا فضلا عن أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر وأهميتهما في التجارة الدولية وتحكمهما بمنافذها طوال العصور الوسطى . كما واستمرت المدن الداخلية محافظة على نشاطها التجاري، نتيجة لهذا الموقع الهام، فامتلات بالسلع الشرقية الآتية من الهند والصين، وشكلت أسواقها مراكز تخزين هامة ومناطق عبور لهذه السلع المتجهة منها وعبر موانئ الشام ومصر إلى أوروبا . ويكفي أن تذكر كل من حلب ودمشق والفسطاط وتينس والقاهرة وغيرها من المدن الشامية والمصرية، لنؤكد مدى النشاط التجاري الذي وصلته خلال هذه الحقبة الفاطمية^(٤٢) .

ثانيا : التوجهات الإسلامية والسياسية العامة للحكام الفاطميين المستندة على التعاليم الإسلامية ومبادئه وقيمه ، هذه المبادئ والدعائم القائمة على العدل والكسب الحلال والعمل الجاد ، ومنع الاستغلال والجشع المادي . كما كانت السياسة العامة للحكام والخلفاء الفاطميين، تقوم على العناية بالتجارة والحث على عوامل النهوض بها ومتابعة رعايتها، من خلال الاهتمام بطرق القوافل التجارية وحفر الآبار لتأمين مياه الشرب ، وتشيد الرباطات والأسواق والفنادق والوكالات، ورفع المنارات في الموانئ والثغور الحربية والتجارية وبناء الأساطيل لحماية الشواطئ من غارات الأعداء والمتربصين بالأرض وبالأموال والممتلكات، وإقامة الجسور والقناطر على الأنهار وتعمير الطرق وصيانتها وتقسيمها إلى مراحل ووضع الإشارات الخاصة عليها، للدلالة وتخصيص النفقات الباهظة لحراسة الطرق وخفارتها إلى غير ذلك من إجراءات كثيرة قامت بها السلطات الفاطمية بهدف خدمة التجارة والعمل التجاري. وأشار إلى كل ذلك الرحالة

والجغرافيون والمؤرخون والعلماء المهتمون بالحضارة العربية الاسلامية^(٢٣) .

ثالثا : الموارد الاقتصادية، حيث انبتت أرض مصر والشام موارد زراعية وصناعية وانفردتا بخيرات ومواد أولية و سلع صناعية، كان لها من الأهمية بحيث لا يمكن الاستغناء عنها واستمرار الحضارة البشرية من دونها ، ولا سيما أنهما انفردتا بمحاصيل متميزة كالشعب ، والنظرون والبلسان وماء الورد والسكر والورق والبردى والأترج والنارنج وغيرها من مواد و سلع لا تتوفر الا في مناطقهما . وقد ساعدت هذه الموارد الزراعية والصناعية - فضلا عن المواد الخام الطبيعية التي كانت دفيئة في أرض البلدين ، والتي أفاضت بذكرها المصادر - على قيام صناعات زراعية وتحويلية متنوعة ومتقدمة، وساهمت في تقديم بعض السلع والموارد التي صدرت للغرب والشرق ، بحيث كان من العسير الاستغناء عنها، نظرا لأهميتها، ونخص بالذكر من هذه الصناعات التي لاقت رواجاً وتقدماً في العصر الفاطمي في كل من مصر والشام : الصناعات النسيجية المختلفة الحريرية والكتانية والقطنية ، ثم صناعة السكر والعسل والحلوى والصابون الزيوت ، وماء الورد ، ومن ثم صناعة الزجاج والخزف وصناعة الورق والصناعات البحرية الهامة كالسفن والمراكب الحربية والتجارية^(٢٤) ، وغير ذلك من صناعات كثيرة هامة ومتطورة . ولقد كان للحياة الاجتماعية المترفة والتي رافقت التطور العام في العصر الفاطمي الأثر الكبير على التقدم الصناعي من حيث الكم والكيف ، ومن ثم استخدموا اساليب جديدة في المجال الصناعي والتجاري، لتلبية الحاجة الاجتماعية الراقية والمترفة وبخاصة في البلاط الفاطمي والفئات الحاكمة والغنية .

سياسة الفاطميين الاقتصادية :

اعتمد الفاطميون سياسة اقتصادية ساعدت على النهوض الاقتصادي والتجاري منذ قيام دولتهم وقد قامت هذه السياسة على الأسس التالية :

آ - محاولة نشر الأمن ومحاربة الفوضى والخارجين على النظام^(٢٥) والمرتشين وانهاء الرشوة واسقاط الضرائب الجائرة ، وعدم نشر المعلومات عن ارتفاع النيل وانخفاضه، وحصر ذلك بسلطة القصر، كي لا يستغلها التجار والمحتكرون. واسناد أمر تنفيذ هذه الاوامر إلى المحتسب الذي اختير من الثقات الخالص للفاطميين ومن يدين بالولاء الكامل لهم ، وأعطى صلاحيات واسعة تناسب مع مهماته وأعماله .

ب - التسامح الديني الكبير مع سائر الطوائف والعناصر التي خضعت للنفوذ الفاطمي في معظم مراحل تاريخ الدولة، وفتح الباب أمام الجميع للنهوض بالوضع الاقتصادي وبالعامل التجاري^(٢٦) دون قيد ، وذلك اذا استثنينا فترة حكم «ال خليفة الحاكم» الفاطمي المضطربة ، وتعرض بعض اسواق القسطنطين للنهب والاعتداء .

ج - العناية بالزراعة وبوسائل نهوضها وتأمين الزراع ومعاملة الفلاحين باللين والرحمة، وعدم تركهم تحت رحمة المتقبلين أو المقتطعين لتقدير فرض الضرائب كما يشاؤون ، بل تدخل الفاطميون فحددوا فئات هذه الضرائب وكانوا يراجعونها من حين إلى آخر^(٢٧) على الرغم من قيام بعض الحكام بنقض هذا التوجه العام .

د - تحديد الدولة للاسعار والتدخل اثناء الازمات الاقتصادية وارتفاع الاسعار، وذلك لمحاربة الاحتكار . وكان المحتسب يشرف على الغلال وينظم عملية بيعها بأسعار منخفضة مناسبة ، وتحديد سعر عام للسلع، حماية للمصالح

العامة^(٢٨) . وكانت الدولة تتدخل للخروج من الازمات الاقتصادية، التي كثيرا ما كانت تتعرض لها البلاد ، وتقف بحزم ولا تتراخي^(٢٩) وتعتبر التجار وبائعي الحبوب والسماسرة مسؤولين عن نقص الاقوات . وكان المحتسب يقوم بردع المخالفين والمحتكرين ، ولم يتردد باستخدام الاساليب الكفيلة بتسوية الأمور والقضاء على الاختناقات ، ولا سيما في العصر الفاطمي الأول عندما كان الخلفاء مصدر السلطة^(٣٠) .

هـ - المخازن السلطانية : اعتمد الفاطميون سياسة شراء بعض السلع وتخزينها « بالمخازن السلطانية » . ومن أهمها القمح ، وطرحها بالاسواق اثناء الشدائد وبيعها بسعر معقول، للمساهمة في عمليات الافراج في الاسواق ومنع الاختناقات والاحتكارات والازمات، التي كثيرا ما كانت تظهر على اثر انخفاض مياه النيل أو زيادتها عن الحد الأعلى وحدوث الاستبحار وفي كلتا الحالتين تهدد الزراعة في الدلتا^(٣١) .

و - المعاهدات والتسهيلات التجارية : من المعروف ان الفاطميين لم يترددوا في الانفتاح على العالم الخارجي وفي عقد الاتفاقات والمعاهدات واعطاء التسهيلات وتقديم المزايا للتجار الاجانب، وذلك بغية الحصول على السلع المهمة والضرورية، كالخشب والحديد والرقيق اللازمة للصناعات الحربية والتجهيزات البحرية والعسكرية والتجارية والمواد الاخرى التي تساهم في الجهود العسكري وغيره، والتي لا يمكن الاستغناء عنها^(٣٢) . وكل ذلك أدى إلى زيادة التبادل التجاري وكثرة ورود التجار والسفن من الغرب الاوروبي وغيره بكثرة إلى مصر والشام ، وظهرت مؤسساتهم التجارية في الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس ، وغيرها من المدن والمرافئ المصرية والشامية ومراكزها التجارية .

ز - ثروة الفاطميين من الأموال والذهب « المتجر الفاطمي » :

جلب الفاطميون إلى مصر كميات هائلة من ذهب المغرب وأفريقية وجاءتهم بأساليب مختلفة ، وقد استغلوا هذه الثروة الهائلة بالتجارة وبخاصة الشرقية وشجعوها . ثم تطور دور الحكومة الفاطمية في العمل التجاري، عندما أقدموا على احتكار العديد من السلع الضرورية والكمالية. وقصد الفاطميون من ذلك تحقيق هدفين : الأول زيادة استثمار أموال الدولة والوزراء وكبار رجال البلاط والاعنياء والحصول على أرباح من وراء ذلك، بما لا يسبب أية أضرار حيث كانت الدولة تبيع السلع بالسعر العادي والمناسب ، أما الهدف الثاني فهو القضاء على الاحتكار التجاري بالأسواق، وعندما تشتد وطأة الاحتكارات كانت الحكومة تخرج من مخازنها الغلال وتوزعها على الأسواق وتقضي بذلك على الأزمة^(٣٣) .

ولقد احتكرت الدولة صناعة المنسوجات وبخاصة الطراز ، والمناجم والاختشاب ومحصولي الشب والنطرون . وكانت الدولة تبيعها لتجار الروم في الاسكندرية، وكانت تدر أرباحا كبيرة لبيت المال . كما وكانوا يقايضونها مع تجار المدن الإيطالية ، بالخشب الضروري ، والهام للصناعات المصرية . وكان المتجر يعرض محصول الشب فيشترىها الصناع والصيّاغ والحرفيون اللبديون ، وأما النطرون فيباع لصناع النحاس ومبيضي الأواني ... وقد استمر نظام المتجر الفاطمي يؤدي دروه ويحقق الأرباح والاستثمارات ، وكانت أهم سلع المتجر ، هي الحبوب والاختشاب ، والحديد ، والصابون والعسل والرصاص ، إضافة إلى الشب والنطرون وغيرها من المواد التي احتكرتها الدولة الفاطمية^(٣٤) .

ح : الحج : كان الحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين وغيرها، بما في ذلك الحج الإسلامي والمسيحي، من العوامل المهمة في تنشيط التجارة وزيادة حجمها بين الغرب والشرق . ويورد « بنيامين التطيلي » في رحلته عن قافلة حج تعد أكبر قافلة عن الحجاج قبيل الحروب الصليبية، وهي التي رأسها أربعة اساقفة كبار. وكانت في سنة ٤٥٧ ÷ - /١٠٦٤م/ ١٠٦٥ م .

ط - الاهتمام بالأسواق : وأخيرا هناك عوامل كثيرة اعتمدها الفاطميون وأسهمت في النهوض التجاري، منها الاهتمام بالأسواق وعدم السماح بنشر الفوضى فيها وحمايتها حتى أثناء الخطوب والازمات السياسية . ونتيجة لاهتمام الدولة بأمن التجار ومتاجرهم، فقد بلغ من الحد لدرجة أن البزازين « تجار القماش » وتجار الجواهر والسيارة كانوا لا يفتحون أبواب دكاكينهم بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن يجزؤ أحد على مد يده إلى شيء منها^(٣٥) . كما كان التجار بالسوق أن الخليفة لا يظلم أحدا ولا يطمع بمال أحد . وكان زعماء الدولة والقادة العسكريون لا يتجاسرون على مصادرة أموال التجار نتيجة لقوة نفوذهم في البلاط الفاطمي .

وهناك رواية في غاية الأهمية، يرويها صاحب (سيرة البديعة المقدسة) توضح ما كان التجار يتمتعون به من أمان، وما كان القضاء عليه من عدل واحترام. فقد أورد قاضي ابن النعمان القول : « أنه وصل إلى مصر رجل ببضاعة وهي زبيب وعسل للاكل وعمل الحلوى وانها احترقت فأتى القاضي فجاء بالحاكم فساواهما بالجلوس في المحكمة والتمس التاجر ماله وقيمته ثمن البضاعة الف دينار بعد أن أقسم التجار على صدق قوله فرد الحاكم ثمن البضاعة له »^(٣٦) .

ومما ساعد على التجارة أيضاً، قيام الحكومة الفاطمية بتأمين الحوانيت والمخازن والقياسر وغيرها من المؤسسات التجارية وتأجيرها بأسعار مناسبة . كما ساد في العصر الفاطمي نظام تأجير الاربطة التجارية، مثل رباط الوزير وكذلك تأجير الدور ووجد بمدينة الفسطاط مائتا رباط مستأجرة طيلة العصر الفاطمي^(٣٧) .

كما اهتمت الدولة في العصر الفاطمي باقامة الوكالات التجارية، مساهمة منها في خدمة التجارة وتشجيعها . ومن أهم الوكالات في مصر في العصر الفاطمي وكالة الحراني في الفسطاط ، ثم الوكالة الأميرية التي شيدها المأمون البطائحي^(٣٨) وزير الخليفة الأمر بأحكام الله، سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، في القاهرة، للتجار القادمين من الشام والعراق ، وكذلك وكالة ابن ميسر التي أنشأها سنة ٥٣١هـ / ١١٣٧م، وغيرها الكثير من الوكالات والفنادق والقياسر والخانات مما أشارت إليها المصادر ، وكثرة اشادتها في العصر الفاطمي يؤكد النشاط التجاري الخارجي في البلدين ، وزيادة التبادل الداخلي بين البلدين: الشام ومصر .

العوامل التي أسهمت في ضعف النشاط التجاري :

يمكن أن نوجز هذه العوامل التي أعاققت النشاط التجاري بعاملين اثنين وهما: العوامل السياسية ، والعوامل الطبيعية .

أما فيما يتعلق بالعوامل السياسية، فهي الحروب والصراعات التي اندلعت بين القوى المختلفة على النفوذ والحكم في كل من الشام ومصر ، وعملت على نشر الفوضى وتخريب المحاصيل ونهب الأموال والممتلكات وقطع الطرق وفقدان الأمن، الذي يعد أهم ركن من اركان النشاط التجاري . وفي هذه الحقبة

الفاطمية، تعرضت الشام ومصر لأحداث كثيرة عملت في نشر الفوضى ، فمن ثورات داخلية وأزمات سياسية ، وحركات قرمطية ، وتنافس على السلطة وتهديد بيزنطي واجتياح تركي سلجوقي ، ثم غزو صليبي . ومن ثم التنافس بين الخلافتين الاسلاميتين: العباسية في بغداد ، والفاطمية في القاهرة . كما وتعرضت طرق القوافل التجارية وطرق الحج لهجمات قبائل البدو وقطاع الطرق سواء في البر أو في البحر ، وأفادت مصادر تلك الفترة اشارات كثيرة إلى هذه الجوانب^(٣٩) .

ثم جاءت العوامل الطبيعية ، وماترتب عنها من محن وكوارث وزلازل اجتاحت المنطقة في هذه الحقبة ، وكانت من العوامل التي أسهمت أيضاً في الحد من النشاط الاقتصادي^(٤٠) في كلا البلدين . وقد أشارت المصادر إلى العديد من هذه الكوارث الطبيعية التي حدثت من النشاط التجاري في العصر الفاطمي^(٤١) .

الغزو الصليبي للشام وأثره على تجارة البلدين :

تأثرت الشام ومصر تجارياً بهذا الغزو ، حيث عمل الصليبيون على قطع طرق المواصلات التجارية البرية والبحرية بين البلدين^(٤٢) ، وتحقيق لهم ذلك بحرياً باحتلالهم أهم الموانئ الشامية البحرية التجارية في شرق البحر المتوسط . كان من أهم آثار هذا الغزو، وقوع جميع موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط تحت السيطرة الأوروبية الصليبية، وذلك حتى ٥٨٣هـ / ١١٨٧ . كما نتج عن هذا الغزو، تعاظم الدور الايطالي في التجارة الدولية، وذلك على حساب التجارة العربية الاسلامية . فحتى قيام الحركة الصليبية، كانت التجارة بين

الشرق والغرب تسير وفق اتجاه واحد لصالح التجار العرب المسلمين في الشام ومصر^(٤٣). لكن على أثر هذا الغزو، تم ابعاد التجار الشاميين من النشاط التجاري في عالم المتوسط .

وفي الواقع، لم يكن النشاط التجاري في بلاد الشام مقتصرًا على المدن الساحلية فحسب بل شهدت بعض مدنها الداخلية كحلب ودمشق نشاطًا تجاريًا ملموساً^(٤٤). لكن هذا النشاط التجاري اجمالاً كان لصالح التجارة الأوروبية والمدن الايطالية، بخاصة حيث نما على حساب التجارة الشامية والمصرية^(٤٥).

أما فيما يتعلق بالاتصال التجاري البري بين الشام ومصر، فقد كانت الضرورات الاقتصادية والعسكرية تفرض على الصليبيين أن يتحكموا بها وبطرقها، بهدف تشديد الخناق على مصر وقطع سبل الاتصال البري مع كل من الشام والحجاز واضعافها اقتصادياً وعسكرياً . لهذا أنصبت الجهود الصليبية، ولاسيما في مملكة بيت المقدس، على السيطرة على الصحراء الممتدة جنوبي البحر الميت وحتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة^(٤٦). وكان هدف هذا المشروع الصليبي، هو تحقيق التحكم الصليبي في الطريق البري بين مصر والشام والحجاز والعراق، وتهديد القوافل التجارية . ولم تمض سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م، إلا وكانت سيطرتهم قد تمت على هذا الوادي، وأقاموا عدة حصون وقلاع أهمها: الشوبك والكرك، واتخذوها مراكز للهيمنة على الطرق ومهاجمة القوافل المتجهة من مصر إلى فلسطين، ومنها لبقية مدن الشام وغيرها . ثم أكمل الصليبيون عملهم باحتلال العقبة، وتمكنوا من الاشراف على شبه جزيرة سيناء، وتحكموا بكل اتصال بري ما بين الشام ومصر بعد ذلك . ثم قادهم طمعهم لاستكمال تنفيذ مخططهم الاستعماري الاقتصادي وتوسيع هذا

المشروع الصليبي، بالتوجه إلى مصر واحتلالها. لهذا حاول بلدوين الأول (ت ٥١٢هـ) (١١١٨م) تنفيذ هذا المشروع بالهجوم على القرما في سنة ٥١٢هـ - ١١٨م ودفع حياته ثمناً لذلك ... و حاول الصليبيون بعد ذلك احتلال مصر والسيطرة عليها ودخلوا بذلك في سباق مع نور الدين زنكي (ت ٥٧١هـ - ١١٧٤م)، صاحب دمشق وخسروا السباق . وهذه الخسارة جعلتهم يشددون قبضتهم على طريق الكرك /الشوبك/ العقبة ، وظهرت أطماع الأحمق ، أرناط، صاحب الكرك الذي حاول النفوذ إلى البحر الأحمر وتجارته وتهديد التجارة المصرية هناك، بعد أن غدا الطريق شرئسي والوحيد لمصر في هذه الحقبة^(٤٧) .

كل ذلك أثر في الحركة التجارية المصرية وتكدست السلع التجارية بأسواق الفسطاط والاسكندرية ، وذلك لتوجه التجارة إلى الموانئ الشامية الصليبية. وأخذت مع الأيام حركة الموانئ المصرية بالضعف ، ولم تجد السلع المصرية أسواقاً لها للتصريف واستمر ذلك بعض الوقت ... ورافق ذلك الاضطرابات الأخيرة التي أخذت تعصف بالدولة الفاطمية وأحدثت فيها الهزات العنيفة. وفُقدَ الذهب والفضة في مصر. وأشارت المصادر إلى ذلك ونذر الذهب في ٦٧٥هـ / ١١٧١م، وهي السنة التي سقطت فيها الخلافة الفاطمية في مصر^(٤٨) . لهذا كان على الحكام في القاهرة أن يفتشوا عن مخرج لتخطي هذه الأزمة ، وذلك عن طريق تشجيع التجارة إلى الشرق في البحر الأحمر من جهة ، واعطاء امتيازات تجارية لتجار المدن الإيطالية من جهة أخرى، بهدف جذبهم إلى الأسواق المصرية.

وعلى الرغم من الحروب بين الصليبيين والمسلمين، فإن العمليات التجارية لم تنقطع بين الشام ومصر من جهة وبين مدن الشام الداخلية والساحلية الواقعة

تحت النفوذ الصليبي والخارجة عنه . واستمرت التجارة بلا توقف، إلا في أثناء الحروب ، حيث كانت تعود إلى النشاط بعد توقف القتال ، وذلك ادراكاً من القوى المتصارعة بأن المصلحة تقتضي الاستمرار في هذه التجارة^(٤٩) . وفي الواقع، كان المستفيد الأول من هذه التجارة ونشاطها تجار المدن الإيطالية، الذين كانوا قد حصلوا على امتيازات تجارية منذ بداية الحركة الصليبية^(٥٠) . وكان الوازع الديني لتجار المدن الإيطالية ضعيفاً أمام الحس التجاري والجشع المادي ، وكان شعار البنادقة في عصر الحروب الصليبية واضحاً ، وهو أنهم بنادقة أولاً ثم مسيحين ثانياً ... وتوضح المصادر أن الحروب الصليبية لم تؤثر كثيراً على الحركة التجارية، ولا سيما في الشام . وقد لفت ابن جبير الانتباه إلى ذلك ، حيث أوضح أن النشاط التجاري بين دمشق وعكا الصليبية ظل قائماً دون توقف في عصر الحروب الصليبية، حيث يقول : « ومن عجيب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج من بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد الشام .. وأهل الحروب مشغولين بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »^(٥١) . وعلى الرغم من أن ارناط ، صاحب الكرك والشوبك، قام أكثر من مرة باعترض القوافل التجارية، الإسلامية ونهبها، وهي في طريقها مصر إلى الشام وبالعكس ، غير أن القوافل لم تتوقف بين الطرفين ... كما أشار ابن الأثير إلى هذه العلاقات التجارية في معرض حديثه عن تهريب الغلال إلى انطاكية لبيعها بأسعار مرتفعة بسبب ندرتها هناك ... كما تحدثت مصادر كثيرة عن هذه العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين ، ولفتت الانتباه إليها والاهتمام المتبادل بها والاشتراك في حراستها وتأمين حمايتها، كل في محيطه ومناطق نفوذه وسيطرته^(٥٢) .

كما نشطت التجارة وتطورت عن طريق البحر الأحمر، وازدهرت الطرق المؤدية إليه، البرية منها والبحرية، ونشطت مراكزه التجارية وذلك تحقيقاً للأهداف والمصالح الفاطمية . ووصلت التجارة الفاطمية في البحر الأحمر إلى قمة الازدهار، زمن الصليبيين ومن جاء بعدهم من بني زريع في اليمن .

هذه الأهمية التجارية لهذا الطريق التجاري الشرقي البحري يمكن أن تفسر الاهتمام الفاطمي باليمن وشبه الجزيرة العربية، منذ أيام الدعوة الاسماعيلية المبكرة واستمرارها بهذا الاهتمام وقيامهم بارسال الدعاة . وقد نجح هؤلاء باقامة الحكم الصليحي باليمن، والذي استند على النشاط الدعوي الفكري ولم يدعم بأية قوة عسكرية. واستمر النفوذ الفاطمي باليمن بعد ذلك مايزيد عن مائة سنة، بعد عام ٤٥٥ هـ / ١٠٤٧ م وإلى نهاية الدولة الفاطمية في مصر . وعن طريق الصليبيين، امتدت الدعوى الفاطمية إلى الشرق واسندت بالدعاة إلى الهند والتي كان الحكام الصليحيون كثيراً ما يقومون بتعيينهم هناك ، كما كانوا عوناً للفاطميين في نشر نفوذهم في مكة والمدينة^(٥٣) . وأدت التجارة الشرقية هذه دورها في نشر الدعوى الفاطمية في بلاد الهند وارتبطت معها على يد هؤلاء التجار الكارميه ، حتى أن أهالي الهند لم يكونوا يفرقون بين الدعاة والتجار ، وكان يطلقون على الاسماعيلي منهم اسم « البهرة » أي تاجر البهار. وقد امدتنا وثائق الجنيزة بمعلومات هامة عن التجارة الكارمية^(٥٤) ، في البحر الأحمر وأهم مراكزها التجارية وطرقها وسلعها وعلاقاتها بالوطن الأم مصر وبلاد الشرق الأقصى. واتضح منها أن عدن وعذاب وقوص والفسطاط ، كانت من أهم المراكز البرية والبحرية على هذا الخط التجاري الشرقي الكارمي. ونشطت في هذه الحقبة التجارة الكارمية في البحر الأحمر ، وكانت محل اهتمام الحكومة الفاطمية وتقوم

بحمايتها ، وكانت تجارة الكارم محط انظار الجميع في مصر، حيث كان الشعب ينتظر قدوم سفن الكارم من الشرق بشغف وهي تحمل السلع والبضائع التي كانت مطلبا للجميع ومحط أنظارهم^(٥٥) ... والكارمية كما تحدث عنها وثائق الجنيزة هم فئة من كبار التجار، اشتغلوا باحتكار تجارة الهند والشرق الأقصى وفي تجارة التوابل بخاصة وما إليها من سلع. وكان مركز نشاطهم التجاري الأول في المحيط الهندي وقد أصاب هذه الحركة التجارية الكثير من الركود بسبب الغزو الصليبي والمقاطعة الصليبية للتجارة المصرية ، التي قادت كما اشرنا إلى كساد تجاري في الموانئ المصرية ، وزاد تفاقمًا في نهاية الدولة الفاطمية. لكن سرعان ما فشل هذا الحصار الصليبي نتيجة لسيطرة وقوة المصالح الاقتصادية والتجارية بخاصة ، وهيمنتها على تجار المدن الايطالية ، إذ وجد هؤلاء أنه ليس من مصلحتهم أن يضحوا بمصالحهم التجارية لمساندة دعوة باطلة، ولا شك أنها خاسرة في النهاية . لهذا اتجه تجار المدن الايطالية صوب مصر والتجارة معها ، وتبين أن هذه المدن التجارية وبخاصة البندقية أنها بندقية أولاً وأخيراً ... وقد شجع هذا التوجه نحو مصر ، أيضاً رغبة الحكام في مصر من فاطميين وغيرهم لكسر طوق هذه العزلة بالانفتاح التجاري وزيادة التسهيلات والمعاملات التجارية والاكتثار من تقديم المزايا للتجار وحمايتهم في ارض مصر . وقد انتقد كل من الفاطميين وصلاح الدين ، لسلوكهم هذه السياسة في خضم المعارك العسكرية والعداء بين الشرق والغرب. وظهر ذلك في خطاب موجه من صلاح الدين في مصر إلى الخليفة العباسي المستضيء في سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م نقله صاحب كتاب الروضتين وبين فيه وجهة نظر صلاح الدين ودفاعه عن موقفه من المدن الايطالية وتجارها ومبرراته التجارية مع الغرب الأوروبي^(٥٦) .

وهكذا سرعان ما رفع الحصار الاقتصادي عن مصر، وذلك ادراكاً من تجار المدن الإيطالية أن الصفقات مع مصر أكثر ربحاً وأقل كلفة ومجازفة وأوسع سلعاً من موانئ الشام ، لهذا اتجهوا نحو مصر وبدأت ترجح كفة الاتجار مع مصر وموانئها، وأخذت الاساطيل الإيطالية وغيرها ترد إلى الاسكندرية بكثرة قبل معركة حطين^(٥٧) . ولقد كان هذا التوجه لصالح تجارة مصر أيضاً وظهرت ثمرات ذلك فيما بعد في العصرين الأيوبي والمملوكي .

التجارة الخارجية لمصر والشام :

أما فيما يتعلق بالتبادل التجاري بين الشام ومصر والعالم الخارجي فقط، اتضح أنه كان للشام ومصر علاقات كبيرة مع الدول والأقوام العربية والمناطق القريبة والبعيدة .

وكانت الشام تصدر إلى مصر الأخشاب والحديد لبناء السفن وتطوير الأسطول الفاطمي ، ثم الحرير الذي استعمل في صناعة الملابس الفاخرة، والذي كان يؤخذ من دودة القز التي كانت تنسج على نفسها هذا الخام، وكان يطلق عليه القرمز الأحمر ، وهو من المنسوجات الحريرية الراقية الصنع . كما صدرت الشام إلى مصر الزيت والصابون الجيد ، وكذلك السيوف الدمشقية المشهورة ، والزجاج المطللي بالمينا ، والورق النقي الجيد ، وبعض الحاصلات الغذائية ، كالفستق والحلوى ، وقمر الدين^(٥٨) ثم التفاح الشامي الفاخر . وذكر ناصر خسرو أنه كان يؤتى إلى مصر من الشام يومياً بقوافل الثلج إلى القصور الفاطمية، والتي قدرت بأربعة عشر حملاً من أحمال الجمال ، كما كانت ترد من دمشق ، الأواني والقدور النحاسية التي أطلق عليها اسم الدمشقية بأسواق مصر، ومن شهرة طلائها تحسبها من الذهب الخالص . كما جاء تجار الشام إلى مصر

بالتحف والنقائس والستور وغيرها ، من مواد أكدت عمق العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين^(٥٩) .

وكانت مصر بالمقابل تصدر المنتجات المصرية الفاخرة ، من الأقمشة والملابس وبخاصة المنسوجات المذهبة والمطرزة بالطراز الذي تقدمت صناعاته في العصر الفاطمي . ثم الكتان والمنسوجات الكتانية ، وكان هذا يصدر إلى الشام كمواد خام أيضاً لكثرتة في مصر وقلته في الشام . ونظراً لشهرة مصر بالصناعات الجلدية ، فكانت تصدر إلى الشام أنواع الأنطاع والأكمار وخرائط الجلد والستور والقسي وغيرها من مواد و سلع جادت بها أرض مصر ، ومدنها الصناعية المشهورة كالفسطاط وتنيس وديق وغيرها في العصر الفاطمي لاسيما دهن البلسان والحوت البوري من دمياط والتحف الفاخرة وغيرها من المواد والسلع^(٦٠) .

وكانت أهم واردات الشام ومصر من عمان اللؤلؤ العماني ، كما استوردت مصر والشام من الجزيرة العربية الخيول العربية الأصيلة والجمال ، ومن اليمن البر والدروع والقات واللبن والاسلحة وبعض المعادن النفيسة مثل العقيق من صنعاء ومن عدن وعمان العنبر واللبن والبخور^(٦١) .

وكانت العلاقات التجارية مع أوروبة أقوى أوبخاصة مع جزر البحر المتوسط كصقلية وقبرص ، وكريت والمدن التجارية الإيطالية: كامالفي وجنوه والبندقية وبيزا . وكانت أهم السلع التي تركزت عليها التجارة مع هذه المناطق الخشب والمعادن (الحديد والنحاس والفضة والذهب) ، ثم الرقيق بمختلف ألوانه وأجناسه ، وكان الجبن أكثر ما تطرحه السفن الأوروبية في أسواق مصر . كذلك كانت يزنطه تصدر إلى أسواق مصر والشام المنسوجات والملابس

الحريرية وبخاصة ملابس النساء^(٦٢) .

وأما قبرص وكريت، فكانت أكثر ما تصدران العسل والشمع ... وبالمقابل كانت الشام ومصر تصدران إلى هذه المناطق الزيوت مثل دهن القوطم والبلسان وزيت السلجم والخروع والاهليلج والخيار سنبر والشب والنطرون ، ثم الزجاج بأنواعه وأشكاله والأرز والصوف والفواكه النادرة، أمثال الليمون والرمان والتفاح والأترج ، وغير ذلك من صناعات شامية مصرية كثيرة متنوعة^(٦٣) وجيدة ... إضافة إلى السلع الشرقية الواردة إلى أسواق كل من مصر والشام ، التي كانت تشغل أسواقها مخازن كبيرة ومهمة لها ومناطق عبور أيضاً تصل إلى أوروبا، عن طريق البر والبحر بوساطة التجار والوسطاء التجاريين من بيزنطيين وشاميين ويهود وأفارقة وغيرهم من تجار المدن الإيطالية^(٦٤) .

أما هدف التبادل التجاري المصري والشامي مع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، فكان الحصول على مواردها الهامة والكثيرة وفي مقدمتها: الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند والحديد والمسك والكاغد والهيل والزنجبيل وجوز الطيب والدراسيني والفخار والخزف الصيني والسيوف المطعمة والجواهر النادرة والسروج المذهبة والياقوت والمرجان من الهند والعقيق والماس من جزيرة سيلان فضلاً عن التوابل والعطور والأفاويه وكان بعضها يستهلك من الداخل وبعضها يصدر إلى أوروبا^(٦٥) وكان الفلفل يرد بكميات هائلة إلى مصر ، وكان الكافور يصل من ساحل زنجبار والصبر من جزر الهند ومن جاوه وخشب الساج المستخدم بصفة أساسية في صناعة السفن من شبه جزيرة الملايو، واللوز والجوز من بلاد الهند، ثم البخور والجواهر والأحجار الكريمة فضلاً عن العقاقير الطبية والأدوية مثل

الأطريفل والهلليج والبلاذر وغيرها من مواد كثيرة^(٦٦) .

بالمقابل، كانت الشام ومصر تصدران إلى الشرق السكر والقطن والأقمشة والزجاج والورد المستخرج من المزة « بدمشق » والذي كان يسمى هناك الزهر، والعسل ، ثم البلسان ودهن الخروع والكتان والزمرد والعاج^(٦٧) .

أما من بلاد فارس، فكان يؤتى بالفضة من مدينة كرمان وكايل وفرغانة ومن بخارى أيضاً ، كما صدرت هذه المدن النحاس الأصفر أيضاً ، وصدرت بلاد فارس كذلك ماء الورد ولاسيما إلى مصر^(٦٨) وكان يضع فيها من زهور الورد والقيسوم والزعفران . وكانت الشام ومصر تصدران إلى بلاد فارس منتوجاتها وأهمها المنسوجات الجيدة بجميع أنواعها الحريرية والقطنية والكتانية^(٦٩) .

الخلاصة :

- أكدت المصادر عمق العلاقات بين الشام ومصر وأوضحت مدى الروابط القوية بينهما وتشابك هذه الروابط السياسية والاقتصادية ، ومدى أهمية كل من البحرين المتوسط والأحمر بالنسبة لتجارة البلدين ، عبر العصور وكذلك على التجارة العالمية . لهذا كانا مصدر نزاع وصراع القوى للسيطرة عليهما، وعلى منافذهما الخامة^(٧٠) . كما أوضحت المصادر أن الخطر الداهم بالنسبة لمصر كان يأتيها دائماً عبر الشام، لهذا اتممت الحكومات المصرية بأمر الشام واعتبرت أمنه من أمنها .

- أدرك الصليبيون وغيرهم من الغزاة أهمية العلاقات التجارية بين الشام ومصر ومدى تأثيرها على امكاناتها السياسية والاقتصادية، لذلك عملوا على قطع وفصل عرى هذه الصلات التجارية لضعاف البلدين ، واستخدموا ذلك ورقة ضغط على الفاطميين وغيرهم لاسقاط دولهم في الشام ومصر^(٧١) .

- نظراً لأهمية كل من الشام ومصر وتحكمهما بمعظم النهايات للطرق التجارية البرية منها والبحرية، والتي كانت تتحكم بالتجارة العالمية وعملياتها طوال العصور الوسطى الإسلامية وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، لهذا فقد أكدت المصادر على أنه من يمتلك هذين البلدين يمكنه الامساك بعجلة الاقتصاد العالمي ، وبالتالي التحكم بالتجارة الدولية .

الموامش

١ - عن هذه العلاقات انظر :

- احمد فخري : الاهرامات المصرية : ص ١١١ / ١١٣ / ١٢٦ (القاهرة ١٩٦٣ م) .

- سليم حسن : مصر القديمة : ج ٦ ص ٣٧ (القاهرة ١٩٤٨ م) .

- رشيد الناضوري : أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ص ٦ ومابعدھا (مجلة كلية الآداب - الاسكندرية ١٩٦٨) .

- لو كاس : المواد والصناعات عند قدماء المصريين ص ٧٠١ / ٧٥٥ (ترجمة زكي اسكندر ، ومحمد زكريا غنيم « القاهرة ») .

- محمود عبد الحميد أحمد : سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر العصور ص ١١ / ٢٦ (دمشق ١٩٨٥ م) .

- عبد القادر عبد المنعم : علاقات مصر بشرق البحر المتوسط حتى نهاية عصر الدولة الحديثة ص ٣٤ - ٣٥ (الاسكندرية ١٩٦١) .

٢ - انظر :

- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر والشام وبلاد العرب ص ١٠٠ ومابعدھا (القاهرة ١٩٥٨ م) .

- عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ١٠٩ ومابعدھا (القاهرة ١٩٩٤ م) .

- محمد جمال الدين سرور : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٩ / ٢٧٠

ومابعدھا (القاهرة ١٩٩٥ م) .

- أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ص ١٢٥ / ١٢٩ / ١٤٣ /

٢٠٧ ومابعدھا (القاهرة ١٩٩٢ م) .

- حسن أحمد محمود ، وسيد اسماعيل كاشف : حضارة مصر، العصر

الطولوني ص ١١ ومابعدھا (القاهرة ١٩٦٠ م) .

٣ - انظر المصادر والمراجع السابقة في (١ - ٢) .

٤ - عادل رضا : التاريخ لا تحركه الصدفة : ص.ص ٤٦٦ / ٤٦٧ /

٤٩٦ (القاهرة ١٩٩٣ م) .

- محمد عبد الهادي شعيرة : شا مصر (المغرب) في عصور الاسلام ص ١٩

ومابعدھا الاسكندرية مكتبة سعيد رافق ١٩٧١ م .

- سيده كاشف وحسن محمود : حضارة مصر في عصر الطولونيين

والاخشيديين ص ١١ / ٤٩ / ٥٠ / ٢٧١ (القاهرة ١٩٦٠ م) .

- سيده كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ص ٧٥ - ٣٧٣ (القاهرة

١٩٧٠ م) .

وانظر : البلوي : سيرة أحمد بن طولون ص ٤٢ / ٤٨ - ١٠٩ / ١١٠

ومابعدھا تحقيق محمد كرد علي - دمشق ١٩٣٩ م .

وابن سعيد : المغرب في حلي المغرب القسم الخاص بمصر ج ١ تحقيق :

زكي محمد حسن ورفاقه ، (القاهرة ١٩٥٣ م ص ٧٣ / ١٦٧ - إلى ٢١٠) .

- محمد زيود : العلاقات بين مصر والشام في العهدين الطولوني

والاخشيدي ص ٥٦ / ٥٩ / ٦٠ / ٢٨٦ (دمشق ١٩٨٩) .

٦ - سيده كاشف : مصر في العصر الأخشيدى ص ٢٨٩ / ٢٩٣ / ٣٠٢ / ٣٠٤ / ٣١٠ / ٣١٤ ... الخ .

- حسن أحمد محمود وسيده الكاشف : المرجع السابق ص ٨٩ / ١٢٣ / ٢٢٨ / ٢٣٥ / ٢٤١ .. الخ .

- أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م) ص ٢٥٦ / ٢٥٨ ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال القاهرة ١٩٦٠ .

- محمد زيود : المرجع السابق ص ٥٥ / ٣٥٥ - والنشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة ص ٢١٢ / ٢٢٤ مقال مؤتمر بلاد الشام الخامس، عمان ١٩٩٠ م .

٧ - النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ص ٣٩ / ٤٠ تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٧٠ (وفيه اشارة واضحة للمعز وتخطيطه لحكم الشرق كله) .

- المقرئزي : اتعاط الحنفا ج ١ ص ٩٩ / ٩٨، تحقيق الشيال، القاهرة ١٩٦٧ م .

٨ - انظر :

- كتاب الأمان لأهالي مصر من القائد جوهر في اتعاط الحنفا ج ١ ص ١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٥ ومابعدا .

٩ - وعن التوجهات الفاطمية إلى بلاد الشام وعواملها يمكن العودة إلى :

- ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١ ومابعدا (بيروت ١٩٠٨ م) .

— المقرئزي : اتعاظ، ج ١، ص ٩٩ / ١٠٢ / ١٠٧ / ١١٠ / ١٢٠ /
١٢٣ / ١٢٧ ، عبد المنعم ماجد : ظهور ص ٦٢ / ٦٣ - وابن الأثير : الكامل
ج ٨ ، ص ٩١ / ٥٩٢ واحداث سنوات (٣٥٩ / ٣٦٣ هـ) ، وابن خلدون :
العبر ج ١ ص ٤٨ / ٩٠ - النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٠ - وايمى فؤاد سيد
الدولة ص ٨٥ / ٨٧ - خاشع العاضدي : الحياة السياسية في بلاد الشام خلال
العصر الفاطمي ص ٢٢ / ٢٩ بغداد ١٩٧٥م - دوريش النخيلي : فتح
الفاطمين للشام ومصر في مرحلته الأولى ص ٢٢ / ٣٠ (بغداد ١٩٧٦م) .
- انظر المصادر والمراجع السابقة .

١١ — المقرئزي : اتعاظ ج ١، ص ١٢٢ / ١٢٣ / ١٢٤ / ١٢٥ /
ومابعدھا .

- ابن القلانسي : ذيل : ص ١ / ١ / ٤ - ابن الأثير : الكامل : ج ٨،
ص ٩١ أحداث سنة ٣٥٩ هـ .

- سرور : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ / ٢٧٥ - ومابعدھا .

١٢ - ثابت بن سنان : اخبار القرامطة ص ٦٢ - ابن الجوزي : المنتظم في
تاريخ الملوك والأمم ج ٧، ص ٨٢ - المقرئزي : اتعاظ ج ١، ص ١٧٨ / ١٨٩ .
- أبو المحاسن : النجوم ج ٤، ج ١، ص ٧٥ .

- محمد جمال سرور : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ - أيمى فؤاد : المرجع
السابق ص ٨٦ .

١٣ - عن التسامح الفاطمي وسياستهم حيال شعب مصر انظر :

- المقرئزي : اتعاظ ج ١، ص ١٠٣ / ١٠٧ / ١١٩ / ٢٢٥ - ابن سعيد :
المغرب ص ١٨٣ ص ١٨٤ - النويري : نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٤٠ .

- راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العصر الفاطمي ص ١٥٣ / ٢٢١ القاهرة ١٩٤٨ م .
- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة ص ١٤١ / ٢٠٤ - سرور : المرجع السابق ص ٨١ ومابعدھا .
- ١٤ - صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٢٤٥ / ٢٤٦ (القاهرة ١٩٧٣ م) .
- المقریزی : الخطط ج ١ ص ١٠٩ .
- ابن صماتي : قوانين ص ٢٣ - ابن جبير : رحلته ص ٢٦٠ .
- هايد : تاريخ التجارة ج ١ ص ١١٤ / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣١ / ١٤٥ .
- احمد دراج : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج ١ ص ١٢٦ / ١٢٧ (القاهرة ١٩٧٥ م) والممالك والفرنجة ص ٧٠ (القاهرة ١٩٦٠ م) .
- مصطفى حسن محمد الكناني : العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي ، أضواء جديدة على الحركة الصليبية القاهرة ١٩٨١ ص ٣٩٦ ومقبلها ومابعدھا .
- راشد البراوي : حالة ص ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٥ / ٢٢٤ .
- عطية القوصي : مصر وعالم البحر المتوسط ص ١١٦ / ١٢٠ / ١٣٧ .
- ١٥ - محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية في الشرق ص ١٤٥ / ١٥٠ / ١٥٨ .
- كلود كاهن : تجار القاهرة الأجانب في العهدين الفاطمي والأيوبي من أبحاث التدورة الدولية لتاريخ القاهرة ج ٢ ص ٨٧١ .
- أرشيالد : القوى البحرية والتجارية ص ٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ .

- عطية القوصي : المرجع السابق ص ١١٦ / ١٢٠ .
- أحمد دراج : الوثائق العربية ص ١١٨ / ١٢٦ .
- آدم متر : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٤ .
- سليمان مصطفى زبيسي : المامة عن أحوال القاهرة وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين ، من أبحاث الندوة الدولية القاهرة ج ١ ص ٥٢٩ .
- ١٦ - انظر :
- ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ١٦٣ / ١٦٤ .
- بيرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٦ / ٢٤٠٢٧ .
- زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العصر الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي ص ٣٠ (دار الفكر بيروت ١٩٩٢ م) .
- ١٧ - الروزاري : ديل تجارب الأمم ص ١٨٥ (القاهرة ١٩١٤ م) .
- أبو المحاسن النجوم : ج ٤ ص ١٥١ / ٢٥٢ - المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ١٦٩ .
- عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ١٢٣ / ١٤٠ / ١٤٥ (القاهرة ١٩٦٨ م) .
- شاكر مصطفى : فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي ص ٣٥٥ وما بعدها (الموسوعة الفلسطينية) .
- ١٨ - المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ١٣٧ - اتعاض الحنفا ج ١ ص ١٦٦ / ١٦٨ .
- أبو المحاسن : النجوم : ج ٤ ص ١٩٢ .

- ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦ / ٢٩ / ٤٦ / ٥٩ .
- ماجد : ظهور : ص ١٥٠ / ١٥٤ .
- ومجموعة الوثائق الفاطمية ج ١ ص ١٩٢ - زيود : حالة : ص ٢٩١ / ٢٩٢ .
- ١٩ - ابن القلانسي : ذيل ص ١٥ / ١٩ / ٢٠ / ٤٦ وما بعدها .
- ابن العديم : زبدة ج ١ ص ١٨٥ - ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٦٦١ .
- مسكويه : تجارب ج ٢ ص ٤٠٢ - شاعر مصطفى : المرجع السابق ص ٣٥٥ / ٣٥٦ .
- زيود : حالة : ص ٣١ / ٣٤ .
- أيمن فؤاد : المرجع السابق ص ٢٩٨ وما بعدها .
- ٢٠ - وتجدد الإشارة إلى أن الفاطميين بعد هزيمة هذا الثائر واسره أحضر إلى القاهرة وسلخ جلده حياً ثم صلب ، بعد أن حشي جلده تبناً وقتل أصحابه .
- انظر : ابن القلانسي : ذيل ص ٥٠ / ٥١ .
- ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٦ / ٢٧ .
- شاعر مصطفى : المرجع السابق : ص ٣٥٦ .
- زيود : حالة : ص ٤٢٧ .
- ٢١ - ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٢٤٣ / ٢٤٤ .
- البوزراوي : ذيل مجلد ٣ ص ٢٢٣ / ٢٢٦ .
- مسكويه : تجارب ج ٢ ص ٤٠٢ .
- يحيى بن سعيد الانطاكي تاريخه ج ٢ ص ٥٠٤ .
- زيود : حالة : ص ٣٥ / ٥٩ .
- ٢٢ - محمد زيود : حالة : ص ٣٢٦ / ٣٣١ .

- أمينة أحمد امام الشوريحي : رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي ص ٣١٠ / ٣٣١ (الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٩٤م) .

- وانظر المصادر التي كتبت عن هذه المدن وبخاصة الرحالة والجغرافيين كابن خردادبه ، والمقدسي ، وابن جبير وناصر خسرو وابو الفداء ، وابن بسام التنيسي ، وابن حوقل وياقوت الحموي من خلال وصفهم المدن .

- راشد البرادي : حالة مصر : ص ١٩٩ وما بعدها .

- عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص ١٣١ .

٢٣ - أنظر المقرئزي : اتعاظ ج ١ ص ١٠٧ / ١١٧ .

- الخطط ج ١ ص ٨٢ / ١١١ .

- اغائة الأمة ص ١٣ / ١٤ .

- ابن زولاق : فضائل مصر ورقة ٤٧ ظ .

- زيود : حالة : ص ٢٨٧ .

- ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١٩١ .

٢٤ - انظر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧٩ / ١٨٠

/ ١٨١ / ١٨١ وما بعدها .

- الثعالي : لطائف المصارف ص ١٦٠ .

- ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٢ .

- ابن حماتي : قوانين : ص ٢٣٠ / ٢٣١ .

- زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين : ص ١١١ / ١١٢ / ١١٦ .

- المقرئزي : الخطط : ج ١ ص ٤٦٤ .

- دائرة المعارف الاسلامية : مادة طراز .
- ارشيال : القوى : ص ٣٢٨ .
- امينة أحمد امام الشوريحي : المرجع السابق ص ٢١٦ / ٢٧٠ .
- راشد البراوي : حالة مصر ص ١٢١ / ١٢٤ / ١٢٧ / ١٤٤ / ١٩٤ / ١٩٧ / ١٩٨ / ٢٠٤ / ٢٢٦ / ٣١١ / ٣١٣ .
- زيود : حالة : ص ١٢٣ / ١٣٠ / ١٣٧ / ١٣٨ .
- أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية ص ٢٩٦ .
- ٢٥ - المقرئ : المقفى : ص ٣٤٣ .
- أتعاط ج ١ ص ١١٧ .
- الخطط ج ١ ص ١١١ .
- أيمن فؤاد سيد ص ٨٠ / ١٤٣ / ١٤٤ / ١٤٥ .
- ٢٦ - ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ج ٢ ق ٢ ص ٩٦ / ٩٧ .
- ابن سعيد : المغرب ص ١٨٣ / ١٨٤ .
- أبو شعاع : ذيل تجارب الأمم ص ١٨٦ .
- ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٤٩ .
- ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ١٩٠ .
- ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ١٩٦ - المقرئ : اتعاط ج ١ ص ٢٢٥ / ٢٩٧ .
- جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٦ - أيمن فؤاد سيد : الدولة ص ٨٩ / ٩٢ .

- ٢٧ - المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٦١ / ٨٢ / ٩٩ - اغائة الأمة ص ٢٠ / ٢١ .
- ابن زولاق : فضائل مصر ورقة ٤٧ ظهر - أبو المحاسن : النجوم : ج ٤ ص ٤٦ و ج ٥ ص ٣١٦ .
- أيمن فؤاد سيد : الدولة ص ٨١ - البراوي : حالة ص ١٠٢ و ص ١٠٥ / ١٠٦ / ١٠٧ .
- ٢٨ - المقرئزي : اغائة ص ١٣ ز ١٤ / ٢٧ / ٢٨ - اتعاظ : ج ١ ص ١٢٠ - الخطط ج ٢ ص ٣٤٠ .
- محمد بركات البيلي : الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر الإسلامية ص ١٩ / ٨١ / ٩١ (القاهرة ١٩٨٦) - البراوي : حالة ص ٣٤٨ / ٣٤٩ - بدر عبد الرحمن محمد : النشاط التجاري في مصر في العصر الفاطمي (٤٩٤هـ - ٥٨٣هـ) (١٠٩٩ - ١١٨٧ م) جامعة القاهرة رسالة دكتوراه ص ٥٣ لم تطبع بعد .
- ممدوح عبد الرحيم الريطي : أسواق الفسطاط والقاهرة في العصر الفاطمي من (٣٥٨هـ - ٥٦٧هـ) (٩٦٩ - ١١٧١ م) رسالة دكتوراه جامعة المنيا لعام ١٩٩٢ : ص ٣٢٧ / ٣٢٨ .
- ٢٩ - المسيحي : اخبار مصر ص ٤٥ / ٤٧ .
- ٣٠ - وعن المحتسب ومهماته انظر :
- الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٢٢٧ / ٢٣٠ (مطبعة الوطن ١٢٩٨هـ) .

- دائرة المعارف الاسلامية مادة حسبة - ابن الأخوة : معالم القرية ص ٢٤٠
- ابن خلدون المقدمة ص ٢١٣ - المقرئزي : اغائة ص ١٦ / ١٧ / ١٩ - الخطط
ج ٢ ص ٢٩٧ - الشيزري : نهاية الرتبة ص ٣٠ - المسبحي : أخبار مصر ج ٤
ص ٣٦ .

- القلقشندي : الأعشى : ج ٣ ص ٤٨٧ - زيود : الحسبة ونظام المحتسب
في الاسلام : مجلة دراسات تاريخية العددان ٢٩ / ٣٠ آذار (دمشق ١٩٨٨ م) .
٣١ - المقرئزي : اغائة ص ٢٧ / ٢٨ - محمد بركات البيلي : الأزمات
ص ٨١ / ٩١ .

- ابن حماتي : قوانين : ص ٣٦٧ .

٣٢ - أبو المحاسن : النجوم ص ٤ ص ١٩٢ - المقرئزي : اتعاظ ج ١
ص ١٣٨ / ١٦٦ / ١٦٩ / ٢٩٠ - والخطط ج ٣ ص ١٤٤ - ناصر خسرو :
سفر نامه ص ٨٨ - ابن الأثير : الكامل : ج ٨ ص ١٦ / ٢٩ / ٤٦ .

- هايد : ج ١ ص ٣٨٨ . ماجد ، ظهور ص ١٥٠ / ١٥٤ - دراج : الوثائق
ج ١ ص ١٢٦ / ١٢٧ ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

- القوصي : مصر وعالم البحر المتوسط ص ١٦٠ / ١٦٥ - بنيامين التيطلي
: الرحلة ٢٠/٢٢ ، ١٧٨ / ١٧٩ ، الكنانى : العلاقات ص ٣٨٩ - البراوي :
حالة ص ٢٠٩ / ٢١٠ .

٣٣ - المقرئزي : اغائة ص ٢٨ - سليمان مصطفى زبليس : المامة عن
أحوال مصر الاقتصادية وعلاقاتها مع الخارج في عهد الفاطميين : ص ٥٨٨
(مقال الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) ج ٢ لسنة ١٩٦٩ م .

٣٤ - المقرئزى : الخطط ج ١ ص ١٠٩ / ١١٠ - اغائة ص ١٨ / ١٩ - ابن ميسر : اخبار مصر ص ١٣٥ .

٣٥ - ناصر خسرو : سفر ص ٦٤ / ٦٥ - بدر عبد الرحمن : النشاط التجارى فى مصر فى العصر الفاطمى (رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٧٠) .

٣٦ - المقرئزى : اغائة ص ٢٦ الخطط ج ٢ ص ٤٤ - خسرو : صفر ص ٦١ / ٦٢ .

- ابن مىخائيل : ذيل سيرة الأباء البطارقة ج ٣ ورقة ٢٤ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٦٤٣٤ ح .

٣٧ - خسرو : سفر ص ١٢٦ / ١٢٧ - جرو هلمان : أوراق البردى ج ٦ ص ١٧٥ / ١٨٢ .

٣٨ - ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦٢ / ٨٠ - ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٧٢ .

٣٩ - وعن الفتن والأحداث العسكرية والاضطرابات يمكن العودة إلى :
- ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٢ / ١٣ / ٢١ / ٢٢ / ٣٠ (القاهرة ١٩٩١ م) .

- المقرئزى : اتعاظ ج ١ ص ١٢٠ / ١٢٣ / ١٢٧ / ١٤٢ / ٢٠٥ - ابن القلانسى : ذيل ص ١ / ٢ / ١٨ / ٢١ .

الكامل : ج ٥ ص ٩١ / ٩٢ / ٦٦ - ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤٨ / ٩٠ - النويرى : نهاية ج ٢٨ ص ١٨٠ / ١٨١ / ١٨٥ - سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٣٧ - الدولة الفاطمية ص ١٠١ / ١١٠ .

- المعاضدي : الحياة السياسية ص ٢٠ / ٧٨ - أيمن فؤاد : الدولة ص ١٣٧ / ١٧٣ / ١٩٥ .

- البراوي : حالة ص ٢٤٦ .

- النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٦٠ / ٧٠ / ١١٠ .

٤٠ - الفارقي : تاريخه ص ١٦١ - عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في المشاهد والحوادث المعانية بأرض مصر ص ٤٥ القاهرة رقم ١١٢٣٦ نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة .

- ابن سعيد : الاعتياظ في حلي مدينة القسطاط ص ٢ - حجر الدين : الأنس الجليل ج ١ ص ٣٠٤ .

- المقرئزي : نفح الطيب ج ٨ ص ١٧٧ - شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٤٦٤ / ٤٦٥ .

- البراوي : حالة ص ٧٩ / ٨٢ - زيود : حالة : ص ٥٥ / ٥٦ / ٥٧ / ٥٨ .

وتجدر الإشارة إلى أن هناك نص عن دمشق يعود لهذه الحقبة أورده كل من سبط من الخوري ، وابن القلانسي عن دمشق ومالحقها من أذى وتضرر لقاء ما تعرضت له من أحداث وخطوات أثرتنا إرادته على الرغم ماقد يحمل من مبالغة لكنه يقدم الدليل الكافي على الضرر الذي حدث أثر هذه المحن والخطوب بعد الاجتياح الغزي للشام .

- النص يقول : « بلغت دمشق نتيجة لهذه الحروب حافة الانهيار ولم يبق لها » دمشق من أهلها سوى ثلاث آلاف انسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ... وكان بها مائتان وأربعون خباز فصار بها خبازان والأسواق

خالية والدار التي تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدار الذي كان يساوي ألف دينار ماتشتري بدينار وكان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الاثمان الثقيلة فيضرمون فيها النار فتحترق ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به ، وأكلت الكلاب والسنانير (القطط) وكان الناس يقفون في الأزمة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبجونهم ويشوونهم ويأكلونهم وكان لا امرأة داران قد أعطيت قديماً في كل دار ثلاثمائة دينار أو أربعمائة ولما ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر فاحتاجت إلى سنور فباعت أحد الدارين بأربعة قيراطاً واشترت به سنوراً .

- وفي التاريخ نفسه يورد ابن الفلانسى في احداث سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ م أنه حدثت زلزلة عظيمة في فلسطين هدمت أكثر دور الرملة وسورها وتضعضع جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم ، وحكى أن معلماً كان في مكتبه مايقدر بمائتي صبي فوق المكتب عليهم وما سأل أحد عنهم من أهاليهم لهلاكهم جميعاً وأن الماء تدفق من أفواه الابار لعظم الزلزلة ، كما وهلك في بانياس تحت الردم كثيرون وكذلك حدث في بيت المقدس) .

- انظر : ابن القلانسي : ذيل ص ٩٤ .

٤١ - انظر المصادر والمراجع التي وردت في ٣٩ / ٤٠ .

٤٢ - هايد : التجارة ج ١ ص ١٣٢ / ١٥١ / ١٥٢ / ١٥٦ / ١٥٧ -

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطى ص ٣٧ / ٣٨ الاسكندرية ١٩٣٨ م .

- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٨ / ٣١٩ / ٢٦٣ / ٢٦٤

/ ٢٦٥ ، وشخصية الدولة الفاطمية ص ٣٥ / ٣٦ - عطية القوصي : مصر

الفاطمية وعالم البحر المتوسط اعداد وتقديم رؤوف عباس (القاهرة ١٩٨٥)
ص ١٣٧ / ١٣٩ .

- ارشيالد : القوى ص ٣٦١ و ٣٦٢ - مصطفى حسن الكناني : العلاقات
بين جنوه والفاطمين في الشرق الأدنى ج ١ ص ٨٥ / ٨٦ / ١٤٠ (١٠٩٥ -
١١٧١م أضواء جديدة على الحركة الصليبية الهيئة المصرية العامة ١٩٨١) .

- شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٣٧١ / ٤٨٤ - محمود محمد
الجويري : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث
عشر ص ١٠٧ (القاهرة ١٩٧٩م) .

- راشد البراوي : حالة ص ٢٤١ .

٤٣ - ارشيالد : القوى : ص - شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٤٨٠
/ ٤٨٢ / ٤٨٣ - قاسم عبده قاسم : ماهية الحركة الصليبية ص ٢١٦ .
٤٤ - ابن جبير : رحلته ص ١٨٠ / ١٨٣ / ٢٠١ / ٢٠٢ / ٢١١ /
٢٢٣ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٣٤ / ٢٦٠ / ٢٦٩ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٨١ .

- أبو شامة : كتاب الروضتين : ج ١ ص ٤٤٣ - أسامة بن منقذ : الاعتبار
ص ١٢٧ (تحقيق حني ١٩٣٠) ناصر خسرو : سفر ص ١٣ - هايد : تاريخ
التجارة ج ١ ص ١٨٠ / ١٨١ / ١٨٢ / ١٨٥ / ١٨٦ / ١٨٨ / ١٩٢ /
٣٦٠ - ابن شاهين : زبده كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٤٧ /
٤٨ (بيروت ١٩٨٢) .

- شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٤٨٥ - ابن شداد : النواذر
السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق الشيال) ط ١ القاهرة ١٩٦٤م ص ٦٦ /
٣٣٦ .

- المقريزي : السلوك ج ١ ص ٩٤ / ٢٦٠ – الكناني : العلاقات ج ١ ص ٢٧٢ ص ٨٦ / ١١٧ / ١٢٣ / ٢٨٧ / ٢٩٠ وج ٢ ص ٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .
- ٤٥ - قاسم عبده قاسم : ماهية الحركة الصليبية ص ٢١٧ – عبد الحافظ عبد الخالق يوسف : الأسواق في المناطق الصليبية في بلاد الشام في الفترة من ٤٩٥ – ٦٨٧ هـ (١٠٩٩ – ١٢٩١ م) رسالة ماجستير لم تطبع بعد جامعة الزقاريق ص ١ / ٥٨ .
- قاسم عبد الرحمن هاشم الطحاوي : الحياة الاقتصادية في المستعمرات الصليبية في بلاد الشام (٤٩٤ – ٥٨٣ هـ) (١٠٩٩ – ١١٨٧) رسالة ماجستير جامعة عين شمس ص ١ / ٦٣ / ١٣٥ .
- ٤٦ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣١٨ / ٣١٩ .
- وانظر : شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٣٨٣ .
- ٤٧ - شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٤٨٤ .
- ٤٨ - المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٦ - شاكر مصطفى : المرجع السابق ص ٤٨٤ .
- ٤٩ - انظر المصادر والمراجع الواردة في هامش ٤٤ / ٤٥ .
- ٥٠ - الكناني : المرجع السابق ج ١ ص ٨٦ / ١٠٧ / ١٠٠ / ١٢٣ / ١٨٧ / ٢٩٠ وح ٢ ص ٨٣ / ٨٤ / ٨٨ .
- عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٥ - عفاف صيره : العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٩ / ٢١ / ٨٥ (القاهرة ١٩٨٣) .
- ٥١ - ابن جبير : رحلته ص ٢٠٨ وما بعدها ٢٦٠ / ٢٧١ .
- عن كل ذلك انظر :

٥٢ - ابن جبیر : رحلته ص ٢٠١ / ٢٠٨ / ٢١١ - بهاء الدين ابن شداد :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : ص ٦٦ (تحقيق الشيال القاهرة ١٩٦٤)
- ابن القلانسي : ص ١٨٩ .

- عبد الخالق عبد الحافظ : المرجع السابق ص ٤٩ .

- وليم الصوري : ج ١ ص ٥٨ - ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٥ .

- اسامة ابن منقذ : الاعتبار ص ٧ / ١٢ .

- المقرئزي : السلوك : ج ١ ص ٩٤ .

٥٣ - محمد أمين صالح : العلاقات الفاطمية الصليحية ص ٧٦ مجلة المؤرخ
المصري العدد ١٩٦٦ .

٥٤ - تجارة الكارم : تعود أول اشارة إلى تجارة الكارم إلى ما أورده ابن
أيك عن تأخر وصولها في سنة ٤٥٦ / ١٠٦٣م وهذه الاشارة تؤكد أنها كانت
معروفة قبل هذا التاريخ ويؤيد ذلك مئات الأوراق من الجنيزة والتي تعود إلى
العصر الفاطمي ، ولم يتفق على تحديد موعد للكارم ومعناها والتي ذكرت مراراً
في المصادر العربية وأوراق الجنيزة انظر بهذا الخصوص : صبحي ليب : التجارة
الكارمية وتجارة مصرفي العصور الوسطى . المجلة التاريخية المصرية العدد (٤)
مايو ١٩٥٢ - ص ٧/٦ - ويذكر جويتين أن هذه الكلمة ، توجد في لغة التاميل
بجنوب الهند وهي كلمة (كاريام) وتعني ضمن ما تحمل من معاني الأعمال
والأشغال ، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسة مع ساحل الهند الشرقي
هي بالأساس أعمال تجارية فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على
ملاك السفن من التجار المترددين على هذه البلاد انظر : - الشاطر بعيلي حيث
يرى رأياً قريباً من رأي جويتين ولكنه يرجع الكلمة إلى أصل عربي وأنها تتكون

من مقطعين : كار . ويم و كار بمعنى الحرفة أو التجارة ويم بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشواطئ وسقطت الياء فصارت كارم أي حرفة التجارة في البحار .

- الشاطر بعيلي : الكارمية : المجلة التاريخية المصرية العدد ١٣ سنة ١٩٦٧ م ص ٢٢٠ وعن الكارمية انظر :

- عطية القوصي : تجارة مصري البحر الأحمر ص ٩١ - والسيد عبد العزيز سالم : البحر الأحمر ص ٣٠ - وأيمن فؤاد سيد : الدولة ص ٣٠٨ - ومحمد بركات البيلي : بداية الكارمية ومعناه في العصر الفاطمي ص ٨٩ / ١٠٨ مجلة المؤرخ المصري العدد ١٣ سنة ١٩٩٤ م .

- انظر ابن أيك : كنز الدرر ج ٦ ص ٣٨٠ - وحسنين محمد ربيع : وثائق الجزيرة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادي ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية : ج ٢ ص ١٣٤ (الرياض ١٩٧٩ م) - جواتيان : دراسات في التاريخ الاسلامي : تعريب وترجمة عطية القوصي الكويت ١٩٨٠ .

٥٥ - انظر المصادر السابقة .

٥٦ - أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ - شاكر مصطفى ص ٤٨٥ .

٥٧ - المصادر السابقة والصفحات .

٥٨ - المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٦٠ / ١٦١ / ١٨٠ / ١٨١ - ابن حوقل - المسالك ص ١٤٢ / ١٦٢ / ١٦٤ - ناصر خسرو : سفر نامه : ص ٥٦ / ١٥٢ / ١٥٨ .

- ابن العديم : بغية ج ١ ص ٤١ / ٥١ / ٦١ / ٦٣ - ابن ميسر : أخبار مصر ج ٤٠ ص ٨٢ (تحقيق أيمن فؤاد سيد) - الثعالبي : لطائف من ١٥٠ / ١٥٧ - ابن الشحنة : تاريخ مملكة حلب : ص ١٤٩ .

- المقرئزي : خطط : ج ٢ ص ٢٥٢ / ٢٥٤ / ٤٥٤ .
- ياقوت : معجم : ج ٥ ص ١٤٥ - اشتور : التاريخ الاقتصادي : ص ٥٩ / ١١٤ / ٢٠٧ .
- موريس لومبار : الاسلام في فجر عظمتة : ص ١٩٤ / ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٨ .
- زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين : ص ١٨١ - محمد زيود : النشاط التجاري والصناعي لبلاد الشام في القرنين الثالث والرابع للهجرة : المؤتمر الخامس لتاريخ بلاد الشام (عمان ١٩٩٢ م) ص ٢١١ إلى ٢٤٨ .
- ٥٩ - المصادر والمراجع السابقة .
- ٦٠ - ابن حوقل : المسالك : ص ١٠٥ - خسرو : ص ٦٧ - المقدسي ص ٢٠٣ - المقرئزي : الخطط ج ١ ص ١٦٣ / ٢٦٦ / ٣٦٧ / ٢٣٠١٣ / ٤١٤ / ٤٢٤ / ٤٦٥ - ابن المأمون : أخبار مصر ص ٦٥ / ٦٦ - موريس لومبار : الاسلام : ص ٢١٢ / ٢١٣ - خليفة : تاريخ المنسوجات ص ٩٩ - البراوي : حالة : ص ١٣٦ / ١٤٠ و ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٦٢ - حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ٥٩٠ .
- ٦١ - الثعالي : لطائف ص ١٦٦ (القاهرة ١٩٦٠) - الدمشقي : الاشارة إلى محاسن التجارة : ص ٢٢ (القاهرة ١٣١٨ هـ) - الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢١ .
- المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤٥ - هايد : تاريخ التجارة ج ٢ ص ٥٧٥ .

- البراوي : حالة : ص ٢٣٥ - نقولا زياده : تجارة بلاد الشام الخارجية في
العصر العباسي بين سنتي (١٣٢ - ٤٥١ هـ - ٧٥٠ / ١٠٥٩ م) مؤتمر بلاد
الشام الخامس (عمان ١٩٩٢ م) .
- ٦٢ - ابن حوقل : المسالك ص ١٣٧ / ١٥٠ - الادريسي : نزهة المشتاق
ص ٢٧ - المقدسي : ص ١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٨ - خسرو : سفر ص ١٣ / ٤٥ .
- النويري : الامام بما قضت به الأحكام ص ١٢٣ - كلود كاهن : تجارة
القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين من أبحاث الندوة الدولية لتاريخ
القاهرة لعام ١٩٧٦ ص ١٧١ .
- البراوي : حالة ص ٢١٣ / ٢٢٢ / ٢٣٠ .
- القوصي : تجارة ص ٢٠٨ - حامد زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية
ومصر والشام ابان الحروب الصليبية ص ١٦٢ / ١٦٥ - رسالة دكتوراه جامعة
القاهرة لم تطبع لعام ١٩٧٣ م ..
- ٦٣ - ابن حوقل : المسالك ص ١٠١ - ابن زولاق : فضائل مصر :
مخطوطة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨١٦ ورقة ١٣٥ .
- ابن اياس : نشق الأزهار في عجائب الأقطار مخطوطة المكتبة الأهلية
بباريس رقم ٢٢٠٧ ورقة ١٦٦ .
- راشد البراوي : حالة ص ٢١٥ / ٢٣٠ - القوصي : تجارة مصر
ص ٢٠٩ .
- ٦٤ - عطية القوصي : تجارة مصر ص ٢٠٧ / ٢٠٨ - شاكر مصطفى :
المرجع السابق ص ٤٨٠ / ٤٨٧ .
- البراوي : حالة ص ٢١٣ .

٦٥ - ٦٦ - ابن خرداذبة : المسالك ص ١٥٣ / ١٥٤ - المقدسي :
ص ٣٤.

- اليعقوبي : البلدان ص ٢٣٤ (نشر فيت القاهرة ١٩٣٧) - هايد :
التجارة ج ٢ ص ٢٨٠ و ٥٦١ / ٦٥٩ / ٥٧٥ سلمان التاجر : أخبار الصين
والهند : ص ١١ / ١٢ .

- ابن جبير : رحلته ٤٠ / ٤٢ ص ٤٣ / ٦٧ / ٢٥٦ - أشتور : التاريخ
الاقتصادي والاجتماعي : ص ١٢٨ / ١٢٩ - ابن سينا الطبيب الصيني : مجلة
تاريخ الطب الصيني العدد الثامن يونيو ١٩٥٢ بكين - البراوي : حالة ص ٢٥٥
/ ٢٥٦ .

- نعيم زكي سليفان : طرق التجارة الدولية بين الشرق والمغرب في
العصور الوسطى ص ١٧١ / ١٩١ / ٢٥٤ - سليمان ابراهيم العسكري :
التجارة والملاحة في الخليج العربي ص ٤٩٦ - فهمي هويدي : الاسلام في
الصين ص ٥٠ / ٥١ .

٦٧ - ابن خرداذبة : المسالك ص ١٥٣ / ١٥٤ - المقدسي : أحسن :
ص ١٨٠ / ١٨١ .

- ابن الفقيه : البلدان ص ٢٧٠ - ابن العديم : بغية ج ١ ورقة ٥٠ ظ و ٥١ .
- سليمان التاجر : أخبار الصين والهند : ص ٢٣ / ٢٤ / ٢٩ / ٤٨ -
لومبار : الاسلام ص ٢٤٦ / ٢٤٧ .

- سليمان ابراهيم العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي :
ص ١٣٧ - البراوي : حالة ص ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ .

٦٨ - المقدسي : أحسن : ص ٢١٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ (ليدن ١٩٦٧ م) .

- جرو هلمان : أوراق البردى العربية ج ٦ ص ١٠٤ / ١٨١ دار الكتب المصرية .

٦٩ - جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ١٥٥ - وتاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٣٦ .

- عثمان الكعاك : الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط ص ١٠٤ .
٧٠ - رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط : ص ١٤٣ / ١٦٤ -
عطية القوصي : بحث مصر الفاطمية وعالم البحر المتوسط (القاهرة ١٩٨٦) -
وتجارة مصر في البحر الأحمر ص ١٢٣ / ١٣١ .

- أرشيبالد : القوى البحرية ص ٨٩ / ٩٠ / ٩٥ - السيد عبد العزيز سالم :
البحر الأحمر في التاريخ الاسلامي ص ١٢ وما بعدها - جورج فضل حوراني :
العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى :
ص ٥٣ / ٩٠ / ١٩٠ / ٢٢٨ .

- علي حسن الخربطلي : الاسلام في حوض البحر المتوسط : ص ٩ / ١٥ / ١٦ .

٧١ - أرشيبالد : القوى : ص ٣٥ / ٨٧ / ١٥٧ / ١٦٢ / ١٨٤ / ٢١٦ .
- الروضتين ج ١ ص ٣٣١ / ٣٣٣ - ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦ .
- المقرئ : اتعاظ ج ٣ ص ٢٦٤ - الخطط ج ١ ص ٣٣٨ - النجوم : ج ٥
ص ٣٨٧ / ٣٣٨ .

- أيمن فؤاد سيد : الدولة ص ٢٢٢ / ٢٣٩ .

اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى

د. علي أحمد

جامعة دمشق

مقدمة :

في أندلس الأمس ومغرب اليوم ، عاشت مجموعة من اليهود عيشة طيبة رافهة ، يكتنفها الهدوء وتعززها الثقة والأمان ، لأن العرب في كل مكان وفي كل أيام مجدهم ، كانوا ينظرون إلى جميع سكان بلادهم نظرة واحدة ، تقوم على أساس أنهم مواطنون في دولة واحدة ، تنظم شؤون حياتهم مجموعة قانونية واحدة ، تطبق موادها على الجميع ، بغض النظر عن الجنس واللون والدين .

في هذا الجو الممتاز ، وجد اليهود بيئة صالحة مناسبة للعيش ، استغلّوها لصالحهم إلى أبعد حدود الاستغلال ، مستفيدين من جو الحرية العامة ، التي تمتعوا بها تحت مظلة الدولة العربية ، فوصلوا إلى مراتب إدارية عالية ، كان ذلك على حد سواء في عصر القوة العربية في الأندلس خلال عصر الإمارة والخلافة ، أو في عصر السقوط في زمن دول الطوائف بالأندلس أيضاً . وهذا إن دلّ على شيء ، إنما يدل على سعة الصدر العربي ، الذي تمكن من استيعاب الجميع تحت قيادة عربية واحدة قوية ، وهو بالتالي يشير إلى مدى قدرة العرب على قيادة الناس قيادة حازمة ، تجمع بين العلم والرحمة وبين الحزم واللين .

وعلى الرغم من ذلك الواقع الطيب للعرب ، فإن اليهود لم يقدّروا لهم هذه المعاملة ، وتلك النظرة الانسانية العظيمة ، ولا سيما أن العرب هم الذين خلصوهم من كوابيس الظلم والاضطهاد والعذاب ، التي لحقت بهم خلال فترة طويلة سبقت وصول العرب إلى الأندلس ، فقاموا بتحريرهم وعتقهم وإطلاق سراحهم في كل مجال من مجالات الحياة . ومع ذلك فقد وقفوا ضد العرب ، حتى في أيام قوتهم ، عندما كانوا يحاولون إعطاء زخم جديد للمسائل اليهودية ، وبخاصة الدينية منها ، مستغلين بذلك روح التسامح العربية ، التي سادت

الأندلس والمغرب وقتاً طويلاً . أما في أيام تراجع العرب وسقوط هيبتهم ، وضعف قوتهم ، فحدث ولا حرج . فقد انتقلوا إلى جانب الأسبان ، يقومون بخدمتهم ، والدفاع عن حقوقهم العامة ضد العرب ، الذين أعطوهم كل شيء . وكانوا في كثير من الأحيان أشد ظلماً وعدواناً من الأسبان على العرب ، برغم أنه لولا ثقافة العرب وعلومهم ، التي درسوها واستفادوا منها ، لما تمكنوا من الوصول إلى المناصب الإدارية والاقتصادية الرفيعة ، التي شغلوها في الجانب الإسباني المعادي للعرب .

تفاصيل هذه الأمور ستظهر واضحة من خلال تتبع مضمون الصفحات التالية ، التي قصدنا من كتابتها الوقوف على جانب هام من جوانب حياة اليهود في ظل دولة العرب المتقدمة في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى ، ذلك لأن الوقوف على هذا الجانب التاريخي الهام من حياة اليهود ، يمكن المرء من معرفة أكيدة ، في أن الشعب اليهودي ، لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الإنساني ، الذي يجعله ينظر إلى الآخرين نظرة عادلة ، تعتمد في أصولها على حقوق جميع البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة ، بحيث لا يكون ذلك على حساب الآخرين . كما أنهم دوماً يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم ، وحتى تستقيم الحياة برأيهم (الظالم) فلا بد من أن تكون البشرية تحت سيطرتهم الثقافية والمادية والمعنوية .

نبدأ بالتساؤل عن الأصول الغابرة لليهود في المغرب والأندلس . للإجابة على ذلك نقول : إننا لن نذهب بعيداً في التحري والبحث عن الأماكن ، التي رحل منها اليهود إلى الأندلس والمغرب ، لأن في ثنايا ذلك أوهام وأغلاط وآراء لا طائل منها ، وبالتالي لا يمكن للمرء أن يبلور فكرة راسخة حولها . وكل ما يمكن

ذكره في هذا المقام ، أن قسماً مهماً من اليهود في اسبانية والمغرب ، يعود في أصوله إلى العصر الروماني . أما القسم الآخر المتبقي من اليهود ، منهم من أصل أوروبي شرقي ، ومن ثم من أصل خزري ، وهذا يعني أن أسلاف معظم اليهود المعاصرين ، لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من القولغا ، ولم ينحدروا من كنعان، وإنما من القفقاس . وأنهم أوثق انتماءً وراثياً إلى قبائل الهون والمجر منهم إلى ذرية ابراهيم واسحق ويعقوب^(١) .

ومن ذلك يُستنتج أن اليهود كانوا طارئین على شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانية) مثلهم في ذلك مثل جميع اليهود في كل مكان . ولم يكن لهم صلة جنسية أو دينية بسائر سكان الأندلس ، وكانت الحياة الاقتصادية في أيديهم وتحت سيطرتهم ، يقدمون القروض والأتاوات والاعراض للطبقات الحاكمة ، ويتزودون الأموال من الطبقات المحكومة دون تفريق بين غني أو فقير ، أو بين محتاج ومتخم ، ثم كانوا يقرضون المال للجميع بالربا والفوائد ومايتصل بذلك^(٢) .

وكما كانت الدولة تضطهد اليهود، كان الأشراف ورجال الدين الاسبان يضطهدونهم أيضاً . وقد جعل رجال الدين اضطهاد اليهود سياسة صريحة لهم، وحملوا الدولة على تبني تلك السياسة ، وكانوا لا يبايعون ملكاً على اسبانية إلا إذا تعهد بتنفيذ هذه السياسة . وحجة رجال الدين في اضطهاد اليهود ، هي أن اليهود قتلوا المسيح ، وأنهم يأخذون الربا ، وأنهم يعملون في النخاسة . وأقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه سنة (٦١٦م) في أيام الملك سيسيبوت (٦١٢ - ٦٣١م) وكان روماني الهوى وكاتباً باللغة اللاتينية ، وكذلك في أيام الملك سيسيناندو ، الذي عُقد المجمع الرابع الكنسي في عهده في مدينة طليطلة سنة

(٦٣٣ م) ، والذي اتخذ بحق اليهود قرارات مجحفة غير انسانية^(٣) .

وقد أدت هذه السياسة الجائرة ومآلت إليه من أحوال سيئة باليهود ، أن يطلبوا التخلص منها ومن عواقبها ، فراحوا يتآمرون على الدولة الايبيرية بشتى الوسائل ، دون أن يفكروا في أمر وماهية الدولة المقبلة ، التي تخلصهم من هذا الواقع الصعب . وهذا ما جعلهم يميلون إلى الترحيب بقدوم العرب ، لاحتبا بهم ولايماناً بجدارتهم ، لأنهم لا يحبّون أحداً في الأرض ، بل لأنهم كانوا يأملون بالتخلص من ظلم الاسبان ، الذي شمل كل جوانب حياتهم ، وأن العرب اتصفوا في ذلك الحين بعدلهم وتسامحهم ومحبتهم وإنصاف المظلومين برفع الظلمات عنهم ، من أي الناس كانوا ومن أي الانتماءات . والحقيقة فإن الذي حدث بالفعل ، هو أن العرب لما وصلوا إلى الأندلس ، لم يضطهدوا اليهود دينياً ولا كانوا يأخذون منهم أموالاً بغير حق ، كما كان يفعل القوط ، وبذلك ارتفعت مكانتهم في ظل الحكم العربي^(٤) . ومنذ ذلك الحين تمتع اليهود بنعمة الهدوء والاطمئنان والعيش الكريم ، ولم يتعكر صفو حياتهم لحظة واحدة ، إلا عندما كانوا يقومون بأعمال شائنة ، تثير حفيظة العرب ، الذين منحوهم العطف والرحمة ، وقدموا لهم جميع ألوان المساعدة^(٥) .

وقد تركز الوجود اليهودي في الأندلس في كل المناطق مع اختلاف في كثافة هذا الوجود ، حيث كان كثيفاً في المناطق الجنوبية العامرة في الحياة والغنية في الأرزاق والايادات والامكانيات المتنوعة ، مثل مدينة غرناطة ، التي دُعيت بغرناطة اليهود^(٦) ومدينة اشبيلية التي اكتظت بأعداد غزيرة منهم . لكن أكبر مراكز وجودهم في الأندلس ، كان في بلدة اليسانة القريبة من قرطبة ، التي اختصت باليهود دون غيرهم^(٧) ، وقد كان وجودهم في هذه البلدة مميزاً ، لأنهم

كانوا أكثر ثروة ومالاً ومحبوحة اقتصادية من سائر اليهود في الأندلس^(٨) .

وأهم مناطق اليهود في الأندلس ، كانت مدينة طليطلة عاصمة اسبانية القديمة التي كانت تعرف في العصور الوسطى بالثغر الأوسط . وقد كان اليهود فيها كثيري العدد ، وأصبحوا ذوي شأن رفيع في ظل الحكم العربي المتسامح ، الذي سمح لهم بالامتلاك والبيع والتصرف ، كما لو أنهم من العرب المسلمين ، ودليل ذلك وجود كثير من الصكوك البيع والشراء ، كانت تحتوي على أسماء رجال لهم مقام اجتماعي رفيع ، مثل الصك الذي ذكر فيه ما كان يمتلكه أبو هارون موسى بن الشحات الاسرائيلي^(٩) .

وبالجملة فإن وجود اليهود في الأندلس ، تركز في المدن الكبرى ، وبعض التجمعات السكانية الكثيفة ، التي يكثر فيها النشاط الاقتصادي ، ولا سيما النشاط التجاري ، الذي برع اليهود في مضماره ، كما سنرى في الفقرات التالية.

وقد ظل اليهود إلى جانب الفئات الأخرى غير العربية ، لم يعيشوا في أحياء خاصة بهم في المدن سابقة الذكر . ولم يكن لهم زي خاص بهم ، يتميزون به عن سواهم خلال القرون الأولى من حكم العرب في الأندلس والمغرب على الأقل ، كما كانت العادة في المشرق العربي^(١٠) وكانت بيوتهم في أحيائهم قرية من بعضها ، تتصل فيما بينها بدروب ضيقة وساحات صغيرة ، وفي هذه الأحياء يوجد بعض الحمامات والمعابد^(١١) .

وفي المغرب العربي كغيره من بلدان العالم ، وجدت بعض الجاليات اليهودية، التي انتشرت في عدد كبير من مدنه وبلداته ، من حدود بلدة شالة في

المغرب الأقصى حتى تاهرت في المغرب الأوسط ، ومن بداية افريقية (تونس) حتى نهايتها . وكانت هذه الجاليات تتوضع بشكل خاص في المدن الكبرى ، مستغلة في ذلك وقبل كل شيء روح التسامح العربية ، ومقدرة العرب على استيعاب جميع السكان والمساواة فيما بينهم ، إذا التزموا في حدود القانون والنظام العام . فمنذ القديم ضم المجتمع القرطاجني ، الذي شمل رقعة واسعة من ارض المغرب العربي ، ولاسيما الأقسام الشمالية منه ، ضم بعض الجاليات اليهودية ، التي بدأت بالهجرة إليه منذ سنة ٥٨٨ ق.م، على أثر قيام الملك البابلي بختنصر بتنقية مجتمع مدينة بيت المقدس في فلسطين من الشرور اليهودية^(١٢) . ولايستبعد أن تكون مجموعة مهمة من يهود اسبانية ، قد انتقلت إلى المغرب قبل وبعد الفتح العربي الاسلامي للاندلس والمغرب . فقد ظهر اليهود قبل الفتح على صعيد التدخل في الشؤون السياسية لكلا البلدين ، مثال ذلك أنهم قاموا بمساعدة الفاندال في اسبانية ، وكذلك في المغرب عندما احتله الفاندال ، وذلك انتقاماً من المسيحيين الإسبان ، الذين كانوا يعاملونهم بقسوة^(١٣) . وبقي اليهود يتمتعون بحرية الإقامة والانتقال في كل أقطار المغرب العربي ، عندما فتح العرب جميع أقطاره ، وازداد استقرارهم تدعيماً وقوة في عهد الدول الانفصالية، التي قامت في القرن الثاني الهجري ، كدولة الأغالبة في تونس ، والدولة الاباضية الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم) ، ودولة بني مدرار في سجلماسة بالمغرب الأقصى ، حيث باشر اليهود أعمالاً متعددة الوجوه ، ولاسيما التجارة التي نشطت خلال القرن الثالث الهجري بين أقطار المغرب وافريقية من جهة ، وبين الاندلس من جهة ثانية ، وبخاصة تجارة الذهب ، التي تميز اليهود بها ، وعرفوا اسرار نجاحها وطرقها المربحة .

ويبدو أن عدد الجالية اليهودية في المغرب ، كان كبيراً إلى حد ما ، يدل على ذلك ، أن اليهود كانوا أكثر من المسيحيين في المغرب. فمنذ الأيام الأولى لبناء مدينة فاس المغربية ، شكل اليهود فيها جالية كبيرة ، فيذكر ابن أبي زرع في كتابه (الأنيس المطرب بروض القرطاس) أن إدريس الثاني فرض الجزية على يهود فاس ، فكان مبلغ جزيتهم في كل سنة ثلاثين ألفاً^(١٤) . ويذكر ابن حوقل في عدة مواضع من اراضي الفاطميين ، كانت تجبى ضريبة تسمى (الجوالي)، ويكاد يكون من المؤكد أن هذه الضريبة هي الجزية نفسها ، التي كانت تفرض على غير المسلمين^(١٥) .

وعلى الرغم من التسامح العربي شبه الكامل مع اليهود في المغرب العربي ، فقد يبدو من الواضح في تاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أنه لا وجود لليهود في ميدان الإدارة العامة على الإطلاق ، وإن وجد استثناء لذلك ، فهو قليل ونادر جداً ، وربما يعود سبب ذلك إلى قوة الوجود العربي على هذا الصعيد ، حيث الكوادر العربية الإدارية متوافرة بصورة كافية ، وهذه الكوادر تتفوق على غيرها بالعلم والمعرفة والخبرة والتوجه ، هذا بالإضافة إلى تماسك الدولة وقوتها وزخمها الحي ، وبخاصة خلال عصر الامارة والخلافة الأموية في الأندلس ، وبالتحديد خلال فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله وولده الحكم المستنصر ، والتي استمرت من سنة ٣٠٠ - ٣٦٦ هـ / ٩١٣ - ٩٧٧ م ، حيث وصل يهودي واحد إلى شغل منصب الوزارة، ساعده على ذلك تعمقه في أصول وأنواع الثقافة العربية ، وكذلك التسامح العربي في عصر الخلافة، الذي ترافق مع تقدم البلاد على كل الصعيد ، ولاسيما منها الاقتصادية والعلمية . هذا الوزير هو أبو يوسف حسداي ابن اسحق بن عزرا بن شبروط

المتوفى سنة ٣٥٩هـ / ٩٧١م ، الذي اشتغل عند الخليفين سابقى الذكر فى ميدان الادارة والطب على حد سواء ، وقد كانا يشاورانه فى كثير من الأمور الكبيرة الخاصة بالدولة^(١٦) .

أما فيما بعد هذه الفترة الذهبية ، فقد اختلف الأمر بصورة جذرية ، ولاسيما خلال عصر دول الطوائف بالأندلس ، عندما سقطت الخلافة الأموية ، وظهر عدد كبير من الدول ، كان التناحر والتقاتل هو القاسم المشترك فيما بينها ، الأمر الذى أدى إلى استخدام العناصر غير العربية ، ليس فى مجال الادارة فحسب ، بل فى جميع المجالات . وبرز من بين هذه العناصر ، العنصر اليهودى ، الذى استطاع بذكاء وحسن تدبير من الدخول إلى أعماق وكيان حكام دول الطوائف ، الذين تغافلوا عن كل شيء يتعلق بحقوق الوطن ، وراحوا يركضون خلف مصالحهم الشخصية والعائلية والقبلية .

وقد اعتمد حكام الطوائف على اليهود فى بعض الأعمال المهمة فى مجال الادارة ، وحاول هؤلاء اليهود من خلال المناصب التى شغلوها ، إلى الاساءة للعرب ، وذلك بالوقوف ضد مصالحهم الوطنية . وفى تاريخ الأندلس الكثير من الأمثلة على ذلك ، نسوق بعضها على سبيل التمثيل لواقعهم الحقيقى فى الأندلس . فحينما استقر الحكم للزيريين فى غرناطة ، وأصبحت واحدة من دول الطوائف فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، قام باديس بن حبوس ، أحد حكامها المشهورين بتعيين اسماعيل بن نغيلة اليهودى وابنه يوسف وزراء فى بلاطه . وخلال فترة قصيرة من الزمن ، اشتهر أمر اسماعيل ، فأصبح المتصرف الوحيد والرئيس فى جميع الأشغال والأعمال فى دولة باديس ، وفاز بالجاه والمال ورفع إلى أعلى منزلة ، فاتخذ عمالاً ومتصرفين فى الأشغال من أبناء

جنسه (اليهود) فاكسبوا المال والمراتب ، وتطاولوا على العرب . وفيه يقول
الشاعر الأندلسي عبد العزيز بن خيرة القرطبي المعروف بالمنفقل :

قرن الفضائل والفواضل	فشأى الأواخر والأوائل
سقطوا برفعة فضله	كالشمس في شرف المناقل
متقلد سيف العلاء	والمكرمات له حمائل

وقد أثارت هذه الأبيات وغيرها حفيظة وغضب ابن بسام الشنتريني فعلق
في أواخر القصيدة قائلاً : « ... وبعد الله المنفقل فيما نظم فيه وفصل وقبحه
وقبح ما أمل »^(١٧) .

وكان من عظمته في دولة الحبوسيين بغرناطة ، أن قبل فيه بعد أن شوهه في
قرطبة مع سيده باديس بن حبوس حاكم غرناطة : « ولم أفرق بين الرئيس
والمرؤوس وتشابهت المناكب والرؤوس » . وقال عنه ابن السقاء الوزير القرطبي
المعاصر : « إنه نسي اليهودية وكان منهمك في نظر الكتب ، ونشد أشياء من
علم العرب ، وكان آخر أمره أن حجب صاحبه عن الناس ، وسجنه بين الدن
والكاس ، ملحاً في أمره مبرماً لأسباب غدره ... »^(١٨) .

ولم يرض بهذه المكانة الرفيعة ، التي شغلها في دولة الحبوسيين بغرناطة ، بل
راح يتآمر على سيده ، الذي جعله أهم شخصية بعده ، وذلك بالاجهاز على
السلطان الزيري كله واستبداله بسلطان بني صمادح أصحاب المرية ، واتخذ
الترتيبات المناسبة لتحقيق انتصارهم ، واحتلال مدينة غرناطة . وقد أفلح هذا
اليهودي في إخراج القواد الأقوياء من غرناطة بحجة حمايتها من غزو ابن عباد
صاحب اشبيلية ، وأثار طمعهم بالأموال المخصصة لهم ، بينما أغفل الحصون
الشرقية المجاورة لدولة المرية ، وأغفل تزويدها بالعدد والمؤن الضرورية ، حتى

خلا الكثير منها ، وفكر القائمون عليها أنه لم يعد هناك دولة ولاسلطان .
وحيثما وجد الفرصة مناسبة ، أشار على ابن صمادح بالتقدم ، واستطاع
احتلال وادي آش بسهولة ، وتقدم نحو غرناطة ، حيث تظاهر اليهود بالخوف
كالآخرين ، وانتقل من المدينة إلى القسبة . وفي الليلة المتفق عليها لفتح الأبواب
لابن صمادح أفشى أحد العبيد الضالعين في المؤامرة بالسـر ، وصاح بذلك بين
الناس محذراً ومشيراً إلى مدبرها ، فقامت العامة على اليهودي وهاجموه في محبسه
وأحرقوه بالفحم ، ولوحق اليهود على أثر ذلك ، فقتل منهم أكثر من أربعة
آلاف شخص في غرناطة^(١٩) . وكان هذا اليهودي معداً اعداداً تاماً للقيام بأعباء
الوزارة ، حيث كان يمتلك جميع المؤهلات العلمية والتثقيفية ، إلا أنه كان يحتاج
إلى لين الجانب والتواضع ، وراح يظهر بمظهر أمير باديس ممتطياً جواده إلى
جانبه ، وشارته في الملبس كشارته ، حتى أن الناظر اليهما ، لايفرق بين الأمير
ووزيره بل كان هو المسيطر المتسلط على باديس^(٢٠) .

إلى جانب آل النغريلة ، فقد اشتهر في غرناطة خلال عصر الطوائف أيضاً ،
اليهودي صموئيل هاليفي وكان يدعى عباد بن نغدة ، الذي ولد في قرطبة ،
ودرس التلمود على الربان هانوخ الرئيس الروحي للجالية اليهودية . ثم انصرف
يمجد ونجاح إلى دراسة الأدب العربي ، وتثقف بأكثر العلوم ، التي كانت معروفة
إلى ذلك العهد ، ثم اشتغل في مجال التجارة مدة طويلة في قرطبة ومالقة ، ثم
ضحك له الحظ ، وانتشلته بعض الفرص السعيدة من هذا المركز الوضعي ، ذلك
أن حانوته كان قريباً من قصر أبي القاسم بن العريف وزير حبوس ملك غرناطة .
وكان على رجال القصر في الغالب ، أن يراسلوا مولاهم فيما يعرض لهم من
الشؤون . ولكونهم جهلاء بفن الكتابة لجأوا إلى صموئيل هذا ، فكتب لهم

ما تمس إليه الحاجة من تلك الرسائل ، التي أثارت إعجاب الوزير ، إذ ألفاها مكتوبة بأبلغ وأجزل أسلوب عربي ، مما حمل الوزير عند عودته إلى مالقة ، أن يسأل عن المنشئ لتلك الرسائل ، ولما علم أنه اليهودي استقدمه إليه وخاطبه بقوله : « وليس خليقاً بك أن تبقى صاحب حانوت ، وما أجدرك أن تكون كوكباً يسطع لألاؤه في بلاط الملك ، فإذا توافرت على ذلك رغبتك فياني متخذك لي ناموساً خاصاً فتقبل منه هذه المنة شاكراً ، وصحبه الوزير معه عند عودته إلى غرناطة وازداد إعجابه به ، عندما أخذ يبادل الحديث في شؤون الدولة ، إذ وقف منه على رجل نادر الذكاء بين الرجال ، بعيد النظر ، سديد الرأي ، حتى قال بعض المؤرخين اليهود : « إن النصائح التي كان يسديها صموئيل كانت بمثابة أقوال صادرة عن إنسان ملهم يستوحي كلام الله ويستفسره » ولهذا كان الوزير يأخذ بها ، ويخصه بجميل الثناء . ولما أحس الوزير بدنو الأجل في مرضه ، الذي مات فيه ، جاء الملك يعوده ، وقد داخله حزن عميق على وزيره وخادمه الأمين ، فانتهر الوزير هذه الفرصة وقال للملك : « ولم تكن النصائح والآراء الرشيدة التي كنت أبعدها لك أيها الملك في العهد الأخير صادرة مني ، بل كانت وحيّاً ألقاه من صموئيل ذلك اليهودي ، الذي أثرت أن يكون ناموسي الخاص ، فاقصر نظرك عليه واتخذته أباً لك ووزيراً ، أخذ الله بيدك وشدّ به أزرك » .

وقد عمل الملك الغرناطي حبوس بهذه النصيحة ، وأحلّ صموئيل بالقصر محلّ وزيره الراحل ، وصار ناموس الملك ومستشاره ، وهي الفرصة الأولى ، التي توصل فيها اليهود إلى الوزارة في الأندلس ، علماً أن بعض اليهود قد تمتع على الأرجح بشيء من الاعتبار والحظوة لدى بعض حكام الأندلس العرب المسلمين ،

الذين كانوا يستعملونهم غالباً على وزارة المالية . ولكن التسامح العربي في الأندلس ، لم يبلغ إلى حد أن يتولى يهودي رئيس الوزراء ، وإذا جاز هذا الأمر في جهات أخرى ، فلم يكن ليجوز في غرناطة ، تلك المدينة التي كثر عدد اليهود المقيمين فيها . ولما كانت في أيديهم معظم الثروة ، فقد كانوا يتدخلون غالباً في شؤون الدولة .

ويصح أن يفسر سمو صموئيل إلى هذا المنصب بأسلوب آخر ، فإنه لم يكن من السهل على ملك غرناطة ، أن يعثر على من يقلده منصب الوزير الأول ، إذ من المحقق أنه لم يكن باستطاعته أن يسند هذا المنصب الخطير ، لا إلى رجل من المغاربة ، ولا إلى آخر من العرب من غير المغاربة ، لأنه لم يكن يثق بأي من الطرفين ، ولم يبق أمامه سوى اليهود^(٢١) .

وهكذا اتخذ من هذا الرجل وزيراً له . فعلى الرغم من أنه بقي على دينه، كان لا ينحرف وهو يكتب لأساطين المسلمين عن أن يستعمل في رسائله ومكاتباته الصيغ والنصوص والعبارات الدينية المألوفة عند كتاب المسلمين . فلا بد أن يكون هذا الرجل قد أحرز من البلاغة العربية كنزاً ثميناً ، كان ينفق منه كلما أراد الكتابة ، ولهذا لم يشعر الملك وقد رفعه إلى منصة رئاسة الوزراء بنجل ، والعرب أنفسهم قد ارتاحوا إلى هذا الاختيار ووافقوا عليه ، أما لأنهم كانوا يشعرون أنه نتاج الثقافة العربية الواحدة ، أو أنهم أرادوا تأييد ارداة الحاكم على المستوى الظاهري على الأقل .

وقد استغل مكانته ، فقام يسهر على المصالح اليهودية ، ويعنى بالشببية اليهودية عناية أبوية ، ويتفقد فقراء الحال منهم ، ويمدهم بما يسد حاجتهم على كل صعيد ، وكان في خدمته كتاب ينسخون (المشنا والتلمود) فكان يوزع

نسخها جوائز على التلاميذ ، الذين لا يستطيعون شرائها . ولم تكن مكارمه وخيراته واحساناته ، لتقتصر على أتباع دينه في اسبانية فحسب ، بل كانت تتعداهم إلى أمثالهم في افريقية وصقلية والمشرق . وقد أصبح اليهود في كل صقع وبلد ، يعتمدون عليه كمصدر للمعونات والرزق . لذلك فقد قام يهود غرناطة بمنحه لقب (ناغد) أي زعيم أو أمير يهود غرناطة^(٢٢) .

وفي غرناطة أيضاً ، عُرف بعض الاداريين اليهود الآخرين . وكانت مناصبهم الادارية التي شغلوها من أهم المناصب لحساسيتها ودقتها وتأثيرها على الصعيد الاقتصادي . فقد استلم أبو الربيع اليهودي منصب الخازن في دولة غرناطة . والخازن كما هو معروف في ذلك العهد ، كان يقوم بوظيفة الاشراف على عدد من المهمات الكبيرة ، فقد كان مسؤولاً عن خزانة الأموال العامة ، من حيث جمعها وتوزيعها في شتى الوجوه والسبل ، كما كان مسؤولاً عن ادارة المستودعات لعامة لمورد التموين المختلفة من غذاء وكساء ومرافق . وقد كان أبو الربيع اليهودي سالف الذكر مسؤولاً عن خزانة الأموال في دويلة غرناطة في عهد حاكمها باديس بن حبوس ، الذي اشتهر كأعظم حاكم أندلسي ومغربي اعتمد على اليهود في مجال الادارة العامة^(٢٣) .

ولم تكن دويلة غرناطة وحدها ، التي اعتمدت على اليهود في الميدان الاداري ، كما لم يكن الغرناطيون وحدهم ، الذين انفردوا بايصال اليهود إلى مرتبة الوزارة ، بل حدث الشيء نفسه في بلاط بني هود بولاية سرقطة (الثغر الأعلى) في شمال شرق الأندلس . حيث وصل إلى وزارتهم اليهودي أبو الفضل بن حسداتي ، الذي تحول من اليهودية إلى الاسلام ، وكان من مشاهير الأدباء في الأندلس^(٢٤) . وفي عصر دول الطوائف أيضاً ، استخدم اليهود بكثرة لجمع

الضرائب والمكوس من العرب وأهل الذمة ، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً باهراً^(٢٥) .

وقد استخدمهم الجانب الاسباني في المجال الاداري ، وبخاصة في الادارة المالية ففي سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م قام الفونسو السادس بإرسال وفد إلى حاكم اشبيلية المعتمد بن عباد ، يطالبه بدفع الجزية المترتبة عليه ، وكان رئيس هذا الوفد يدعى ابن شاليب اليهودي ، الذي رفض عيار الذهب المقدم كجزية إلى الفونسو، وهدد الاشبيليين بكل وقاحة وجرأة ، بأن الجزية ستؤخذ في العام القادم على هيئة أراضٍ ، مما أثار حنق وغضب المعتمد بن عباد ، الذي شعر بالذل والمهانة من خلال هذا التهديد ، الذي يعني في أبسط أشكاله ، أنه لاقيمة لحكمه ولا لشخصه ولا لوجوده ، فأمر بسجن الوفد وصلب ابن شاليب اليهودي منكساً^(٢٦) ، وهذا يشير إلى حقيقة هامة ، تتجلى في أن اليهود في الأندلس في ذلك العصر ، كانوا يشعرون أنه لاقيمة للعرب ، بعد أن تفرقوا على هيئة دول مدن هزيلة ، ولن يكون بمقدورهم عمل شيء ، مهما كانت الأذية بالغة الضرر، الأمر الذي شجع ابن شاليب على القيام بتصرفه سابق الذكر . ويشير من ناحية أخرى إلى أن اليهود في الأندلس ، كانوا دوماً مع الجانب القوي والمنتصر . ويبدو أن الإسبان في عهد الطوائف ، حاولوا استقطاب اليهود في صراعهم ضد العرب في الأندلس ، فسمحوا لهم بإقامة أشياء لم يكن مسموحاً بها في العصور الماضية ، الأمر الذي كان يستهوي قلوب اليهود ، ويجعلهم يفضلونه ، من منطلق أن كفة الرجحان كانت تميل لصالح الاسبان . فقد قام الإسبان في مدينة طليطلة باعتماد صموئيل اللاوي وزيراً في بلاطهم خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي . وعلى عادة اليهود فقد استغل

منصبه هذا ، فبنى كنيساً لليهود على نفقته الخاصة . وأطلق عليه تسمية كنيس (الانتقال) وظل قائماً حتى قام كاثوليك إسبانية بطرد اليهود ، وحولوا هذا الكنيس إلى كنيسة باسم (سان بنيتو)^(٢٧) .

وفي المغرب العربي وجد اليهود تشجيعاً قوياً من قبل الحكام ، حتى ما قبل نهاية القرن الخامس الهجري بسنين قليلة ، ذلك لأن عرب المغرب كانوا كأخوتهم في الأندلس خلال عهود القوة العربية الواحدة ، ولا سيما خلال عصر الامارة والخلافة الأموية ، كانوا يعاملون اليهود معاملة طيبة ، وذلك انطلاقاً من نظرتهم الانسانية الرائعة، هذه النظرة التي لا تفرق بين الناس ، طالما هم ملتزمون بمسيرة الحكم العامة .

ففي عصر الفاطميين في المغرب ، تمتع اليهود بحرية واسعة في ممارستهم لأعمالهم العادية والضرورية ، الأمر الذي مكنهم من شغل مناصب إدارية عالية في الدولة . نذكر على ذلك مثلاً يعقوب بن كلس اليهودي ، الذي دخل في خدمة المعتز الفاطمي سنة ٣٥٧هـ / ٩٦٨م ، واعتمد عليه في أمور خطيرة جداً، منها أنه قام بتشجيعه على الهجوم على مصر^(٢٨) .

وكان المعتز الفاطمي يعتمد اعتماداً كبيراً على آراء الحاخام اليهودي بلطيل ابن شفاطيا ، الذي كان يقوم بتقديم معلومات فلكية وتنجيمية للمعز ، حينما كانت قواته تحاصر منطقة أوريا ORIA في جنوب ايطالية ، فبشره بالخير بخصوص نجاح هذه القوات في أعماها الحربية ، فاعتمده مستشاراً خاصاً به ، ووزيراً لمملكته في المغرب عند اقامته بمدينة القيروان ، وكذلك بعد انتقاله إلى مصر^(٢٩) . وفي عصر دولة بني مرين في المغرب الأقصى ، اشتهر كثير من اليهود، الذين كانوا يعيشون في مدينة فاس. وقد تمكنوا من الوصول إلى البلاط المريني،

ولاسيما في فترة حكم يوسف المريني، فكانوا يرافقونه في حله وترحاله ويقومون بخدمته، وذلك منذ طفولته، وكانوا يتولون ادارة شؤون بيته، ويقضون أموره الخاصة به، ويجالسونه في خلواته وينادونه في ساعات أنسه ولهوه. وبشكل عام فقد عظم شأن اليهود عند سلاطين بني مرين، فاستخدموهم في أعمال كثيرة، من أمثال خليفة بن وقاصه وأخوه ابراهيم، وصهره موسى بن السبتي، وابن عمه خليفة الأصفر وغيرهم. وقد استمروا على ذلك فترة من الزمن، إلى أن قام السلطان يوسف المريني سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م بقتل هؤلاء جميعاً، ماعدا خليفة الأصفر، الذي قتله بعد مدة^(٣٠).

ولما مات الخليفة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، خلفه ابنه أبو الربيع سليمان ابن يوسف بن يعقوب، فرفع من شأن الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مرين. كما كان في أيام والده. وكان بنو وقاصه اليهود، يرون أن سبب نكبتهم أيام السلطان يوسف، كانت بسعاية أبي محمد بن أبي مرين، وكان خليفة الأصفر اليهودي منهم، وقد أفلت من الموت، وتمكن من استلام بعض أعمال السلطان أبي الربيع، فجعل محور عمله التآمر على أبي مرين والانتقام منه. فبلغ السلطان بأن أبا مرين قام بإنشاء بعض خصوصيات السلطان، ولاسيما موعد خلوته مع نساء حاشيته، فأمر بقتل أبي مرين. ولم تضر فترة وجيزة حتى اكتشف أمره، فجاء باليهودي خليفة بن وصافة الأصفر وحاشيته فقتلوا جميعاً^(٣١).

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد عاد السلاطين المرينيون فيما بعد إلى استخدام اليهود في الادارة، وفي أماكن حساسة للغاية، كما فعل السلطان عبد الحق المريني، عندما قتل وزيره يحيى بن يحيى الوطاسي وحاشيته، وعين مكانه

رجلين من اليهود، قاما بمعاملة أهل فاس معاملة قاسية، مما أثار حفيظة أهلها على السلطان فقاموا بقتله سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٥م^(٣٢). وهكذا فإن اليهود، الذين عملوا في الميدان الإداري في المغرب والأندلس، لم يلتزموا بمحدود الخطة التي رسمت لهم من قبل حكامهم، فراحوا يسعون لتحقيق مصالحهم ومصالح الجالية اليهودية في كل من المغرب والأندلس، وأدى بهم الأمر إلى التناول على العرب من خلال قوة مناصبهم الإدارية.

وشغل اليهود في الحياة السياسية في المغرب والأندلس دوراً هاماً للغاية، الأمر الذي يجعلنا نقف عنده وقفة متأنية ودقيقة، لأنه مؤشر ثابت في عمق الحياة اليهودية في كل زمان ومكان عاش فيها اليهود على الأرض.

قام العرب الفاتحون في الأندلس باستخدام اليهود في حاميات المدن، التي كان يفتحها الجيش العربي، حتى يتمكنوا من المحافظة على قوة الجيش كاملة. وكان اليهود يريدون من خلال وقوفهم في الصف العربي، نفس الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية، وكذلك الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والممالك الفرنجية بأسرها، وبشكل خاص قهر الإسبان، والتخلص من الظلم الإسباني، الذي عكرو صفو حياتهم العامة^(٣٣). ويؤكد هذه الحقيقة أيضاً لويس برتراند عضو الأكاديمية الفرنسية في كتابه (تاريخ اسبانية) بقوله : « إن موقف اليهود عبر القرون لم يتبدل، إنهم حلفاء الافريقيين ضد الإسبان وحلفاء الإسلام ضد المسيحيين، وحلفاء المسيحيين ضد المسلمين عندما تبدل نجمهم. إنهم يفرقون بين أعدائهم ليسيطروا عليهم^(٣٤). ولم يقتصر دورهم على التفريق بين العدو والصديق، بل قاموا بالتفريق بين الصديق وصديقه، وبين الأخ وأخيه، مثال ذلك، أنه كان عند عبد الرحمن بن حبيب والي افريقية رجل يهودي، هو الذي

شجعه على طرد عبد الرحمن الداخل من المغرب، حينما أخبر عبد الرحمن بن حبيب، بأن الداخل ينوي إقامة دولة أموية في المغرب^(٣٥).

ويدو أن اليهود منذ قديم الزمان، تعودوا على استخدام طريقة شائنة ومخزية في القضاء على الخصوم السياسيين، تتجلى في استخدام النساء كأداة للتنفيذ. ففي عصر الإمارة الأموية بالأندلس وخلال فترة حكم الأمير عبد الله بن محمد الأموي، اشتهر أمر الثائر سعيد بن جودي، الذي التجأ إلى عمر بن حفصون، زعيم الثائرين في هذه الفترة على الأمويين، وبقي عنده فترة من الزمن، ولم يتمكن الأمير الأموي من التخلص منه، إلا من خلال التآمر مع عيشقة له من اليهوديات، حيث قتل في دارها^(٣٦).

مع ذلك فقد اعتمد العرب على اليهود في مسائل بالغة الخطورة والحساسية. فقد اعتمدوا عليهم في تحضير وإعداد الأطعمة. فكان للمنصور محمد بن أبي عامر رجل من اليهود، لاعمل له سوى البحث عن توضع النحل في الكهوف والشعاب الجبلية في الأندلس، وذلك من أجل استخراج العسل الخاص، الذي يتألف كما هو معروف من رحيق الأزهار المتنوعة في بيئة الأندلس^(٣٧).

وفي عصر الإزدهار العربي في الأندلس، الذي صادف عصر الخلافة الأموية فيها، قام أشهر خليفة أندلسي، وهو عبد الرحمن الناصر لدين الله بإرسال سفير من اليهود، هو حسداي بن شبروط إلى جليقية لعقد صلح مع رذمير الثاني في سنة ٣٢٩هـ / ٩٤١م وإطلاق سراح محمد بن هاشم التجيبي، القائد الذي أسر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م. وقد نجحت السفارة في إطلاق سراح التجيبي وعاد مع السفير اليهودي حسداي بن شبروط^(٣٨).

واستخدم اليهود في مدينة قرطبة في بعض الأحداث السياسية، التي كان وقعها كبيراً في نفوس الأندلسيين، من ذلك استخدام أحد اليهود، الذي كانت فيه بعض نواحي شبه بشخص الخليفة هشام المؤيد الأموي، على أنه هو الخليفة، فقد أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار، أن يشهد بعض من حضر وفاته من أصحابه، على أنه هشام المؤيد الأموي، وأحضر القاضي ابن ذكوان والفقهاء مجموعة من عامة الناس، فصلوا عليه وقاموا بتقديم العزاء لأقربائه كما هي العادة^(٣٩).

وفي بعض بلاطات حكام الأندلس، اعتمد اليهود كمنجمين، يتوقعون ويستنبطون بطرق سحرية عجيبة، ماسيكون عليه الأمر في المستقبل. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا اليهود في أحلام نومهم، فاستبشروا ببعض الأمور المفجعة، كما جرى مع أحد أمراء المنصور محمد بن أبي عامر خلال الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، حينما رأى في أحلام نومه يهودياً يمشي في أزقة مدينة الزاهرة^(٤٠)، وهو يحمل خرجه على عنقه وينادي بعبارة (خروبش) فسأل المفسر عن ذلك، فأخبره باقتراب خراب الزاهرة^(٤١).

أما في عصر الطوائف بالأندلس، فقد كثرت فيه مشاكل اليهود، وأخذت شكلاً أكثر خطورة وتأثيراً في الحياة السياسية العامة، مستغلين بذلك حالة الإنقسام، التي وقعت في صفوف العرب في الأندلس، فراحوا يتدخلون في كل أمر يستطيعون من خلاله إثارة نار الفتنة والخلاف بين حكام دول الطوائف، وبينهم وبين بعض رجال إدارتهم. فعلى الرغم من الصداقة، التي بدأت بين المعتمد بن عباد، وبين الوزير ابن عمار في إشبيلية منذ أن كانا صغيرين، فقد تمكن الواشون من الرقعة بينهما، وكانوا من اليهود الذين حصلوا على نسخة من

قصيدة لابن عمار يهجو فيها المعتمد، وأرسلوها إلى حاضرة المعتمد، فتوترت الأمور بين الرجلين، حتى غدا الإصلاح بينهما ضرباً من المحال^(٤٢). وقام بعض اليهود بالتدخل في الصراع بين زعماء إشبيلية وزعماء طليطلة، حينما هاجم المعتمد بن عباد مدينة قرطبة سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م، وتمكن من السيطرة عليها، وجعل فيها ابنه سراج الدولة عباد بن محمد، ومعه القائد العسكري ابن مرتين. وفي سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م، هاجم حاكم طليطلة ابن ذي النون قرطبة بوساطة قائده حكم بن عكاشة الذين تمكن من الدخول إلى المدينة وقتل ابن عباد، وفر ابن عكاشة دون مقاومة، ولما وصل إلى القنطرة^(٤٣)، في مدينة قرطبة، قتله رجل يهودي من سكان قرطبة^(٤٤).

ولما بدأت كفة الإسبان ترجح في الأندلس، تحول اليهود عن العرب، بعد أن وجدوا ذلك ضرورياً جداً لتحقيق مصالحهم العامة، وعملوا عند الإسبان في الكتابة والوزارة وشتى أنواع وفروع الخدمة العامة. وقد أشار إلى ذلك بوضوح حاكم قشتالة وليون قبل معركة الزلاقة بوقت قصير بقوله: «الجمعة لكم، والسبت لليهود، وهم وزراءنا وكتابنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى لنا عنهم...»^(٤٥). وحينما كانوا يظفرون بالعرب، أو تسمح الفرصة لهم بالتحكم بهم، فإنهم كانوا يعاملونهم معاملة قاسية. فعلى سبيل المثال، تمكن الاسبان من السيطرة على بلنسية سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ م، ووضعوا على رأس ادارتها رجلاً من اليهود. ذكر ابن علقمة في رواية له ينقلها ابن عذاري في كتابه (البيان المغرب) يقول: «؟؟؟؟؟ اليهودي لعنه الله من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الاسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون، والمتصرفون وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس

اليهودي للقبض بباب المدينة من الغرب بالعصا والسوط»^(٤٦) .

أما في الفترة التي جاءت بعد انتهاء عصر الطوائف، والتي دامت حتى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م، فإن وضع اليهود في المغرب والأندلس تحول إلى شكل آخر غير الذي كان في العصور السابقة. فقد ضيق المرابطون على اليهود بحجة أنهم أقاموا بأعداد كبيرة في منطقتين، هما سجلماسة وأغمات الواقعتين في جنوب المغرب الأقصى كبوابتين لتجارة الذهب عبر الصحراء مع بلاد الأندلس وما يليها من البلدان الأوروبية الأخرى، ومع بلدان أفريقية السوداء. فقام يوسف بن تاشفين بممارسة ضغط كبير على اليهود في مراكش عاصمة المرابطين القرية من أغمات. وكانت أشد وسائل الضغط، تلك التي تمثلت باجبارهم على اعتناق الاسلام بالقوة، لكنهم قاوموا ذلك بوسائل مختلفة، كمحاولتهم دفع مبالغ مالية طائلة في سبيل إعفائهم من أمر اعتناق الإسلام، وإعطائهم الحرية والخيار في هذه المسألة الحساسة في حياتهم^(٤٧) .

وخلال دخول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس في المرة الرابعة سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م، توجه إلى اليسانة، وكانت مركز التعامل الرئيس بالذهب، وبعد مفاوضات مع يهود هذه البلدة، توصل الفقيه ابن حمدين إلى اتفاق معهم، يدفعون بموجبه مبلغاً مالياً محترماً، مقابل أن تترك لهم الحرية بممارسة طقوسهم الدينية كاملة^(٤٨) .

وفي عصر الموحدين، الذي استمر لفترة طويلة إلى حد ما^(٤٩)، بقي أمر عدم الاعتماد على اليهود قائماً، حتى أنه كان أشد مما كان عليه في عصر المرابطين، لأن الموحدين لم يختلفوا عن المرابطين في مسألة حشر العقيدة الدينية في قضايا الحكم. ففي زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، فرض

على اليهود أن يرتدوا لباساً خاصاً يميزهم عن غيرهم. ويتكوّن هذا اللباس من قماش ذي لون كحلي، وأكمام مفرطة السعة، تصل إلى قريب من الأقدام، وبدلاً من العمام، كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت الأذنين^(٥٠).

وكانت نتيجة هذه السياسة بشكل عام سلبية، لأنها أثارت حقد اليهود على العرب المسلمين. فقد كانوا يتحينون الفرصة للإنتقام، وقد أتاحت لهم فرصة في عصر الموحدين، كانت في غرناطة، حينما أعلن ابراهيم بن همشك عصيانه على الموحدين، لأنه كان يتطلع إلى السيطرة على غرناطة. وفي نهاية الأمر لجأ إلى المكر والخديعة، وتوجه إلى اليهود، وعقد معهم مؤامرة، يقومون بموجبها بمساعدته على دخول غرناطة، والقاء الحصار على قلعتها، التي كان المدافعون من الموحدين قد تجمعوا فيها. وعلى أثر ذلك جرت معركة في مرج الرقاد بالقرب من غرناطة، انهزم فيها الموحدون وتكبّدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح. وكان ذلك سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م^(٥١).

ولما تقلصت رقعة السيطرة العربية في الأندلس، وانحصرت في ولاية غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر، عادت المعاملة الطيبة إلى الظهور والتطبيق بشكل لم تعهده الأندلس إلا في زمن القوة، ولا بد أن ذلك يعود إلى النضوج الذي اشتهر به النصريون على الصعيد السياسي والحضاري، فقد عدوا اليهود في بلادهم مواطنين، يمكن ضبطهم وتحويل أكثر أعمالهم إلى الصالح العربي العام^(٥٢) ورغم هذه المعاملة الطيبة، التي عبّرت عن رقي العرب وأهليتهم لقيادة غيرهم، فقد راح اليهود يحشرون أنفسهم في الأمور السياسية العامة للدولة الغرناطية. فعندما توفي الحاكم الغرناطي الغني بالله بن الأحمر سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م،

خلفه في الحكم ابنه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر، فقام بأمره رجل اسمه (خالد) مولى أبيه، وقبض على إخوته سعد ومحمد ونصر، فكان آخر العهد بهم، ولم يوقف لهم بعد على خبر. وبعد فترة وجيزة، سعي عنده في خالد هذا، واتهم على أنه يعد السم لقتله، ويبدو أن ذلك كان صحيحاً، لأن الطبيب يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب الدار السلطانية، قد داخله في ذلك، فقتل خالد، ثم حبس الطبيب ابن الصائغ، وذبح فيما بعد في محبسه حتى الموت^(٥٣).

وفي ميدان العلوم العامة أيضاً، شغل اليهود في الأندلس والمغرب مكانة خاصة، ذلك لأن الأندلس بخاصة، أزدانت بالمؤسسات التعليمية في كافة الاختصاصات، وكان باستطاعة أي انسان طلب المعرفة في الاختصاص الذي يتناسب مع ميوله الشخصية. فاليهود موضوع هذا البحث، لم يقدموا عبر تاريخ الإنسانية الطويل مساهمات مؤثرة في تقدم الحضارة العام، وأكثر مدوناتهم مأخوذة عن الثقافات القديمة وعن النصوص، التي خلفها السومريون والكنعانيون والأكاديون والبابليون والآشوريون وأخيراً الأندلسيون والمغاربة. ويؤكد ذلك الدكتور اليهودي اسرائيل ولفنسون بقوله : « إن يهود بلاد العرب ، لم يظهروا شيئاً من النبوغ والعبقرية مطلقاً. ولم يشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكري »^(٥٤).

ويؤكد هذه الحقيقة غوستاف لوبون بقوله : « لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة، ولا أي شيء تقوم به حضارة. واليهود لم يأتوا قط بأي مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية. واليهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي ليس لها تاريخ »^(٥٥).

وإذا كان اليهود قد برعوا في علم من العلوم خلال فترة هذا البحث، فالفضل في ذلك يعود إلى العرب، الذي انتقلوا بإسبانية من عهود الظلام إلى عهود النور والتقدم. وما أنتجوه من ثقافة وماترجمونه من كتب إلى اللاتينية والعبرية، فقد حصل من جراء اهتمامهم بعلوم العرب، كمواطنين في دولتهم، كان عليهم اكتساب المعارف العربية لتحسين أوضاعهم العامة. وهذا ما حدث بالفعل على أرض الواقع، لأنهم كانوا أدري من غيرهم في حقيقة هذه الأمور. وباختصار فإن المحصلة اليهودية العلمية، هي في النهاية محصلة عربية خالصة، ذلك لأن اليهود ما كان لهم أن يتعلموا علوم العرب لولا دخولهم إلى الأندلس وبقاؤهم فيها لفترة طويلة. كان في مقدمة العلوم التي برعوا فيها إلى حد ما، العلوم الطبية، التي عمت الأندلس عن طريق العرب، وكان اليهود يفضلونها على غيرها، لأنها أقرب مصدر لتوفير المال والجاه في زمن كان الأطباء فيه قليلين جداً. ومع ذلك فإن الأطباء اليهود، اقتصروا في معظم الأوقات على مسألة المداواة، بعكس الأطباء العرب، الذي جمعوا بين ممارسة الطبابة والمداواة، وبين التأليف المبدع القائم على التجربة وبعض التقانات، التي كانت من أرقى ماعرفه العالم خلال العصور الوسطى.

ومن الأطباء اليهود، الذين اشتهروا خلال هذه الفترة، الطبيب حسداي بن شبروط، الذي عاصر الخليفة الناصر لدين الله الأموي المتوفى سنة ٣٥٠هـ / ٩٦٢م. واهتم هذا الطبيب بشكل خاص بتفسير عقاقير يستوريدس^(٥٦). وكذلك الطبيب مروان بن جناح، الذي كان أفضل من ابن شبروط بصناعة الطب، ذلك لأنه قام بتأليف حسن في الأدوية المفردة^(٥٧). ومثلهما الطبيب اسحق بن قسطار في طليطلة ومناحيم بن الفوال في سرقة^(٥٨). وحسداي بن

يوسف السرقطي، وابن بكلارش وغيرهم من الذين عملوا عند الإسبان، مثل ابراهيم بن الفخار، الذي اشتغل في طليطلة في عصر الموحدين، وابراهيم بن زرزر الغرناطي، الذي التجأ إلى حاكم قشتالة في أواخر عمره^(٦٠) ويوسف بن وقار الطليطلي في قشتالة^(٦١).

إلى جانب علم الطب، فقد أثرت الثقافة العربية الإسلامية في ظهور بعض اليهود في ميدان علم الفلك والرياضيات. ففي الفلك، اشتهر بعض تلامذة مسلمة المجريطي، مثل أحمد بن عبد الله الغافقي اليهودي المتوفى سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م. وقد وضع زيجاً مختصراً على مذهب السندهند سماه (مختصر الزيج) وكتب رسالة الإسطرلاب والأسماء الواقعة عليها^(٦٢).

أما في مجال الفلسفة، فقد تفوق اليهود فيه من خلال اهتمامهم الجاد بالفلسفة العربية، التي كان لها رجالها المعروفين بآرائهم الجدية وأفكارهم الواقعية، التي تعتمد على الطريقة العقلانية، والفكر المبني على التسلسل المنطقي، الذي يجانب في معظمه الغيبيات والأوهام، التي لا قيمة لها في حياة البشر العامة.

كان من فلاسفة اليهود في الأندلس، سليمان بن جابرول المتوفى سنة ١٠٥٨م في بلنسية، وهو يشبه سلفه ابن مسرة، الذي أدخل إلى الغرب نظاماً باطنياً للكتابة، حيث تتخذ الكلمات معنى داخلياً غامضاً لا يفهمه إلا العارفون بالأسرار. وله من الكتب (ينبوع) وكتاب (إصلاح الأخلاق)^(٦٣). ومنهم مناحيم بن الفوال، الذي تفوق على ابن جابرول بوضع مؤلفات هامة منها (كنز المقل) رتبها على المسألة والجواب، وضمنه جملاً من قوانين المنطق وأصول الطبيعة^(٦٤). ومنهم أيضاً يوسف بن صديق ديان اليهود (قاضي اليهود) المتوفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م، الذي ألف كتاباً في المنطق، وآخر في الفلسفة الدينية

سماء (الكون الأصغر)، وكلاهما باللغة العربية، وكان ابن صديق مطلعاً على كتابات أفلاطون وأرسطو ورسائل إخوان الصفا^(٦٥) وبشكل عام فالفلسفة اليهودية في الأندلس، هي تلميذة الفلسفة العربية، ولا سيما فلسفة ابن رشد، التي كانت دعامة الفكر الفلسفي اليهودي حتى عصر النهضة^(٦٦) .

يضاف إلى اهتمام اليهود في العلوم، اهتمامهم في الترجمة، التي بدأت في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. كان في مقدمة من اهتم بالترجمة ابراهيم بن عزيز الطليطلي المتوفى سنة ١١٦٧م، الذي نقل كتباً ألفها اليهود باللغة العربية، ومنهم يهوذا بن شاول بن ثيون المتوفى سنة ١١٩٠م، الذي قام بنقل كتاب (إصلاح الأخلاق) لابن جايبرول وغيرهم كثيرون^(٦٧) .

ومن اللافت للانتباه في هذا المضممار، أن اليهود الذين عملوا في الترجمة، استهوتهم ترجمة أعمال العرب أنفسهم في مجال علوم اللغة العربية، التي كانت أداة الفكر في ذلك العصر .

أما في حقل التجارة، فقد كان الأمر يختلف اختلافاً جذرياً، حيث برز نشاط يهود الأندلس بشكل واضح. فقد كانت لهم في كل مدينة أو بلدة حوانيتهم الخاصة، التي كانت مصدر أرباح كبيرة بالنسبة لهم. لكن اللافت للانتباه، أنهم تفوقوا على جميع فئات السكان في الأندلس والمغرب في التجارة العامة، وبشكل خاص في تجارة العبيد، التي كانت من التجارات المزدهرة في ذلك الوقت في عدد من البلدان في الشرق والغرب، ومنها الأندلس التي شغلت مكانة مرموقة على هذا الصعيد. فقد كان العبيد الصقالية، الذين يشترون للخدمة العامة في الجيش والقصور وغير ذلك، يجلبون من يوغسلافية وبلغارية وصقلية وسردينية وغيرها، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه المهمة. وقد ذكر أنهم

كانوا يخصصونهم في معامل خاصة أقيمت لهذه الغاية، كمعمل فردون في فرنسا، وغالباً ما كانوا يأتون بهم وهم صغار^(٦٨) .

ولعل أهم الأدلة على ممارسة يهود الأندلس لهذه التجارة الراجحة، أنهم كانوا يذهبون إلى مواقع حدوث المعارك، و ينتظرون بترقب نتائج المعارك بين العرب والإسبان، حتى يشتروا أسرى الطرف المهزوم بأبحاث الأثمان وأقلها، وبعد ذلك يقومون بعرض هؤلاء الأسرى على جهتهم الأصلية. وحينما كانت هذه الجهة تقرر شراء أسراها، كانوا يفرضون الثمن الذي يريدونه دون شفقة أو رحمة^(٦٩) .

ووصل اليهود في تجارتهم إلى العديد من المناطق الأوروبية، مثال ذلك التاجر الرحالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي الإسرائيلي، الذي تركزت أعماله في أوروبا على الرقيق وبعض البضائع الأخرى. فوصل في تجارته إلى فرنسا وألمانيا وهولندا وبولندا وبلغارية وتشيكوسلوفاكية وغيرها^(٧٠) .

ولم يتورع يهود الأندلس والمغرب عن استخدام أية وسيلة، كانوا يأملون من ورائها تحقيق منفعة ما أو ربح معين، لأن التجارب والأيام علمت أن اليهود لا يابھون إلا بمصالحهم الخاصة، حتى ولو أنها جاءت على حساب غيرهم من فقراء الناس. من هذه الوسائل القبيحة، أنهم كانوا يرهنون الأسرى مقابل مبلغ مالي معين إلى أمد معين، يجعلهم أحراراً في التصرف بالأسرى، إذا لم يسترجعوا المال المودع عند أصحاب الرهائن. وكانوا اضافة إلى ذلك، يقومون بإقراض أموال معينة إلى آجال محددة مقابل فوائد مختلفة^(٧١) . وتدل على هذا الواقع المخزي الوثائق الكثيرة، التي لاتعد ولا تحصى في مدينة طليطلة وضواحيها، حيث شكل اليهود مجموعة كبيرة من المرابين النشيطين، فمن يذهب حتى اليوم إلى هناك، يقف على شواهد ماثلة، تدل بوضوح على ما كان لهم من أهمية بالغة في

مجتمع طليطلة^(٧٢) .

إضافة إلى كل ذلك، فقد كان اليهود في قشتالة وغيرها من أماكن السيطرة الإسبانية، ينعمون باحترام كبير، لخبرتهم المالية والتجارية، ويظهر ذلك جلياً من خلال استخدام الإسبان لهم في مسألة تخمين وتقدير أثمان وقيم الأراضي، التي كانت تعرض للبيع. فقد كانت تشكل لجنة تخمينية خبيرة من أربعة أشخاص، اثنين من الإسبان، واثنين من اليهود، يقومون بتقدير قيمة الأرض ويتقاضون على ذلك أجراً معيناً أو نسبة ما، لا يعرف مقدارها على وجه التحديد^(٧٣) . كما عملوا في بعض المجالات الصناعية الهامة في ذلك العصر وبخاصة صناعة الحرير، التي اشتهر فيها يهود البوجارا بشكل خاص^(٧٤) .

وفي الختام نقول، إن كل ماتقدم من معلومات وأخبار عن حياة اليهود في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى، لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من تلك الأعمال المتعددة، التي قاموا بها تحت المظلة العربية الإسلامية، التي وفرت لهم كل أسباب الحياة والحرية. ورغم ذلك فقد ضربوا بكل هذا عرض الحائط، فلم يتأخروا بانزال الضرر بالعرب، في كل مناسبة ساعدتهم فيها الظروف منذ بداية عهد العرب في الأندلس، مثال ذلك أن دخول العرب إلى شمال أفريقية، هو الذي جدد آمال اليهود في إستعادة مكانتهم المنهارة، عن طريق تخريض العرب للدخول إلى أوروبا، التي كانت مركز ثقل للمسيحية. وكان هدف اليهود الاستراتيجي من وراء ذلك، هو إطالة أمد الصراع بين المسيحية، التي كان اليهود يضمرون لها أقبح النيات، وبين الإسلام الذي أدى ظهوره وانتشاره في المشرق العربي إلى تقليص نفوذهم على كل الصعد، فيخرج الطرفان من النزاع منهوكي القوى، فينقض عليهما اليهود بسهولة، ويقررون مايرونه مناسباً لمستقبلهم العام .

هذه هي صورة اليهود، التي لم تتغير طوال حكم العرب في الأندلس، ولا نظن أنها ستتغير في مستقبل الأيام. فقد كان اليهود في الأندلس والمغرب وسيظلون إلى الأبد مجموعة بشرية، لا تعرف الوفاء والأمان، ولا تلتزم بالعهود والمواثيق .

هذا ما يجب أن ندرسه نحن العرب بعناية فائقة، لأن أخطر ما يواجهنا في الحاضر والمستقبل، أمر وجود اليهود قريين منا. فقد تمكنوا أن يستغلوا دولة العرب القوية في الأندلس لصالحهم، في وقت كان العرب سادة العالم، فكيف سيكون الأمر في هذا الزمن، والعرب يعانون من داء التدابر والضعف في كل المبادي .

الحواشي

- ١ - يوسف فرحات - غرناطة في ظل بني الأحمر طبعة أولى، دار الجيل ١٩٩٣ ص ٩٧. امبراطورية الخزر وميراثها - صدر عن مكتب دراسات فتح ١٩٨٠ ص ٢٢ وانظر روجر أرنالد - مجلة المغرب الاسلامي والمتوسط ، العدد الأول، ١٩٧٣، ص ٤١ .
- ٢ - عمر فروخ - العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط طبعة ثانية، بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨١ ص ١٧٩ .
- ٣ - عمر فروخ - المرجع السابق ص ٧٧ - ٧٨ .
- ٤ - آرنولد توينبي - مختصر دراسة للتاريخ ج ٣ ترجمة فؤاد محمد شبل طبعة القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أولى، ١٩٦٤ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .
- ٥ - عمر فروخ - تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ، طبعة رابعة، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٧٩ ص ١٥٤ .
- ٦ - الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار تحقيق ليفي بروفنسال ، طبعة القاهرة، لجنة التأليف ١٩٣٧ ص ٢٣ .
- ٧ - الإدريسي (محمد بن محمد) صفة المغرب . تحقيق دوزي ودي خويه - ليدن بريل ١٩٦٨ ص ٢٠٥ .
- ٨ - مؤلف مجهول - الحلل الموشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء دار الرشاد الحديثة ١٩٧٩ ص ٨٠ .

٩ - شكيب أرسلان - الحلل السندسية ج ١ طبعة أولى، فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٦ ص ٣٩٥ - مؤلف مجهول - الحلل الموشية في الأخبار الأندلسية ص ٥٧ .

١٠ - عمر فروخ - العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، ص ١٨٦ .

١١ - ليفي بروفنسال - الإسلام في المغرب والأندلس - ترجمة السيد سالم وصلاح حلمي، طبعة النهضة مصر ١٩٥٦ ص ٦٤ ، ابن الفرضي (عبد الله بن محمد) تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦، ج ١ ص ١٢٧ . وانظر أيضاً روجر أرنالديز - مجلة المغرب الإسلامي والمتوسط العدد الأول ١٩٧٣، ص ٤١ - ٤٨ حيث اضاف أن لليهود وجود في باجة وقادس .

١٢ - د.م دنلوب - تاريخ يهود الخزر - ترجمة الدكتور سهيل زكار طبعة ثانية دمشق دار حسان ١٩٩٠ ص ١٧٩ .

١٣ - علي أحمد - تاريخ المغرب العربي الإسلامي ، طبعة جامعة دمشق ١٩٩٢ ص ٣٩ .

١٤ - ابن أبي زرع - الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص ٨٥ .

١٥ - ابن حوقل (محمد الموصلي) صورة الأرض قسم ٢ طبعة ثانية، ليدن ١٩٣٨ ص ٧٠ ، وانظر أيضاً ج. ف. ب. هوبكنز - النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى ترجمة أمين توفيق الطيبي - طبعة ليبية وتونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠ ص ٦٩ .

- ١٦ - صاعد الأندلس طبقات الأمم . تحقيق حياة بوعلوان طبعة بيروت ١٩٨٥ دار الطليعة ص ٢٠٣ - ٢٠٤ . آنخل جنتالث بالثيا - تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٩٨ .
- ١٧ - ابن بسام (الشنتريني) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ مجلد ٢ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٦٦ - ٢٧ .
- ١٨ - ابن بسام - المصدر السابق ص ٢٧٠ .
- ١٩ - الأمير عبد الله - مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص ٤٨ - ٥٥ ، ابن بسام المصدر السابق ص ٢٧١ - ٢٧٤ ، ابن عذاري (المراكشي) البيان المغرب ج ٣ ، اعتنى بنشره ليفي بروفنسال طبعة باريس، ١٩٣٠ ص ٢٣١ .
- ٢٠ - ابن الخطيب (لسان الدين) الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٥٥ ص ٤٣٧ ، وانظر أيضاً للمؤلف نفسه تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الأعلام تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة ٢ بيروت ، دار المكشوف ١٩٥٦ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .
- ٢١ - ابن بسام - الذخيرة ج ١ ص ١٢٢ .
- ٢٢ - دوزي - ملوك الطوائف - ترجمة كامل الكيالي ، طبعة أولى القاهرة ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ، ص ٣٩ - ٤٧ .
- ٢٣ - الأمير عبد الله - كتاب التبيان ص ١٣٠ .
- ٢٤ - ابن سعيد (علي) المغرب في حلي المغرب ج ٢ تحقيق شوقي ضيف طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٥ ص ٤٤١ - ٤٤٤ .
- ٢٥ - أحمد بدر - تاريخ الأندلس طبعة دمشق ص ١٧٤ .

- ٢٦ - المقرئ (التلمساني) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ١ تحقيق احسان عباس، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٨ ص ٤٣٩ ، مؤلف مجهول - الحلل الموشية ص ٤١ - ٤٢ . وانظر ابن الخطيب تاريخ اسبانية أو أعمال الاعلام ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ودوزي ملوك الطوائف ص ٢٦٧ - ٣٦٨ ، وقد طلب ابن شاليب اضافة لذلك السماح لزوجة الفونسو بالاقامة في مدينة الزهراء بعد أن تضع مولودها في جامع قرطبة .
- ٢٧ - شكيب أرسلان، المرجع السابق ج ١ ص ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٣٤ ، وانظر الأمير عبد الله كتاب التبيان ص ٣٦ وما بعدها .
- ٢٨ - ولتر ج. فيشل - يهود في الحياة الاقتصادية والسياسية الاسلامية في العصور الوسطى ، ترجمة سهيل زكار، طبعة بيروت دار الفكر ١٩٨٨ ص ٧٨-٧٩ .
- ٢٩ - ولتر ج. فيشل - المرجع السابق ص ٩٤ - ٩٥ .
- ٣٠ - الناصري - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ٣ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء دار الكتب ١٩٥٤ ص ٨٠ - ٨١ .
- ٣١ - الناصري - المصدر السابق ج ٣ ص ١٠٠ .
- ٣٢ - الناصري - المصدر السابق ج ٤ طبعة الدار البيضاء دار الكتاب ١٩٥٤ ص ٩٨ - ١٠٠ .
- ٣٣ - خير الله طلفاق - حضارة العرب في الأندلس ، طبعة دار الحرية بغداد ١٩٧٧ ، ص ٨٨ و ١٠٨ - ١٠٩ .
- ٣٤ - خير الله طلفاق - المرجع السابق ص ١٣٤ .
- ٣٥ - الناصري - الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ١ ص ١١٩ .

٣٦ - ابن عذاري - (المراكشي) البيان المغرب ج ٢ طبعة بيروت دار صادر ١٩٥٠ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

٣٧ - ابن بسام - المصدر السابق ص ٦٨ .

٣٨ - ابن حيان (أبو مروان) المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، ص ٤٦٣ .

٣٩ - ابن عذاري - المصدر السابق ج ٣ ص ٧٧ - ٧٨ ابن الخطيب - تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام ص ١١٢ .

٤٠ - تقع هذه المدينة على بعد ستة كيلومترات إلى الشرق من قرطبة ، بناها المنصور محمد بن أبي عامر تعبيراً عن مساواته للخلفاء ، ورغبة منه في إقامة مقر خاص له ، يكون مركزاً لإدارته ، ومخازنه السلطانية .

٤١ - ابن عذاري - المصدر السابق ج ٣ ص ٦٥ .

٤٢ - دوزي - المرجع السابق ص ٢٥٥ وما بعدها .

٤٣ - القنطرة عند الأندلسيين هي الجسر ، وقد أقيمت هذه القنطرة على الوادي الكبير في عصر الولاة .

٤٤ - ابن الخطيب - تاريخ اسبانية الاسلامية أو أعمال الاعلام ص ١٥٨ - ١٥٩ .

٤٥ - دوزي - المرجع السابق ص ٢٩١ .

٤٦ - ابن عذاري - المصدر السابق ج ٤ ص ٤١ .

٤٧ - الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق احسان عباس طبعة بيروت ١٩٧٥ ص ٤٦ و ٣٠٦ - أشباخ (يوسف) تاريخ الأندلس ترجمة محمد عبد الله عنان طبعة القاهرة ١٩٣٩ ص ١٢٠ .

٤٨ - مؤلف مجهول - الحلل الموشية ص ٦٥ - ٦٦ .

- ٤٩ - استمر حكم الموحدين في المغرب والأندلس حتى سنة ٦٦٨هـ .
- ٥٠ - المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي طبعة أولى - القاهرة ١٩٤٩ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .
- ٥١ - ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) المن بالاقامة تحقيق عبد الهادي التازي طبعة أولى دار الأندلس بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٨٦ وما بعدها .
- ٥٢ - شبيب أرسلان - المرجع السابق ج ٢ ص ٣٣٠ .
- ٥٣ - الناصري - المصدر السابق ج ٤ ص ٨١ .
- ٥٤ - أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ طبعة دمشق ١٩٧٥ ص ٣٩٦ .
- ٥٥ - أحمد سوسة - المرجع السابق ص ٣٩٧ .
- ٥٦ - ابن جلجل (سليمان بن حسان) طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد سيد طبعة المعهد الفرنسي القاهرة ١٩٥٥ ص (س) - جورج حداد - المدخل إلى تاريخ الحضارة ص ٥٢٦ .
- ٥٧ - صاعد الأندلسي - المصدر السابق ص ٢٠٤ .
- ٥٨ - صاعد الأندلسي - المصدر السابق ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- ٥٩ - صاعد الأندلسي - المصدر السابق ص ٢٠٦ .
- ٦٠ - علي بن سعيد - المصدر السابق ص ٢٣ ابن الخطيب - نفاضة الجراب تحقيق أحمد مختار العبادي وعبد العزيز الأهواني ، طبعة القاهرة دار الكتاب العربي ص ١٩ .
- ٦١ - ابن الخطيب - تاريخ اسبانية الإسلامية أو أعمال الاعلام ص ٣٢٢ .

٦٢ - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين طبعة مؤسسة المعارف بيروت ص ١٢٣ .

٦٣ - جورج حداد المدخل إلى تاريخ الحضارة ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

٦٤ - صاعد الأندلسي - المصدر السابق ص ٢٠٤ .

٦٥ - آنخل جنثالث بالتثيا - المرجع السابق ص ٤٩٨ .

٦٦ - ابراهيم مذكور - في الفلسفة - بحث منشور في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية طبعة الهيئة المصري العامة للكتاب ١٩٨٧ ص ١٥٥ .

٦٧ - عمر فروخ - أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية طبعة بيروت ١٩٥٢ ص ٢٢ و ٣٢ .

٦٨ - المقرئ نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٠ - ابن حوقل - صورة الأرض ط ٢ ليدن ١٩٣٨ ص ١١٠ - شكيب أرسلان المرجع السابق ج ١ ص ٤٦ .

٦٩ - شكيب أرسلان المرجع السابق ج ٣ طبعة فاس المكتبة التجارية الكبرى ١٩٣٩ ص ٤٨١ - ٤٨٢ .

٧٠ - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين ص ١٨٤ .

٧١ - شكيب أرسلان - المرجع السابق ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

٧٢ - شكيب أرسلان - المرجع السابق ج ١ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

٧٣ - أشباخ - المرجع السابق ج ١ ص ١٣٥ .

٧٤ - انظر عن ذلك روجر أرنالدينز المرجع السابق ص ٤١ - ٤٨ .

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

د. وائل الرشيدان

أستاذ مساعد

جامعة اليرموك / قسم الفنون الجميلة

المدرسة المملوكية في قلعة الكرك

تقوم قلعة الكرك في الجنوب الغربي للمملكة الأردنية الهاشمية ، وتبعد عن عمان حوالي ١٣٠ كم . بنيت القلعة على جبل يبلغ ارتفاعه ٩٦٠ م عن سطح البحر ، وتحيط بها الأودية من ثلاث جهات : الشرقية ، والغربية ، والشمالية . أما الجهة الجنوبية فقد حفر فيها خندق كبير^(١) (شكل ١) ، وكان لهذه القلعة تاريخ مجيد ابتداء من الفترتين المأوية والنبطية ، حيث أقيم فيها العديد من المعابد ، كما تم العثور على بعض النقوش والتماثيل النبطية^(٢) . أما في العصر البيزنطي فنرى هذه (القلعة) ممثلة في خارطة مأدبا الموجودة في كنيسة القديس جورج^(٣) . وعند الفتح الإسلامي للمنطقة استسلمت القلعة للقائد أبي عبيدة عامر بن الجراح^(٤) . وبعد ذلك ، بقيت القلعة تلعب دوراً مهماً في مختلف العصور الإسلامية حتى الاحتلال الصليبي للقلعة في عام ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م . فأضيف العديد من الإضافات ، وأصبحت هذه القلعة من أهم القلاع الصليبية في بلاد الشام ، وذلك لتحكمها مع قلعة الشوبك بطرق المواصلات التي تربط بلاد الشام والعراق بمصر ، وكذلك أيضاً لأهمية موقعها لدرب الحج الشامي والمصري . وقد كانت تستخدم مركزاً للمراقبة وجمع المعلومات عن تحركات الجيوش الإسلامية في فترة الاحتلال الصليبي لهذه القلعة^(٥) . وفي عام ٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م استسلمت حامية القلعة للقائد صلاح الدين الأيوبي ، وبذلك أصبحت جزءاً من الدولة الأيوبية^(٦) . وقد قام صلاح الدين بإقطاع الكرك لأخيه الملك العادل الذي شرع بإعادة بنائها ، ونقل إليها أرباب الصناعات حتى جعلها لا تحتاج إلى غيرها^(٧) . وفي عام ٦٦١ هـ - ١٢٦٢ م قام الظاهر بيبرس

باحتلال القلعة ، وأسر الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل ، وبذلك تم القضاء على الحكم الأيوبي فيها^(٨) . وبدخول الظاهر بيبرس إليها أصبحت القلعة تحت حكم المماليك وسيطرتهم . ثم دخل القلعة وأمر بتحصينها وزاد فيها العديد من الابراج^(٩) . وبقيت القلعة تحتل مركزاً مهماً في العصرين المملوكيين البحري والبرجي حتى سقطت المدينة والقلعة في سنة ٩٠٢هـ - ١٥١٠م تحت حكم الأتراك العثمانيين ، وبقيت تحت حكمهم حتى الحرب العالمية الأولى ، حيث استخدمت مقرراً لحامية قوات الحلفاء^(١٠) (لوحة ١) .

وصف القلعة :

بناء ذو شكل مستطيل يبلغ طوله ٢٢٠م من الجهة الشرقية ، و ٢٤٠م من الجهة الغربية. أما الواجهة الجنوبية فيبلغ طولها ٨٥م والشمالية التي يقع بها المدخل الرئيسي فطولها ٣٥م . وبناء القلعة متين جداً ، وذلك بسبب الأبراج الدفاعية التي بنيت في أركانها ، وكذلك لتغطية المنحدرات بالحجارة الملساء لعرقلة ارتقاء الأسوار والأبراج^(١١) .

بنيت القلعة على مستويين ، علوي وسفلي ، فالعلوي يقع إلى الجهة الشرقية والسفلي يتجه من الشمال إلى الجنوب ، حيث يوجد في الجزء السفلي العديد من القاعات والغرف^(١٢) . أما المستوى العلوي فيحتوي على العديد من المنشآت أهمها : المعصرة ، ومسكن سيد الكرك ، والكنيسة ، والحمام ، وسجن الخيالة ، والمسجد ، والمدرسة ، والعديد من القاعات ذات الأدوار المتعددة (الطوابق) . وتميز المظهر العام للقلعة باختلاف ألوان المواد المستخدمة في بناء القلعة ، حيث تنقسم إلى نوعين : الأول منها مبني من الحجارة الغشيمة غير المشذبة ومخلوطة

من الحجارة الجيرية والصوانية . هذا النوع نجده في بناء المباني التي بنيت في عصر الاحتلال الصليبي للقلعة . أما النوع الثاني فهو استخدام الحجارة الجيرية المشذبة، وهذا النوع يبدو أكثر شيوعاً من حيث صفوف البناء أو ترتيب مداميك الحجارة، وهو ما نلاحظه بكثرة في القلعة سواء من الداخل أو في الأبراج التي هدمت أو أعيد بناؤها ، أو التي بنيت في العصور الإسلامية المختلفة . أما الذي يهمننا من هذه المنشآت فهي المدرسة ، والتي تقع إلى الجنوب من الكنيسة وإلى الشمال من البرج الكبير للظاهر بيبرس (لوحة ٢ : شكل ١) .

وصف المدرسة :

يقع المدخل في الجهة الشمالية ، وينزل إليها بدرج يتكون من ست عشرة درجة تنتهي بباب عرضه ١،٢ م وارتفاعه ٢،١ تعلوه عتبة (شكل ٢) . ويحتمل أنه كانت توجد اللوحة التأسيسية لهذه المدرسة حيث لا يزال مكانها واضحاً . يؤدي هذا الباب إلى موزع طوله ٩،٩ م وعرضه ١،٤ م ، وفي الجدار الشرقي لهذا الموزع بابان ، الشمالي يؤدي إلى غرفتين مفتوحتين على بعضهما بعضاً مساحتهما ١١ x ٣،٥ م . وفي الجدار الجنوبي للغرفتين باب يؤدي إلى موزع آخر يؤدي إلى صحن المدرسة (شكل ٣) ، وهذا صحن مربع الشكل طول ضلعه ٥،٥ م مكشوف تحيط به أربعة إيوانات أوسعها الإيوانان الجنوبي والشمالي (شكل ٤) . أما الإيوانان الشرقي والغربي منها ، فأقل اتساعاً ، وهما متساويان في المساحة ٢،٢٠ م (شكل ٥ ، ٦) . ونجد على جانبي هذين الإيوانين أبواباً تؤدي إلى ملاحق أخرى ، وأهمها الباب المؤدي إلى الغرفة رقم (٨) ومساحتها ٧،٩ x ٤،٩ م وهي غرفة مستطيلة الشكل في جدارها الجنوبي

أحد المزاغل التي عدلت لتحول إلى محراب مجوف . ونرى ذلك جلياً في طاقة المحراب ، ويبلغ عرض المحراب ١،١م وعمقه ١،٦م (شكل ٧) .

نلاحظ في الإيوانين الرئيسيين الجنوبي (إيوان القبلة) والشمالى (الإيوان المقابل لإيوان القبلة) أن بهما امتداداً في جانبيين ، وخاصة في الإيوان الجنوبي حيث نجد أن هذا الامتداد إلى الجانبيين الشرقي والغربي . أما الإيوان الشمالى فنجد أن له امتداداً إلى جهة الشرق فقط (لوحة ٣) .

ويختلف الباحثون والدارسون في هذا المبنى الموجود في قلعة الكرك ، فذهب بعض منهم إلى أنه مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي والبعض الآخر يقول إنه دور سكنية ، أو إنه قاعة استقبال في قصر ، وذلك من خلال تفسير نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في المبنى^(١٣) .

والغرض من هذا البحث توضيح الصورة ، وإيجاد تفسير واضح لوظيفة هذا المبنى بالاعتماد على الدراسات المقارنة لهذا المبنى مع المباني المشابهة له والمؤرخة والمعروفة ، والتي تعود إلى نفس الفترة التاريخية ، وذلك اعتماداً على المميزات المعمارية للبناء ، وكذلك نتائج الحفريات الأثرية التي أجريت في هذا المبنى ، والمصادر التاريخية التي تتحدث عن قلعة الكرك في تلك الفترة . نجد أن العديد من الباحثين يطلقون على هذا المبنى تارة اسم قصر وتارة أخرى يعدونه دوراً سكنية أو مدرسة تعود إلى العصر الأيوبي^(١٤) . ولهذا ، وجدت أنه من الضروري توضيح ماهية هذا البناء .

ومن خلال الوصف المعماري لهذا البناء نجد أنه مدرسة تتمتع بمميزات المدارس المملوكية التي تتكون من صحن أوسط تحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة والإيوان المقابل لإيوان القبلة ، وإيوانان أصغر حجماً من الإيوانين

السابقين^(١٥) . وأول هذه الأمثلة للمدارس ذات الأربعة إيوانات ، والتي تعود للعصر المملوكي البحري هي مدرسة السلطان المنصور قلاوون ، والتي تعود إلى سنة ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م بالنحاسين^(١٦) ، ويتبعها بعد ذلك العديد من المدارس، ومن أهمها مدرسة الناصر محمد ٦٩٥هـ - ٧٠٣هـ - ١٢٩٥ - ١٣٠٤م ، ومدرسة صلوغتمش ٧٥٧هـ - ١٣٥٦م بالحفزي ، ومدرسة السلطان حسن ٧٥٧هـ - ٧٦٤هـ - ١٣٥٦ - ١٣٦٢م بالقاهرة في ميدان صلاح الدين ، مدرسة أم السلطان شعبان ٧٧٠هـ - ١٣٦٩م بالتبانة ، مدرسة الجاي اليوسيفي ٧٧٤هـ - ١٣٧٣م بسوق السلاح^(١٧) . وقد استمر نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على الصحن الأوسط خلال العصر المملوكي الجركسي (البرجي) أيضاً ، وإن كان المعمار بدأ بإجراء بعض التعديلات في المدرسة ، فأصبحت المدراس في هذه الفترة صغيرة الحجم نسبياً مقارنة بالمدارس التي سبقتها، حيث عمل المعمار في هذه الفترة على تصغير حجم الصحن الأوسط فأصبح بالإمكان تغطيته بسقف خشبي مسطح تتوسطه خشبينة . وفي هذه المرحلة اختفت الفسقية أو الميضاء التي كانت تتوسطه^(١٨) . كذلك استدعى هذا التصغير لتلك المنشآت أن عمد المعمار إلى تصغير الإيوانين الجانبيين، مما أدى إلى تغيير اسمائهما ، فأطلق على الإيوانين الجانبيين لفظ سدلتين أو مرتبتين ، وإن كانت اللفظة الأولى أكثر انتشاراً من الثانية . كما أطلق على الصحن بعد هذا التطور لفظ دور قاعة، وبعد هذا التطور الذي رافقه هذا النظام للمدارس المتعامدة خلال العصر المملوكي البرجي . وأصبح هذا النوع من المدارس يعرف باسم المدارس المتعامدة كما يطلق على هذا النوع من المدارس اسم المدارس المتطورة . ومن أهم العناصر المعمارية لهذا النظام :

١ - دور قاعة وسطي - (صحن) .

٢ - الإيوان الجنوبي (القبلة) .

٣ - الإيوان الشمالي (المقابل لإيوان القبلة) .

٤ - سدة في الجهة الشرقية من الصحن .

٥ - سدة في الجهة الغربية للصحن^(١٩) .

ومن أشهر المدارس التي اتبعت نظام المدارس المتطورة في العصر المملوكي الجركسي (البرجي) هي مدرسة الأشرف قايتباي ٨٧٧ - ٨٧٩ هـ - ١٤٧٢ - ١٤٧٤ م بالصحراء ومدرسته أيضاً في قلعة الكيش ٨٨٠ هـ - ١٤٧٥ م ، ومدرسة الأمير أزيك اليوسيفي ٩٠٠ هـ - ١٤٩٤ - ١٤٩٥ م ، ومدرسة الغوري ٩٠٩ : ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ : ٥٠٥ م بالغورية ، وهناك العديد من المدارس التي تتبع هذا النظام^(٢٠) .

وعند مقارنة هذه المدارس بالمبنى الموجود في قلعة الكرك ، نجد أنها تقع ضمن هذه المجموعة من المدارس ، وذلك لأسباب معمارية ، وأثرية ، وتاريخية :

١. الأسباب المعمارية :

لهذا المبنى خصائص المدارس المملوكية ، وذلك لتوفر العديد من العناصر المعمارية التي تدخل هذا المبنى ضمن هذه المدارس ، وأهمها :

أ - صحن مكشوف مربع الشكل تحيط به أربعة إيوانات متعامدة عليه ، ويمكن الاستنتاج أن هذا الصحن مكشوف ، وذلك لعدم وجود أية منافذ لهذا المبنى إلى الخارج ، وإذا غطي هذا الصحن بشخشيخة أو أية تغطيات أخرى فإنه سيكون مظلماً من الداخل ، فلذلك أرجح بأن الصحن قد بقي مكشوفاً وذلك لعدم وجود أية آثار معمارية تدل على غير ذلك حالياً ، وكذلك عدم وجود

فسقية أو مiazza داخل هذا الصحن .

ب - الايوانان الجنوبي والشمالي أكبر حجماً من الإيوانين الجانبين وبهما امتداد إلى الجانبين . الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان، وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من مميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على الإيوان الشمالي الذي يمتد نحو الشرق، وذلك لوجود موزع للغرف الخلفية لهذا الإيوان وهو يعتبر المدخل لهذه الغرف . وهذه ميزة من مميزات العمارة المملوكية البرجية ، حيث نجد أنهم قد عملوا على تصغير حجم الصحن وتغطيته في بعض الأحيان ، وقاموا بإدخال تعديلات معمارية انعكست على مساحة الإيوانات المطلة على الصحن . ولكن نلاحظ هنا أن المعمار عمل على توسيع الإيوان القبلي والإيوان المقابل له فقط بالامتداد بهما في الجانبين بشكل لا يتضح من الصحن ، ولا يحس بذلك اتساعهما الحقيقي مثلما كان عليه الحال في العصرين الأيوبي والمملوكي البحري^(٢١) . ولم يستطع المعمار تكرار هذا في الإيوانين الجانبين وذلك لوجود العديد من العناصر المعمارية الأخرى تشارك هذين الإيوانين ، فلم يستطع أن يعطيها الاتساع الجانبي المطلوب فاستقر وضعهما ، وانتهى بصغر مساحتهما أيضاً . حيث نجد أنه كان يوجد على جانبي كل من الإيوانين بابان يؤديان إلى ملاحق أخرى . وهنا نجد أن تسمية هذين الإيوانين قد تغيرت ، وأصبحتا يعرفان باسم السدلتين أو المرتبتين^(٢٢) .

ج - كذلك نجد أن الجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي بني في اتجاه القبلة ، وهو مواز لحنية المحراب الموجودة في المسجد . وبهذا استعوض عن حنية المحراب

التي كنا نشاهدها في إيوان القبلة في المدارس المملوكية في القاهرة بالجدار الجنوبي للإيوان الجنوبي ، وذلك لأن هذا المبنى منشأ في قلعة وداخل مكان محصور نسبياً بالمقارنة بالمدارس المملوكية في مصر . واستخدمت هذه الإيوانات كأماكن لإقامة الصلاة ، وهذا أيضاً من مميزات العمارة المملوكية إذ أن معظم الجدران للمدارس تتجه نحو القبلة وذلك لإقامة الصلاة فيها أيضاً^(٢٣) .

د - وجود العديد من الغرف المحيطة بالإيوان الشمالي والإيوان الجنوبي ، وهي غرف متصلة ببعضها بعضاً . وربما كانت تستخدم لإيواء القائمين على هذا المبنى . وإذا كانت مدرسة فإنها تكون مخصصة للجنود وأهالي المنطقة، فإذا كن إقامتهم متوفرة أصلاً وليس من الضروري إيجاد أماكن لإيوائهم، بل يعتقد أنها كانت مخصصة للقائمين على هذا المبنى^(٢٤) .

٢. الأسباب الأثرية :

قامت الباحثة براون BROWN بعمل محسسات ومقاطع أثرية في هذا البناء وخاصة في الإيوان الجنوبي للبناء وذلك بقطاع رأسي باتساع متر واحد طولياً . وكانت نتيجة هذه الحفريات أن أرضية البناء تتكون من سويتين ، الأولى تعود إلى العصر العثماني ، أما السوية الثانية فيرجح أنها تعود إلى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وربما تعود إلى مابعد القرن الرابع عشر . وهذا دليل آخر على أن هذه السوية تعود إلى أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر أي أنها تعود إلى العصر المملوكي^(٢٥) .

٣. الأسباب التاريخية :

يورد المؤرخ المعروف ابن حجر العسقلاني في كتابه (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة) بأن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بنى مدرسة في

الكرك وعهد بذلك إلى الأمير سنجر بن عبد الله الجادلي (ت ٧٤٥هـ) ،
وسميت هذه المدرسة باسم المدرسة الشافعية^(٢٦) .

وعند استعراض الأسباب المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نستدل على أن
هذا البناء ماهو إلا مدرسة بنيت على نظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط ،
وهي تشبه إلى حد كبير المدارس المملوكية في تصميمها المعماري ، كما هو
واضح في الوصف العام للبناء ، حيث يمكن عقد مقارنة فيما بين هذا البناء
والمدارس التي بنيت في العصر المملوكي ومنها :

١ - مدرسة صرغتمش - سيف الدين صرغتمش الناصري من ممالك الناصر
محمد بن قلاوون . بنيت في عام ٧٥٧هـ - ١٣٥٦م ، وهي مدرسة مقامة على
نظام المدارس المملوكية البحرية (نظام الإيوانات المتعامدة) على صحن أوسط .
وهناك قبة لمدفن المنشئ^(٢٧) .

٢ - مدرسة الجاي اليوسيفي (الأمير الجاي بن عبد الله اليوسيفي سيف
الدين) بنيت عام (٧٦٧ : ٧٧٤هـ - ١٣٦٦ : ١٣٧٣م) تتبع نفس
النظام^(٢٨) .

٣ - مدرسة أم السلطان شعبة (خوند بركة أم السلطان شعبان) بنيت في
عام ٧٧٠هـ - ١٣٦٩م . وهي تتبع نفس النظام السابق^(٢٩) .

٤ - مدرسة وخانقاه السلطان الظاهر برقوق بنيت في عام ٧٨٨هـ -
١٣٨٦م . وهي تتبع نفس النظام السابق^(٣٠) (لوحة ٦) .

٥ - مسجد جاني بك الأشرفي بشارع المغربلين بنيت في عام ٨٣٠هـ -
١٤٢٧ وهذا المسجد يتبع نظام المدارس ذات الإيوانات المتعامدة على صحن
أوسط . وهنا نجد أن هذا النظام استخدم أيضاً في هذه الفترة كمسجد

(لوحة ٣١) .

٦ - مدرسة قايتباي بالقرافة الشرقية بنيت في عام ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م .
وتحتوي هذه المدرسة على العديد من المرافق ، من أهمها مدرسة ، ومدفن ،
وسبل ، وكتاب^(٣٢) (لوحة ٧) .

٧ - مدرسة مجمع مرقماس بقرافة الخفير ، وتتكون من أربعة إيوانات
متعامدة على صحن أوسط (لوحة ٨)^(٣٣) .

ومن خلال دراسة مخططات المبنى نجد أنها تتبع نفس التصميم المعماري
لنظام المدارس المتعامدة على صحن أوسط ، وأن إيوانيهما الجنوبي والشمالي أوسع
من الإيوانين الجانبيين كما أوردنا سالفاً في مميزات عمارة المدارس المملوكية .

الخلاصة :

من خلال المعطيات المعمارية ، والأثرية ، والتاريخية نخلص إلى أن هذا المبنى
يمتاز بنفس الخصائص المعمارية التي اعتمدها علماء الآثار الإسلامية في تصنيف
المدارس التي تعود للفترة المملوكية من حيث احتوائها على الصحن الأوسط
والإيوانات الأربعة المتعامدة على الصحن . ولقد أثبتت نتائج الحفريات الأثرية
التي أجريت في المبنى بأنه يعود إلى الفترة المملوكية ، مع العلم بأن نتائج
الحفريات الأثرية تعتبر من أهم الدلائل التي تثبت أن الفترة الزمنية التي تعود إليها
هذه الأبنية هي الفترة المملوكية وذلك من خلال مطابقة البقايا المعمارية واللقى
الأثرية ، مثل الفخار وغيرها ، والتي وجدت في أماكن أخرى . وإذا أخذنا بعين
الاعتبار ماورد ذكره في المصادر التاريخية الإسلامية عن بناء مدرسة في قلعة
الكرك في الفترة المملوكية البرجية فإن هذه الدلائل الأثرية والمعمارية ، والتاريخية

تلفع للاعتقاد بأن هذا المبنى هو مدرسة مملوكية تشتمل على جميع مميزات المدارس المتطورة في هذه الفترة ، وليس كما ذكر سابقاً من قبل الباحثين والعلماء الذين اعتقدوا بأن هذا المبنى ربما استخدم كقصر يحتوي على العديد من الدور السكنية .

الموامش

- ١ - غوانمة ، يوسف ، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ٢٥٩ .
- ٢ - المومني ، سعد ، القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية المملوكية ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٨ ، ص ١٦٢ .
- ٣ - المومني ، سعد ، نفس المصدر ص ١٥٩ .
- Samall, R. C, Crusading Warfare (1097 - 1293) Newyork, 1967, p. 219.
- غوانمة ، يوسف ، نفس المصدر ص ٢٦٠ .
- ٤ - المرجع نفسه ، ص ٢٦٠ .
- ٥ - المرجع نفسه ، ص ٢٦٣ .
- ٦ - المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ .
- ٧ - غوانمة ، يوسف ، إمارة الكرك الأيوبية ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ١٦٨ .
- المومني ، سعد ، القلاع ، ص ١٦٧ .
- ٨ - ابن شداد : عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم (ت ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) الأعلام الخطيرة في ذكر إمراء الشام والجزيرة في المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٣ ، تحقيق دومنيك سورديل وسامي الدمان، ص ٧٧ - ٧٨ .

أبو الفداء : الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين
(ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) المختصر في أخبار البشر ، الشاهاتية ، القسطنطينية ،
١٢٨٦م ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .

- المقرئ : تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م)
السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤ - ١٩٤٢ ،
ج ١ ، ص ٤٨٢ .

- غوانمة ، يوسف ، إمارة ، ١٩٨٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢٣ .

٩ - ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

- أبو المحاسن : يوسف ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٢ ، ج ٧ ص ١٩٤ .

- غوانمة ، يوسف إمارة الكرك الأيوبية ، ١٩٨٢ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

١٠ - المومني ، سعد ، القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية
الملوكية ، ١٩٨٨ ، ص ١٧٢ .

١١ - غوانمة ، يوسف ، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر
الملوكي ، عمان ، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٤ .

١٢ - المرجع السابق ، ص ٢٦٤ .

١٣ - المرجع السابق ، ص ٢٦٧ .

١٤ - المومني ، سعد ، القلاع الإسلامية في الأردن في الفترة الأيوبية
الملوكية ، ١٩٨٨ حيث أورد وصفاً مقتضباً للمدرسة ، وفي النهاية يرجع هذه
المدرسة إلى العصر الأيوبي . ولكن المدارس الأيوبية تختلف اختلافاً كبيراً عن
تصميم هذه المدرسة . إذ تتكون المدرسة في العصر الأيوبي من صحن وإيوانين

فقط ، ومثال على ذلك المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية في القاهرة ، راجع
فكري ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ٢ ، دار المعارف ، ١٩٦٩ ،
ص ٥٥ - ٧٥ .

- مويلر (م) ، القلاع الصليبية ، Muller, M .

Castles of the Crusaders, London, 1966, p. 40 .

حيث أشار المؤلف إلى أن هذا البناء هو قصر والمباني التي تحيط به قاعات معدة
للسكن .

- براون ، روبين ، حفريات في القرن الرابع عشر الميلادي - القصر
المملوكي في الكرك حولية دائرة الآثار الأردنية رقم ٣٣ - (١٩٨٩) ص
٢٨٧ - ٤ - ٣ Robin, Brown . حيث اشارت هذه المؤلفة إلى أن هذا المبنى هو
قاعة استقبال لقصر يعود إلى العصر المملوكي .

١٥ - نجيب ، محمد مصطفى ، القاهرة ، تاريخها فنونها ، آثارها ،
مؤسسة الأهرام (العمارة في عصر المماليك) ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
- نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر
المملوكي البرجي ، مستخرج من الكتاب الذهبي للاحتفال الخمسين بالدراسات
الآثرية بجامعة القاهرة الجزء الثاني عدد خاص من مجلة كلية الآثار ، ١٩٧٨ ،
ص ١٩ .

- مصطفى ، لمي ، التراث المعماري الإسلامي في مصر ، دار النهضة
العربية ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ١٨ .

- فكري ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ٢ ، العصر الأيوبي ،
دار المعارف ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٣ - ١٩٢ .

- سامح ، كمال ، العمارة الإسلامية في مصر ، ١٩٩١ ، ص ١٠٧ .

١٦ - نجيب ، محمد مصطفى وآخرون ، القاهرة وتاريخها فنونها ، آثارها ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٥ .

١٧ - المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

١٨ - نجيب ، مصطفى ، نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي البرجي .

١٩ - نجيب ، مصطفى ، نظرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٤ - ٢٦ .

٢٠ - نفس المصدر ، ص ٢٧ .

٢١ - نفس المصدر ، ص ١٩ ناقش المؤلف العديد من الآراء حول أسباب تصغير المدارس في هذه الفترة ، حيث يرجح بعض الدارسين ذلك إلى أسباب دينية وبعضهم الآخر إلى الوضع الاقتصادي الذي مرت به مصر في تلك الفترة .
ورغب السلاطين والأمراء في إنشاء عمائر تخدم أكثر من غرض مع حجمها . وهو يرجع هذا الرأي .

٢٢ - نفس المصدر ، ص ٢٦ انظر كذلك الحواشي رقم ١ - ٢ - ٣ .

٢٣ - فكري ، أحمد ، مساجد ، ١٩٦٩ ، ص ١٨٣ .

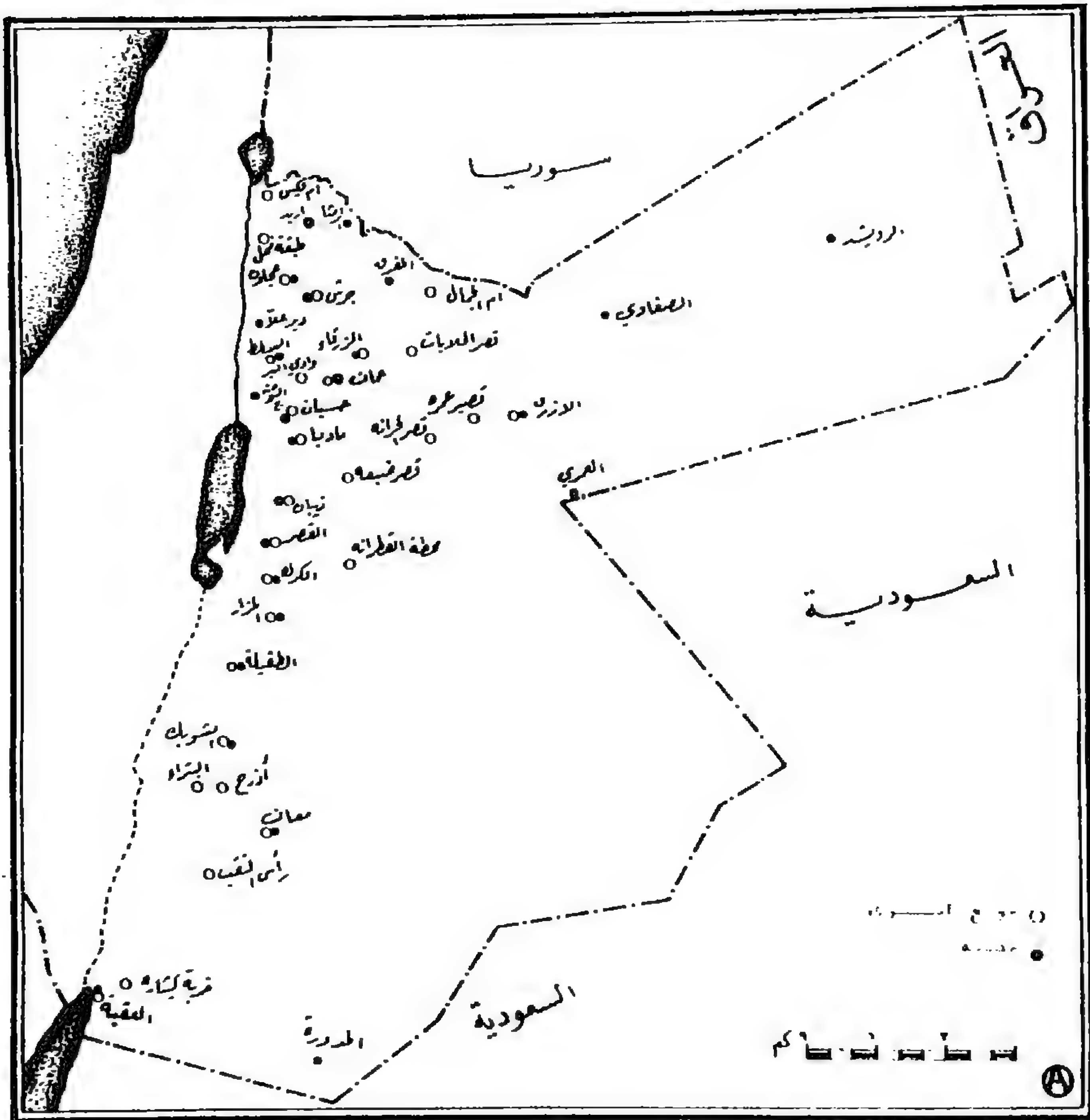
٢٤ - نفس المصدر ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

٢٥ - براون ، روبين Robin, Brown الحولية الأردنية ص ٢٩٤ .

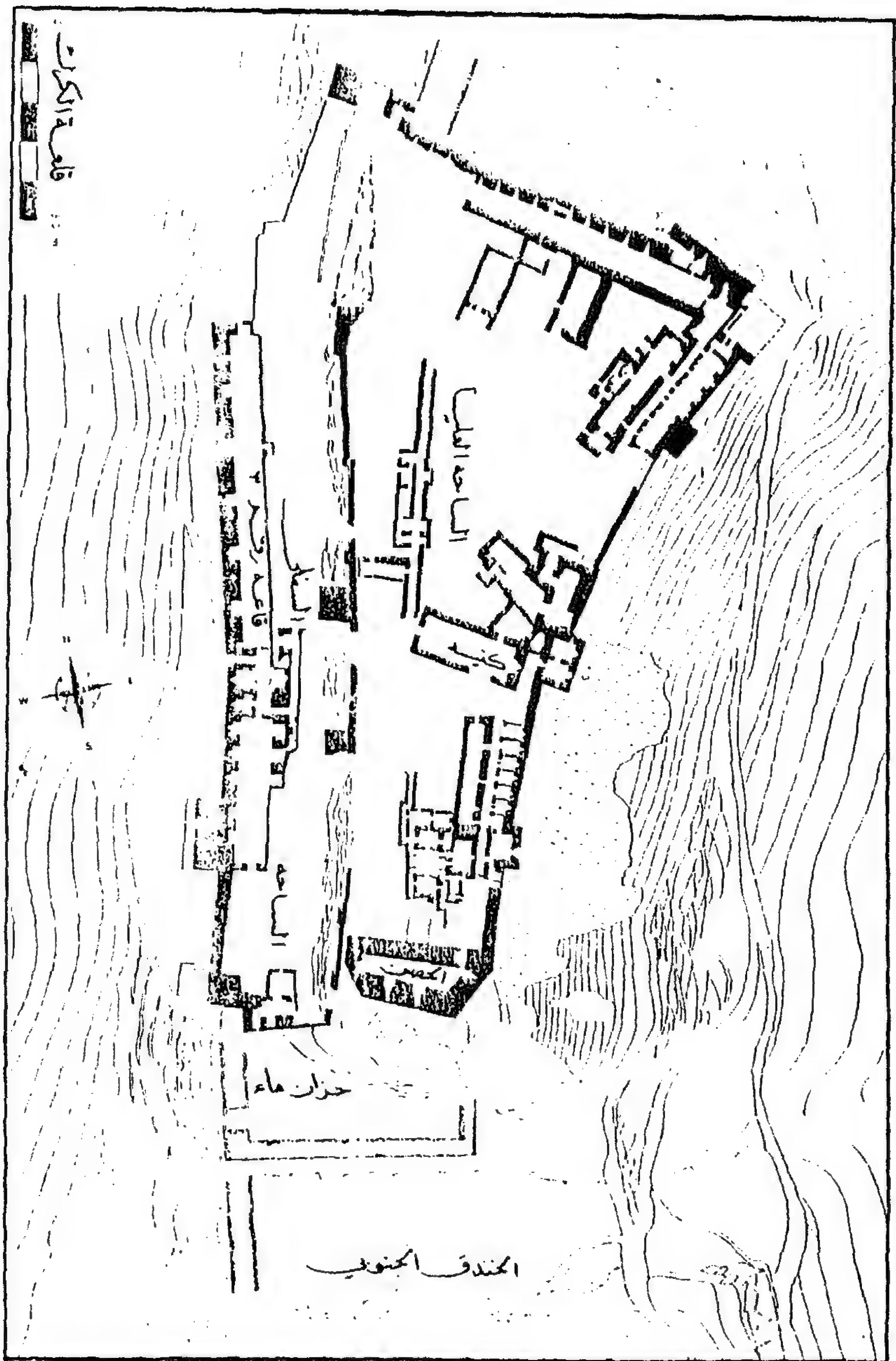
٢٦ - ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد العسقلاني ، الدور الكامنة في أعيان المئة الثامنة ج ٢ ، تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ٢٦٦ .

٢٧ - عبد الوهاب ، حسن ، تاريخ المساجد الأثرية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤ ، ص ١٦١ .

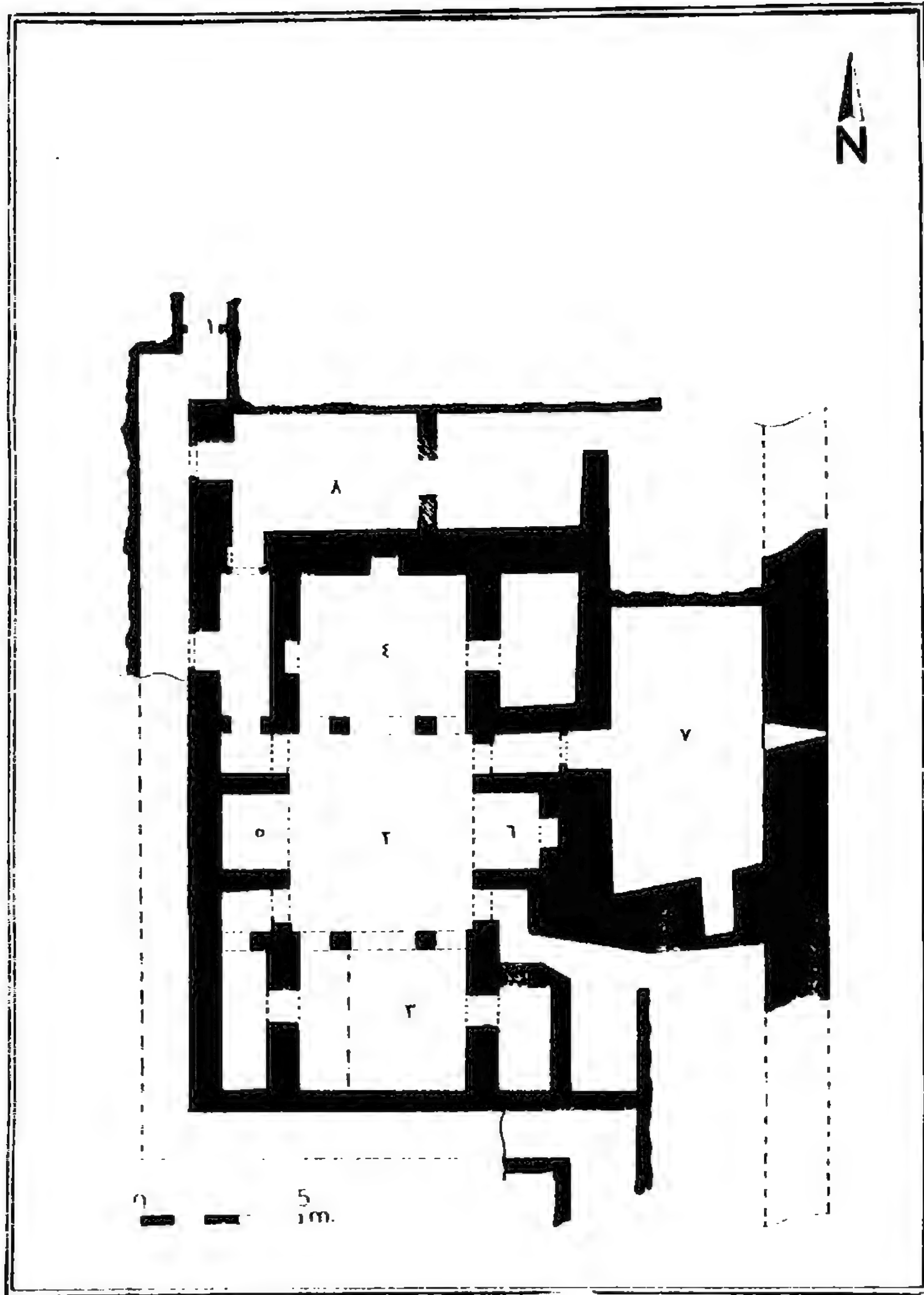
- ٢٨ - نفس المصدر ، ص ١٩٠ .
- ٢٩ - نفس المصدر ، ص ١٨٥ .
- ٣٠ - نفس المصدر ، ص ١٩٦ .
- ٣١ - نفس المصدر ، ص ٢١٩ .
- ٣٢ - نفس المصدر ، ص ٢٥٣ .
- سامح ، كمال الدين ، العمارة ، ١٩٩١ ، ص ١٠٧ .
- ٣٣ - نجيب ، مصطفى ، نظرة ، ١٩٧٨ ، ص ٢٧ .



لوحة (١) خارطة المملكة الأردنية الهاشمية



لوحة (٢) مخطط قلعة الكرك

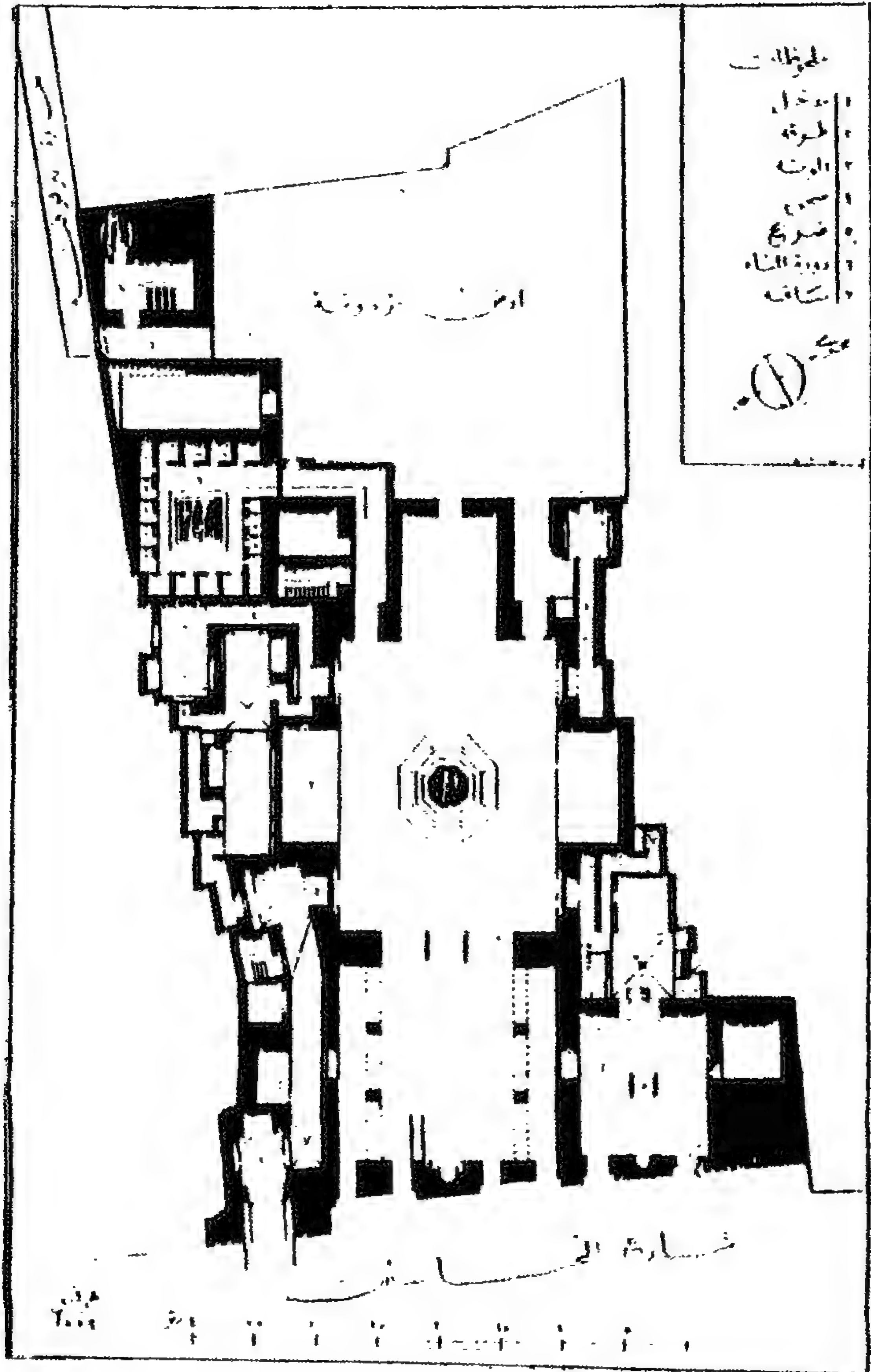


لوحة (٣) مخطط مدرسة الكرك المملوكية

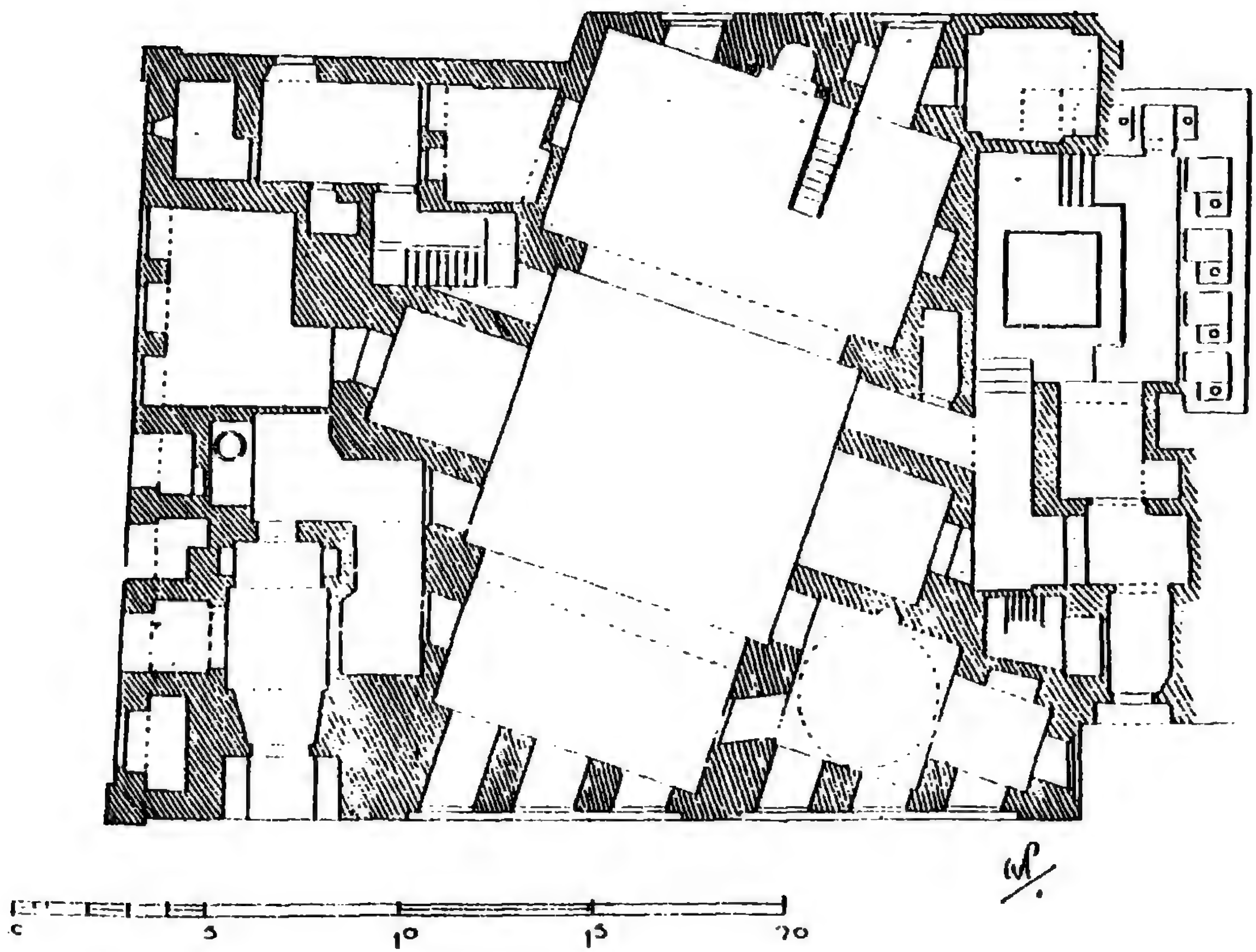
- | | |
|---------------------|---------------------|
| ١ - المدخل | ٢ - الصحن |
| ٣ - الايوان الجنوبي | ٤ - الايوان الشمالي |
| ٥ - الايوان الغربي | ٦ - الايوان الشرقي |
| ٧ - المسجد | ٨ - الغرف الخلفية |



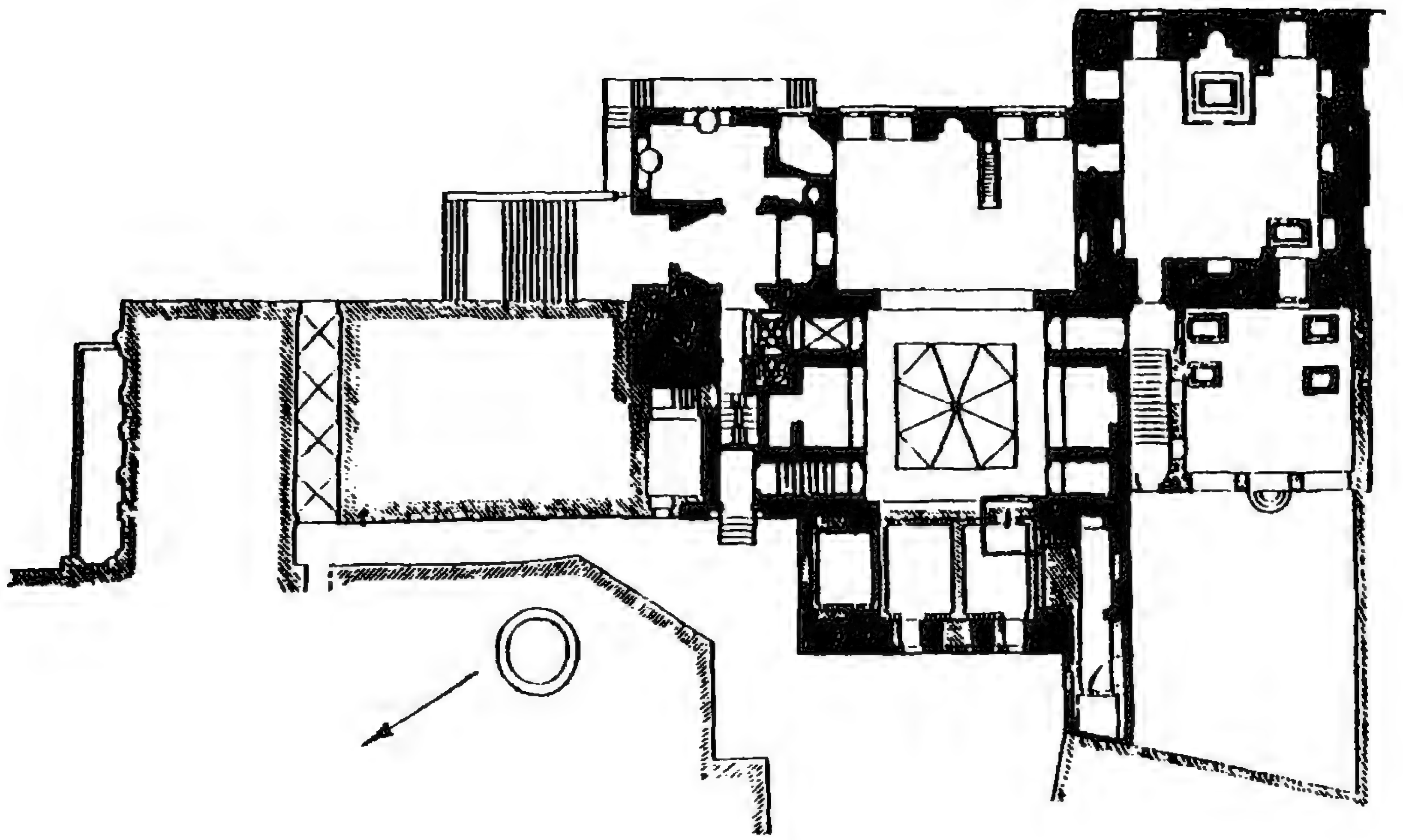
لوحة (٤) مدرسة الجاي اليوسيفي (نقلاً عن حسن عبد الوهاب)



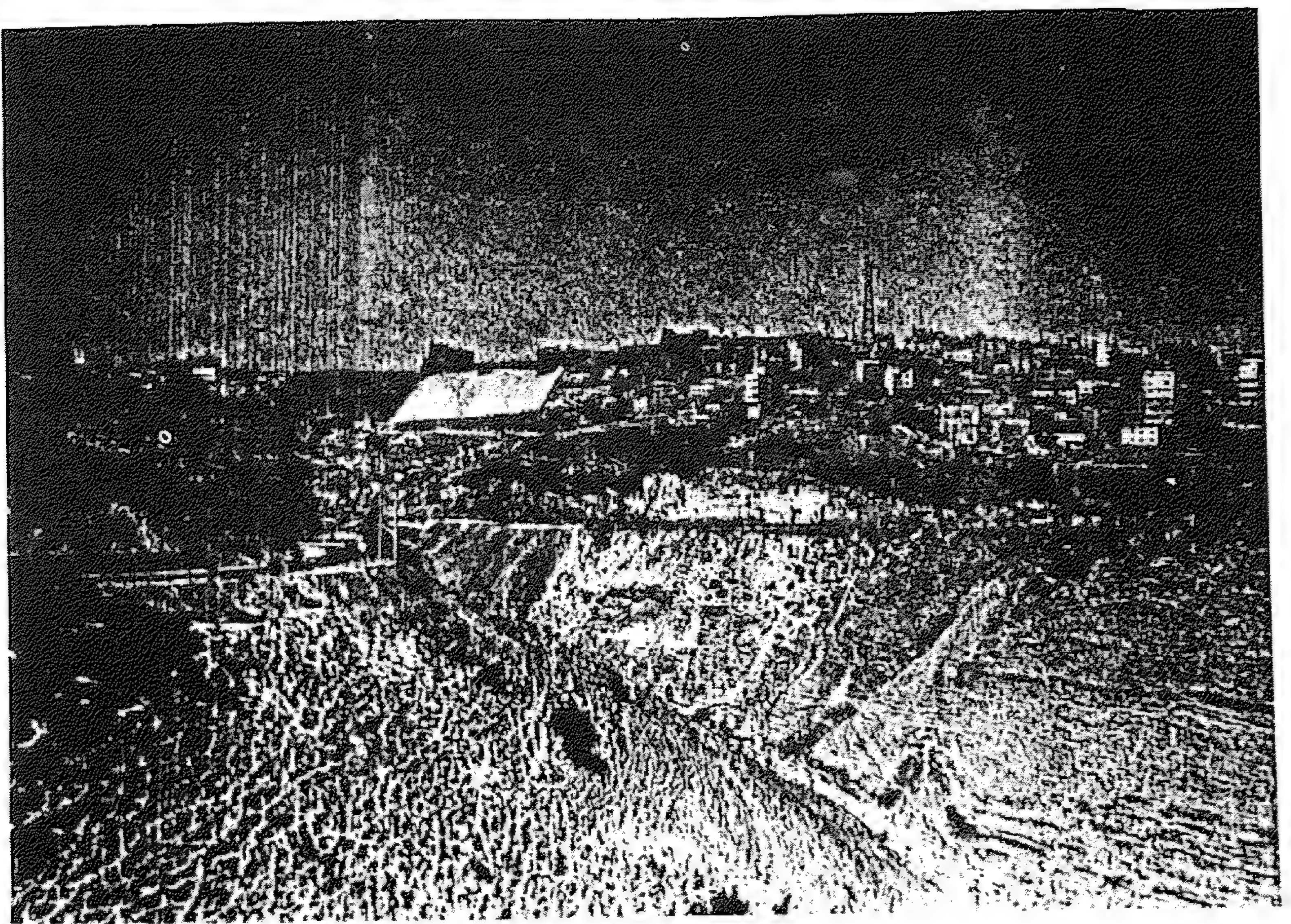
لوحة (٥) مدرسة وخانقاه الظاهر برقوقي (نقلًا عن حسن عبد الوهاب)



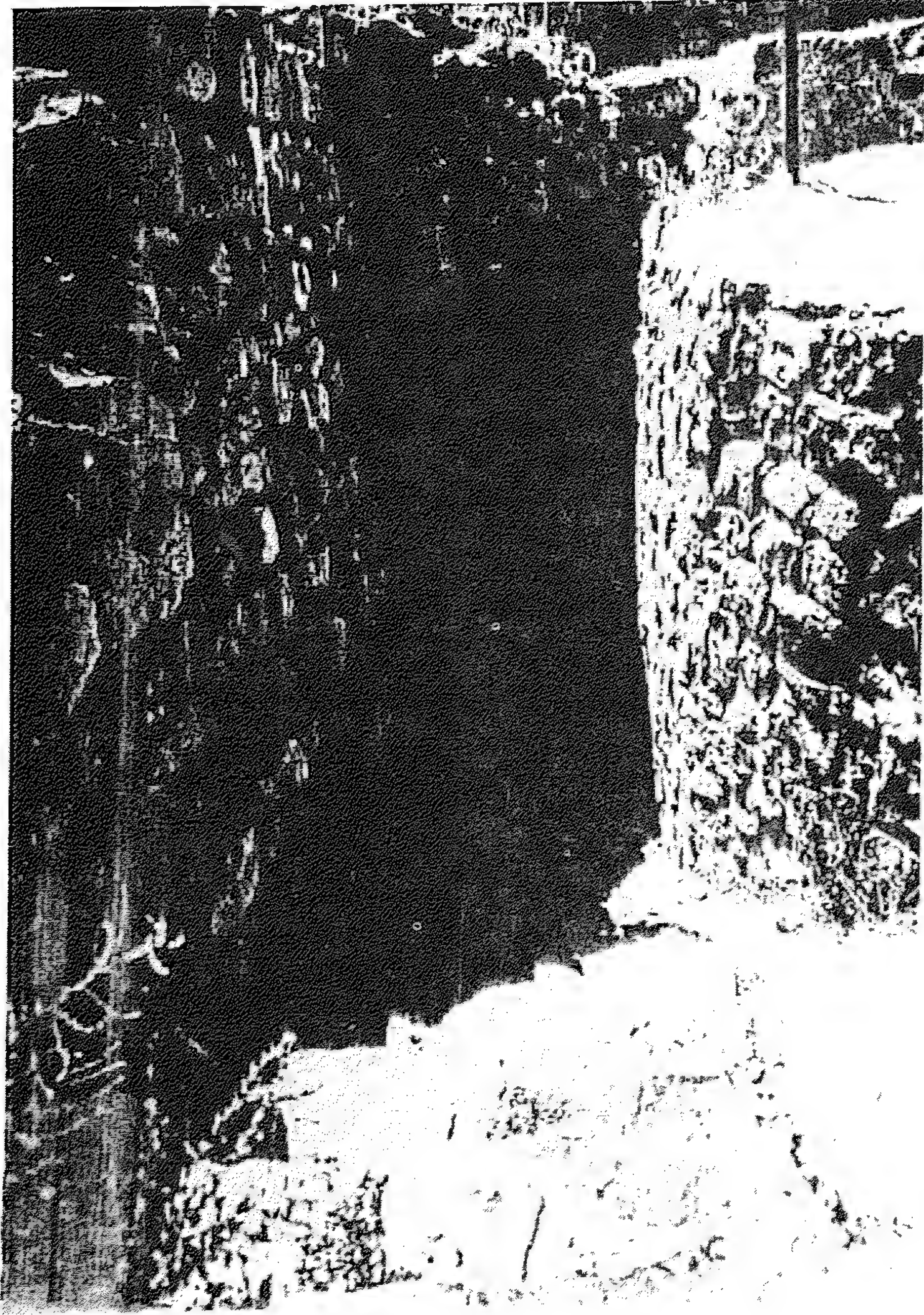
لوحة (٦) جاني بك الاشرفي (نقاً عن حسن عبد الوهاب)



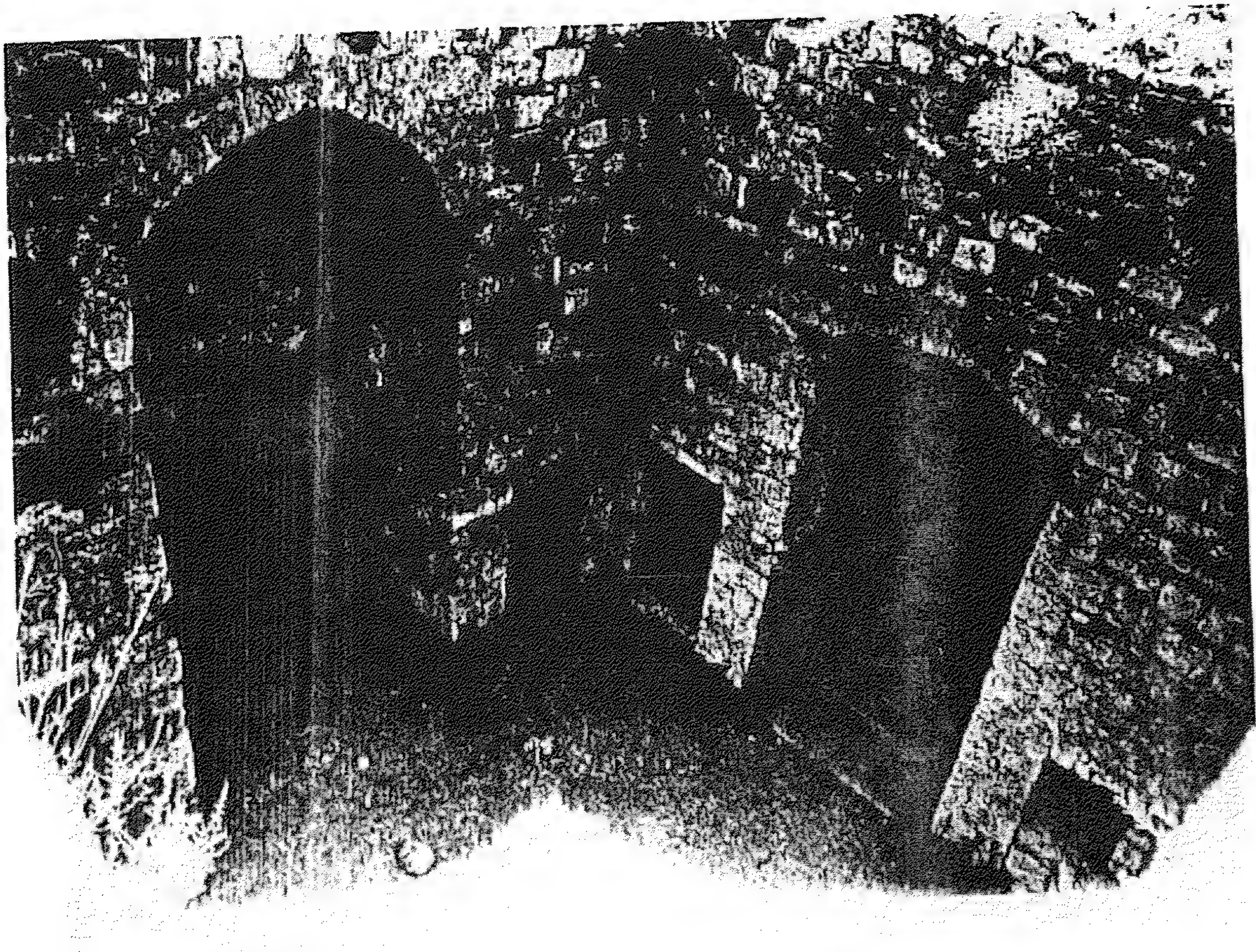
لوحة (٧) مدرسة قتيبي بالقراالة (نقلاً عن صالح لمي)



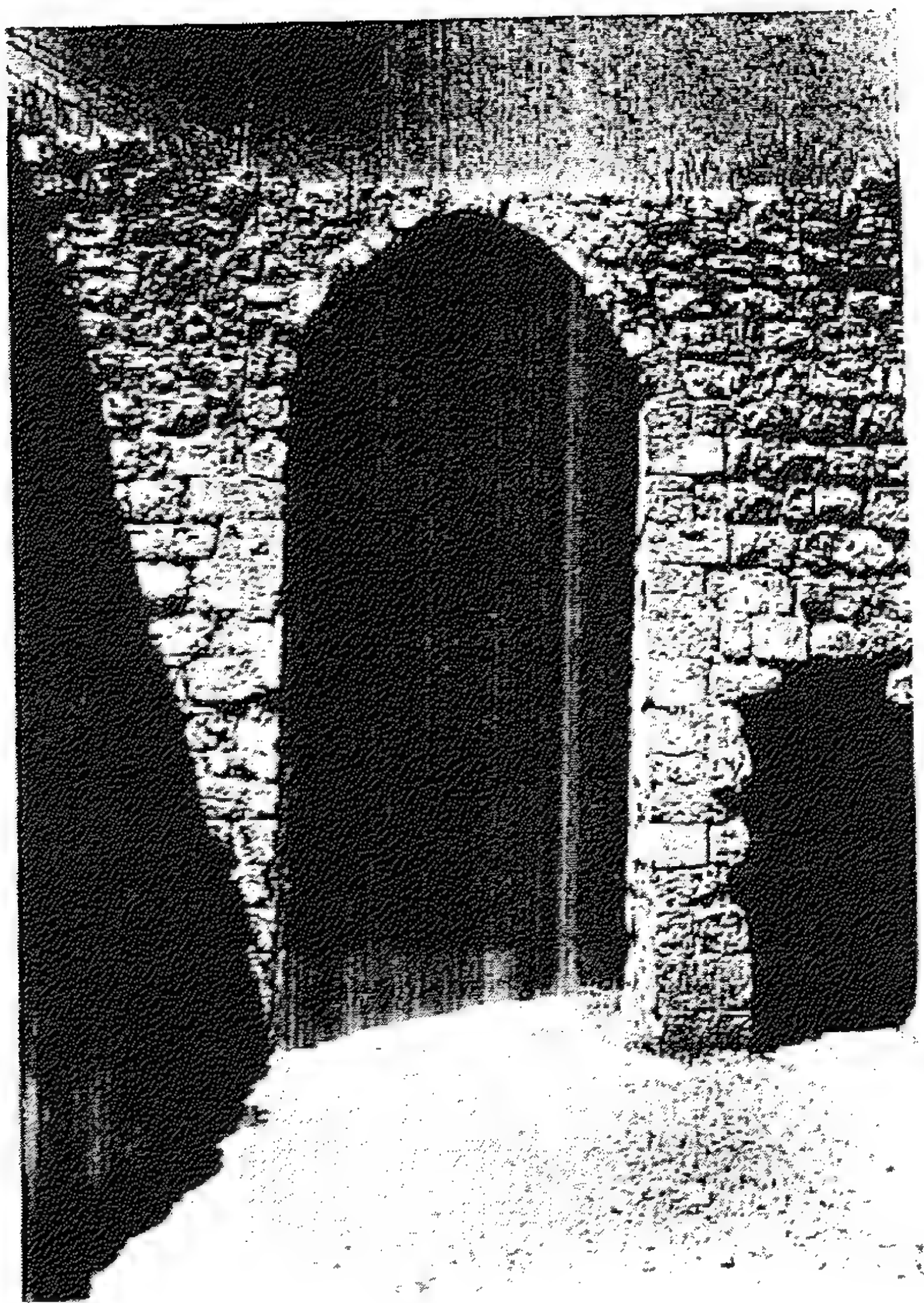
شكل (١) منظر عام للقلعة



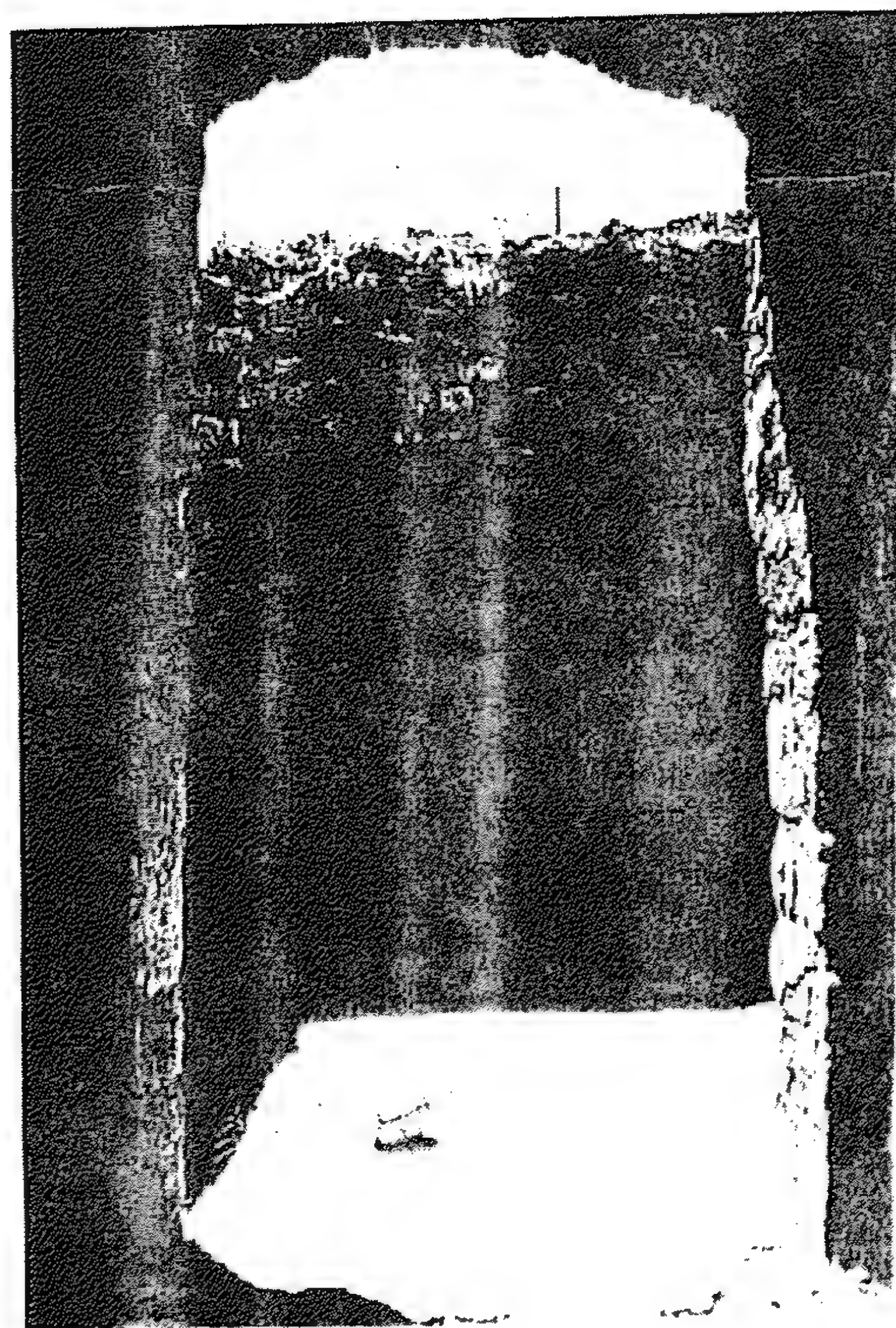
شكل (٢) منظر يمثل الدرج والباب المؤدي للمدرسة



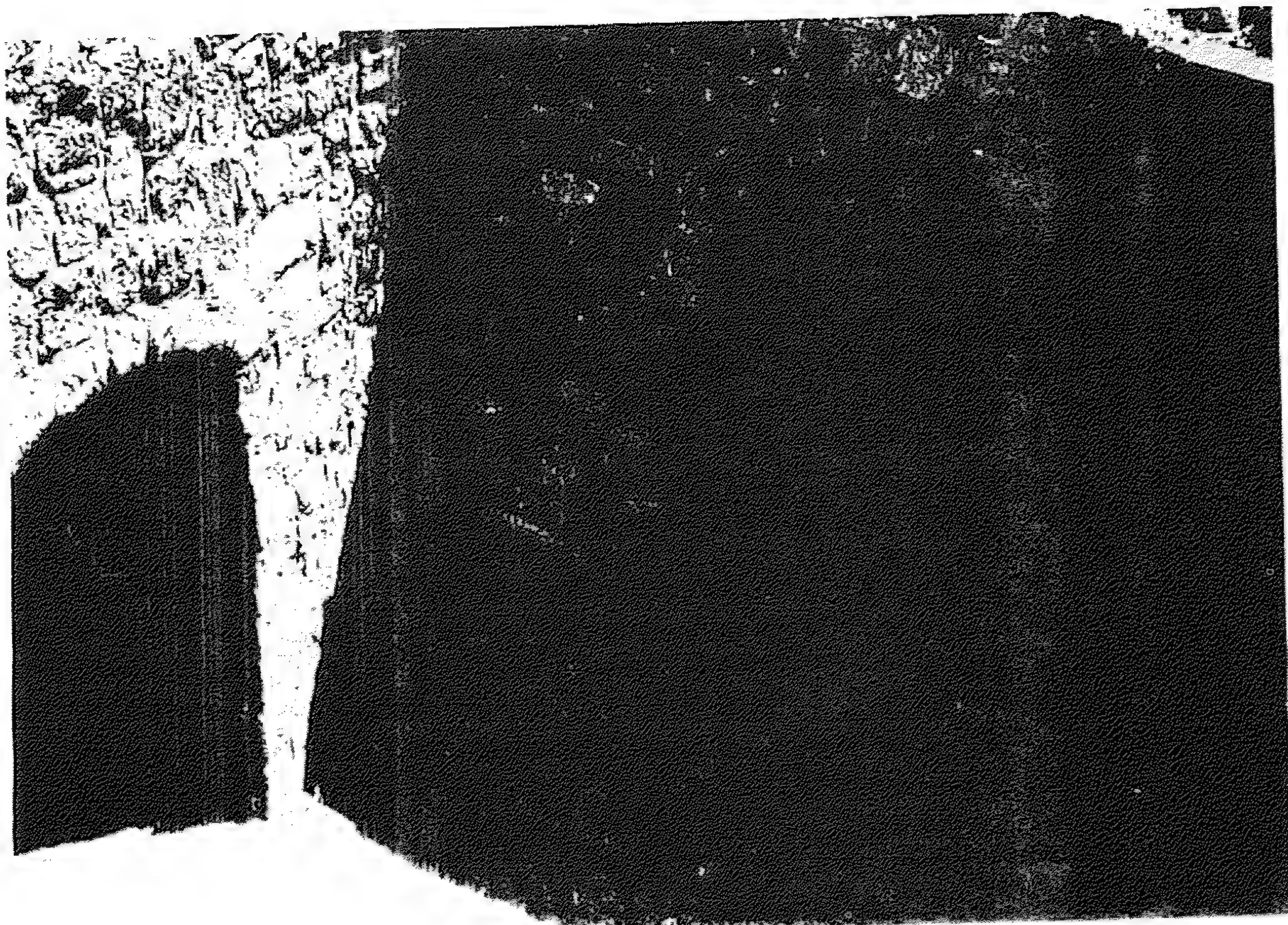
شكل (٣) منظر يمثل الصحن والايوان الجنوبي والشرقي



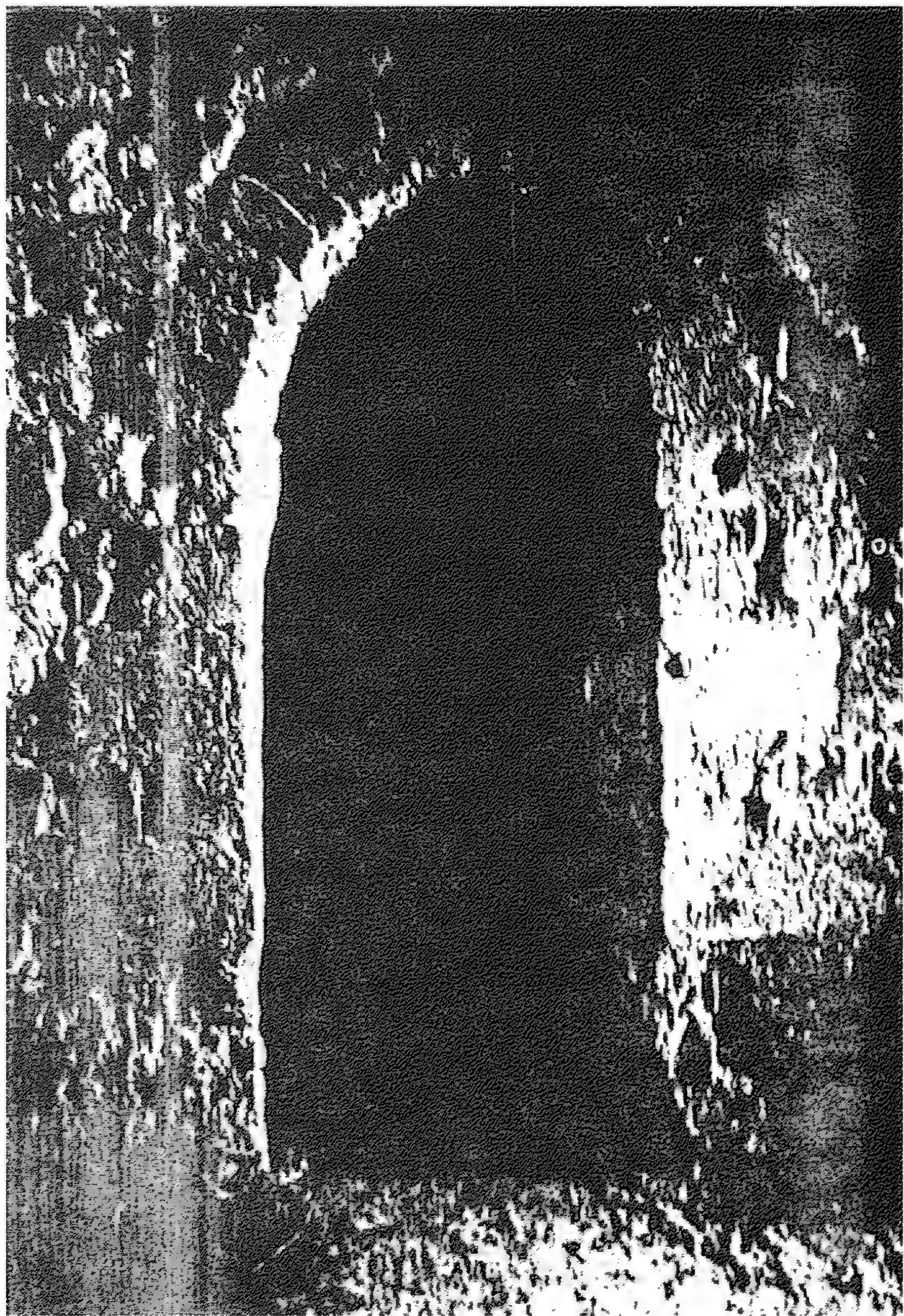
شكل (٥) منظر يمثل الايوان الغربي



شكل (٤) منظر يمثل الايوان الشمالي



شكل (٦) منظر يمثل الایوان الشرقي والأبواب الجانبية وجزء من الایوان الشمالي



شكل (٧) منظر يمثل المحراب

أعمال الرحلة من المشرق إلى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى

عبد الكريم علي

جامعة دمشق / مدير التحرير

مقدمة :

سبق أن كتب العديد من الباحثين والمفكرين ، عن أسباب الرحلات وفوائدها ، ولئن نسهب في ذكر ذلك في هذه المقدمة . مع أنه تجدر الإشارة إلى أن الرحلات قديمة قدم الإنسان نفسه ، ومنذ أن وجد الإنسان على ظهر الأرض ، بدأ بمحاولة التعرف على أسرار الكوكب الذي يعيش عليه .

وتنوعت أسباب الرحلات : فمنها معرفية استكشافية ، ومنها سياسية ، ومنها بدافع الهواية والمغامرة . وعلى هذا الأساس ، ذكر أن من الرحالة من كان رجل علم أو دين أو هاوياً للسفر أو مغامراً .

وقدمت الرحلات فوائد جمة للحضارة الإنسانية بشكل عام ، حتى وصفت الرحلة بأنها عين الجغرافية المبصرة / على سبيل المثال / ، كما يراها الأستاذ الجغرافي صلاح الشامي .

ومهما كانت دوافع الرحلات ، المعلنة منها وغير المعلنة ، فقد أتصف الكثير من رجالها بدقة الملاحظة ، سواء في الوصف أو التقصي في تسجيل المعلومات والمشاهدات ، بكل دقة وأمانة .

وهناك ذكر لرحلات قدماء المصريين منذ الألف الثاني قبل الميلاد ، ورحلات يونانية ، كما نخبرنا بذلك الرحالة المؤرخ هرودوتس ولدينا أسماء كثيرة تشير إلى بعضها على سبيل المثال لا الحصر أمثال : ابن بطوطة وماركوبولو وفاسكو داجاما ، وكولومبس ، وتشالز داروين ، وهنري الملاح وغيرهم .

فالرحلة قديمة مستمرة في الحاضر والمستقبل ، ولن تتوقف خاصة وأنها اتخذت مساراً جديداً اضافياً هو الفضاء الخارجي .

وبما أن العديد من الرحّالة لم يكتفوا بوصف الأقاليم وطبائع السكان ، وإنما أسهموا في وصف عادات وتقاليد الجماعات في الأماكن التي زاروها^(١) ، وعلى الرغم من أن مراكز الجذب والاثارة للرحلات كان المشرق ، فهناك بعض الرحلات تمت من المشرق إلى المغرب ، وسنكتفي في بحثنا هذا ، تتبع أعمال ومشاهدات وملاحظات الرحالة العرب المشاركة ، الذين زاروا بلدان المغرب والأندلس ، خلال الفترة الممتدة من نهاية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي . فعلى الرغم من طول هذه الفترة وامتدادها الزمني ، لم نشهد نشاطاً ملحوظاً في ميدان الرحلة والتجوال ، بحيث يمكن مقارنة ذلك مع النشاط الذي حدث على صعيد الرحلة من الأندلس والمغرب إلى بلدان المشرق العربي . وربما يعود سبب ذلك إلى أن كثيراً من الرحالة الأندلسيين والمغاربة ، كانوا يهدفون في الدرجة الأولى من توجههم إلى المشرق ، تأدية فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة الأخرى ، ولا سيما في فلسطين . هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى ، كانت في معظمها سياسية بحثة ، كقضية تحرير بيت المقدس من براثن الصليبيين ، التي اثارَت في نفس ابن جبير الأندلسي حب زيارة الأماكن المقدسة المحررة . وهذا ما يجعل الحديث عن الرحلة إلى المغرب والأندلس أكثر صعوبة ، لأن الذين زاروا المغرب والأندلس ، لم يوسّعوا دائرة تجوالهم ، فجاءت معلوماتهم قليلة ومختصرة .

وفي الوقت الذي كانت فيه أهداف الرحّالة المغاربة واحدة تقريباً ، كانت أهداف الرحّالة المشاركة متعددة الأسباب والجوانب . منها ما كان سياسياً كما

المحنا ، ومنها ما كان علمياً محضاً ، ذلك لأن الأندلس بشكل خاص ، لم تكن دائماً على وفاق مع السياسات التي قامت في المشرق العربي ، ولا سيما في العصر العباسي .

كان في طليعة الرحالة المشاركة أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني ، الرياضي الكاتب الأديب المتوفي سنة ٢٩٨هـ / ٩١١م ، الذي انتقل من بغداد إلى القيروان ، حيث أقام طوال حياته . وقد عمل في القيروان موظفاً في ديوان الانشاء في عصر الدولة الأغلبية وبداية الدولة الفاطمية^(٢) . وحينما ذهب إلى الأندلس ، كان في مراحل حياته الأخيرة ، عندما كلفه الفاطميون بالتجسس لصالحهم على الأمويين . وقد زور رسالة توصية على لسان أنصار الأمويين من بلاد الشام ، ويبدو أن أمره أكتشف فغادر الأندلس إلى مصر حيث سجن . وليس هناك ما يوضح كيفية خروجه من سجنه ، وعودته للعمل لدى الأغلبية ، وتوفي بعد عدة سنوات من قيام الدولة الفاطمية والعمل لديها^(٣) .

ويشبهه من حيث التوجه والمهمة ، الجغرافي ابن حوقل الذي أرسله الفاطميون كذلك لرصد أحوال الأندلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، بعد أن قام عبد الرحمن الناصر لدين الله بإعلان الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦هـ ، رداً على إعلان الفاطميين للخلافة في المغرب . وقد قام بمهمته على أكمل وجه ، فلم يترك شيئاً في الأندلس إلا وقام بتسجيله ورصده وتقويمه من جميع النواحي وبأدق التفاصيل وأعماقها ، وقد بدأ مهمته هذه بكتابة عابرة عن أحوال المغرب بشكل عام ، ومع ذلك فقد أحتوت كتاباته هذه معلومات في غاية الأهمية عن بلدان المغرب ، على الرغم من أن بلاد المغرب ، لم تكن رئيسة في برنامج عمله . ولم يترك مدينة مغربية أو بلدة معروفة ، إلا زارها

وأمعن النظر في أحوالها الطبيعية والمعاشية العامة ، من برقه الليبية إلى سلجلماسة وأودغست في الصحراء المغربية ، فهو يذكر موقع المدينة أو البلدة، ثم يقوم بدراسة تفصيلية مركزة على المسائل الاقتصادية وخاصة الزراعية والتجارية ، ويبدأ بذكر أهم المحاصيل الزراعية ، وما يصدر منها إلى بلاد المشرق والبلدان الأفريقية المجاورة والأندلس . ولا يفوته أن يذكر انعكاس الأزدهار الاقتصادي وأثره على حياة الناس ومعيشتهم . يضاف إلى ذلك ، اهتمامه بذكر المسافات بين المدن والبلدان المغربية كلها ، وبينها وبين دول أفريقية .

فقدرها أحياناً بالمراحل وأحياناً بالشهور والأيام وأحياناً بالأميال . وأستهوته في نهاية حديثه عن المغرب ، مسألة ذكر القبائل المغربية مع ذكر بعض العادات والتقاليد الاجتماعية ، التي كانت معروفة هناك في عصره^(٤) .

كان دخول ابن حوقل إلى الأندلس سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٩م في عصر عبد الرحمن الناصر لدين الله ، أول الخلفاء الأمويين فيها . وقد وصفها بالسعة والبحبوحة في شتى الميادين ، وعزا ذلك إلى وفرة انتاجها ، مع وفرة ضرائبها ومكوئها على الوارد والصادر منها . وتوقف عند أحوال وصفات سكانها فقال (ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم عن الناس والشجاعة والبسالة والفروسية ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال ...)^(٥) .

وذكر أن معظم الأرقاء ، الذين كانوا يصدرون إلى المشرق وغيره ، كان مصدرهم الأندلس ، حيث كانوا يجمعون ويؤهلون قبل تصديرهم إلى بلدان الطلب ، وكان اليهود هم الذين يقومون بهذه العملية^(٦) . وقام بذكر المدينة التي شيدها الناصر لدين الله وهي مدينة الزهراء^(٧) . فذكر أن أبنيتها كادت

أن تتصل بأبنية قرطبة ، ونقلت إليها جميع مستلزمات ودواوين الدولة^(٨) .
وقال عن مقدار جبايات الأندلس في عهد الناصر لدين الله حتى سنة ٣٤٠ / ٩٥٥م : ما لم ينقص عن عشرين ألف ألف دينار إلا اليسير القليل ، دون ما في خزائنه من المتاع والحلي والمصاغ وآلة المراكب . ولقت نظره وضع الجيش في الأندلس ، فقال : وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وإن شجعت أنفسهم ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تنصرف على الكيد والحيلة ، وما رأيت ولا رأى غيري بها إنساناً قط جرى على فرس فاره أو بزون هجين ورجلاه في الركابين ، ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحدهم لخوفهم من السقوط عند بقاء الرجل في الركاب .. وما أطبقت قط جريدة عبد الرحمن بن محمد ولا من سبقه من آله وآبائه على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختتم عليه ديوانه ، لأنه مكفي المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته ما ينوبه من كيد العدو ومن يجاوره من الروم ، ولا عدو عليه سواهم ، وقلما يكثر بهم ، وربما طرقه في بعض الأحيان مراكب الروس والترك ، وقوم في جملتهم من الصقالبة والبلغار . وربما انصرفوا خائبين^(٩) .
وما يؤكد صحة ملاحظاته عن أهل الأندلس ، ما ذكره ابن عذاري المراكشي عند حديثه عن استعانة المغاربة بالأسبان لمهاجمة قرطبة سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م حيث يقول : « كان على رأس النصاري الأسبان رجل يسمى ابن مامة النصراني ، الذي قال عن أهل قرطبة : كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لادين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وإنما أتفق لهم ما أتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم فلما ذهبوا انكشف أمرهم ، إلى أن يقول :

كان أصحابي يغيرون ويسرقون بدون أمر ، ثم يأتي أهل قرطبة فيشترون منهم نهبهم وأموال أصحابهم المسلمين ، فليس من القوم عقل ولا شجاعة ولادين^(١٠) .

واهتم ابن حوقل بشكل خاص بالماشية التي تعيش في الأندلس، فوصفها بأنها من الأنواع المقاومة للأمراض والغزيرة الانتاج والفائدة . كما وصف بغال الأندلس بأنها من أحسن بغال الدنيا ، لأنها سريعة المشي وقوية التحمل ، بل أيضاً لأنها حسنة الشكل ، مختلفة الألوان ، مقاومة للأمراض^(١١) ، ومن الأندلس انتقل إلى صقلية ، فاسترعى انتباهه هناك عدد من الأمور ، كان في مقدمتها كثرة المساجد ، التي قال عنها : إنها كثرت وتعددت بسبب حب الصقليين للمباهاة والمفاخرة ، وليس بسبب التقى وكسب المثوبة أو بدافع الايمان^(١٢) .

وذكر أن الأربطة كانت كثيرة هي الأخرى على السواحل ، وقال : « إنها كانت مشحونة بالرياء والنفاق والبطالين والفسّاق والمتمردين من شيوخ وأحداث ، اجتمعوا على أشياء فاسدة وكريهة .

وهنا لابد من الإشارة إلى أننا لا نتفق مع ابن حوقل في هذا الموضوع، فالأربطة على السواحل كانت تؤدي أكثر من وظيفة ، فهي من جهة أماكن للعبادة ، يعيش البعض فيها بشكل دائم ، والبعض الآخر بشكل مؤقت ، ومن جهة ثانية ، فكان للأربطة وظيفة دفاعية فهي عبارة عن نقاط الحراسة والانداز ، وهي مراكز دفاعية أمامية ، تتلقى الصدمة الأولى عند مهاجمة حدود الدولة .

وليست كما ذكره ابن حوقل ، والذين يسكنون الأربطة ليسوا على المستوى الذي ذكره، فقد بالغ في الأمر أكثر مما يجب ، ولفت انتباه ابن حوقل

في صقلية أيضاً كثرة المعلمين ، وعزا ذلك إلى فرارهم من الغزو ورغبتهم في
التقاعس عن أعمال المجاهدة والنضال ، لأن الولاة ، كانوا لا يتركون أحداً في
البلد عند قيام الغزو ، إلا الذين يعملون في التعليم ، وأولئك الذين يدفعون
الفدية.

ويعلق على ذلك بحدة ومرارة بقوله : « وكان قد سبق الرسم باعفاء
المعلمين قديماً بينهم وحملت عليهم المغارم ، ففرغ إلى التعليم بلههم ، وحسنه
لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه ، فإن منهم الكثير تمر به السنة
فلا يصيب من جمع صبيانهم وهم كثير ، عشرة دنانير ، فأى منزلة أقبح وصورة
أوقح من رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزه
بأحسن منزله وأسقط ضيعة » . وذكر إنه قام بتأليف كتاب سماه (كتاب
صقلية) جمع فيه كل فضائلهم وردائهم وخصائصهم وطبائعهم وأطعمتهم
وعاداتهم إلى غير ذلك من أمور . ووصفهم بأنهم أقدر أهل الأرض بقوله :
« وليس يشبه وسخهم في دورهم وسخ أقدار اليهود ، ولا ظلمة منازلهم
وسوارها سواد الأتاتين والأفران ، وأجهلهم منزلة يسرح الدجاج على مقعده ،
وتذرق الطيور على مصلاه ومخذته »^(١٣) . وهكذا لم يترك ابن حوقل شيئاً في
المغرب والأندلس وصقلية إلا جاء على ذكره بعين الناقد المتفحص المنصف أحياناً
والمتجني أحياناً أخرى ، فقد عكست أقواله عن المغرب مصالحه التجارية ، كما
عكست أقواله عن الأندلس وصقلية ميوله السياسية التي من أجلها ذهب إلى
الأندلس ، وظهر تأثيرها على شخصيته بشكل واضح وجلي وهذا ما جعله يطيل
الاقامة في قرطبة ، زمن عبد الرحمن الثالث أقوى حكامها الأمويين وأقدرهم ،
فوصفها بأنها بغداد الثانية^(١٤) .

وفي عصر ملوك الطوائف ، وصل إلى الأندلس قادماً من بغداد رجل يدعى أبو الفتوح ، وكان يجيد علوم الفلك والفلسفة والأدب ، وقد اشتهر أمره في هذا العصر، الذي كان السياسيون فيه يعتمدون على الشعراء كوسيلة لنشر سياسيتهم وأهدافهم العامة . وقد اتصل في بداية رحلته في الأندلس بحاكم دانية، الذي كان من علماء اللغة والأدب ، فاشتغل أبو الفتوح معه بشرح الجمل في النحو ، إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة وعلم النجوم وحركات الكواكب . ثم رحل إلى سرقسطة في شمال شرق الأندلس ، لكن اقامته فيها لم تطل لأسباب غامضة ، فرحل إلى غرناطة ، وفيها جلس لتدريس الأدب والاشتغال في أعمال التنجيم والتنبؤ مما سيكون عليه المستقبل ، وكان الحاكم في غرناطة باديس الزيري ، الذي تنبأ له أبو الفتوح بأن ابن عمه يطمح في ملكه ، وإن باديس سيفقد حكمه وسلطته .. ولكن هذه النبوءة لم تصدق ، رغم اعتماد ابن عم باديس لها ومحاولته التآمر على السلطة مع ابن عمه / ياسر / ولكن المؤامرة فشلت وكشف أمرهم وفرّ أبو الفتوح إلى خارج غرناطة ، وبعد أمد قصير تمكن باديس من القبض عليه ، فأودعه السجن ، وكان لباديس شقيق يدعى / بلقين / يحب أبا الفتوح ويدافع عنه في كل مناسبة ، فخشي باديس أن يتطور الأمر إلى الموافقة على العفو عنه فاستغل سكر بلقين ذات يوم ، وأمر بإحضار أبي الفتوح وقال له : وهل صدقتك كواذب الطوائع أيها المنجم الخائن الكاذب ، وماهي الفائدة التي عادت عليك الآن ؟ فلم يجبه بكلمة واحدة ، لأنه كان يأمل بعفوه والعودة لزوجته وأولاده في غرناطة إذا ما اكتشف أمره . واستغل باديس عدم اجابته فأجهز عليه بسيفه أمام كل الحاضرين دون شفقة أو رحمة^(١٥) .

وخلال الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ،
وصل إلى المغرب مشرقي أوفده صلاح الدين الأيوبي ، هو أسامة بن منقذ ،
صاحب الكتاب الشهير « الاعتبار » والذي يمكن أن نضعه بين هؤلاء الرحالة ،
كونه ركز عمله على الشؤون السياسية ، التي لم تسفر عن نتيجة إيجابية بسبب
عدم التجانس بين الحكام في المشرق والمغرب على كافة الصعد ، مع أن
الأحداث المعاصرة كانت كافية لأن يسامح كل حاكم منهم الآخر . فليس
هناك عداوات سابقة أو حروب أو ثأر ، وكل الذي حدث أن العلاقة بين
صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحد ، لم تكن حسنة وحتى
الأحداث الجسام التي كان يتعرض لها الوطن العربي ، في ظل السياسة الصليبية
الطامعة في أرض العرب ومقدساتهم في المشرق والأندلس على حد سواء ، لم
تجعل العلاقة بينهما ترقى إلى مستوى المسؤولية والحاجة ، إذا صح التعبير ،
فعندما يتعرض الوطن إلى خطر ما ، فهو بحاجة إلى تكاتف كل جهود أبنائه ،
وكان أسامة بن منقذ مكلفاً بإبلاغ المنصور الموحد العمل على منع أساطيل
الفرنج من الوصول إلى سواحل الشام وقطع المدد عنها . ومع أن ابن منقذ انتظر
عودة المنصور من الأندلس ، فإن سفارته لم تتوج بالنجاح لأسباب عديدة ،
ظاھرھا إن رسالة صلاح الدين الأيوبي لم تكن تمجد الموحدين^(١٦) وباطنها يتعلق
ببعض الخلافات الفكرية والتي يجب أن تنتهي أمام عظمة الموقف وحجم الخطر
الذي عصف بحكم العرب المسلمين في الأندلس وإلى الأبد ، وكلف الكثير من
الأموال والدماء ، حتى أمكن التخلص منه في المشرق بعد وفاة صلاح الدين .
ومن الذين رحلوا إلى المغرب ، عبد الله بن عمر بن محمد بن حموية تاج
الدين أبو محمد المتوفي سنة ٦٤٢ هـ / ١١٩٧ م ، وأقام فيها حتى سنة ٦٠٠ هـ /

١٢٠٤م بضيافة يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن الموحي . ولا يعرف على وجه الدقة الهدف الأساسي ، الذي ذهب من أجله إلى المغرب لكن الأقرب إلى الواقع ، والذي يبدو من ترجمته ، إن هدفه كان بقصد الرحلة والاطلاع على الأوضاع العامة في بلاد المغرب . ولكنه على الرغم من بقاءه هناك أكثر من سبع سنوات ، فإنه لم يغادر مراكش خلالها ، ولم يقدم لنا معلومات موسعة عن الحياة العامة فيها^(١٧) باستثناء بعض المعلومات البسيطة ، التي ذكرها ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان بقوله : « ورأيت بدمشق في أواخر سنة ثمان وستين وستمئة جزءاً بخط الشيخ تاج الدين عبد الله ابن حموية ، شيخ الشيوخ كان بها ، وكان قد سافر إلى مراكش وأقام بها مدة ، وكتب فصلاً تتعلق بتلك الدولة ، فمن ذلك فصل يتعلق بهذه الواقعة^(١٨) ، وينفي ذكره ها هنا فقال : لما انقضت الهدنة بين الأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب غرب جزيرة الأندلس وقاعدة مملكته يومئذ طليطلة ، وذلك في أواخر سنة تسعين وخمسة ، عزم الأمير يعقوب وهو حينئذ يملك مراكش على التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج ، وكتب إلى ولاية الأطراف وقواد الجيوش بالحضور ، وخرج إلى مدينة سلا ، ليكون اجتماع المعسكر بظاهرها ، فاتفق إنه مرض مرضاً شديداً ، حتى يئس منه أطباؤه ، وحمل الأمير يعقوب إلى مراكش ، فطمح المجاورون له من العرب وغيرهم في البلاد ، وعاثوا فيها فساداً وأغاروا على المسلمين بالأندلس ، واقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب شرقاً وغرباً ، وانشغلوا بالمدافعة والممانعة ، فازداد طمع الأذفوش في البلاد أكثر ، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدد ويتوعد ، ويطلب ببعض الحصون المتاحة له من بلاد الأندلس ، وكتب رسالة من انشاء وزير له ، يعرف بابن الفخار وهي :

باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله
وكلمته الرسول الفصيح أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي
عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت
الآن ماعليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل في إهمال الرعية
وأخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم القهر وجللاء الديار ، وأسبي الذراري وأمّثل
بالرجال ، ولاعذر لك بالتخلي عن نصرتهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم
تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف
الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، ونحن الآن نقابل عشرة منكم بواحد منا
لاستطيعون دفاعاً ، ولا تملكون امتناعاً . وقد حكي لي أنك أخذت في الاحتفال
وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر
أخرى ، فلا أدري أكان الجبن مابك أم التكذيب مما وعد ربك ، ثم قيل لي أنك
لا تجدد إلى جوار البحر سبيلاً لعله لا يسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك
مافيه راحتك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل
لي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات^(٩) أو أجوز بجملي
إليك وأقاتلك في أعز الأمكنة لديك ، فإن كانت الغلبة لك ، فغنيمة كبيرة
جلبت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا
عليك ، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين^(١٩) .

وقد أخذ منه ابن الأبار ملاحظته التي تتعلق ببعض الأمور الإدارية في
المغرب، والذي يقول فيها عن أهل الغرب : « هم في تلك البلاد يميزون فقهاء

(٩) - المراكب والشواني والطرائد والمسطحات : جميعها من السفن الحربية التي كانت تستخدم في البحر الأبيض

المتوسط .

الجند ، فهم رؤساء ونقباء ، يراجعونهم في مصالحهم ، واليهم القسمة والتفرقة عليهم ، فيما يصل إليهم من وظائفهم ، ولكل قوم منهم موضع مقرر للجلوس بدار السلطان ، ولأكثرهم أرزاق مقرره على بيت المال ، إذ لامدارس هناك ولا أوقاف في المساجد»^(٢٠) . وفي عهد الظاهر بيبرس السلطان المملوكي ، قام محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل أبو عبد الله المازني الحموي جمال الدين المتوفي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م برحلة إلى صقلية في سفارة إلى ملك صقلية ، الذي كان يدعى آنذاك « بالامير ومانفرد » وذلك في سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م ، وهناك صنف رسالته المعروفة بالابرورية في المنطق ، وتسمى نخبة الفكر^(٢١) وقد قال عن رحلته هذه : ولما وصلت إليه أقمت عنده في مدينة من البر الطويل المتصل بالأندلس وكان يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس ، بالقرب من البلد الذي كنت فيه ، مدينة (لوجارة) كلها مسلمون من جزيرة صقلية ، يُعلن فيها شعار الاسلام والآذان . وكان أصحاب الامبراطور منفرد مسلمين ويُعلن في معسكره بالآذان والصلاة ، وبين ذلك البلد وبين رومية خمسة ايام .

وبعد توجهي من عنده أتفق بابا الفرنج وروندافرنس على قتاله ، وكان البابا قد حرمه لميل الامبراطور إلى المسلمين ، وكذلك كان أبوه وأخوه محرمين أيضاً لنفس السبب ، وحكي لي أن قرية الامبراطور كانت قبل فردريك لوالده ، ولما مات ، كان فردريك شاباً وطمع في الامبراطورية جماعة من ملوك الفرنج . وكان فردريك شاباً ماكرأ وهو الماني الجنسية ، فاجتمع بكل واحد من الملوك الطامعين في الامبراطورية على انفراد وقال له : إني لا أصلح لهذه المرتبة ، فإذا اجتمعنا عند البابا فقل ينبغي أن يتقلد الحديث في هذا الأمر ابن الامبراطور المتوفي ، ومن رضي به فأنا راضي به ، وإذا رد البابا الاختيار إليّ اخترتك أنت ،

فاعتقدوا صدقه في ذلك ، ولما اجتمعوا عند البابا برومية قال البابا للملوك :
ما تريدون ومن هو الأحق بهذه المرتبة ؟ ووضع تاج الملك بين أيديهم فقال كل
منهم ، حكمت فريدريك في ذلك فإنه ولد الامبراطور ، فقام فريدريك وقال :
أنا أحق بتاج أبي ومرتبته والجماعة قد رضوا به ، ووضع التاج على رأسه ،
وخرج مسرعاً وقد حصل جماعة من الألمان الشجعان راكبين وسار بهم على
حمية إلى بلاده ، واستمر منفرد بن فريدريك في مملكته حتى قصده البابا
وراندافرنس بمجموعهما فقاتلوه وهزموه وقبضوا عليه ، وأمر البابا فذبح منفرد
وملك بلاده بعده راندافرنس سنة ثلاث وستين وستمئة ظناً^(٢٢) .

وعلى الرغم من أن ابن واصل هذا لم يكن رحالة بالمعنى الدقيق ، فإنه كتب
أشياء مهمة عن صقلية ، ولا سيما فيما يتعلق بتأثر أهل صقلية آنذاك بالحضارة
العربية الإسلامية . فقد ذكر أن الصقليين يعملون بأساليب الإدارة العربية
الإسلامية من خلال اعتمادهم على العناصر العربية في تنظيم شؤون البلاد ،
ومنها وظائف البلاط الملكي . وبصورة عامة كانوا لا يثقون إلا بالعرب
المسلمين ، وكان بعض ملوكهم لا يتزوجون إلا المسلمات لعفتهم وفضيلتهم
وكانوا من جهة أخرى يحسنون التكلم بالعربية ، وبلغ من تسامح الملك
(روجار) ، أنه كان يضرب نقوده بكل لغات رعاياه ، ومنها اللغة العربية
وكان بعضها يحتوي على اسم النبي محمد / صلعم /^(٢٣) .
ولما عاد ابن واصل من سفارته في صقلية ، عين قاضياً للقضاة في مدينة
حلب^(٢٤) .

ووصل إلى المغرب الأقصى في مستهل القرن الثامن الهجري ، الشريف لبيدة
بن أبي نغمي نازعاً عن سلطان المماليك ، بعد أن قبض على أخويه خميسة ورميثة

أثر وفاة والدهم أبي نمي صاحب مكة ، سنة إحدى وسبعمئة ، فقام السلطان المريني أبو يعقوب بتكريمه والترحيب به ، وزاد على ذلك بأن أمر بمرافقته بعض الأشخاص ليعرفوه على مناطق المغرب ، ولانعرف على وجه الدقة ، ماهي الأشياء التي كانت تستهوي هذا الأمير خلال جولته في المغرب ، ماعدا إنه تجول وأطلع على معالم المملكة المرينية وقصورها . وكان يُقَابَل خلال هذه الرحلة بالترحيب والإكرام والاحترام من جميع العمال المرينيين . ودامت هذه الرحلة حوالي خمس سنوات من سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠٢م إلى سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٦م عاد بعدها إلى المشرق^(٢٥) . وحينما شعر لبيدة هذا بصدق مشاعر واحترام المرينيين له ، أشار على أحد زعمائهم وهو موسى بن رحو بتسمية اثنين من أولاده على شاكلة أسماء أهل المشرق ، فسمي الأول جمال الدين وسمي الثاني بدر الدين ، وكان قبوله لهذه الأسماء تبركاً بآل البيت ، كون لبيدة من الأشراف المنحدرين من آل بيت الرسول (صلعم) ، الذي يتمتعون باحترام وتقدير المرينيين في المغرب العربي^(٢٦) . وكذلك خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي قام العمري ، صاحب كتاب مسالك الأبصار بزيارة إلى تونس ، لم يذكر الهدف منها ، وقال أنه حضر جلسة قضائية للمظالم، عقدت بصورة منتظمة وحسب أصول معترف بها . وقد ترك وصفاً وافياً لذلك^(٢٧) .

وصاحب آخر رحلة من هذا القبيل ، كان عبد الباسط بن خليل الملطي الظاهري ، الذي اتجه من مصر إلى المغرب والأندلس ، وقد كان هذا الرحالة أحد كبار الإداريين بدولة المماليك بمصر . ولد في الشام سنة ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠م ، إلا أنه تلقى تعليمه في مصر . وأحس وهو في سن مبكرة بميل خاص

لدراسة الطب ، ولما كان المغرب متقدماً في هذا المجال وله شهرته في ميدان الطب ، فقد عقد عبد الباسط العزم على السفر لتوسيع معارفه واكمال دراسته. وتحت شعار التجارة غادر الاسكندرية على ظهر سفينة جنوية سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م ، فزار تونس وطرابلس وتلمسان وهران .

ومن وهران أخذ سفينة جنوية إلى مالقة ومنها إلى بلش والحمة وبعدها غرناطة ، والتي كانت المركز الوحيد المتبقي للعرب والمسلمين في إسبانية ويبدو أن الطريق الذي سلكه ، كان الطريق الوحيد إلى غرناطة ، وقد سلكه قبله ابن بطوطة منذ أكثر من قرن ، وبعد ذلك بثلاثين عاماً أي في عام ١٤٩٤م أي بعد سقوط غرناطة سلكه الرحالة الألماني هيرونيم مونتر ووضعه في كتابه الرحلة الاسبانية .

ولم يتمكن عبد الباسط من تحقيق حلمه بزيارة قرطبة ، على الرغم من أن التجار المسيحيين والمسلمين كانوا يتنقلون من منطقة إلى أخرى بحرية تامة . وكان السبب الذي حال دون ذلك ، اصابته بجروح بالغة في معركة شخصية ، وحين تعافى من جراحه ، أخذ طريق العودة ، فبلغ وهران في شباط من عام ١٤٦٦م ثم مصر في العام التالي . وقد عاش عبد الباسط طويلاً ، حيث توفي قبل احتلال العثمانيين لمصر ٩٢٠هـ / ١٥١٦م بوقت قصير^(٢٨) . وفي كتابه « الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم » يولي مدينة غرناطة بعض الاهتمام، فهي تذكره قبل كل شيء بمدينة دمشق ، التي كان يعرفها جيداً ، وكثيراً ما كان يعود للمقارنة بين المدينتين دون أن يورد أمثلة ملموسة لأوجه الشبه بينهما .

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن سرده للأحداث يتصف بالأمانة والبساطة،

بل ويكتسب قيمة كبيرة لأنه ترجمة لأحاسيسه المباشرة ، تلك الأحاسيس التي يستشعرها أي عربي قادم من المشرق ، حيث يجد نفسه أمام الآثار العربية الرائعة في الأندلس . ويمكن من خلال عرضه أن يستشف ذلك الشعور بالأسى ، الذي يستولي على قلب كل عربي مخلص ، وهو يصير تقدم الاسبان التدريجي نحو الجنوب ، ويشعر في قرارة نفسه بأن أيام العرب في تلك البلاد قد أصبحت معدودة^(٢٩) .

هذه هي أهم الرحلات المشرقية إلى المغرب والأندلس ، والتي لم تكن رحلات بالمعنى الحقيقي للكلمة باستثناء واحدة منها ، هي رحلة ابن حوقل التي شملت المغرب والأندلس وصقلية ، وهي البلاد التي كان يتطلع للسيطرة عليها الخلفاء الفاطميون ، الذين كانوا يحلمون بحكم دولة يكون قسمها الغربي الأراضي التي فتحها العرب وسيطروا عليها في الأندلس وماحولها ، وقسمها الشرقي الأراضي التي كانت تحت السيطرة الأموية . لذلك أرسلوا ابن حوقل وكلفوه بدراسة الأندلس وصقلية دراسة مفصلة وعلى مختلف الصعد ، وقد نجح في ذلك نجاحاً باهراً ، ويعد كتابه « صورة الأرض » الذي يضم في ثناياه هذه الدراسة ، من أهم الكتب الجغرافية المتعددة المرامي والأهداف عن الجناح الغربي للدولة العربية الإسلامية .

أما بقية الرحلات فقد كانت قصيرة الأمد ، محدودة الرقعة ، وكثيراً ما اقتصر على مدينة أو اثنتين ، بل كانت في معظمها سياسية ، حيث اقتصر عمل أصحابها على تأدية مهمة سفارة معينة ، أو أشياء أخرى كان يهدف إليها ، ولم يتحقق أو يتفحص كما كان حال ابن واصل وابن حموية وعبد الباسط الظاهري وغيرهم .

ومهما كان واقع الحال أو صورة الأمر ، فإن هذه الرحلات تعبر عن شيء في غاية الأهمية ، هو أن الأرض العربية في المغرب والشرق ، كانت مفتوحة لكل المواطنين ، ولهم كامل الحرية والاختيار في أن ينتقلوا حيث شاؤوا وفي أي وقت ، دون أن يعارضهم أحد أو يتدخل في شؤونهم متدخل ، وذلك على الرغم من عدم وجود تجانس أو اتفاق على المستوى السياسي العام في المشرق والمغرب . فلماذا لا تعود هذه الحالة إلى الظهور من جديد وينتقل المواطنون العرب بحرية في أرجاء وطنهم العربي الكبير ؟ إنها أكثر من اشارة أو دعوة .

الموامش

- ١ - حميدة عبد الرحمن، إعلام الجغرافيين العرب، ص.ص ٦٦٤ - ٦٦٦
طبعة دار الفكر دمشق / ١٩٨٤ .
- ٢ - قامت الدولة الأغلبية في أفريقية (تونس) بتشجيع من العباسيين في المشرق. وقد استمرت هذه الدولة حتى نهاية القرن الثالث الهجري بعشر سنوات تقريباً .
- ٣ - مؤلف مجهول - الأخبار المجموعة طبعة مدريد ١٨٦٧، ص ١٤٦ - ١٤٨ .
- أحمد بدر - تاريخ الأندلس الرابع الهجري، طبعة دمشق ١٩٤٧، ص ١١٠ - ١١١ .
- ٤ - من أجل الاطلاع على مزيد من التفاصيل أنظر ابن حوقل « النصبي »
صورة الأرض، طبعة بيروت دار مكتبة الحياة بدون تاريخ ص ٦٤ - ١٠٣ .
- ٥ - ابن حوقل، المصدر السابق ص ١١٠ .
- ٦ - ابن حوقل، المصدر السابق ص ١٠٤ .
- ٧ - الزهراء شمال قرطبة من سفح جبل عروس ٣٢٥ - ٣٦٥ .
- ٨ - ابن حوقل المصدر السابق ص ١٠٧ .
- ٩ - ابن حوقل المصدر السابق ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- ١٠ - ابن عذاري المراكشي البيان المغرب ج ٣ اعتني بنشره ليفي بروفنسال
طبعة باريس ١٩٣٠، ص ٨٩ - ٩٠ .
- ١١ - ابن حوقل المصدر السابق، ١١٠ - ١١٢ .

- ١٢ - ابن حوقل المصدر السابق، ص ١١٥ .
- ١٣ - ابن حوقل المصدر السابق، ص.ص ١١٥ - ١١٦ - ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٤ - ١٢٥ .
- ١٤ - كراتشكوفسكي « تاريخ الأدب الجغرافي العربي » ، بدون تاريخ نقله إلى العربية صلاح الدين، عثمان هاشم ص ٢٠٤ .
- ١٥ - دوزي - ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيالي طبعة أولى القاهرة - مكتبة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٣ ص ٦٨ - ٧٧ .
- ١٦ - الناصري - الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ تحقيق جعفر ومحمد الناصري، طبعة الدار البيضاء ، دار الكتاب ١٩٥٤ ، ص ١٨٢ .
- ١٧ - أنظر أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين عني بنشره السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة الثانية دار الجيل بيروت، ص ١٧٤ .
- ابن تغري بردي (الأتابكي) النجوم الزاهرة ، ج ٦ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر / تا بلا / ص ٣٥٠ ، ابن كثير الدمشقي - البداية والنهاية ج ١٣ وطبعة السعادة بمصر بدون تاريخ ص ١٦٤ .
- الذهبي - سير اعلام النبلاء ج ٢٣ تحقيق بشار عواد معروف، طبعة أولى، مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ ص ٩٦ - ٩٧ .
- ١٨ - يقصد بها معركة الأرك بين أبي يوسف يعقوب والأذفوش الفرنجي صاحب غرب جزيرة الأندلس ٥٩٠ هـ .
- ١٩ - ابن خلكان - وفيات الأعيان - مجلد ٧، تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر بيروت بلا تاريخ ص ٥ - ٦ .

- ٢٠ - ابن الأبار (محمد بن عبد الله)، التكملة لكتاب الفضلة، ج ١ عني بنشره عزت العطار الحسيني، القاهرة ١٩٥٦ ص ٩٥ .
- ٢١ - ابن تغري بردى - المصدر السابق ج ٨ ص ١١٣ .
- ٢٢ - ابن الوردي (زين الدين عمر)، تنمة المختصر في أخبار البشر ج ٢ تحقيق أحمد البدرأوي، دار المعرفة ببيروت، طبعة أولى ١٩٧٠ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ .
- ابن حبيب (الحسن بن عمر) تذكرة البنية في أيام المنصور وأبيه ، ج ١ تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة طبعة دار الكتب ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ - المقرئزي - السلوك، ج ١ القاهرة طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، ص ٨٥١ .
- طاش كبرى زاده - مفتاح السعادة، ج ١ تحقيق كامل بكري - دار الكتب الحديثة بلا تاريخ ، ص ٢١٧ .
- الصفدي (ابن أبيك)، الوافي بالوفيات، ج ٣ تحقيق محمد بن الحسين ومحمد بن عبد الله، المطبعة الهاشمية، دمشق ١٩٥٣ ، ص ٨٥ .
- ٢٣ - الحسن السائح - مجلة البنية - العدد الثالث - وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية المغرب ١٩٦٢ ص ٣٨ .
- ٢٤ - موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين طبعة بيروت مؤسسة المعارف ص ١٨١ .
- ٢٥ - الناصري - المصدر السابق ج ٣ ص ٨٣ - ٨٤ ، ابن خلدون « عبد الرحمن » العبر وديوان المبتدأ والخبر - ج ١٣ ص ٤٦٩ .
- ٢٦ - ابن خلدون المصدر السابق ج ١٣ ص ٧٨٣ - ٧٨٤ .
- ٢٧ - ف - ب - هوبكنز - النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، ترجمة أمين توفيق الطيبي - ليبية - تونس الدار العربية للكتاب ١٩٨٠

ص ٢٤٠.

٢٨ - كراتشكوفسكي - المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٤٥ - ٤٤٦ .

٢٩ - كراتشكوفسكي - المرجع السابق ، ج ١ ص ٤٤٦ - ٤٤٧ .

**Directeur
de
la Revue**

Abdul Gani Ma' Al Bared
Recteur de l' Université de Damas

**Directeur
de
la Rédaction**

Mouhammad Mouhaffel

**Rédacteur
en Chef Adjoint**

Abdul Karim Ali

Revue Historique éditée par le Comité de Rédaction de l'histoire Arabe:

Dr. Abdul Gani Ma' Al Bared
Dr. Adel Awwa
Dr. Nour el- din Hatoum
Dr. Chaker Fahham
Dr. Mouhammad Kheir Fares
Dr. Hamed Khalil
Dr. Khairieh Quasmieh
Dr. Taib al Tizini
Dr. Soultan Mouhaissen
M. Mouhammad Mouhaffel
Dr. Souheil Zakkar
Dr. Id Mur'i
Dr. Faisal Abdulah
Dr. Ali Ahmad
Dr. Ibrahim Za' Rour
M. Abdul Karim Ali

